COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY

AUG 76

محمد مهدي البصير

جامعة بغداد
المكتبة المركزية
قسم الهدايا والتبادل
ص ب ـ ١٢
بغداد ـ الجمهورية العراقية

في الأدب العباسي

الطبعة الثالثة

سنة ١٩٧٠ م

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٢٠٩٧

المكتبة المركزية
جامعة [illegible]

محمد مهدي البصير

في الادب العباسي

الطبعة الثالثة

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

١٩٧٠ م

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٢٠٩٧ المسكن ٢٢٧

PJ
7553
.B3
1970

مقدمـــة

كان لصدور « عصر القرآن » أثره الحسن في تنفيذ المنهج الذي نسير عليه في دار المعلمين العالية ، فقد جنّبنا ما كنا نعاني من الصعوبات التي تنشأ عادة عن إملاء الدروس على الطلبة ، وأتاح لنا الوقت الكافي للقيام بكثير من العمل لم يكن القيام به ميسوراً فيما مضى .

وقد صارحتك في مقدمة « عصر القرآن » بأني لا أضع بين يديك موسوعة تستوعب أدب ذلك العصر درساً واستقصاء وتستوفيه عرضاً وتسجيلاً ، وإنما أرجو ان أضع بين يديك مجموعة فصول تحتوي على المادة المقرر تدريسها في دار المعلمين العالية من أدب ذلك العصر . وأصارحك الآن بأني لا أضع بين يديك موسوعة في الأدب العباسي العتيد ، وإنما أضع بين يديك سفراً يحتوي على ما أتولى تدريسه من هذا الأدب .

على أني لا أظن ، من جهة أخرى ، أني أزوي عنك أكبر جزء من الأدب العباسي إذا كنت أحدثك عن ابن المقفع والجاحظ والخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والحريري من الكتاب ، وعن بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي ومهيار من الشعراء .

هذا إلى أني أحب ان ألفتك إلى اتباعي في تبويب هذا الكتاب طريقة غير الطريقة التي أتبعتها في تبويب عصر القرآن وسبب ذلك أن مجرى الأدب تغير كثيراً في هذا العصر ، فقد انقرضت المدارس الشعرية العتيدة التي يعتنق كل منها مذهباً خاصاً في صناعة القريض كمدرسة أوس ومدرسة آل ثابت ، واختفت الطوائف الأدبية التي كان يجتمع

كل منها حول مبدأ من المباديء السياسية أو الأجتماعية أو الادبية كشعراء العلويين وشعراء الخوارج وشعراء الغزل العفيف وشعراء الغزل الأباحي . وقام مقام ذلك كله نبوغ الشخصيات الأدبية القوية المستقلة التي لاتنتمي إلى مدرسة ما كبشار وأبي تمام والمتنبي والشريف الرضي ، فهؤلاء كلهم شعراء كبار ، ولكنّ أحداً منهم لا ينتمي الى مدرسة ذات طابع خاص . وقل مثل ذلك عن أكثر الكتاب . كالجاحظ وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزماز الهمذاني ومع ذلك فقد رأيت أن أفرق بين الشعراء والكتّاب من ناحية التصنيف والتبويب ، فقسمت الكتّاب إلى قسمين يتألف أحدهما من الكتّاب المترسلين وثانيهما من كتّاب السجع والمقامات ، وأفردت لكل من هذين القسمين باباً خاصاً .

أما الشعراء ، فقد رأيت أن أجمع بينهم بطريق الزمن ، فدرست بشاراً وأبا نؤاس مثلاً على أنهما أكبر شعراء القرن الثاني للهجرة ، وأبا تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز على أنهم أكبر شعراء القرن الثالث للهجرة ، وهكذا .

وشيء آخر أحب أن أقوله لك ، وهو أني لم أخضع بحثي لطريقة عامة معينة وإنما عالجت كل موضوع بالشكل الذي بدا لي أنه يلائمه فقد أتحدث عن لغة المترجم وأسلوبه وقد لا أتحدث ، وقد أتحدث عن رأيه في الدين والسياسة وقد لا أتحدث ، كل ذلك تبعاً لطبيعة البحث ودرجة الحاجة ومبلغ الفائدة .

وعلى الاجمال بذلت كل ما في وسعي لجعل هذه الفصول وافية بالغرض كفيلة بما أهدف إليه من خدمة الأدب وتأريخه ، ومن الله التوفيق .

محمد مهدي البصير

١١ أيلول ١٩٤٨

الباب الأول

فى الكُتّاب المترسلين

تمهيد في تأثر النثر العباسي بمذاهب القرآن وأساليبه

ينقسم الكُتّاب العباسيون من حيث مذاهبهم في الآداء وأساليبهم في الكتابة إلى معسكرين يتألف أحدهما من المترسلين وثانيهما من كُتّاب السجع • والمترسلون هم الذين لا يلتزمون السجع ولا يتقيدون بالأزدواج ولكنهم يرسلون أنفسهم على سجيتها ويطلقون أعنة أقلامهم في ميادين الأنشاء فتجول كما تشاء • وكُتّاب السجع على النقيض من ذلك فانهم يؤثرون أن تكون جملهم مقفّاة أو شبه مقفّاة وأريد بالمقفاة تلك التي يلتزم في اثنتين منها أو أكثر حرف واحد كما في قوله تعالى « ب س • إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم » فان الميم الملتزمة في آخر كل من هاتين الآيتين تجعل منهما كلاماً مسجوعاً وبشبه المقفاة تلك التي تتشابه أواخرها في الوزن ولا يلتزم في أواخرها حرف ما كما في قوله تعالى « بس • إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » فكلمتا واقعة • وكاذبة اللتان تختم بهما هاتان الآيتان تتفقان وزناً ولكنهما تختلفان في الحرف الآخر وهذا ما يسمى بالازدواج •

وليس لأي من المعسكرين فضل الابتكار في شيء فقد سبق القرآن إلى كل هذا فألتزم السجع وراعى هندسة الجمل ونظر إلى عدد الكلمات في عدد كبير من سوره وصرف النظر عن السجع وتحلل من

قيوده وأهمل هندسة الجمل ولم ينظر إلى عدد الكلمات في عدد كبير آخر من سوره وقلده الراشدون وكبار الصحابة في خطبهم وكتبهم وقد فصلنا ذلك في الفصلين الثاني والثالث من الباب الاول من عصر القرآن • واذاً فليس لابن المقفع ولا لغيره من المترسلين وليس للصاحب ابن عباد ولا لغيره من كتّاب السجع أن يفخروا بأنهم أصحاب مذاهب جديدة في صناعة الأنشاء لأنهم جميعاً متبعون غير مبتدعين ومقلدون غير مبتكرين والقرآن هو أستاذهم وإمامهم الذي عنه أخذوا وعليه تخرجوا شاؤا أم أبوا •

نعم إن كتّاب الأسجاع تطرفوا في التزام مذهبهم ففرضوا السجع على أنفسهم سواء أكان سهلاً سمحا مستساغاً أم نافراً أبياً مستكرها وأفرطوا في إستعمال المجانسات والمطابقات وما إليها من الزخارف البيانية التي سبق القرآن إلى استعمالها جميعاً ولكنه فعل ذلك بأعتدال وبدون تكلف • وما أظن أن التطرف في اصطناع مذهب من المذاهب أو أسلوب من الأساليب يعد ابتكاراً •

وكتّاب الدولة العباسية من مترسلين وأصحاب سجع كثيرون جداً • وقد كتبت الأسفار العديدة الضخمة في تأريخ حياتهم ودراسة آثارهم ولكني قد لا أخطيء إذا لاحظت أن ابن المقفع والجاحظ والخوارزمي والهمذاني والحريري أطولهم باعاً وأعلاهم كعباً في صناعة الانشاء على اختلاف طرقهم ومذاهبهم فيه أو من أطولهم باعاً وأعلاهم كعباً في هذه الصناعة على أقل تقدير وعلى هذا سأقتصر هنا على تراجم هؤلاء الخمسة ودراسة آثارهم مبتدئاً بابن المقفع كما يقتضي ذلك الترتيب الزمني •

الفصل الاول

ابن المقفع

أ ــ حياته : اسمه وكنيته ونسبه • سبب تلقيب والده بالمقفع • مولده • تعليمه • ما تقلب فيه من أعمال • إسلامه • حقيقته • مقتله • أسبابه • عرض قضيته على المنصور • سعي أبي أيوب المورياني في إهدار دمه •

ب ــ أخلاقه : طائفة من الاخبار التي تتعلق بها • رفضها • أثر الدعاية الشعوبية في صنع هذه الاخبار •

جـ ــ آثاره : الأدب الصغير • حسناته وسيئاته • الأدب الكبير • ما يستحسن منه وما يعاب عليه • كليلة ودمنة • أصله في السنسكريتية • تصرف ابن المقفع في ترجمته • كيف أناقشه • محاسنه • مساوئه • فجاجة أحكامه في كثير من القضايا التي يعالجها • تناقض ما ينطوي عليه من أقوال واعمال • اشتماله على كلام لا معنى له مطلقاً • سوء تأليفه على أنه كتاب • نظرة في رسالة الصحابة •

لغة ابن المقفع وأسلوبه :

غموضه • تكراره في غير ما مسوغ • إستعماله الألفاظ في غير ما وضعت له • عجمة كثير من ألفاظه وتعابيره •

د ــ لماذا أدرسه ؟ !

هـ ــ مصدر شهرنه .

و ــ خاتمة : الفصل في أمره .

أ ــ حيانـــه :

هو رَوْزَبة وكنيته أبو عمرو في المجوسية ، وعبد الله وكنيته أبو محمد في الأسلام . ووالده داذويه وقيل المبارك ، ولعل المبارك لقب له . وهو من أهل جور ، التي ينسب اليها الورد الجوري ، إحدى مدن جنوبي فارس ، وله ولاء في بني الأهتم بالبصرة ، وهم أهل فصاحة ولسن . أما المقفّع فانه لقب أطلق عليه ، قيل في سبب تلقيبه به إنه كان عاملا للحجاج على الخراج . فأختلس شيئاً منه ، فضربه الحجاج حتى تقفّعت يده ــ أي تشنّجت ــ فلقب بالمقفع .

ومسقط رأس المترجم وتاريخ ولادته مجهولان . ولكن يغلب على الظن أنه ولد في البصرة نظراً لولاء أبيه في بني الأهتم ، ويغلب على الظن كذلك أنه ولد في أوائل العقد التاسع من القرن الأول للهجرة. لأنه كتب لعمر بن هبيرة في كرمان ، وقد عزل عمر هذا عن العراق والمشرق سنة (١٠٥) للهجرة ، ومن المستبعد كثيراً أن يستخدم عمر صاحبنا ويأتمنه على اسراره ولما يبلغ الخامسة والعشرين . ويضيف الأستاذ محمد كُرد علي صاحب هذا الفرض إلى ما تقدم أن كثرة إنتاج ابن المقفّع تدل على أنه قُتل وهو في نحو الستين من عمره . وقد قتل سنة (١٤٢) أو (١٤٣) للهجرة ، [1] وهو رأي معقول أيضاً.

وكما يجهل الرواة مسقط رأس عبد الله وتأريخ ولادته . يجهلون

---

(١) امراء البيان الطبعة الاولى ج ١ ص ١٠٣ .

كذلك أمر تربيته وتعليمه • ولكن يخيل إلي ان والده تولى ذلك منه ، فلقنه حكم الفرس وآدابهم وسيرهم واخبارهم ، وعلمه الحساب وسائر ما يلزم لخدمة الديوان الذي يظهر أنه أعده له إعداداً محكماً • وسواء أكان والده هو الذي تولى أمر تربيته وتعليمه أم غيره فانه مما لا شك فيه أن ثقافته فارسية بحتة (٢) ، يدلك على ذلك رأيه في خدمة السلطان فانه مما لا يقول به رجل متأثر بالأدب العربي • وغلوه في كل ما ذهب إليه ودعا الى العمل به ، ومن أمثلة ذلك رأيه في الصديق والمرأة ، فانه على جانب كبير من الغلو والاسراف ، ولغته التي طالما أستعملت فيها الألفاظ للدلالة على غير ما وضعت له • والتي تظهر فيها العجمة ظهوراً لا يقبل الجدل، وسأشرح هذا شرحاً كافياً عندالكلام في لغته واسلوبه•

أما علاقته بأبي جاموس ثور الذي كان يقدم البصرة على آل سليمان بن علي فانها ان صحت ، بعيدة كل البعد عن أن تكون ذات أثر قوي في تكوينه ، لأنها حدثت في دورٍ نضج فيه أدبه واستحكمت ثقافته • وانه لمن الغريب حقاً ان يذهب معظم مؤرخي أدبنا الى أن ابن المقفع أخذ الفصاحة عن أبي جاموس ثور هذا في اثناء زياراته للبصرة، كأنّ مشافهة أعرابي من حين لآخر تكفي لخلق رجل فصيح يترك الآثار التي تدرس على مر العصور والاجيال •

وكتب صاحبنا لجماعة من الولاة وكبار العمال في العهدين الاموي والعباسي ، منهم عمر بن هبيرة والمسيح بن حواري في العهد الأموي ،

(٢) يرى بعض مؤرخي الادب العربي انه حفظ القرآن وقرا الشعر الجاهلي وعرف الشيء الكثير من خطب علي بن ابي طالب عليه السلام ، ولكن يخيل الي ان هذا الراي مما يصعب اثباته ، لان شيئا ما من آثار ابن المقفع لا يدل دلالة واضحة على انه ذو المام قوي بالأدب العربي .

وسليمان وعيسى ابنا علي بن عبد الله بن عباس في العهد العباسي • وعهد اليه اسماعيل بن علي تأديب طائفة من أولاده •

وكان اسلامه على يد عيسى بن علي • وهنا لابد ان نسأل : أكان اسلامه حقيقة أم مجرد خدعة ؟•

لا أريد ان أركن في الاجابة على هذا السؤال الى هذه الروايات العديدة التي تتظافر على إتهامه بالزندقة ، فتزعم إحداها انه عارض القرآن ، وتزعم اخرى انه ترجم كتب زنادقة الفرس الى العربية عملا على أفساد المسلمين ؛ وتزعم ثالثة انه مر ببيت النار بعد إسلامه فتمثل بقول الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتعزّلُ حذر العدى وبه الفؤاد موكل
اني لامنحك الصدود واننى قسماً اليك مع الصدود لأميل

وتزعم رابعة انه كان صديق حماد عجرد ووالبة بن الحباب ومطيع ابن إياس وسائر أخوانهم من خلعاء الكوفة ، يسامرهم ويعاشرهم ويعاقرهم الخمر وكلهم متهم في دينه • لا أريد ان أركن الى هـذه الروايات في الاجابة على سؤالي الآنف ذكره لأنى اعلم أن ألأتهام بالزندقة هو الستار البراق الذي كان يسدله ولاة الأمور في صدر الدولة العباسية على كل جريمة يحلو لهم اقترافها ، فكل من خالفهم في السياسة او أي شأن من الشؤون التي تهمهم زنديق يجب قتله ولا يحل الابقاء على حياته • وقد قتل عبد الله بن المقفع بأشارة من المنصور أو بدسيسة من وزيره ابي أيوب المورياني • إذن فهو زنديق ، وهو داعية مخيف من دعاة الضلال والإلحاد • ولكني ، اذ أطرح هـذه الروايات جانباً ، لا أحفل كثيراً بأسلام الرجل ، اذ الغالب على ظني

انه فكّر في مركزه فرأى ان ولاة الأمور يقدمونه ويقربونه ويحبونه ويعجبون به لأدبه ، ولكنهم لا يتجاوزون به حـدود الكتابة نظراً لمجوسيته ، فلو أسلم كما أسلم آل برمك لأصبح من الممكن ان يكون وزيراً تفوّض له أمور المملكة او والياً تلقى له مقاليد الحكم في أقليم كبير ، وعلى هذا ترك دينه القديم وانتحل الاسلام . على انه من الممكن تماماً ان يكون اسلامه ثمرة تفكير سديد ونتيجة درس موفق . وقد قلت لك انه قتل باشارة من المنصور أو بدسيسة من وزيره أبي أيوب الموريانى ، فأروي لك الآن تفاصيل هذا الحادث .

ما كاد المنصور ــ ثاني خلفاء بني العباس يرتقي عرش الخلافة سنة (١٣٦) للهجرة حتى ثار عليه عمه عبد الله بن علي ، وكان هذا يأمل ان تؤول اليه الخلافة يوماً ما لأنه بطل معركة الزاب الفاصلة ولأنه قاطع دابر بني أمية في الشام . ولكن السفاح خيّب أمله ، فقد عقد الخلافة لأخيه المنصور على ان يليها عيسى بن موسى من بعده . وقد حدت هذه الخيبة بعبد الله الى شق عصا الطاعة والخروج على ابن أخيه المنصور ، ورماه هذا بأبي مسلم الخراساني فهزمه وقضى على فتنته . ولجأ عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى اللذين كانا في البصرة ، وكان أولهما والياً عليها ، فقبلاه ومنحاه حمايتهما وطلبا الى المنصور ان يؤمنه فقبل ، ولكنهما تشددا في الأمان خشية ان يغدر المنصور بأخيهما ، ودارت بينهما وبينه رسائل كثيرة بهذا الشأن . وأخيراً عهدا إلى عبد الله بن المقفع كاتب عيسى بن علي ان يضع نص الأمان على أن يشدّد فيه اعظم التشديد ويحتاط ما وسعه الاحتياط . فكتب لهما أماناً جاء فيه ما يلي : « .. وإن انا نلت عبد الله بن علي او أحداً ممن أقدمه

معه بصغير من المكروه أو كبير ، او اوصلت الى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيـــل ، فأنا نفي [٣] من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة [٤] وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي واعانة من ناوأني من جميع الخلق ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين الخ [٥] » (*) .

وثقلت هذه الصيغة على المنصور ولا سيما ما يتعلق منها بالبيعة ؛ وسأل عمن كتبها فقيل له : عبد الله بن المقفع كاتب عيسى بن علي : فقال : « فما أحد يكفينيه ؟ » وسمع أبو الخصيب أحد رجال حاشية المنصور هذه الكلمة فكتب بها إلى سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب الذي خلف سليمان بن علي في ولاية البصرة عندما آوى أخاه عبد الله وكان سفيان هذا يعادي عبد الله ويتحين الفرص للفتك به لإحنٍ قديمة بينهما ، منها ان المسيح بن حواري كان حاكماً لنيسابور وكان عبدالله على ديوانه ، فحدث ان عُزل المسيح وعيّن سفيان المتقدم ذكره خلفاً له ، فحاول المسيح اولاً أن يتخلص منه بالمال ، ثم ناجزه وفشل في هذا كله ؛ ولكن كانت معونة عبد الله له في تنفيذ محاولاته صادقـــة وفعالة . ومنها ان عبد الله كان يهزأ كثيراً بسفيان ويسأله عن الشيء

(٣) نفيٌ : كفني الولد ينفيه ابوه .
(٤) لغير رشدة : أي ولد زنى .
(٥) الوزراء والكتاب للجهشياري الطبعة الاولى ص ١٠٤ .
(*) كانت نتيجة هذا التحفظ الشديد اهدار دم ابن المقفع ، اما عبد الله بن علي فقد قتله المنصور اشنع قتلة ، وذلك بأن سجنه فى بيت بناه على اسس من الملح ثم سلط عليه الماء فدفن عبد الله تحت انقاضه .

بعد الشيء فاذا أجابه خطأه وسخر منه ، وبلغ من تحامله عليه ان شتم عرض أمه ذات يوم شتما قبيحاً ، ولهذا كان يتربص به الدوائر ليثأر لنفسه منه . ويظهر ان أبا الخصيب كان صديقاً له ، فهيأ له هذه الفرصة الذهبية ليشفي غليله من المترجم . وفي ذات يوم أرسل عيسى ابن علي صاحب الترجمة برسالة الى سفيان ، فقال له إنه يخافه على نفسه ، وأشار بأرسال جعفر بن جبلة الكندي بدلا منه . فأصر عيسى على رأيه ظناً منه ان سفيان لا ينال ابن المقفع بسوء لمكانه منه . واحتاط عبد الله لنفسه ، فأخذ جعفراً المشار اليه وذهبا معاً إلى سفيان . فلما صارا ببابه واعلماه مكانهما اذن أولاً لجعفر ، ثم اذن بعد فترة وجيزة لعبد الله ، فلما سلك هذا سبيله اليه عدل به الى مقصورة لقي فيها حتفه .

والرواة مختلفون في كيفية قتله ، ولا سبيل الى تحقيق شيء من أقوالهم في هذا الباب . ولكن الذي لا نزاع فيه هو أن سفيان قتل عبد الله أشنع قتلة يتصورها بشر . ورفع عيسى بن علي قضية كاتبه الى المنصور ، فأرسل هذا إلى البصرة من جاءه بسفيان مقيّداً ؛ فلما قدم الكوفة لقي بعض أقاربه أبا أيوب المورياني وقالوا له . انهم يحملونه تبعة ما يصيب صاحبهم لأنه يقدر على انقاذه . ولقيه سفيان فقال له مثل هذا . فخاف أبو أيوب مغبة هذا التهديد وسعى في إهدار دم ابن المقفع لدى المنصور فكان ذلك . وعلم عيسى أن أبا أيوب يعمل على إهدار دم كاتبه فكف عن المطالبة به . أما حماد عجرد وهو صديق حميم لابن المقفع فانه يقول ان أبا أيوب المورياني هو الذي دبر مقتل عبد الله بن المقفع لأنه كان يعرف اعجاب المنصور به واكباره لفضله وأدبه ويخشى ان يخلفه يوماً ما في منصبه . وهكذا ذهب ذلك

الكاتب المسكين فريسةالضغائن والاحقاد وضحية الدسائس والاغراض.

ب ـ اخلاقـــه :

وكما تفنّن خصوم ابن المقفع في اختلاق الأكاذيب والصاقها به من الناحية الدينية تفنن انصاره كذلك في اختلاق الأكاذيب والتطبيل والتزمير بها له من الناحية الأخلاقية . وما أريد ان أنفي انه كان « سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج اليه » ولكني أقف موقف الشاك المرتاب من هذه الأخبار التي ترفعه الى مصاف أجواد الملوك والأمراء والتي أروي لك مثلاً منها فيما يلي :

زعموا أنه أفاد مالاً لما كان يكتب لعمر بن هبيرة في كرمان ، فأبى عليه طبعه إلا ان يجري على جماعة من أهل البصرة والكوفة مرتّبات تتراوح بين خمسمائة وألفي درهم في كل شهر . ورووا أن عمارة بن حمزة الكاتب كان صديقاً لابن المقفع ، فورد عليه في يوم من أيام اقامته بالكوفة كتاب من وكيله بالبصرة يعلمه فيه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لا تصلح ان ملكها غيره ، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم وأنه ان لم يبتعها فالوجه ان يبيع ضيعته . فقرأ عمارة الكتاب وابن المقفع عنده وقال : ما أعجب هذا ! وكيلنا يشير علينا بالابتياع مع الأضاقة والاملاق ، ونحن إلى البيع احوج ؛ ثم كتب الى وكيله يأمره ببيع ضيعته والانصراف إليه . فلم يقل ابن المقفع شيئاً . ولكنه ذهب الى منزله وبعث سفتجة [٦] الى الوكيل بثلاثين ألف درهم ، وكتب اليه على لسان عمارة : « إني كنت قد كتبت

(٦) السفتجة : الحوالة .

اليك ببيع ضيعتي ، ثم حضرني مال وقد أنفذت اليك سفتجة فأبتع الضيعة المجاورة ولا تبع ضيعتي ، وأقم مكانك وأنفذ الكتاب بالابتياع اليّ » . ووجّه الكتاب اليه مع رسول خاص ، فورد الكتاب على الوكيل وقد باع الضيعة ، ففسخ البيع وإبتاع الضيعة المجاورة ، وكتب إلى عمارة يعلمه ذلك . فلما قرأ عمارة الكتاب عجب أشد العجب وسأل عمّن حضره وقت ورود الكتاب وقراءته فقيل له ابن المقفع ، فعلم انه هو الذي بعث بالمال وأمر بشراء الضيعة وزار ابن المقفع عمارة بعد أيام فقال له : « بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم الى الوكيل وكنا اليها ها هنا أحوج » . فقال له : « فان عندنا فضلاً . » وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى .

وزعموا أن ابن المقفع حضر مجلس غناء كان فيه معن بن زائدة المشهور ، فغنّت جارية معناً فأعطاها ألف دينار ، وغنت أخرى عبدالله ابن المقفع فأعطاها مئة ألف درهم ، أي عشرة آلاف دينار ، فقال معن : « لله درّ الفارسي ، فقد برّز علينا » فواضح ان هذه الأخبار مما يصعب بل يستحيل تصديقه ، لأنها لا تتفق وما نعرف من أحوال ابن المقفع في كثير ولا قليل .

إننا نعلم أن والد المترجم كان عاملاً من عمال بني أمية على الخراج ، وانه اختلس شيئاً من مال السلطان فضربه الوالي حتى تقفّعت يده ، ونعلم كذلك أن المترجم عمل كاتباً مرة ومؤدبا تارة طلبا للرزق ، ونعلم زيادة على ما تقدم أنه صاحب لهوٍ وشراب . أفتتسع حال كاتب او مؤدب كثير النفقات لمثل هذا الكرم الفياض ؟ ؟ وإذا قيل انه من الجائز أن تكون له ثروة شخصية تمكنه من أغداق هذه العطايا على

الناس ، قلنا أفلا يكون خيراً له وأولى به أن يترك خدمة الدواوين وتعليم الصبيان كائنة منزلة هؤلاء ما كانت ، وان يضع نفسه حيث وضعها الله بين أولي الثراء الواسع والعطاء الجم ؟ ؟ أليس من حقنا أن نلاحظ أن هذه الأخبار من صنع دعاية شعوبية مغرضة تريد أن تخلق من عبد الله بن المقفع خليفة محسناً في صورة كاتب او ملكاً كريما في مركز أديب .

حـ ـ آثـاره :

لأبن المقفع آثار عدة ، ذهب بعضها وبقي غير قليل منها . أما ما بقي فهو عبارة عن « الأدب الصغير » و « الادب الكبير أو الدرة اليتيمة » و « كليلة ودمنة » المعروف. ورسائل أهمها « رسالة الصحابة» المشهورة ، وكلمات قصيرة لبعضها صبغة سياسية واجتماعية . وبعضها شخصي بحت ، واحدثك فيما يلي عن هذه الآثار مبتدئاً بالادب الصغير . وهو مجموعة عضات ونصائح نقلها المترجم عن الفارسية كما ينص على ذلك هو في مقدمتها . وأقتبس بعضها من الحديث النبوي وكلام الامام علي وقد أغفل الاشارة الى هذا وربما أضاف اليها شيئاً من عنده أو حور جانباً منها تحويراً يتفق وطبيعة تفكيره ان صح هذا التعبير .

وليس من شك في ان الأدب الصغير يحتوي على نصائح قيمة . بعضها ديني وبعضها سياسي . وبعضها اجتماعي . فمن ذلك نصح المؤلف قارأه أن يقسم وقته أربعة أقسام يفرغ في أحدها لدينه . وفي الثاني لمحاسبة نفسه . وفي الثالث لمجالسة إخوانه ومعاشرتهم . وفي

الرابع لما يحل ويجمل من متع الحياة ولذات العيش [٧] . ومنه وصية المؤلف بالنظر الى ما قيل دون نظر الى من قال ، وهو يشبه الكلمة النافعة باللؤلؤة الثمينة يجب ان تلتقط حيثما وجدت . ومن هذا القبيل إفاضته في النهي عن الكـذب الذي هو في رأيه منشأ كل رذيلـة ومصدر كل نقيصة . أما اذا كان القاريء من ذوي السلطان فان ابن المقفع يوصيه في هذه الرسالة بأنتخاب عماله انتخاباً حسنا . وتزويدهم بالارشادات والايضاحات الكافية . ومراقبة أعمالهم مراقبة دقيقة . ومكافأة المحسن منهم على إحسانه . ومعاقبة المسيء على اساءته . وفي ثنايا الرسالة نصائح أخرى عديدة حسنة من هذا القبيل .

ولكن إلى جانب هذه النصائح الحسنة . وصايا أخرى كثيرة أقل ما يقال فيها إنها على جانب كبير من الشذوذ والغرابة . فمن ذلك أن المؤلف يوصي قارأه أن لا يعتمد على نفسه في تثقيف عقله . وتقويم أخلاقه . وتوسيع دائرة معارفه ومداركه ، وأن يكل هذا كله من أمره الى من يسميهم المؤلف بـ (ذوي الألباب) ... وبأية طريقة ؟ ! ! ان المؤلف يطلب الى قارئه (أن يؤنس ذوي الالباب بنفسه ويجرئهم عليها) أي أن يكون أضحوكة لهم وهم يعلمونه نظير هذا ويثقفونه ويبصرونه بما يهمه من أمور دينه ودنياه ، فهو يقول في ذلك : (وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الالباب بنفسه . ويجرئهم عليها حتى يصيروا حراساً على سمعه وبصره ورأيه فيستنيم الى ذلك ويريح له قلبه ويعلم

(٧) على ان هذه النصيحة ماخوذة فى اكثرها من قول الامام علي « للمؤمن ثلاث ساعات ، فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يرم معاشه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل .
نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٩٩ طبع مطبعة دار الكتب الكبرى بمصر .

أنهم لا يغفلون عنه اذا هو غفل عن نفسه) [٨] .

ومن هذا القبيل ما يوصي به المؤلف قارأه من أن يكون شديد الانقباض شديد التحفظ في صلاته مع العامة . شديد الانبساط شديد الاسترسال في صلاته مع الخاصة، أي انه يوصيه أن يكون دجالاً إذا لم أخطيء في فهم كلامه . وأنا أروي لك كلامه في هذا الشأن بنصه لتفهمه كما تشاء قال : « وعلى العاقل ان يجعل الناس طبقتين متباينتين. ويلبس لهم لباسين مختلفين ، فطبقة من العامة . يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة . يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة ، ولا يدخل في هذه الطبقة الا واحد من ألف [٩]* . ومن هذه النصائح الشاذة ما يذهب اليه المؤلف من أن العاقل ينبغي أن يجبن عن إبداء رأيه إذا شعر أن أحدا لا يوافقه عليه . واليك ما يقوله في هذا الشأن : (وعلى العاقل أن يجبن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين) [١٠] ومن هذا القبيل تفريق المؤلف بين الدين والرأي واعتقاده بأنه ليس لاحد أن يفكر في أمر دينه وأن يكوّن له

(٨) رسائل البلغاء طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٩١٣ ص ٢٩ .

(٩) رسائل البلغاء ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(*) اما ان يكون للرجل عدد قليل من الأخوان يانس بهم ويانسون به ويطمئن اليهم ويطمئنون اليه فهذا طبيعي بل ضروري . ولكن الذي ننكره على ابن المقفع هو ما يوصي به من « انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ فى كل كلمة وخطوة » بالنسبة الى العامة ، اذ ان ذلك رياء ما بعده رياء .

(١٠) المصدر نفسه ص ٣٠ .

فيه رأياً . وأن كل ما عليه في هذا الشأن هو أن يؤمن وكفى ، وهو يقول في هذا ما نصه : (فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالايمان . وأن الرأي يثبت بالخصومة [11] فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً . ومن جعل الدين رأياً . فقد صار شارعاً . ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له) [12] . ومن غريب أو فظيع ما يوصي به المؤلف قارأه هو أن يستمتع بما آتاه الله من خير دون أن يحفل بما يصيب غيره من شر ، فهو يقول في هذا ما نصه : (وأنفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير وألا تكترث من الشر بما لا يصيبك) [13] .

ومن هذه العجائب التي يحفل بها الأدب الصغير استدلال المؤلف على عظم شأن الدين بثناء الجهال عليه ، استمع اليه يقول : « الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى الى خلقه . واعظمها منفعة واحمدها في كل حكمة . فقد بلغ من فضل الدين والحكمة أن مدحا على ألسنة الجهال على جهالتهم بهما وعماهم عنهما [14]. ومنها كذلك اعتقاد الكاتب أن دين المرء لا يثبت على حالة واحدة وأنه زائد مرة وناقص تارة ، وهو يسجل هذا بقوله : لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبدا ولكنه لا يزال اما زائدا واما ناقصاً) [15] ولكن — إذا لم يخطيء ظني — فان شذوذ المؤلف في أدبه « الصغير » هـذا يبلغ

(11) اظن ان المؤلف يريد « بالخصومة » التمحيص ، وهو تعبير غريب .
(12) المصدر نفسه ص ٨ .
(13) المصدر نفسه ص ٤٢ .
(14) رسائل البلغاء ص ٣٧ .
(15) المصدر نفسه ص ٤٣ .

أشـــده في هذه الحـــكم الغالية التي يقول فيها : (من نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره مُقت ، ومن مقت أوذي ، ومن أوذي حزن ، ومن حزن ذهب عقله !!) (١٦) * . وبعد ، أتصح هـــذه المقدمات وتلك النتائج في رأي أحد من الناس ؟ . أصحيح أن الاصل في الرجل الفقير أن يكون رجلا لا حياء له ؟ . وأن من لا حياء له لا سرور له ، وأن من لا سرور له ممقوت لدى الناس ؟. أصحيح أن من حزن قلبه لأمر من الأمور ذهب عقله ؟ أيكتب هذا أم يقوله رجل يملك مثقال ذرة من العقل ؟!. أنا لا أطلب الى ابن المقفع أن يصطنع منطق « ديكارت » في دراسة مشاكل الكون ولا براعة « ستندال » في تحليل النفوس والعقول. ولا لباقة « أناتول فرانس » في معالجة شؤون السياسة والاجتماع . وكل ما أطلب اليه هو أن يفهم الأشياء فهما طبيعيا وأن يحكم عليهـــا أحكاما تتفق ومنطق القرن الثاني للهجرة أو منطق أي قرن من القرون. أفتراني واجدا عنده ما أطلب ؟؟ .

أما الأدب الكبير أو « الدرة اليتيمة » فانه صورة مكبرة للأدب الصغير في محاسنه ومساوئه وكونه منقولا على الاكثر عن اللغة الفارسية ومتأثرا بتفكير ابن المقفع في مواطن عديدة .

فمن محاسنه أنه يوصي بالاعتدال في كل شيء ، ولا يرى بأساً

---

(١٦) المصدر نفسه ص ٥٢ .

(*) يخيل اليّ ان ابن المقفع يجاري بكلامه هذا كلاماً بليغاً للامام علي هذا نصه « من كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار » نهج البلاغة ج ٢ ص ٨٤ طبع المطبعة العربية الكبرى بمصر . ولكن كم بين كلام الامام علي وهذر ابن المقفع من فرق .

في الاستزادة من كريم الخصال • كالشجاعة والسخاء • ويوصي بالوفاء للصديق والمبالغة في كرامه ومواساته ان نزلت به نائبة من نوائب الزمن ومن طريف ما يوصي به المؤلف في هذا الكتاب التمسك بأدب الحديث، فهو يدعوك الى أن تصغي لمن يحدثك • وأن تحترس من أية بادرة تدل على أنك عالم بما يقول • أو راغب في مقاطعته الى غير ذلك مما يقتضيه أدب الحديث • اما اذا كنت ذا ولاية فابن المقفع يوصيك ان تتحرز من المدح ، لان حب الثناء موطن ضعف كبير في ولاة الأمور قد يؤدي بهم الى الاخلال بواجباتهم والتقصير في انجاز اعمالهم على أتم وجه • هذا الى انه يعرضهم الى سخرية الساخرين • وغيبة المغتابين• ولعل أثمن نصيحة يسديها اليك المؤلف ، اذا كنت من ولاة الامور ، قوله : (لتكن حاجتك في الولاية الى ثلاث خصال ، رضى ربك ورضى سلطانك إن كان فوقك ورضى صالح من تلي عليه)[١٧]• ولا يفوتني أن أروي لك قوله في كبح جماح الغضب : (استعن بالصمت على اطفاء الغضب) [١٨] • وقوله في الدعوة الى الاحتراس من مصائب الزمن ومكايد الناس : (الضعيف المحترس من العداوة أقرب الى السلامة من القوي المغتر » [١٩] •

ولكن الى جانب هذه الاقوال الحكيمة اقوال أخرى لا أبالغ اذا قلت إنها سقيمة • منها قول الكاتب منوهاً بالقدماء في مقدمة كتابه هذا : (وجدنا الناس قبلنا كانوا اعظم اجساداً • واوفر مع اجسادهم أحلاما • وأشد قوة • واحسن بقوتهم للأمور اتقانا • واطول اعمارا •

(١٧) رسائل البلغاء ص ٦٠ .
(١٨) المصدر نفسه ص ١١٩ .
(١٩) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

وأفضل بأعمارهم للاشياء اختياراً . فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملا . من صاحب الدين منا [٢٠] وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل ، ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما ادركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وكفونا مؤونة التجارب والفطن [٢١] وقوله في الدعوة الى مسايرة الحكام : (اياك ان يقع في قلبك تعتب على الوالي او استزادة له ، فانه ان أنست ان يقع في قلبك بدا في وجهك ان كنت حليماً وبدا على لسانك ان كنت سفيهاً) [٢٢] وقوله في الموضوع نفسه : (ولا تعدّن شتم الوالي شتماً . ولا اغلاظه اغلاظاً . فان ريح العز قد تبسط اللسان بألفاظ في غير سخط ولا بأس [٢٣] وقوله : (ذلل نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فان ذلك مالا يكاد يخطئك) [٢٤] وقوله : (ووطن نفسك على انه لا سبيل لك الى قطيعة اخيك وان ظهر لك منه ما تكره، فانه ليس كالمرأة التي تطلقها اذا شئت . ولكنه عرضك ومروءتك فانما مروءة الرجل اخوانه واخدانه) [٢٥] وقوله : (ومن تمام حسن الخلق والأدب ان تسخو نفسك لاخيك بما انتحل من كلامك ورأيك) [٢٦]

(٢٠) كان هؤلاء القدماء الذين يبالغ ابن المقفع فى اطرائهم ويفضل صاحب الدين منهم على صاحب الدين من معاصريه مجوساً ، فكيف يفضلهم ابن المقفع من الناحية الدينية على معاصريه وهم مسلمون ؟

(٢١) رسائل البلغاء ص ٥٥ .

(٢٢) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٢٣) المصدر نفسه ص ٧٤ .

(٢٤) رسائل البلغاء ص ٩ .

(٢٥) المصدر نفسه ص ٨٨ .

(٢٦) المصدر نفسه ص ٨٣ .

وقوله : (اذا كانت لك عند أحد صنيعة أو كان لك عليه طول فالتمس احياء ذلك باماتته وتعظيمه بالتصغير له) [٢٧] . فواضح ان المثال الاول يكشف عن سذاجة منقطعة النظير في عبادة القديم وتعظيم القدماء والتعويل عليهم في كل شيء والنزول عن كل ما يلزم الرجل العامل من درس وتفكير واختبار ، لأن القدماء فعلوا من ذلك ما يكفيهم ويكفي من يأتي بعدهم وان الأمثلة الثاني والثالث والرابع دعوة الى عبودية تشمئز منها النفوس وتقشعر الجلود ، وان المثال الخامس يقضي باحلال صلة الرجل بصديقه فوق كل شيء وصلته بزوجته دون كل شيء . وهذا ما لا يقول به عاقل مطلقا ، وأن المثال السادس تمرين على الضعة ونصيحة باصطفاء الاخوان من اراذل الناس ، وان المثال السابع حث على التواضع المكذوب والكرم المصطنع وحض على اقتناص الثناء والاطراء بالمكر والحيلة . وفي الكتاب نصائح أخرى كثيرة توصي بالتقليد والخنوع والجبن والعبودية والشعوذة وما الى ذلك . رأيت أن اضرب عنها صفحاً .

أما كليلة ودمنة ، وهو خير ما نقل ابن المقفع عن الفارسية الى العربية ، فانه مجموعة قصص وحكايات وضع معظمها على ألسن الطيور والبهائم . ما أظن ان لغة تخلو من امثالها . وما أحسب ان له أصلا في السنسكريتية كما زعم ابن المقفع وغيره من مترجميه لانه لو كان كذلك لحفظته لنا خزائن الملوك التي قيل انها كانت تحتفظ به كما لو كان كنزا من أثمن الكنوز ، أو لأشارت اليه المصادر السنسكريتية القديمة على أقل تقدير اشارة واضحة ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن . وأكبر

(٢٧) المصدر نفسه ص ٩١ .

ظني ان برزويه مندوب كسرى أنوشروان الى الهند ترجم لسيده قصصا متفرقة في اللغة السنسكريتية جمعها هو في كتاب أطلق عليه هذا الاسم.

وقد تصرّف ابن المقفع في قصص كليلة ودمنة تصرّفاً أفسدها وذهب بما فيها من لطف وسذاجة . ولا أدل على ذلك من هذه النزعة القدرية القوية التي لا تكاد تخلو منها قصة من القصص والتي لا يمكن أن توجد فيما يخيل اليّ على الأقل إلا عند غلاة القدريين من المسلمين(٢٨). ومن تلكم الاشارات التي لا تحصى الى الصلاة والصوم وما يجري مجراهما من الأمور الاسلامية الصرف (٢٩) .

وما اريد أن أعرض لباب « الفحص عن أمر دمنة » فان الرواة متفقون على أنها من وضع ابن المقفع ، ولكني سأحدثك عن أبواب الكتاب الأخرى وهي : باب الاسد والثور ، وباب الحمامة المطوقة ، وباب البوم والغربان ، وباب القرد والغيلم ، وباب الناسك وابن عرس، وباب الجرذ والسنور ، وباب الملك والطائر فنزة ، وباب الأسد وابن آوى ، وباب بلاذ وإيلاذ وايراخت ، وباب اللبوة والاسوار والشعهر،

(٢٨) لعل قصة ابن الملك واصحابه أشد قصص كليلة ودمنة ايماناً بالقدر واحرصها على التمسك به والاذعان له .

(٢٩) من أمثلة ذلك قول شتربة لدمنة عندما جاء ليفسد ما بينه وبين الأسد : « من التمس الرخص من الاخوان عند المشاورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه أخطأ منافع الراي وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطاً » ـ كليلة ودمنة الطبعة الخامسة بمصر ص ٢١٧ ـ ومن هذا القبيل قول شتربة لدمنة في المقام نفسه : « ليس للمصلي في صلاته ولا للمتصدق في صدقته ولا للورع في ورعه من الاجر ما للمجاهد عن نفسه اذا كانت مجاهدته على الحق » ـ المصدر نفسه ص ٢٢٦ ـ .

وباب الناسك والضيف ، وباب السائح والصائغ ، وباب ابن الملك واصحابه • وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين •

وما أريد أن أناقش كليلة ودمنة على انه كتاب من كتب القرن العشرين سواء من حيث مقاصده واغراضه ام من حيث تبويبه وترتيبه كما انه لا ينبغي ان أفعل ذلك ، ولكني سأناقشه على أنه كتاب كتب قبل بضعة وعشرين قرناً ، فأقول : انه يحتوي في بعض أبوابه على حكم رائعة وقصص طريفة وحكايات مستملحة ، الا انه في مجموعه أقرب الى السخف والسذاجة منه الى أي شيء آخر • وأبرز مساوئه فيزعمي أربع وهي :

١ ــ فجاجة أحكامه في كثير من القضايا التي يعالجها •

٢ ــ تناقض ما ينطوي عليه من أقوال واعمال تناقضا عجيبا •

٣ ــ اشتماله على كلام لا معنى له مطلقا •

٤ ــ سوء تأليفه على أنه كتاب •

وأول ما يلفت نظرك فيه فجاجة احكامه ، فهو يبدأ باب الاسد والثور ، وهو أول الابواب واكبرها ، بقصة التاجر الذي يعظ أبناءه بقوله « يا بنيَّ ، ان صاحب الدنيا (٣٠) يطلب ثلاثة أمور لن يدركها الا بأربعة أشياء • أما الثلاثة التي يطلب فالسعة في الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة ، وأما الأربعة التي يحتاج اليها في درك الثلاثة فاكتساب المال من أحسن وجه يكون ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ثم استثماره ثم انفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الاهل والاخوان

(٣٠) يراد بصاحب الدنيا هنا « الرجل العامل » ولو كان المراد الرجل المنهمك بجمع المال والسعي الى الجاه وما الى ذلك لما اشار التاجر المتفلسف فى وصيته الى الزاد للآخرة .

فيعود عليه نفعه في الآخرة . فمن ضيع شيئاً من هذه الاموال لم يدرك ما أراد من حاجته » [٣١] . وواضح ان كلام هذا التاجر المتفلسف غير صحيح ، فان صاحب الدنيا أو الرجل العامل لا يطلب السعة في الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة فحسب . ولكنه يطلب أموراً اخرى كثيرة لا ينبغي ان يجهلها رجل يقتبس الفلاسفة نصائحه وتعاليمه. انه يطلب العافية ويطلب المعرفة للمعرفة ، ويطلب تحقيق المثل السامية ويطلب اللذة المادية . ويطلب سعة الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة . على ان هذه المقاصد الثلاثة التي ذكرها التاجر المتفلسف لا تتحقق بكسب المال وحسن تدبيره واستثماره وانفاقه في وجوه البر والاحسان فقط كما يقول وانما تتحقق بالعلم وبالعقل وبالخلق وبالمال.

ومما هو جدير بالملاحظة هو ان كسب المال من أفضل الوجوه وانفاقه في أفضلها أمر لا يصعب على كثير ممن لا يؤمنون بالآخرة ، فما رأي المؤلف او المترجم في هذا الشأن .

وشيء آخر لابد من ملاحظته وهو ان سعة الرزق لا تعني أي شيء سوى كسب المال وحسن تدبيره واستثماره ؛ أفتكون سعة الرزق غاية ووسيلة في وقت واحد ؟ !

إذا لم يخطيء ظني فان أقل ما يمكن ان يقال في هذه الوصية إنها كلام لا يشف عن رجاحة عقل ولا يدل على غزارة علم .

وأنت لا تترك هذه الموعظة الزائفة وتتقدم قليلاً في قراءة الكتاب حتى تواجهك قصة الرجل الذي لم يفلت من الذئب حتى وقع في وادٍ غمره سيل ، ولم ينج من الغرق حتى وجد نفسه أمام جماعة من

---

(٣١) كليلة ودمنة الطبعة الخامسة بمصر ص ١٦٩ .

اللصوص عندهم تاجر يريدون قتله واقتسام أمواله ، ولم يهرب من هؤلاء حتى استند الى حائط دفن تحت أنقاضه • لقد وقفت عند هذه القصة طويلاً وتأملتها ملياً فلم أفهم غرض المؤلف منها ، أيريد ان نلغي عقولنا ونعطل قوانا وننزل عن همتنا وعزائمنا ؟ أيريد ان نترك مقارعة الخطوب ومناهضة الأيام• وأن نترك الحوادث تفعل فينا ما تشاء ؟ ! إن قصة أخرى في الباب نفسه تنصح بغير ذلك ، وهي قصة السمكات الثلاث اللاتي نجت احداهن بعبور الغدير الذي تسبح فيه إلى نهر يجاوره عندما سمعت الصيادين يتواعدان بالرجوع الى الغدير وصيد ما فيه من السمك ، ونجت الثانية منهن باصطناعها مظهر الميت الذي أدى الى اهمالها وطرحها على ضفة الغدير حيث استطاعت التسلل الى النهر ، وبقيت الثالثة وهي اقلهن حيلة في مكانها حيث وقعت في شباك الصيادين •

الواقع ان غرض المؤلف من هذه القصص المتضاربة والحكايات المتناقضة في أغراضها ومغازيها صعب الادراك عسير الفهم ، ومن مواطن زلل كليلة ودمنة الحكم في باب الناسك وابن عرس بالطيش والتسرع والحمق على الناسك الذي تمنى ان يكون حمل زوجته ذكراً ووعد ان يختار له أسماً لطيفا ومؤدبا ماهراً ، مع انه لم يسرف في أمنية ولم يغل في أمل • ومن هذا القبيل اعتقاد المؤلف أن الحلم عماد السياسة وقوام الملك (٣٢) ، والذي أعرفه ويعرفه الناس جميعاً هو ان العدل أساس الملك وملاك الحكم • وصحيح ان الحلم خلة لا يستغني عنها السياسي الحكيم : ولكن الحكمة قد تقتضي استعمال الحزم بدلاً منه في كثير

(٣٢) انظر باب بلاذ وايلاذ وايراخت ص ٣٨٠ كليلة ودمنة طبعة مصر الخامسة .

من الأحيان .

وما يصح في هذه الاحكام يصح في قول المؤلف على لسان دمنة « في الرجل الفاضل المروأة » : (انه لا يرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرهما ، إما مع الملوك مكرماً او مع النساك متبتلاً ، كالفيل انما جماله وبهاؤه في مكانين ، إما في البرية وحشياً أو مركبا للملوك [٣٣] . فلست أدري لماذا لا يرى الرجل « الفاضل المروأة » عالماً باحثاً مع العلماء أو أديباً فاضلاً مع الأدباء أو طبيبا حاذقاً مع الاطباء أو والياً حازما مع الولاة أو قاضياً عادلاً مع القضاة .

الحق ان منطق كليلة ودمنة في كثير من أحكامه منطق غير مألوف . أضف الى ماتقدم ان أقوال ممثلي أدوار هذا الكتاب واعمالهم تتناقض تناقضاً عجيباً ، فشتربة في حواره مع دمنة عندما يأتي لإفساد ما بينه وبين الأسد لبيب ثاقب الفكر حاضر الذهن . وافر العلم ، يضرب الامثال لصحبة السلطان ودسائس أعوانه ، ويأتي بالتشابيه البديعة في أثناء ذلك [٣٤] ، ولكنه يعجز عن ان يقول لدمنة كلمة واحدة يبدي فيها شكوكه بأقواله نظراً لما بينه وبين الأسد من كريم الصحبة ووطيد العلاقة وجميل الثقة . والغراب يذكر البوم عند الكراكي بكل ما يسيء إلى سمعته ويحط من قدره ويحذرهن مغبة تمليكه عليهن تحذيراً شديداً ، ولكنه لا يلبث أن يقول لهن : ولكنكن اذا أردتن تمليكه عليكن بصورة اسميه فلا بأس ، مع انهن لو فعلن ذلك لكن كمن

(٣٣) كليلة ودمنة ص ١١٨ طبعة مصر الخامسة .

(٣٤) مثال ذلك ان شتربة يشبه نفسه في ركونه الى صحبة الاسد « بالنملة التي تجلس على نور النيلوفر » مستطيبة ريحه وطعمه ، ولكنه متى جاء الليل التف عليها فخنقها .

يضع اصبعه في فم الحية على أن يحترس من ان تلدغه ، وبلاذ يسجد لحكيم مملكته كباريوس ، أي أنه رجل وثني ، ولكنه يحمد الله تعالى على أن تداركه برحمته فعصمه من الاصغاء لنصيحة البراهمة والعمل بها ، وإيراخت زوجة بلاذ تفعل فعله فتسجد له عندما يعفو عنها كما لو كان ربها ، ولكنها لا تلبث ان تحمد الله على ان نجاها من القتل كما لو كانت مسلمة خالصة الاسلام صادقة الايمان ، وهكذا ...

وأغرب من هذا أن الاسفاف يبلغ بمؤلف كليلة ودمنة أن يأتي بكلام لا معنى له مطلقاً : هذا بلاذ ، أحد ملوك الهند يغضب على زوجته إيراخت لأنها كسرت صحن الارز على رأسه وخلطت دمه بالارز في أثناء مشاجرة حادة ، ويأمر وزيره إيلاذ بقتلها ، ويذهب بها هذا على أن يقتلها ، ثم انه ، أي بلاذ ، يندم على إصدار هذا الأمر ويسأل وزيره إيلاذ : أقتل ايراخت حقاً ؟ فيجيبه بكلام يدل على انه فعل ذلك ، وهنا يدور بينهما الحوار التالي : « قال الملك : لقد أفسدت أمري وشددت حزني بقتل إيراخت . قال إيلاذ : اثنان ينبغي لهما أن يحزنا : الذي يعمل الاثم في كل يوم . والذي لا يعمل خيراً قط ، لأن فرحهما في الدنيا ونعيمها قليل ، وندامتهما إذ يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها . قال الملك : لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء أبداً . قال ايلاذ : اثنان لا ينبغي لهما ان يحزنا المجتهد في البر كل يوم والذي لم يأثم قط . قال الملك : ما أنا بناظر الى ايراخت أكثر مما نظرت . قال ايلاذ : إثنان لا ينظران ، الأعمى والذي لا عقل له ، وكما ان الاعمى لا ينظر السماء ونجومها وأرضها ولا ينظر القرب والبعد كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من

المسيء . قال الملك : لو رأيت إيراخت لاشتد فرحي . قال ايلاذ : إثنان هما الفرحان البصير والعالم ، فكما أن البصير يبصر أمور العالم وما فيه من الزيادة والنقصان والقريب والبعيد فكذلك العالم يبصر البر والاثم ويعرف عمل الآخرة وتتبين له نجاته ويهتدى إلى صراط مستقيم. قال الملك : ينبغي لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء. قال إيلاذ : اثنان ينبغي ان يتباعد منهما ، الذي يقول لابر ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء عليَّ مما أنا فيه ، والذي لا يكاد يصرف بصره عما ليس بمحرم ولا أذنه عن استماع السوء ولا قلبه عما تهم به نفسه من الاثم والحرص . قال الملك : صارت يدي من ايراخت صفراً . قال ايلاذ : ثلاثة اشياء أصفار ، النهر الذي ليس فيه ماء والأرض التي ليس فيها ملك ، والمرأة التي ليس لها بعل . قال الملك : انك يا ايلاذ لتلقي عليَّ الجواب . قال ايلاذ : ثلاثة يلقون الجواب ، الملك الذي يعطي من خزائنه والمرأة المهداة الى من تهوى من ذوي الحسب ، والرجل العالم الموفق للخير » (٣٥) .

أفترى ان بين أجوبة هذا الوزير المخبول وبين أقوال ملكه صلة ما ؟ أترى ان كتاباً له مثل مكانة كليلة ودمنة يمكن ان يحتوى على مثل هذا الكلام ؟ وأخيراً أترى أنه من العدل ان يتغاضى النقاد القدماء والمحدثون عن ورود مثل هذا الكلام في كليلة ودمنة ؟

هذا من حيث الأساس . أما من حيث الشكل ، فأول ما يلفت الانتباه من أمر الكتاب هو انه مفرغ بشكل حكاية واحدة ، ذلك ان دبشليم الملك يطلب إلى بيدبا الفيلسوف (ان يضرب له مثل المتحابين

(٣٥) انظر باب بلاذ وايلاذ وايراخت ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨ من كتاب كليلة ودمنة الطبعة الخامسة بمصر .

يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء) فيحدثه بيدبا حديث الاسد والثور وسعي دمنة بينهما ، وهو حديث طويل ممل فيه مئة حكاية وحكاية لا علاقة لها بالموضوع . ولكنه لا يكاد ينتهي من هذا الحديث حتى يقول له دبشليم : « قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب والى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك ، فحدثني ان رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتديء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض » فيحدثه بيدبا حديث الحمامة والظبي والجرذ والغراب الذين قدّر لهم أن يتبادلوا أصدق عواطف الاخاء والصفاء ، وهو حديث طويل أيضا ، ولا يفرغ بيدبا منه حتى يقول له دبشليم : « قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم ، فأضرب لي مثل العدو الذي لا ينبغي ان يغتر به وإن أظهر تضرعا وملقاً » ، فيحدثه بيدبا حديث البوم والغراب وهكذا . وكان من السهل ان يصنف بيدبا قصصه ونوادره ومواعظه أصنافاً مختلفة وان يمليها في شكل أحاديث متسلسلة يقدم كلاً منها في مجلس او سهرة كما هي الحالة في ألف ليلة وليلة . ولكنه عمد الى هذا الاسلوب الممل لسبب غير مفهوم ، اللهم إلا ان يكون جهله بأبسط طرق التأليف وأساليبه .

وليس هذا كل شيء ، بل ان المؤلف يستطرد استطرادات كثيرة لا حاجة به اليها مطلقاً ويقحم القصص على حديثه اقحاماً . فمن ذلك استطراده الى قصة وكيل البحر مع الطيطوى ، تلك القصة التي ضربها دمنة مثلا لانتصار الضعيف على القوى بفضل حيلته . إن هذه القصة زائدة لأنه ليس من مصلحة دمنة ان يسعى في تحذير شترية صولة الأسد إلى حد ضرب الامثال له في هذا الموضوع ولان شترية لا يستضعف

الاسد ولا يستهين بقدرته على البطش ، وقل مثل ذلك عن حكاية الارنب الذي أدعى انه من رعايا القمر بغية القاء الذعر في قلب الفيل ، لان الغراب لم يكن بحاجة الى هذه الحكاية كما أنه لم يكن من المنطق في شيء أن يشير على الكراكي بتمليك البوم عليهن تمليكاً صوريا بعد أن ندد به أشد تنديد وذمه أقبح ذم وبعد ان أشار على الكراكي بالابتعاد عنه ما استطعن الى ذلك سبيلاً .

ومن هذه القصص الزائدة قصة رؤيا ايلاذ وتفسير البراهمة لها وإستياء بلاذ من ذلك التفسير ومن مطاليب البراهمة الجنونية التي بنيت على ذلك التفسير .

إن بيدبا يريد ان يذكر لدبشليم حلم بلاذ عن زوجته إيراخت وصفحه عن اساءتها المنكرة اليه ، وهذا لا يستدعي ذكر الرؤيا التي تقدمت لها الاشارة وما أستدعت من تفسير ومطالب كلها شذوذ وغرابة. هذا إلى أن صفح الرجل عن زوجته لا ينبغي ان يتخذ مثلاً لمعالجة الامور بالرفق واللين . وفي الكتاب مواطن ضعف أخرى كثيرة لايتسع لذكرها هذا المقام .

وتسألني رأيي في رسالة الصحابة فأقول لك : إنها عبارة عن تقرير يظهر انه رفع لأبي جعفر المنصور يحتوي على تواصي حسنة ونصائح نافعة تتعلق بتثقيف الجند وتعيين مواعيد ثابتة لدفع أرزاقه ، وبتنظيم القضاء وما إلى ذلك ، ليس لدي ما أقوله بشأنها من حيث المقاصد والأفكار ، ولكني أزعم أنها مثل في رداءة اللغة وعجمة الاسلوب ، وسأروي لك مثلاً منها عند الكلام في لغة ابن المقفع وأسلوبه .

لغة المترجم وأسلوبه .

وقد مر بك من كلام ابن المقفع ما يمكنك من تكوين فكرة ما عن لغته وأسلوبه ، ولكن يخيل إليَ أنه من المفيد بل من الضروري ان أقف عند لغة الرجل وأسلوبه وقفة خاصة ، أتبين فيها خصائصهما وأتعرف مشخصاتهما وفي زعمي أنه يمتاز من هذه الناحية بالغموض والتكرار بلا مسوغ واستعمال الألفاظ في غير ما وضعت له وعجمة كثير من الالفاظ والتعابير شأنه في ذلك شأن سلفه وأستاذه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، ولك أن تتصفح كتبه ورسائله لتجد فيها البرهان القاطع والحجة الدامغة على صحة ما أقول . ها هو ذا ابن المقفع يتحدث في الأدب الصغير عن قدرة الله ، ويحاول الاستدلال على وجوده بما أبدع من خلق السموات والأرض وهو موضوع عالجه القرآن وحكماء صدر الاسلام ولا سيما علي بن ابي طالب (ع) في خطبه مراراً لا تحصى فيقول : « مما يدل على معرفة الله وهو سبب الإيمان أن وكّل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا صغيراً وكبيراً عيناً فهو يصرّفه ويحرّكه [٣٦] » أفترى أن هذه الجملة تدل دلالة واضحة على الفكرة التي تقدمت لها الاشارة ؟ إنني لا أرى ذلك .

ومن امثلة الجملة السالف ذكرها في الأدب الصغير هذه الحكمة الرائعة ... « إذا تخالجتك الامور فأستقل اعظمها خطرا ، فان لم يستبن ذلك فأرجاها دركاً ، فان أشتبه ذلك فاجدرها أن لا يكون

(٣٦) رسائل البلغاء ص ٣٩ طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٩١٣ .

له مرجوع حين تولي فرصته» [٣٧]. الواقع أني عاجز عن فهم هـذه الحكمة أشد العجز. أيكون ابن المقفع قد دعا في هذه الكلمة الى استصغار عظائم الأمور والاستهانة بجسام الخطوب ؟ إنه يقرر عكس هذا في مكان آخر من الادب الصغير وذلك حيث يقول : « وعلى العاقل ان لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والاغفال في الامور، فان من استصغر الصغير أوشك ان يجمع اليه صغيراً وصغيراً ، فاذا الصغير كبير . وإنما هي ثلم يثلمها العجز والتضييع . فاذا لم تسد أوشكت ان تنفجر بما لا يطاق ، ولم نر شيئاً قط قد أتى إلا من قبل الصغير المتهاون به ! [٣٨] » . أفينقض صاحبنا كلامه بكلامه ويضرب رأيه برأيه ؟ ثم ما معنى « أن نستقل من الامور إذا اشتبهت أجدرها ان لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته » ؟ . اذا لم يخطيء ظني فان هذه الجملة أيضاً غاية في الغموض والابهام ، ومثل هذا يقال في العبارة الآتية وهي : « حاز الخير رجـلان سعيد ومرجوٌ فالسعيد الفالج والمرجو من لم يخصم والفالج الصالح ما دام في قيد الحياة وتعرض الفتن في مخاصمة الخصماء من الاهواء والاعداء » [٣٩] . فقد اعملت فكـري في هذه العبارة وحـاولت مرارا عديدة أن أفهمها على وجه معقول أو شبه معقول فلم يتيسر لي ذلك .

وكما يكرر عبد الحميد كلامه على الغرض الواحد في الرسالة الواحدة يفعل تلميذه وخليفته ابن المقفع ذلك بمقياس واسع فيكرر في كتاب ما قاله في كتاب آخر ويكرر في الكتاب نفسه ما سبق له ان قاله

(٣٧) المصدر نفسه ص ٣ .
(٣٨) المصدر نفسه ص ٣٠ .
(٣٩) المصدر نفسه ص ٤٧ .

فيه . وربما فعل ذلك دون تغيير مهم في الالفاظ ، مثال ذلك انه يقول في الأدب الصغير هذه الكلمة التي قلت لك انه سرقها من الامام علي « وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه ان لا يشغله شغل عن أربع ساعات ، ساعة يرفع فيها حاجته الى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل . فان هذه الساعة عون على الساعات الأخر ، وان استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بلغة » (٤٠) . ولكنه لا يفرغ من اسداء هذه النصيحة المسروقة حتى يختصرها ويحذف منها الاستراحة الى الاخوة والاطمئنان الى ثقات الاصحاب ويفرغ ما بقي منها في شكل آخر مأخوذ أيضا من الامام علي فيقول : « وعلى العاقل ان لا يكون راغبا الا في احدى ثلاث خصال : تزود لمعاد أو مرمة (٤١) لمعاش أو لذة في غير محرم » (٤٢) ، ولكن هذه الصيغة للفكرة مقتبسة من الامام علي الذي يقول « وليس للعاقل ان يكون شاخصا الا في ثلاث ، مرمة لمعاش او حظوة في معاد أو لذة في غير محرم »(٤٣) . ويقول في الادب الصغير أيضا وهو من شر كلامه : « وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة

(٤٠) رسائل البلغاء ص ١٩ .
(٤١) المرمة ؛ ما يكفي في المعاش .
(٤٢) المصدر نفسه ص ٩٠ .
(٤٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٩٩ طبع المطبعة العربية الكبرى بمصر

والمفاوضة » [٤٤] . وتحلو له اعادة هذه النصيحة فيعيدها في الادب الكبير بنصها تقريبا حيث يقول : « البس للناس لباسين ليس للعاقل بد منهما ولا عيش ولا مروأة الا بهما لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا تلتفين إلا متحفظا متشددا متحرزا مستعدا ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه المخاصة من الثقات فتتلقاهم ببنات صدرك وتفضي اليهم بموضوع حديثك وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ » [٤٥] . ومن هذا القبيل قوله في الادب الكبير أو الدرة اليتيمة موصيا بأدب الحديث : « تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الاستماع امهال المتكلم حتى يقضي حديثه وقلة التلفت الى الجواب والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم والوعي لما يقول » [٤٦]، واعادته مضمون هذه الكلمة في نفس الكتاب بالجملة المفككة التالية وهي : « من الاخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه والاعتراض فيه والقطع فيه » [٤٧] ومثل هذا كثير أكتفي منه بما تقدم ايراده تجنبا للاطالة والاملال .

أما استعمال الالفاظ في غير ما وضعت له فانه شائع في آثار ابن المقفع ، من أمثلة ذلك قوله : « لا تمكن أهل البلاء من التذلل ولا تمكن من سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم » [٤٨]، يريد : لاتحمل أهل البلاء على التذلل ولا تجرىء عليهم أحدا من الناس . وقوله في

(٤٤) المصدر نفسه ص ٢٩ .
(٤٥) المصدر نفسه ص ٩٠ .
(٤٦) رسائل البلغاء ص ١١٠ .
(٤٧) المصدر نفسه ص ١١١ – ١١٤ .
(٤٨) المصدر نفسه ص ٦١ .

الادب الكبير أيضا : « لا تحضرنّ عند الوالي كلاما لا يعنيه ولا يؤمر بحضوره الا لعناية به » (٤٩)، يريد : لا تسمع الوالي كلاما لا يعنيه ولا يرغب بسماعه . وقوله في باب البوم والغراب من كليلة ودمنة مشيرا الى الفيل الذي خشي صولة القمر : « وشرط ان لا يعود الى مثل ذلك » (٥٠)، يريد : وقطع على نفسه عهدا أن لا يعود الى مثل ذلك. وقوله في باب الناسك وابن عرس اثناء اشارة الناسك الى ابنه الذي لا يزال حملاً : « اختار له أحسن الاسماء وأحضر له سائر الادباء» (٥١)، يريد : وأؤدبه أحسن تأديب ، او انتخب له أحسن المؤدبين .

وليس من شك في أن ما سقته من أمثلة غموض ابن المقفع واستعماله الألفاظ في غير ما وضعت له دليل لا ينقض على تمكن العجمة من لسانه وغلبتها على طبعه ، ومع ذلك أحب ان أروي لك طائفة أخرى من تعابيره الأعجمية الصرف ، فمن ذلك قوله في رسالة الصحابة : « إن بالناس من الاستخراج (*) والفساد ما قد علم به امير المؤمنين » (٥٢) : وقوله في نفس الرسالة : « وإذا كان ذلك لم يقدر أهل الفساد على تربيص الامور » (٥٣) . وقوله فيها أيضاً : « فكان الناس فيما أحتبسنا به عنهم من الأخاء على صنفين ، فصنف

(٤٩) المصدر نفسه ص ٧٤ .
(٥٠) كليلة ودمنة ص ٣١.١ طبعة مصر الخامسة .
(٥١) المصدر نفسه ص ٣٤٥ .
(٥٢) رسائل البلغاء ص ١٣٠ .
(*) أحب أن انبه القاريء الى اني سأضع تحت كل كلمة يبدو لي انها أعجمية كهذه خطاً يجذب الانتباه اليها بسهولة وقد فعلت مثل ذلك في التنبيه الى مكان العجمة من رسائل عبد الحميد في عصر القرآن .
(٥٣) رسائل البلغاء ص ١٣٠ .

عذرونا بالتحبس للتخير اذا كان التخير من شأنهم وصنف هم ذوو سرعة الى الإخاء » (٥٤) فمما لا شك فيه ان هذا الاستخراج في الناس وذلك التربيص بالامور الى التحبس للتخير مما لا يجري به قلم عربي أو مستعرب طويل الباع راسخ القدم في لغة الضاد .

د ـ لماذا أدرسه ؟ !

ستقول : وإذا كان هذا رأيك في ابن المقفع فلماذا تدرسه وتؤرخه وتعنى بآثاره هذه العناية البالغة ؟ وأجيب بأني مضطر الى هذا لأنه ليس في مقدور كاتب ان يؤرخ صناعة الانشاء في صدر الدولة العباسية دون ان يتحدث عن ابن المقفع ويبدي رأيه فيه . وهناك سبب وجيه آخر يحدوني للكتابة عنه وهو رغبتي في أن يعرف الناس حقيقته ويتبينوا حظه من التفكير السليم والانشاء الفصيح فقد مضى نحو من اثني عشر قرناً والناس يعدونه حجة في البيان وإماماً في صناعة الانشاء ومثلاً في سعة المعارف وسمو الادراك ، ولا ينبغي ان تستمر هذه الهرطقة او الضلالة الأدبية الى الأبد .

هـ ـ مصدر شهرته :

بقي ان نعرف مصدر شهرة الرجل ، وعندي ان الدعاية الشعوبية التي خلقت من عبد الحميد بن يحيى على جمود ذهنه وخمود قريحته وتمكن العجمة من طبعه ولسانه علماً من اعلام التفكير وإماماً في صناعة الانشاء العربي ، هي التي خلقت من ابن المقفع آية من آيات النبوغ

(٥٤) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

والعبقرية وحجة في الافصاح والابانة ومفخرة من مفاخر الأدب العربي، وأعانها على بلوغ هذا الغرض ضعف النقد بل انعدامه في الغالب عندنا وجمود مؤرخي أدبنا ورغبتهم في الموافقة والمسالمة كائنة نتيجة ذلك ما كانت .

و ـ خاتمه : الفصل في أمره :

أما بعد فانه اذا كان ما رويت من أقوال ابن المقفع في هذا الفصل صحيحاً ؛ وإذا كان فهمي لهذه الاقوال صحيحاً كذلك ، فاني لا أسرف على نفسي إذا زعمت ان رديء الرجل أكثر من جيده وغثه أكثر من سمينه وأنه ينقل النفيس والخسيس من آثار لغته الى اللغة العربية دون نقد ولا تمييز ، وأنه إلى التبشير برذائل الأخلاق كالجبن والضراعة والرياء والانانية والشعوذة وما الى ذلك من ذميم الصفات ، وإلى السخف والسذاجة في فهم حقائق الحياة والاجتماع ، وإلى الاضطراب والتناقض في سرد مقاصده وأغراضه ، وإلى الغموض والركاكة والعجمة في لغته وأسلوبه ، أقرب منه إلى أي شيء آخر .

الفصل الثاني

أبو عثمان الجاحظ

أ ــ حياته : اسمه وكنيته ونسبه • مولده • سبب تلقيبه بالجاحظ • ما حرمته الطبيعة وما جادت به عليه • دراسته • أساتذته • شغفه بالقراءة • اشتغاله بالتأليف • حمله كتبه على من سبقه من مشاهير الكتاب • نجاحه في هذه الحيلة • ذيوع شهرته • اتصاله بالمأمون • توليه زعامة ديوان رسائله • استقالته • ما دعا إليها • اتصاله بمحمد بن عبد الملك الزيات • محنته عند الفتك به • اتصاله بأحمد بن أبي دؤاد وابنه أبي الوليد • اتصاله بالفتح بن خاقان • مثوله بين يدي المتوكل • شيخوخته ومرضه • وفاته •

ب ــ صفاته : حدة ذكائه • غزارة حفظه • نوادره • قلة مبالاته بالدين

جـ ــ آثاره : تقسيمها إلى أقسام ثلاثة • ميزة كل من هذه الأقسام • ما لكتبه من محاسن ومساوىء على العموم • مساوؤها ــ غلبة الفوضى عليها • شيوع البذاءة فيها • قلة نصيبها من التثبت • محاسنها • احتواء الحيوان على بحوث علمية مهمة • اشتمال البيان والتبيين والحيوان أيضاً على معلومات أدبية واسعة • اختراعه فن المقامة •

لغته وأسلوبه : إطالته • إكثاره من الجمل المترادفة •

قلة عنايته بتهذيب كلامه • فصاحته • سماحة طبعه • خلوّ آثاره من التكلف • كثرة استشهاده بالقرآن والحديث والشعر •

د ــ عذره فيما يؤاخذ فيه من هنات •

هـ ــ مثل من مختار كلامه : شعره (هامش) •

و ــ مقارنة بينه وبين عبد الله بن المقفع •

ز ــ خاتمـــة •

أ ــ حيانـــه :

أما الآن ، فسأحدثك عن كاتب لعل الدعاية لم تعبث بتاريخه عبثها بتاريخ ابن المقفع ، ولم تسرف في التهليل والتكبير له إسرافها في التهليل والتكبير لابن المقفع ، هذا الكاتب هو أبو عثمان عمرو بن بحر ابن محبوب الكناني بالنسب كما يقول هو [1] وبالولاء كمـا يقول خصومه [2] الذين يزعمون أن جده محبوباً سليل عبد أسود يدعى فزارة كان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني • على أننا إذا أخذنا بهذه

(١) اكد الجاحظ انه كناني صليبة فى كلمة ظريفة ختم بها رسالته التي كتبها فى مدح النبيذ للحسن بن وهب هذه هي : « وانا رجل من بني كنانة وللخلافة قرابة ولي فيها شفعة وهم بعد جنس وعصبة فاقل ما اصنع ان اكثرت لي منه « اي من النبيذ » ان اطلب الملك واقل مايصنعون بي ان انفى من الارض » ــ رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٢٩١ .

(٢) ممن شك فى عروبة الجاحظ او طعن بها فى ايام حياته الجماز الذي هجاه بقوله :

قال عمرو مفاخـراً نحن قـوم من العرب
قلت فى طاعـــة لربـك ابليت ذا النسب

« معجم الادباء ج ١٦ ص ٨٣ طبعة مصر » .

الرواية فانه لا معدى لنا من التسليم بأن محبوباً جد الجاحظ ولد او نشأ او عاش على أقل تقدير في بيئة عربية خالصة ، وأن بحراً والده ولد ونشأ وعاش في بيئة عربية خالصة كذلك . ومعنى هذا أن « البودقة » العربية صهرت المترجم إن كان أصله حبشياً كما يزعم خصومه حتى أحالته عربياً خالصاً . أضف الى ذلك أن ثقافته عربية بحتة كما سيجيء . وإذن فهو عربي صميم بأدبه إذا لم يكن عربيا صميماً بنسبه .

وقد ولد في البصرة في أوائل سنة خمسين ومئة للهجرة كما يقول هو في رواية ذكرها ياقوت . ولكن الشائع بين الرواة أنه ولد في أواخر العقد السادس من القرن الثاني للهجرة . ومصدر شيوع هذا القول أنهم يجمعون على أنه توفي سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة وأنهم يختلفون في مقدار عمره فيزعمون مرة أنه عمّر ستاً وتسعين سنة وتارة نيفاً وتسعين وطوراً نيفاً وثمانين وحينا نيفا وسبعين ، ولا يبلغون به المئة على كل حال مع أن الاختلاف في تقدير عمر الرجل لا يصلح مطلقاً لأن يكون مصدراً لتعيين سنة ميلاده بصورة تقريبية .

وكان دميم الخلقة قصير القامة جاحظ العينين ، أي ناتئهما ، وقد لقب « بالجاحظ » و « الحدقي » لهذا السبب . إلا أن الله منحه قلباً ذكياً وذهنا وقّاداً عوّضه بهما عما فاته من حسن الخلقة وجمال الصورة وعما فاته من رغد العيش وسعة الحال أيضاً ، فقد نشأ فقيراً معدماً . روي أنه كان في وقت ما يبيع الخبز والسمك في البصرة ، ولكنه نشأ محباً للعلم مغرماً بالادب كلفا بالدرس فأستقصى علوم عصره او أكثرها درساً وبحثاً . درس العربية وعلومها والدين وما يتصل به ودرس

الفلسفة والمنطق والرياضيات والطبيعيات . أخـذ اللغة وعلومها عن الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الانصاري والأخفش الاكبر وأخـذ الحكمة والكلام عن ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام ، ولزم المبـرد وشافه الاعراب الذين كانوا يفدون الى البصرة وجالسهم وتأثر بهـم وقرأ ما شاء الله ان يقرأ مما ألف في العربية وما نقـل اليها من مختلف العلوم والفنون .

ولم تكن حاله بالطبع تتسع لشراء كل ما يحتاج اليه من الكتب فكان يستأجر حوانيت الوراقين (الكتبيين) ليبيت فيها وليتمكن من قراءة ما يجب أن يقرأ من الكتب .

وما كان ليقرأ دون أن يكتب ليقرأ الناس ، فألف الكتب العديدة ونحلها مشاهير الكتاب كعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما. وقد نجح في استعمال هذه الطريقة فراجت كتبه وأقبل عليها النـاس وتداولوها ورضوا عنها ، فلما رأى ذلك تبنّاها وجهر بأنه واضعها ، فعلا قدره وسمت منزلته . ووقع كتابه (الامامة في حجج الراوندية)، وهم فرقة من شيعة بني العباس ، في يد المأمون فأحاله الى رجل من أفراد حاشيته يعرف (باليزيدي) وأمره أن يقرأه ويصفه له ، فقرأه وأثنى عليه عنده ، وآنئذ قرأ المأمون الكتاب ووقع من نفسه موقعا حسنا ، فاستقدم الجاحظ وأعرب له عن اعجابه به واكباره له ثم ولاه رئاسة ديوان رسائله ، وأثار هذا حسد سهل بن هارون كاتب المأمون إذ ذاك ، فقال : « ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتّاب ». ولكنه لم يحتفظ بهذا المنصب سوى ثلاثة أيام استقال بعدها فقبلت استقالته. والمعروف انه استقال بسبب خفة روحه وسماجة منظره اللتين لاتتفقان

وخطورة منصبه . ولكن أكان يجهل هذا قبل تعيينه أم كان المأمون غير عالم به ؟ .

أما انه ليخيّل اليّ أن تصريح سهل بن هارون المتقدم ذكره هو الذي دفعه الى الاستقالة . فأكبر الظن أنه رأى فيه نذيرا بدسائس ومؤامرات خطيرة بدأت خيوطها تحاك من حوله فآثر السلامة ورغب في الانسحاب .

ولكن حضور الجاحظ الى بغداد وغشيانه أندية عظمائها وعلمائها وأدبائها مكّناه من الاتصال بزمرة من أقطاب السياسة والعلم والادب في مقدمتها محمد بن عبد الملك الزيات . فلما صار هذا وزيرا للمعتصم قرب الكاتب ورفع من شأنه وأغدق عليه العطاء ، فاستمتع بلذات العيش وقام ببعض الاسفار التي قد تكون ذات صبغة علمية ، فزار دمشق وأنطاكية ومصر على قول . وكافأ ابن الزيات على أياديه البيض باهداء أجل كتبه اليه وهو « الحيوان » فأثابه عليه الوزير بخمسة آلاف دينار .

ولكن لم تكن هذه السعادة لتدوم للجاحظ بقية حياته دون أن يعترضها ما ينغصها ويكدر صفاءها أو يحيلها تعاسة وشقاءً في وقت من الاوقات . فقد كانت بين محمد بن عبد الملك مقرب المترجم وحاميه وبين أحمد بن أبي دؤاد قاضي المعتصم فالواثق فالمتوكل في أوائل خلافته مشادة عنيفة وكان صاحبنا طبعاً في جانب الوزير ، فلما آلت الخلافة الى المتوكل على الله وكان يبغض الزيات بغضاً شديداً فعذّبه وقتله هرب الجاحظ واختفى عن الانظار فطلبه رجال أحمد بن أبي دؤاد قاضي المتوكل وموضع ثقته وشريكه في كثير ما أعماله . وظفروا

به وأحضروه الى مجلس سيدهم على أسوأ حال ، فقد كان مغلـول اليدين مقيد الرجلين ليس عليه سوى قميص خلق ، فقرعه القاضي تقريعا شديدا ووصفه بنكران الجميل والخبث بل النفاق والكفر . فطالبه أبو عثمان بما يليق بالكريم من الصفح اذا قدر . وكأنّ القاضي كان ينتظر هذا منه ليصفح عنه ويغفر له بل وليمهد السبيل لا تخاذه صديقا محببا وعشيرا مقربا ، ففك قيده وأمر بأخذه الى الحمام وحمل سفطه ثياب اليه . فلما أصلح من شأنه دخل عليـه فاستقبله بلطف وبشاشة وأحله صدر مجلسه ، وقال له تلك الكلمة الشهيرة : « والآن هات حديثك يا أبا عثمان » ، وصار الجاحظ سمير ابن أبي دؤاد وعشيره يمدحه وينادمه ويأكل على مائدته ويأخذ عطاياه .

وكما خلد أبو عثمان علاقته بمحمد بن عبد الملك الزيات بكتاب (الحيوان) خلد علاقته بأحمد بن أبي دؤاد (بالبيان والتبيين) . ولم يقصّر القاضي في تقدير الكتاب فقد أثاب المؤلف بخمسة آلاف دينار. وكأنه أراد باعطائه هذا المقدار من المـــال أن لا تقل مكافأته على (البيان والتبيين) عن مكافأة ابن الزيات على كتاب (الحيوان) ولم يمض على علاقة الجاحظ بابن أبي دؤاد سوى سنة واحدة حتى فلج هذا وخلفه في منصبه ابنه محمد المكنى بأبي الوليد ، فانقطع اليـه الجاحظ انقطاعه لأبيه ، ولكنه لم يكن أهلا لمنصبه فغضب عليه المتوكل بعد مدة قصيرة لكثرة شكوى الناس منه . وأمر بعزله ومصادرة أمواله ولكن الجاحظ لم يعدم من يقربه ويعطف عليـه ويعجب به من ولاة الامور ، فقد اتصل بالفتح بن خاقان وتودد اليه وقدم له كتباً ورسائل منها رسالة أسماها « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » . وتقول رواية

إن المتوكل على الله استدعى الجاحظ ليعهد اليه تأديب بعض ولـده ، فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه [٣] .

وطالت حياة أبي عثمان ، وانتابت جسمه الأمراض فأصيب بالفالج والنقرس [٤] ولزم بيته في البصرة . وكان الأدباء يختلفون اليه من حين لآخر ليعربوا له عن شعورهم الطيب نحوه وليستمتعوا بحديثه العذب وفكاهته الحلوة التي لم تفارقه حتى آخر أيام حياته . وتوفاه الله في المحرم من سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة ، وقيـل ان الكتب سقطت عليه فمات تحتها فاذا صح ذلك فأنه يكون شهيد الكتب التي وقف عليها عقله وقلبه ونشاطه معظم أيام حياته .

ب ـ صفاتـــه :

أما صفات الجاحظ فأهمها حدة الذكاء . وقوة الحافظة . وخفة الروح . ورقة الدين . فأما ذكاؤه فانه يتجلى في كتبه ورسائله التي تعد بالمئات ، ويتجلى في نكته اللاذعة ونوادره المستظرفة ، ويتجلى قبل كل شيء في خطته الدقيقة المحكمة التي رسمها للاستيلاء على عقول معاصريه وعلى عقول من يأتي بعـدهم . ذلك أنه عرف نوع الأدب الذي يعجبهم ويلائم أذواقهم ومشـاربهم . والكتب التي ترضيهم وتستهوي أفئدتهم ، فقدم لهم الأدب المطلوب ، أدب الفكاهة والتسلية وأدب النادرة والنكتة وأدب الحديث والاستطراد ، الأدب الـذي

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٨ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

(٤) النقرس علة تصيب مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين شديدة الشبه بداء المفاصل .

لا رابط له ولا ضابط ، وألف لهم الكتب التي تمثل هذا الأدب وتجمع شوارده وتنتظم قصصه ونوادره وفوائده أيضاً ، فأعجبوا به أبسا اعجاب وتنافسوا في اقتناء كتبه ورسائله تنافسا ما عليه من مزيد . وكما تمثل كتب الجاحظ حدة ذكائه وألمعيته . تمثل كذلك سعة حفظه وقوته وغزارته ، ذلك أنه كان يمليها إملاءً ويسوقها في شكل أحاديث متتابعة آخذ بعضها برقاب بعض . مفعمة بالشواهد التي يدل سياق ايرادها على أنها وردت عفواً ورويت في غير عناء ولا تكلف ، وما أظنني بحاجة الى التنويه بنوادر المترجم . فقد تناولتها الكتب وتحدث بها الناس في كل زمان وفي كل مكان ، ومع ذلك أروي لك منها النادرة التالية على سبيل التفكه .

طلب أحدهم الى الجاحظ أن يكتب كتاب توصية الى صديق له برجل لا يعرفه فكتب اليه : (هذا كتاب مع من لا أعرفه وقد كلمني فيه من لا أوجب حرمته فان قضيت حاجته لم أحمدك وان رددته لم أذمك) . وفضّ الوسيط كتاب الجاحظ ليطّلع على ما فيه ، فلما قرأه عاد اليه ، فلما رآه علم أنه فتح الكتاب ، فقال له : « علمت أنك أنكرت الكتاب ، وانما هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن اعتني به » . وانك لتستطيع أن تتبين أثر النادرة في تكوين مكانة الجاحظ اذا قلت لك ان هذه النكتة كانت سبب اتصاله بالفتح بن خاقان ، فقد أثارت اعجاب الوزير بالكاتب وحملته على الاهتمام به والعطف عليه .

ولكن ، ما دين الرجل ؟ أهو مسلم صادق ؟ أم زنديق مارق ؟ أم بين بين ؟ أي أنه مسلم قليل التمسك بمباديء دينه وتعاليمه .

يعتقد خصومه انه زنديق مارق ويرمونه بترك الصلاة ووضع

الاحاديث وما الى ذلك من المنكرات . وقد لا يكون في هذا شيء من الغلو والاسراف ، اذ الواقع أنه رجل ظرف لا رجل دين ، كما يرى أحمد بن أبي دؤاد ، وصاحب فكاهة لا صاحب نزاهة . يهمه أن تكثر روايته وتشيع نوادره ويقبل الناس على حديثه ، ولا يهمه أن يكون ما حدّثهم به صحيحا أو غير صحيح .

حدّث عن نفسه أنه نسي كنيته ثلاثة أيام ، ولم يجد بدا من أن يسأل أهله عنها ففعل [٥] . وأحسب ان نسياناً كهذا لا يمكن ان يحدث لرجل له سعة حفظ الجاحظ وقوة ذاكرته وان التظرف والرغبة في رواية نادرة من أغرب نوادر النسيان هما اللذان دفعاه الى اختلاق هذه القصة .

وروى ، أعني الجاحظ ، أن مولىً فصيحا كان يختلف اليه ، فقال له ذات يوم ما مضمونه : إنك من الفصاحة بحيث تستطيع أن تنتسب الى أية قبيلة شئت من العرب دون ان ينكر عليك ذلك أحد لفصاحتك . ونزل المولى على نصيحته فلفّق له نسبا وحفظه اياه ، فلما حفظه حفظا جيدا ، قال له : (والآن لا تنه علينا) فأجابه : (سبحان الله ، إن فعلت ذلك فأنا اذن دعي) [٦] . وهو ــ ان كان صادقا في هذا فانه يسجل على نفسه انه يختلق الانساب ويشجع على الكذب ، وان كان كاذبا فانه يقيم البرهان على انه يستبيح الكذب ويمارسه فيما يروي من أخبار وقصص . وليس هذا كل شيء ، بل انه كثيرا ما قال الشيء وضده وأيد الرأي ونقيضه . وصحيح أن مدحه الكتّاب وذمه

(٥) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٥ طبعة مصر .
(٦) المصدر نفسه ج ١٦ ص ٩٤ .

لهم واطراءه الورّاقين ومقته اياهم وإستحسانه النبيذ واستهجانه له وما يجري هذا المجرى من متناقضاته ضرب من العبث البريء . الا أن خذلانه عليّ بن أبي طالب (ع س) في دفاعه عن العثمانية [٧] خذلانا شديدا وخذلانه أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) في دفاعه عن العباسية[٨] خذلانا أشد . عمل أقل ما يقال فيه إنه استخفاف بالدين وتهاون شديد بمقام كبار الصحابة .

ستقول : وما رأيك بهـذه المقدمات الدعائية وهذه البسملات وتلكم الحمدلات التي تواجهنا في كل كلمة يكتبها الجاحظ وفي كل فصل يحرره ؟ وأجيب بأنها ستار يرخيه المؤلف على دخيلة نفسه وحقيقة تفكيره لا أكثر ولا أقل . على أني أحب أن أقول لك ان دينه لا يؤثر مطلقا في قيمته الادبية ولا يغير من رأيي فيه من حيث هو كاتب ومؤلف . وان الذي حدا بي للكلام على دينه هو الرغبة في استيفاء البحث عن شؤونه وأحواله .

حـ ـ آثـاره :

قلت لك ان الجاحظ سبر غور عصره وعرف ميول أبنائه وأهواءهم وأذواقهم ، فقدم لهم الأدب الذي يشتهونه ويحبونه وألف لهم الكتب التي يرضونها ويعجبون بها . وأقول لك الآن ان هذه الكتب يمكن أن تقسم الى ثلاثة أقسام .

فأما القسم الأول فانه عبارة عن رسائل مختصرة أو مقالات مطولة

(٧) رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص : ـ ١٢ .
(٨) رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣ .

يحبذ فيها المؤلف شيئا من الاشياء أو عملاً من الأعمال أو مذهباً دينيا أو سياسيا أو اجتماعيا أو يستنكره ويندد به . ومن هذا القبيل « دفاعه عن العثمانية » و « دفاعه عن العباسية » وما كتبه في « النساء » عامة و « القيان » خاصة وفي « النبيذ » مدحاً وذما وما الى ذلك .

وأما القسم الثاني ، فانه يتألف من أسفار قصص ونوادر ونكت وأضاحيك ، منها « اللصوص » و « البخلاء » و « الصرحاء والهجناء » و « مفاخرة السودان الحمران » وما جرى هذا المجرى .

وأما القسم الثالث فانه يجمع الجد الى الفكاهة والدرس الى الدعابة . وأكبر كتب هذا القسم « الحيوان » و « البيان والتبيين » وهما أكبر كتب الجاحظ على الاطلاق وأكثرها فائدة . ولكتب الجاحظ هذه مساوىء عديدة ومحاسن عديدة كذلك . فمن أبرز مساوئها غلبة الاستطراد عليها غلبة يختلط معها الحابل بالنابل والغث بالسمين والرديء بالجيد ، فاذا حدثك الجاحظ عن مسألة نحوية مثلاً فانه لا يلبث ان ينتقل منها الى حادثة تاريخية على أن يتحول عن هذه الى مسألة دينية مستطرداً بعد ذلك الى نادرة أدبية وهكذا .

وعلة ذلك ان الجاحظ يكتب كما يتحدث ، ويتحدث تبعاً لتوارد الخواطر على نفسه والأفكار على ذهنه دون ان يخضع هذه الخواطر وتلك الأفكار لنوع من المناسبة ملحوظ . وانه لمن الحق أن نقرر أنه لم يفعل هذا جهلاً بالترتيب وعجزاً عن التنسيق والتنظيم ، وان كان قد سجل على نفسه في مقدمة الجزء الثاني من البيان والتبيين أنه عاجز عن تنظيم أفكاره وآرائه والسيطرة على قلمه فما أحسبه فعل ذلك إلا تواضعا وانما فعله عن تفكير وعمد ، فانه يقول لك بصريح العبارة وفي

أماكن كثيرة من كتبه : إن القاريء كالسامع يعتريه الملل ويدب اليه السأم إذا طال عليه الحديث ، وانه ليس ثمة شيء أضمن لدوام اقباله واستمرار نشاطه من تنويع الحديث له أنواعا وتلوينه ألوانا .

ويظهر أن الجاحظ يعبر بهذا عن رأي معاصريه من علماء وأدباء وشعراء ، فأنت تعلم أنه قدّم كتاب « الحيوان » وفيه من صنوف الاستطراد ما لا يكاد يصدّقه العقل الى محمد بن عبد الملك الزيات وهو من أفضل رجال عصره وأكثرهم علماً وأغزرهم أدباً وأوفرهم عقلا وأقدرهم على النقد والتمييز فقبله منه وأجازه عليه دون ان يلفت نظره إلى زيادة أو نقيصة فيه . وتعلم أيضا أنه قدّم البيان والتبيين وهو لا يقل عن سابقه ولوعاً بالاستطراد والانتقال من بحث الى آخر دون أن تكون بينهما صلة ما إلى أحمد بن أبي دؤاد الذي تزعم القضاء في الدولة العباسية مدة من الزمن فقبله منه كذلك وأجازه عليه ، ولم يعبه في شيء .

ومعنى ذلك أن طريقة الجاحظ في الاستطراد والانتقال من موضوع الى آخر دون أن تكون بينهما علاقة . كانت محببة إلى كبار القراء في ذلك العصر أثيرة عندهم [٩] . ولكن اذا كانت الفوضى في الأدب مما يستسيغه أو يكلف به أبناء القرن الثالث للهجرة فانها مما يأباه أبناء القرن الرابع عشر كل الاباء ويرفضونه أشد الرفض . ومن مساوىء هذه الكتب أقدام المؤلف على ايراد نكت ونوادر بذيئة جداً ، وما كان له ــ وهو المفكر المتكلم المتفلسف ــ أن يجنح إلى المجون ويركن

(٩) مما يدل على هذا ايضاً قول ابي تمام واصفاً احدى مدائحه لمحمد بن عبد الملك الزيات :

الجد والهزل فى توشيع لحمتهـا والنبل والسخف والاشجان والطرب

الى بذيء القول وفاحشه بحجة الاستجمام واراحة العقل والنفس ، فان للاستجمام أدباً ولإراحة العقل والنفس حدوداً ، وأشهد أن الجاحظ قد سخر من هذا الأدب وتجاوز تلك الحدود في مؤلفاته مراراً كثيرة ولا سيما في كتاب « الحيوان » الذي كان عليه ان يتحاشى فيه وحده على الأقل هذا النوع من الدعابة المستهجنة لأنه كتاب جد ودرس • وكتاب عظة وعبرة كما يقول المؤلف ، غايته الدلالة على حكمة الله وبيان درجة إبداعه في خلقه ، ولكن هيهات ، ما كان الجاحظ ليتغلب على طبعه ويسيطر على نزعاته ويكفّ من بوادر عبثه ومجونه ، أما رأس هذه المساويء فهو عدم التثبت في رواية الحوادث والاخبار أو قل خلق بعضها خلقاً وافتعاله افتعالاً • ومصدر ذلك ان المؤلف صاحب عبث ومجون ، يهمه أن يهزل وأن يضحك الناس كائنة وسيلة ذلك ما كانت • وقد رأيت عند الكلام على أخلاقه أنه يكذب ويحمل غيره على الكذب • ورجل هذا شأنه لا يمكن ان يحملك على الثقة بما يقول والاطمئنان الى ما يكتب •

ومع ذلك يخيل اليّ ان (الحيوان) و (البيان والتبيين) لايحتويان إلا على القليل جداً مما لا يمكن الاطمئنان اليه ، لأنهما كتبا لرجلين من أقطاب الحركة العقلية في القرن الثالث للهجرة • ولكن أليس الى جانب هذه المساويء محاسن جديرة بالذكر ؟

بلى ، إن هناك لمحاسن تستوقف نظر الباحث وتسترعي انتباه الناقد واهتمامه • ففي الحيوان مثلا بحوث علمية مفيدة تدل على ثقافة واسعة وخبرة طويلة وجلد عظيم على البحث والدرس • ولك ان تتصفح هذا الكتاب لتتبين أن الجاحظ لم يقصر في دراسة أي حيوان تصدى

إلى درسه . اقرأ ما كتب عن الأفعى والعقرب والحمام والديك والكلب وغير ذلك من صنوف الحيوان ، تجد أنه وفى كلاً من هذه المخلوقات حقه ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة تتعلق به إلا احصاها ، وهو اذ يحدثك بما وصل إلى علمه من شؤون هـذه الحيوانات لا يؤمن به إيمـان « العجائز والباعة » على حد قوله ، ولكنه يبحث ويمحص ويناقش وينقض ويبرم حتى ينتهي الى الحقيقة العلمية الثابتة . وفي (البيان والتبيين) بل وفي (الحيوان) أيضاً طائفة كبرى من شعر وخبر وحكمة ومثل وعظة تمثل حياة العرب الأدبية والاجتماعية قبل الاسلام وبعده يعسر جداً ان تجدها في أي مكان آخر . وقد كتب كل ذلك بلغة متينة سلسة وأسلوب قوي سمح لا أثر فيه للتكلف . أفترى ان ذلك شيء يستهان به ؟

ولكن هل استحدث الجاحظ نوعاً جديداً من الادب ؟

إذا لم يخطيء ظني فانه أول من صنع المقامة في الادب العربي ، إذ لا جدال في ان رسالته التي يتحدث فيها عن صنائع القوّاد مقامة رائعة يديرها بطلان هما الجاحظ والمعتصم ، وموضوعها سياسي خطير لأنها تهدف الى نقد سياسة المعتصم في اختيار قواده من بين الخياطين والخبازين والطباخين وأمثالهم من أرباب الحرف والاعمال التي لاتتطلب ثقافة سامية ومدارك ممتازة [١٠] . واذا كان بطلا هذه المقامة حقيقيين

(١٠) المعروف ان بديع الزمان الهمذاني هو الذي ابتكر فن المقامة في الادب العربي وقد انفرد ابو اسحق الحصري في القول بأن بديع الزمان الهمذاني قد عارض بمقاماته احاديث ابن دريد التي رواها القالي في اماليه « زهر الآداب ج ١ ص ٣٠٧ الطبعة الاولى » . وقد توفى ابن دريد هذا سنة ٣٢١ للهجرة ، وانا أزعم ان الجاحظ هو الذي ابتكر فن المقامة في الادب العربي وان احداً اليها لم يسبقه .

ولم يكونا خياليين كأبي الفتح الاسكندري في مقامات الهمذاني وابي زيد السروجي في مقامات الحريري ، فان حوادثها خيالية دون أدنى ريب ، فما أشك في ان الجاحظ لم يدخل على المعتصم ولم يتحدث اليه هذا الحديث الطويل عن اللسان ومزاياه وعن ضرورة تعدد مناحي الثقافة الشخصية وفي انه لم يشر الى صنائع قواده قبل ان يكونوا قواداً هذه الاشارة العابثة الماجنة ، وما أشك كذلك في أن المعتصم لم يسمع هذا الحديث ولم يوافق على شيء منه ولم يأمر مؤدب أولاده بتعليمهم جميع العلوم المعروفة في عصره . وإذن فالرسالة خيالية ، وإذن فهي مقامة رائعة . واذن فالجاحظ صاحب أول مقامة في الادب العربي وكم كنت أود أن أروي لك هذه المقامة لولا ان ما فيها من عبث ومجون لا يسمحان بذلك ، ولكنك تستطيع ان تقرأها في (رسائل الجاحظ) وهي مطبوعة ومتداولة .

لغته واسلوبه :

وقد حدثتك عما يمتاز به أسلوب الجاحظ من الاستطراد والبذاءة عند الكلام على محاسن كتبه ومساوئها ولكن هذا غير كاف لمعرفة أسلوب الرجل ولابد لي من ان أفرد كلمة خاصة في هذا الفصل للغته وأسلوبه . وأنا فاعل ذلك . فأقول : إنه مطيل الى درجة قد تبعث على الملل ، مكثر من إيراد الجمل المتشابهة التي ربما أغنى بعضها عن بعض ، قليل التهذيب أو قل عديمه لكلامه . إلا انه فصيح اللفظ متين العبارة بعيدعن التكلف كثيرالاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر .

فمن الغريب حقاً ان الجاحظ وهو الكاتب الذي يحرص على رضى القاريء كل الحرص ويبذل كل ما في وسعه في سبيل استبقاء نشاطه وإستمرار اقباله يطيل الى درجة لا يجد معها القاريء مفراً من السأم . وتضطره هذه الاطالة الى أن يبديء ويعيد في غير موجب ولا مسوغ وان يأتي بالجمل الفارغة التي لا فائدة فيها ولا طائل تحتها . خذ مثلا على ذلك انه يصف النبيذ ويعدد فوائده وفضائله فيقول : « إن النبيذ اذا تمشى في عظامك والتبس بأجزائك ودبّ في جنانك منحك صدق الحس وفراغ النفس وجعلك رضيّ البال خليّ الذرع قليل الشواغل قرير العين واسع الصدر فسيح الهم »(١١) .

ثم انه لا يلبث ان يكرر هذا الوصف فيقول : (ولو لم يكن من أياديه ومننه ومن جميل آلائه ونعمه ، الا انك ما دمت تمزجه بروحك وتزاوج بينه وبين دمك ، فقد أعفاك من الجد ونصبه وحسّن اليك المزاح والفكاهة وبغّض اليك الاستقصاء والمحاولة وأزال عنك تعقد الحشمة وكدّ المروأة وصار يومه جمالا لأيام الفكر) . (١٢) ولا يلبث ان يكرر هذا الوصف في مكان آخر من الرسالة ولكن باختصار في هذه المرة فيقول : (ان كنت جذلان كان بارا بك ، وان كنت ذا هم نفاه عنك) (١٣). وواضح ان هذا تكرار لا فائدة فيه ولا مبرر له ، ومن هذا القبيل قوله في مخاطبة رجل يظهر انه عاب كتبه خاصة والكتب عامة : (فعبت الكتاب ونعم الذخر والعقدة هو ونعم الجليس والعدّة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغَل والحرفة ونعم

(١١) رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٢٨٨ .
(١٢) المصدر نفسه ص ٢٨٨ .
(١٣) رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ٢٨٩ .

الانيس ساعة الوحدة . ونعم المعرفة ببلاد الغربة . ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل) [١٤]. وبعد ان يفيض في وصف فوائد الكتاب وصفا يغلب على ظني انه أقرب الى السفسطة منه الى أي شيء آخر يعود الى تعداد صفاته التي سبق ذكرها فيقول : (وعبت الكتاب ولا أعلم جاراً أبرّ ولا خليطاً انصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية ولا أقل جناية ولا أقل املالا وابراما ولا أجمل اخلاقا ولا أقل خلافا واجراما ولا أقل غيبة ولا أبعد من عضيهة [١٥] ولا أكثر اعجوبة وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولا أبعد من مراء . ولا اترك لشغب . ولا أزهد في جدال . ولا أكف عن قتال من كتاب) [١٦] . ويستمر في رصف هذه الجمل المتشابهة والفقر المتماثلة الفارغة فيقول : (ولا أعلم قريناً احسن مؤاخاة ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ولا أخف مؤونة ولا شجرة اطول عمرا ولا أجمع امراً ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتنى ولا أسرع ادراكا ولا أوجد في كل ابان من كتاب)[١٧]. ومثل هذا كثير في كتبه ورسائله . اضف الى ذلك ان لغته لا تخلو من هنات وشطحات مصدرها قلة عنايته بتهذيب كلامه وتنقيحه ، فمن ذلك قوله : (فبأي شيء بلغتَ الافهام واوضحت عن المعنى) [١٨] اذ الصواب : (واوضحت المعنى) . وقوله : (وهم الذين جلوا بكلامهم الأبصار العليلة) [١٩] فقد

---

(١٤) الحيوان ج ١ ص ٣٨ طبعة مصطفى البابي الحلبي الاولى .
(١٥) العضيهة : البهتان والكلام القبيح .
(١٦) الحيوان ج ١ ص ٤١ .
(١٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢ .
(١٨) البيان والتبيين ج١ ص ٤٣ طبعة مطبعة الفتوح الادبية بمصر .

كـان الصواب ان يقول (البصائـر العليـــــلة) • وقولـه مشيرا الى خطب العرب وكونها تنقسم الى طوال وقصار : (ووجدنا عدد القصار اكثر رواة العلم الى حفظها أسرع) [٢٠] اذ الصواب أن يقول (ووجدنا اكثر رواة العلم أسرع الى حفـظ القصار) • وفي الامكان اعطاء امثلة أخرى لهذه الهنات ، ولكن ليس من الضروري احصاؤها جميعا •

بيد انه ان كان في اسلوب الجاحظ ولغته كل هذه المساوىء ، فانه من ناحية اخرى مطبوع على الكلام • سمح الخاطـر • فياض البديهة • لا يلتزم سجعا ولا يتكلف ازدواجا ولا يستكره جناسا ولا طباقا ولا تشبيها ولا يحكك ولا ينقح ولا يضع جملة مكان جمـلة ولفظا مكان آخر وانما يأخذ من الكلام ما تجود به قريحته السمحة عفوا وتتفتح عنه بديهته المواتية طوعا ويصرفه في أغراضه المتنوعـة ومقاصده المتعددة ومذاهبه المتشعبة كما يشاء • ومن خصائصه الحسنة كثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر ، فما يكاد يتحدث اليك عن شأن من الشؤون أو غرض من الاغراض حتى تنثال الشواهد عليه انثيالا وتزدحم الأمثلة في حديثه ازدحاما • ولا غرابة في ذلك فان حافظته العجيبة وضعت يده على كنوز اللغة العربية ويسرت له من الاحاطة بالادب العربي على اختلاف أنواعه ما لا يتيسر الا لأفذاذ الرواة والحفاظ •

د ــ عذره فيما يؤاخذ فيه من هنات :

وقد نقدت كتب ابي عثمان نقداً صارما عنيفا وحاسبته حسابا

(١٩) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢ .
(٢٠) البيان والتبيين ج ٢ ص ٣ طبعة مطبعة الفتوح الادبية بمصر .

لا هوادة فيه ولا لين . ولكن لابد لي من أن أنصفه وان أعـدل في الحكم عليه ، وذلـك بأن أسجل انه معذور في كثير مما آخذته فيه . فان الكتب التي نقدتها انما كانت كتب شيخ متهدم بلغ من العمر عتياً . واتابت جسمه العلل فأصاب الفالج نصفه والنقرس نصفه الآخر . وكان من الحق ان يستريح في هذه الفترة من حيـاته استراحة تامة ، ولكنه اضطر الى مواصلة جهاده اضطراراً . وارغم على متابعة عمله المتعب الشاق ارغاما . فقد فرغ من وضع (الحيوان) بعد ان جاوز السبعين ، ومن وضع (البيان والتبيين) بعد ان جاوز الثمانين . ومن لا يسامح في ضعف انتاجه اذا بلغ هذه السن ؟ ! .

ستقول ومن أضطره الى مواصلة جهاده هذا ؟ وأجيب : أكان عليه اذن أن ينهي حياته كما بدأها خاملاً ، وأن يخرج من الدنيا كما دخلها فقيراً معدماً ؟ وليس هو المعاتب إذا كان الزمان لم يؤاته . والحظ لم يبتسم له إلا في أيام شيخوخته ومرضه .

هـ ـ مثل من مختار كلامه :

والآن ، وقد أدنت الجاحظ وبرّأته . ونقدته وقرضته . أحب أن أروى لك مثلاً من كلامه الذي يمثل لغته واسلوبه ورأيه في صناعة الانشاء وتأليف الكتب إلى حد لا بأس به . قال يشرح مذهبه في الكتابة مستطرداً : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجد الصرف . وعلى العقل المحض . وعلى الحق المر . وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود . وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحا ببعض الهزل ،

على ان الكتاب إذا كثر هزله سخف ، كما أنه اذا كثر جده ثقل • ولابد للكتاب من ان يكون فيه بعض ما ينشط القاريء • وينفي النعاس عن المستمع » (٢١) • وقال يصف الكلام البليغ : « بسم الله الرحمن الرحيم ــ قال علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام : (قيمة كل إنسان ما يحسن) فلو لم نقف، من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية • وغير مقصّرة عن الغاية ، وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره • ومعناه في ظاهر لفظه • وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة • وغشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله • فاذا كان المعنى شريفاً • واللفظ بليغاً • وكان صحيح الطبع بعيـدا من الاستكراه ومنزّها عن الاختلال • مصونا عن التكلف • صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة • ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة • وتفدته من قائلها على هذه الصفة • أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة • ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة • وقد قال عامر بن عبد القيس « الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القـلب ، وإذا خرجت من اللسان لـم تجاوز الآذان » (٢٢) • وقال يحدد صفات الكاتب : « ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان • عذب ينابيع البيان ، اذا حاور سدد سهم الصواب الى غرض المعنى ، لا يكلم العامة بكلام الخاصة • ولا الخاصة بكلام العامة » (٢٣) • وقال في فصل من رسالته في النساء :

(٢١) رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٢٧٥ .
(٢٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٤٧ طبعة مطبعة الفتوح الادبية بمصر
(٢٣) معجم الادباء ج ١٦ ص ٨٧ طبعة مصر .

« وقد علم الشاعر • وعرف الواصف • أن الجاريـة الفائقة الحسن أحسن من الظبية • وأحسن من البقرة • وأحسن من كل شيء تشبّه به • ولكنهم اذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون ، ويقول بعضهم : كأنها الشمس ، وكأنها القمر ، والشمس وان كانت بهية فانما هي شيء واحد • وفي وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب • ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة ، وأن جيدها أحسن من جيد الظبية • والامر فيما بينهما متفاوت • ولكنهم لو لـم يفعلوا هـذا وشبهه لـم تظهر بلاغتهم وفطنتهم » (٢٤) • وقال محذراً من الأصدقاء : « إحذر من تأمن كأنك حذر ممن تخاف » (٢٥) •

---

(٢٤) رسائل الجاحظ ص ٢٧٤ طبعة السندوبي .

فى هذه النبذة من كلام الجاحظ دليل واضح على مكان الشاعرية من طبعه ؛ واحب بهذه المناسبة ان اذكر ان له شعراً لا بأس به ، روى ياقوت مثلا عديدة منه . وانا اروي لك هنا بعض هذه المثل قال الجاحظ :

يطيب العيش ان تلقى حليماً ... غـذاه العـلم والراي المصيب
ليكشف عنك حيلة كـل ريب ... وفضل العـلم يعرفـه الأريب
سقام الحرص ليس لـه شفاء ... وداء البخـل ليس لـه طبيب

وقال ــ والبيتان من ظريف شعره ــ :

ان حال لون الراس عن لونـه ... ففي خضـاب الراس مستمتع
هب من لـه شيب لـه حيلة ... فمـا الـذي يحتاله الاصلع ؟

وقال فى احد عظماء عصره :

وعهـدي به والله يصلح امره ... رحيب مجال الراي منبلج الصدر
فلا جعـل الله الولاية سبـة ... عليـه فاني بالولايـة ذو خـبر
فقد جهدوه بالسؤال وقد ابى ... به المجد الا ان يـلج ويستشري

(٢٥) معجم الادباء ج ١٦ ص ٨٤ طبعة مصر .

و ـ مقارنة بينه وبين عبد الله بن المقفع :

بقي ان نقارن بينه وبين من سبقه وعاصره من كبار الكتاب • ولا سبيل الى عقد مقارنة بينه وبين سهل بن هارون ، لأن ما بلغنا من آثار هذا • لا يسمح بعقد مقارنة بينه وبين كاتب له مثل غزارة انتاج الجاحظ وتعدد آثاره • ولكننا نستطيع ان نقارن بينه وبين ابن المقفع ، وما أشك في أنه أصح تفكيراً • وأفصح تعبيراً • وأمتن لغة • وأقوى أسلوباً • مئة مرة من ابن المقفع • ففي أي كتب الجاحظ تقرأ كلمة كتلك التي يقرر فيها عبد الله أن من لا مال له لاحياء له ومن لاحياء له لا سرور له ومن لا سرور له لا عقل له ••• الى آخر ما هنالك من أمثال هذه الترهات ؟ وفي أي رسائل الجاحظ تجد نصيحة كتلك التي ينصحك فيها عبد الله ـ ان كنت عاقلا بالطبع ـ (أن تؤنس ذوي الألباب وتجرأهم على نفسك) ؟ ! • (حتى يصيروا حراساً على سمعك وبصرك ورأيك ، فتستنيم الى ذلك وتريح له قلبك • وتعلم انهم لا يغفلون عنك اذا أنت غفلت عن نفسك) ؟ • وفي أي أحاديث الجاحظ تجد وصية كتلك التي يحضك فيها ابن المقفع على ان تكون عبداً في قرارة نفسك وأعماق ضميرك لأولئك الذين يملكون مقاليد الحكم ليتصدقوا عليك بالمال والجاه ؟

وقد أحصيت على الجاحظ هنات عديدة في لغته وأسلوبه ، ولكني لا أعرف له عبارة يبلغ منها السخف مبلغه من قول ابن المقفع : « إذا تخالجتك الأمور فاستقل أعظمها خطراً ، فان لم يستبن ذلك فأرجاها دركاً ، فان اشتبه ذلك فأجدرها ان لا يكون له مرجوع حين تولي

فرصته » . وقوله : « ان بالناس من الاستخراج والفساد ما قـد علم أمير المؤمنين » . وقد ضربت لك الأمثال على سوء لغة ابن المقفع ورداءة أسلوبه في فصل سابق من هذا الكتاب ولا داعي الى التكرار .

ز ـ خاتمـــة :

الحق ان الجاحظ شيخ صناعة الانشاء في العصر العباسي الأول . وإمام المترسلين فيه ، وأن أحداً من كتابه الذين قرأنا أخبارهم وعرفنا آثارهم لا يستطيع ان يزاحمه في مركزه هذا او ينافسه .

***

الباب الثاني

في كُتّاب الاسجاع والمقامات

الفصل الاول

أبو بكر الخوارزمي

أ ــ حياته : اسمه ونسبه • نسبته الى طبرستان وخوارزم • مولده • نشأته ودراسته • أسفاره • فوائدها الأدبية والمادية • إتصاله بسيف الدولة • عودته الى المشرق • تطوافه في حواضره وأقاليمه • في بخارى • في نيسابور • في سجستان • في غرستان • في نيسابور ثانية • عند الصاحب ابن عباد بأصبهان • تقديم ابن عباد إياه الى عضد الدولة • رحلته الى شيراز • نجاحها • عودته الى نيسابور • ابتسام الحياة له فيها • منح عضد الدولة إياه مرتباً ثابتاً • نقمته على ملوك خراسان تزلفا للبويهيين • ما جنت عليه هذه النقمة • التجاؤه الى الصاحب بن عباد • عودته الى نيسابور بفضل أبي الحسن المزني • ابتسام الحياة له فيها مرة أخرى • وفاته سببها •

ب ــ صفاته : حيويته • حفظه • خبث لسانه • نكرانه الجميل • بخله • رأي فريق من شعراء عصره فيه •

جـ ــ آثاره : ١ً ــ نثره : غلبة الروح الشعري عليه • خصائصه الفنية •

بعض هناته • أثر الروح الفارسي فيه • بعض ما يمثل هذا الروح • مثل من كلامه المختار • رسالة له كتبها الى تلميذ له مكابر • كلمة له في وصف الشعراء • من رسالة له كتب بها الى مسكويه وقد تزوجت أمه •

٢ً ـ شعره : مثل منه •

د ـ خاتمة : غلبة النثر على أدبه •

أ ـ حياتـــه :

حدثتك في الباب السابق عن شيخي الترسل في الانشاء • وهما عبد الله بن المقفع والجاحظ ، وأحدثك في هذا الباب عن أكبر كتاب الاسجاع والمقامات • وهم أبو بكر الخوارزمي • وبديع الزمان الهمذاني والحريري • وأبدأ بالخوارزمي • لأنه أقدم الثلاثة في الترتيب الزمني فأقول :

هو محمد بن عباس الخوارزمي أو الطبري ، والأولى أشهر • وقد نسب الرجل الى طبرستان لان أصله منها ، وإلى خوارزم لأنـــه ولد ونشأ فيها على رواية (اليتيمة) • أما صاحب (الوفيات) فيقول : انه نسب إلى طبرستان لأن أمه منها ، والى خوارزم لأن أباه من هذه المدينة • ويضيف ابن خلكان الى ذلك ان المترجم ابن أخت أبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، وليس بين أيدينا من المصادر التاريخيه ما يمكننا من ترجيح أحد القولين • ولكن مهما يكن من شيء فان الرجل نسب إلى طبرستان فعرف بالطبري • ونسب الى خوارزم فعرف بالخوارزمي • بل لقد اتخذت له نسبة مركبة من

هاتين النسبتين فقيل « الطبرخزي » أو « الطبرخزمي » .

وقد ولد في خوارزم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة ، ونشأ حيث ولد وتلقى علومه وفنونه . ولسنا نعرف لسوء الحظ أحداً من أساتذته ، ولكننا نعلم إجمالاً أنه كان محبا للعلم شغوفا بالدرس ، وأنه كان على جانب كبير من غزارة العلم ووفرة الادب عندما برح مسقط رأسه خوارزم في ريعان صباه . ولكنه لم يفتر عن طلب العلم في اثناء تجواله الواسع ، فقد أتصل بكثير من علماء فارس والعراق والشام وأخذ عنهم ، كما انه خرّج كثيرا من أولي الادب والفضل . وقد أتصل بسيف الدولة الحمداني بحلب ومدحه فأكرم وفادته واجزل صلته . ثم عاد أدراجه الى المشرق فقصد بخارى وعرف بها أبا علي البلغمي ، ولكن سرعان ما ساءت علاقته به فهجاه بقوله :

إن ذا البلغمي والغين عين وهو عار على الزمان وشين
إن يكن جاهلاً بخفي حنين فهو الخف والزمان حنين

ثم رحل إلى نيسابور واتصل فيها بجماعة من الكبراء . عرفوا فضله وأحسنوا معاشرته ، أكبرهم الامير أبو نصر أحمد بن علي الميكالي ، ثم ترك نيسابور الى سجستان ومدح واليها طاهر بن محمد فقبل هذا مدحته وأجازه عليها . ولكنه لم يلبث أن أغضب الوالي فسجنه وطال مكثه في السجن وساءت حاله كثيراً ، فبعث الى أبي نصر أحمد بن علي الميكالي بقصيدة مطولة يشكو فيها حاله ويصور بؤسه وشقاءه يقول فيها :

كتابي أبا نصر إليك وحالتي كحال فريس في مخالب ضيغم
أرق من الشكوى وأدجى من النوى وأضعف من قلب المحب المتيم

غدوت أخا جوع ولست بصائم ورحت أخا عرى ولست بمحرم

وقعت بفخ الخوف في يد طاهر وقوع سليك في حبائل خثعم [1]

وأفرج عنه ، فذهب إلى غرستان ، ولم يكن واليها عند حسن ظنه به فهجاه بمقطعات عدة . وهنا أدرك ضرورة العودة إلى نيسابور التي راج فيها أدبه ، وطاب عيشه فترة من الزمن فعاد اليها . ووفد منها على الصاحب بن عباد بأصبهان ، فاستحسنه هذا الاستحسان كله. وقربه التقريب كله ، وأغدق عليه الهبات جرياً على مألوف عادته مع أولي الادب والفضل . ولم تقف رعايته لأبي بكر عند هذا الحد ، بل انه زوّده برسالة إلى عضد الدولة ، وكان يومئذ بشيراز ، كانت سبب حظوته عنده وفوزه لديه . ويظهر أن نيسابور كانت أحب المدن التي زارها اليه وأطيبها أثرا في نفسه . فعاد إليها من شيراز واستوطنها واقتنى بها ضياعاً كثيرة وأقام فيها على خير حال . ثم وفد على عضد الدولة مرة أخرى ممتدحا إياه ، فأجزل عطيته وفرض له مرتّباً سنويا يحمل اليه في دار اقامته بنيسابور . فطابت حياته وعلت كلمته وسمت منزلته ، وفرغ للاستمتاع بما أوتي من نعمة العلم ونعمة المال ؛ فكان على حد قول الثعالبي : « يقسم أيامه بين مجالس الانس ومجالس الدرس » . ولكنه كان شديد التعصب لآل بويه شديد النقمة على ملوك خراسان . وبلغ أحد وزرائهم « أبا الحسن القبي » أنه هجاه فكتب الى عامله بنيسابور يأمره بحبسه ومصادرة أمواله ، فحبس وفرضت عليه غرامة قدرها مئة ألف درهم فدفع بعضها وهو في السجن،

(١) يشير الى وقوع سليك بن السلكة العدّاء المشهور فى اسر انس ابن مالك الخثعمي .

وأرسل مخفوراً الى بيته فأحتال على حراسه وألهاهم بالطعام والشراب، وفرّ متنكراً الى الصاحب بن عباد ، وكان يومئذ في جرجان ، فحماه وأكرم مثواه • ولم يزل عنده قرير العين ناعم البال الى أن قتل أبو الحسن القبي وخلفه في منصبه أبو الحسن المزني ، وكان هذا من محبي أبي بكر وعشاق فضله وأدبه • فاستدعاه إليه وأعرب له عن عظيم إعجابه به وتقديره له ، وكتب الى نيسابور برد ما أخذ من ماله اليه فكان ذلك • وسعدت أيامه بنيسابور مرة أخرى فكان موضع التجلة والاعظام في هذه الحاضرة يحترمه حكامها ويجله سراتها وأشرافها فلم يزل على هذا إلى أن أبتلى بزيارة أحمد بن الحسين (بديع الزمان الهمذاني) لنيسابور ومساجلته له ، تلك المساجلة التي أدت الى إنحطاط قدره وخمول ذكره • والتي سنذكرها في ترجمة البديع ان شاء الله ، فمرض لشدة ما أصابه من ذل الهزيمة ومرارة الانكسار • ومات في شوال من سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة للهجرة • ورثاه الهمذاني بأبيات يقول فيها :

يقولون أنت بـــه شامت ... فقلت الثرى بفـم الشامت
وعزّت على معـــاداته ... ولا متـــدارك للفـــائت

ب ـ صفاتـــه :

لم يدرس مؤرخو الرجل خصاله وخلاله ولم يدونوا ماله وما عليه في هذا الباب اللهم الا ما ورد عرضا في اثناء الكلام عنه • ولكننا إذا رجعنا إلى اخباره وآثاره علمنا منها انه كان عالي الهمة شديد المراس قوي العزيمة غزير الحفظ طويل اللسان منكراً للجميل بخيلاً الى أبعد

حدود البخل • وليس من العسير أن نقيم البرهان على ماله من مضاء العزيمة وعلو الهمة ، فقد برح مسقط رأسه خوارزم وهو في ريعان الصبا ، فما زال يطوف في الآفاق ويجوب البلاد من المشرق إلى المغرب وبالعكس يطلب العلم وينشد الادب ويبحث عن المال والجاه والشهرة حتى ظفر من كل ذلك بالشيء الكثير • ولا يشك أحد من معاصريه في أنه آية في الحفظ ، وهم يتناقلون في هذا الشأن حكاية خلاصتها أن أبا بكر لما وقف على باب الصاحب بن عباد قال لآذنه : قل له في الباب أديب يريد الدخول عليك • وأدّى الآذن الرسالة ، فقال له الصاحب : قل له ، قد ألزمت نفسي أن لا يدخل عليّ من الادباء • الاّ من يروي عشرين ألف بيت من شعر العرب • وابلغ الآذن جواب سيده أبا بكر فقال له : قل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ ! •

وما أريد ان أقبل هذه الرواية فانها ظاهرة التكلف والافتعال • ولكني استنتج منها ان حافظة أبي بكر كانت من القوة بحيث حملت معاصريه على أن ينسجوا حولها الأساطير •

بيد انه كان طويل اللسان خبيث الهجاء هجا كثيرا من الولاة والامراء بعد ما مدحهم والتمس عطفهم وطلب معروفهم • ولم يكن هؤلاء من رحابة الصدر وكرم الخلق بحيث يسامحونه ويصفحون عن زلاته دائماً فحبس وصودرت أمواله مراراً عديدة • بل لقد فكر بعض عمال خراسان بقطع لسانه جزاء تطاوله على ملوك ذلك الاقليم • وإذا صح ما رواه ابن خلكان من انه هجا الصاحب بن عباد بهذين البيتين :

لا تحمدنّ ابن عبّاد وإن هطلت يداه بالجود حتى أخجل الديما

فانهـــا خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما [٢]

أقول : اذا صح ذلك فانه يكون من نكران الجميل وكفران المعروف بحيث يستحق ما رواه ابن خلكان أيضا من تعقيب الصاحب ابن عباد على وفاته ، وهو قوله :

أقول لركب من خراسان قافـل أمات خوارزميكم ؟ قيل لي : نعم
فقلت : اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمـن من كفر النعم

وكان الى هذا بخيلا شديد البخل ، ولو لم يقع له في هذا الباب الا رفضه ملتمس بديع الزمان الهمذاني لكفى . فقد قدم هذا نيسابور وهو في حال يرثى لها ، فكتب إليه كتابا نفيسا ورقيقا جداً يستضيفه فيه فأعاره أذنا صماء وزوى وجهه عنه وقد أعرب بعض معاصري ابي بكر من الشعراء عن رأيهم فيه ، فقال ابو سعيـد احمد بن شهيد الخوارزمي أيضا :

أبو بكر لـه أدب وفضل ولـكن لا يدوم على الوفاء
مودتـه إذا دامت لخـل فمن وقت الصباح الى المساء

وقال آخر :

مات ابو بكر وكان امرأ ادهـم في آدابـه الغرّ

(٢) لم يفت ابن خلكان ان يذكر انه قرأ هذين البيتين ومعهما بيت ثالث في معجم الشعراء للمرزباني لمعاوية بن سفيان المعروف بأبي القاسم الأعمى في الحسن بن سهل وهذه هي رواية المعجم .

لا تحمدن حسناً بالجود ان نظرت كفـاه غزراً ولا تذممـه ان رزما
فليس يمنع ابقـاء على نشب ولا يجود لفضل الحمـد مغتنمـا
لكنهـا خطرات من وساوسه يعطى ويمنـع لا بخـلا ولا كرما

ولكنه ـ اي ابن خلكان ـ اكد انه رأى البيتين منسوبين للخوارزمي في الصاحب بن عباد في مجاميع طائفة من الادباء .

ولم يـكن حراً ولـكنه كـان امـير المنطق الحر

حـ ـ آثـاره :

١ ـ نثره : لابي بكر ديوان رسائل ومقدار لا بأس به من الشعر. يدل كل منهما على توقد ذهن وسعة خيال وقوة عارضة ولطافة أسلوب. والذي يهمنا الآن هو ديوان رسائله ، وقد طبع هذا في مصر سنة ١٣١٢ للهجرة طبعة لا بأس بها . وأنت إذا تصفحت هذا المجموع رأيت انه في مقاصده واغراضه وفي أخيلته وخواطره اشبه بديوان شعر منثور . ذلك انك تنتقل فيه من مديـح الى هجاء ومن تهنئة الى رثاء ومن استعطاف الى عتاب . ومعلوم ان هذه هي أهم أبواب القريض في زمن المؤلف . على انه لا يخلو من عظات ونصائح ذات طابع اجتماعي كتلك التي ينحي فيها أبو بكر باللائمة على تلميذ له مكابر ، ولكن هذه قليلة جداً .

أما من حيث اللغة والأسلوب فانه فصيح اللفظ متين السبك حافل بالزخارف البيانية كالجناس والطباق والاستعارة والتشبيه وما إلى ذلك ، جم الاسجاع عامر بالازدواج دون أن يخلو من كلام مرسل. وهذا على الرغم من زعم المؤلف في رسالة كتبها الى أحد أساتذته أنه صاحب ترسل ، إذ الصحيح أنه شديد الالتزام للسجع والازدواج . ولكنه من علو الكعب في صناعة الانشاء بحيث يخيل لك أنه يرسل نفسه على سجيتها ولا يستكره شيئاً من هذه الزخارف البيانية التي تحفل بها رسائله وإنما ينطق بها عفواً وتجري على لسانه طوعا .

على أن لغة الرجل وأسلوبه لا يخلوان من هنات وهفوات منها

قوله : « واستحالت تلك المواهب وهي مصائب [٣] . » إذ الصواب (واستحالت تلك المواهب مصائب) . وقوله في رثاء شاب : « وفقد الشباب الطري أكثر جزعا [٤] . » إذ الصواب (وفقد الشباب الطري أدعى الى الجزع) . وقوله : « ثم يعود العاقل منهم لما يرفو به الخرق ويرتق به الفتق فيقبل الزلة » [٥] . إذ الصواب (فيقبل العذر أو يصفح عن الزلة) . وقوله في رثاء أيام خلت : « أكلت الوجع وشربت الجزع » [٦] . فلا جدال في أن المجازين الذين تنطوي عليهما هاتان الجملتان مما يمجه السمع ولا يرتاح له الطبع بيد أنه من الحق ان نلاحظ ان هذه الهنات وتلك الهفوات ليست كثيرة في كتب الرجل .

ولكن هل في هذه الكتب ما يذكر بفارسية الكاتب ؟ نعم ؛ ان غلوه يضطرك في كثير من الاحيان الى التفكير بأنك انما تقرأ كاتبا فارسياً يطيب له أن يخلق من الذرة قفرا ومن القطرة بحرا . وقد يعجبك ان أقتطف لك مثلا من كلامه الذي يمثل غلوه ، اسمع قوله في وصف بستانه الذي يصغر من شأنه لسبب ما : « بقيعة طولها باع وعرضها ذراع ، أعني باع البقة وذراع الذرة ، وأقل من لا وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها أو دخلتها نملة لسدتها ، تسقى بالمسعط [٧] صباحا وتنكث بالخلال [٨] مساءً ،

(٣) رسائو الخوارزمي طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ ص ٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٤ .
(٦) المصدر نفسه ص ١٧ .
(٧) المسعط : ما يجعل فيه السعوط يصب فى الانف .
(٨) الخلال : ما تخال به الاسنان .

أشجارهامئة الا تسعة وتسعين وأنهارهاخمسون الا تسعةوأربعين»[٩].
وقوله في وصف قصيدة بعثبها اليهأحد تلاميذه: « وردتالقصيدةالغراء بل الدرة العذراء بل الهدية العظيمة بل الشمسة الكريمة بل الياقوتة اليتيمة بل فريدة الدر بل غرة الغر بل شمس الكرام وغريبة الايام بل الخطاب الجـزل والمنطق الفصـل بل الحسن والاحسان بل التبيين والبيان بل واحدة القصائد وخاتمة القلائد وآبدة الأوابد بل أميرة النظم والنثر بل ملكة الرجز والشعر بل حسنة الالسن ونزهة القلوب والأعين بل بستان الافكار وجلاء الابصار بل روح المعاني والمباني وهيكـل الاوزان والقوافي بل عقيلة الدهر ونادرة العصر وثمرة العمر وبيضـة العقر وترياق القلب بل ملبس تاج الفخر ومورثي كنز الذخر لا بل ليلة القدر فانها خير من ألف شهر وهذه خير من ألف بيت شعر ، ولم أعن البيت الموزون إنما أردت البيت المسكون ... الخ »[١٠] .

فاكبر الظن أنك توافقني على ان كاتبـا عربيا لا يبلغ في تصغير ما يريد تصغيره وتعظيم ما يريد تعظيمه ما بلغه ابو بكر في تصغير شأن بستانه وتعظيم شأن قصيدة تلميذه ، فقد غلا في كلا الامرين غلواً لا يستسيغه ذوق كاتب عربي ، أللهم الا ان يكون قد تأثر بمخالطة الفرس ومعاشرتهم وبدراسة أدبهم وتذوقه تأثرا كبيرا . ومع ذلك ففي امكاننا أن نقرر ان للخوارزمي رسائل بليغة تلذ قراءتها وتفيد روايتها ، اليك منها هذه الرسالة التي كتب بها الى تلميذ له بلغه أنه كابر في مناظرة فجعل الباطل حقاً والحق باطلاً :

---

(٩) المصدر نفسه ص ٨ .
(١٠) المصدر نفسه ص ٧٣ .

« بلغني أنك ناظرت ، فلما توجهت عليك الحجة كابرت ، ولما وضع نير [11] الحق على عنقك ضجرت وتضاجرت . وقد كنت أحسب أنك أعرف بالحق من أن تعقه ، وأهيب لحجاب العدل والانصاف من أن تشقه ، كأنك لم تعلم ان لسان الضجر ناطق بالعجز وان وجه الظلم مبرقع بالقبح ، وانك اذا استدركت على نقد الصيارفة وتتبعت خطأ الحكماء والفلاسفة فقد طرقت الى عيبك لعائبك ونصرت عدوك على صاحبك ، وقد عجبت من حسن ظنك بك وأنت انسان ، والله المستعان » [12] .

وهذه النبذة التي يصف بها الشعراء والتي أقتطفها لك من رسالة تقدم بعضها [13] :

« وإني لشاعر اذا أحس من لسانه بسطة ، ووجد في خاطره فضله وأصاب من القول جريانا ، ووجد ميدانا قال ما وجدت بيانا ، وما ظنك بقوم الاقتصاد محمود الا منهم ، والكذب مذموم الا فيهم ، اذا ذموا ثلبوا وإذا مدحوا سلبوا ، وإذا رضوا رفعوا الوضيع ، واذا غضبوا وضعوا الرفيع ، واذا أقروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد ، ولم تمتد اليهم بالعقوبة يد . غنيهم لا يصادر [14]، وفقيرهم لا يحتقر ،

---

(١١) النير : هو الخشبة التي توضع على عنق الثور وهو مستعمل هنا على سبيل المجاز .

(١٢) رسائل الخوارزمي طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ ص ٨ .

(١٣) كان ما تقدم من هذه الرسالة وصف البستان .

(١٤) لا يصح هذا بالنسبة للبحتري . فقد صودرت أمواله واستردت منه عطايا الخلفاء في أيام الفتن والاضطرابات التي تلت مصرع المعتز .

وشيخهم يوقر ، وحدثهم لا يستصغر ، وسهامهم تنفذ في الأعراض ، اذا نبت السهام عن الاغراض ، وتصل الى البعيد كما تصل الى القريب شهادتهم مقبولة وان لم ينطق بها سجل ، ولم يشهد بها عدل ، وسرقتهم مغفورة وان جاوزت ربع دينار ، أو بلغت ألف قنطار [١٥] ، ان باعوا المغشوش لم يرد عليهم وان صارموا الصديق لم يستوحش منهم ، بل ما ظنك بقوم هم صيارفة أخلاق الرجال وسماسرة النقص والكمال ، بل ما ظنك بقوم اسمهم ناطق بالفضل ، واسم صناعتهم مشتق من العقل [١٦] بل ما ظنك بقوم هم أمراء الكلام يقصرون طويله ويخففون ثقيله ويقصرون ممدوده ، ولم لا أقول ما ظنك بقوم يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون [١٧] .

وهذه القطعة التي أوردها لك من رسالة كتب بها الى مسكويه وقد تزوجت أمه :

« العاقل ، أعزك الله تعالى ، لا يرى المحنة اذا تخطت دينه محنة، ولا يرى النعمة اذا تعلقت بذنب خطيئة نعمة ، ولا يريد الشرف الا بالتقوى ، ولا يرى الضعة الا ما وضع من رتبته في الدار الأخرى ، وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى فحمدت الله تعالى الذي رزقك والداً لا يلزمك حق أبوته ، ووعدك أخاً لا يحملك حق أخوته.

---

(١٥) سرقات الشعراء مغفورة اذا كانت ادبية « وهذا لا يخلو من تحفظ » فانهم يحاسبون عليها حساباً ادبياً أيضا أما اذا كانت مادية فانهم يعاقبون عليها كما يعاقب اي فرد من الافراد اذا سرق .

(١٦) يشير ابو بكر بهذا الى ما تنص عليه معاجم اللغة من ان كلمة « شعر » تعني « علماً » و « فطنة » و « عقلا » .

(١٧) رسائل الخوارزمي طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ ص ٨ .

وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها والآن أسأله ان يعجل لك بوفاتها » (١٨) .

٢ ــ شعره : وشعر أبي بكر لا يقل عن نثره لطف خيال ورقة شعور وجمال لغة وصفاء أسلوب . ولكن الناس تواضعوا قديماً وحديثاً على اعتباره كاتبا أكبر منه شاعرا ، وناثرا أبلغ منه ناظما ، وأحسب أنهم على حق في هذا اذا استثنينا صفحات قليلة جدا من شعره . ومهما يكن من شيء ، فقد جاريت الناس في أمره ، فدرسته على انه كاتب ، ولكني أروي لك مثلا من شعره دون درسٍ ولا تحليل . قال يصف ليلة سعيدة:

وكم ليلة لا أعــلم الدهرَ طيبها ... مخافة ان يقتصَّ مني لهــا الدهر
سهاد ولكن دونه كل رقــدةٍ ... وليل ولكن دون إشراقه الفجــر

وقال متغزلاً :

ولقد ذكرتك والنجوم كأنهــا ... درر عــلى أرض من الفيروزج
يلمعن من خلل السحاب كأنهــا ... شرر تطاير في دخان العرفج (١٩)
والأفق أحلك من خواطر كاسب ... بالشعر يستجدي اللئام ويرتجي
فمزجت دمعي بالدماء ولم أكن ... صرف الهوى والعهد إن لم أمزج

وقال يهجو بني العباس لاسرافهم في منح الالقاب لمن يستحق ومن لا يستحق :

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابــا

(١٨) المصدر نفسه ص ١٠٢ . ولابن العميد كتاب فى مثل هذا الغرض لم يبلغ فيه شاو ابي بكر .
(١٩) العرفج : شجر .

ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحش[٢٠] بوّابا
قلّ الدراهم في كفّي خليفتنا هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وقال فى الفقر والغنى :

ولقد بلوت الاصدقاء فلم أر فيهم أوفى من الوفر
وكذاك لم أر في العدا أحدا أنكى لمن عادى من الفقر

وقال يرثي صديقاً قديماً انقلبت صداقته له عداوة :

صديق قد فقدناه قديم وثكل قد وجدناه جديد
مصاب وهو عند الناس نعمى ونحس وهو عند الناس عيد
تهنيني الأنام به ولكن تعزيني المواثق والعهود
وسيف قد ضربت به مرارا فمن ضرباته بي لي شهود
فلما أن تفلّل ظلّتْ أبكي وعندي منه بعدٌ دمٌ جسيد[٢١]
ومن عجب الليالي أن خصمي يبيد وأن حزني لا يبيد
وان النصف من عيني جمود وأن النصف من قلبي جليد
إذا سفحت عليه دموع عيني نهاها الهجر منه والصدود

وقال يرثي أبا الحسن المحتسبي :

وصاحبٍ لي لو حلّت رزيته بالطير ما هتفت يوما على فنن
عاشرته عشرة لو أنها وقعت بين الضحى والدجى سارا على سنن

---

(٢٠) فى القاموس : الحش مثلثة المخرج ، لانهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين .
(٢١) جسيد : يابس .

حتى اذا نلت سؤلي من مواهبه وصادني بشباك الوصل والمنن
ثكلته بعد ما سارت محاسنه في العظم واللحم سير الماء في الغصن

وقال مضمناً قول زهير بن أبي سلمى « ومن لا يظلم الناس يظلم »،

وهو معروف بتضمينه شعره أبياتاً أو أشطراً او بعض أشطر من أقوال من تقدمه من الشعراء :

عذيري من ضحك غدا سبب البكا ومن جنة قد أوقعت في جهنم
لأنك لا تروين بيتاً لشاعر سوى بيت من لم يظلم الناس يظلم

د ـ خاتمة :

الواقع ان أبا بكر الخوارزمي شاعر في منثوره كما انه شاعر في منظومه . وان نثره في معانيه ومبانيه صورة طبق الاصل من شعره . ولكنه يدرس ويؤرخ على أنه كاتب لأنه عدل بالنثر عن طريق الترسل الذي نهجه ابن المقفع ثم الجاحظ من بعده الى السجع . ولم يكن السجع طبعا من صنع الخوارزمي . فأنت تعلم أن القرآن يحتوي على شيء كثير منه ، وان خطب الراشدين وعهودهم ورسائلهم تحتوي على شيء كثير منه كذلك . ولكن الخوارزمي فضّله على غيره من أنواع الكلام والتزمه وتقيد به في معظم رسائله ، وشايعه في ذلك جماعة من كتاب القرن الرابع للهجرة بقصد وبدون قصد ، فصار كأنه صاحب طريقة جديدة في صناعة الانشاء . وبذلك شغل في تاريخ الأدب العربي مكانا لا يمكن تجاهله .

الفصل الثاني

بديع الزمان الهمذاني

أ ــ حيــاته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه • مولده • نشأته وتعليمه • اسفاره • غرضه منها • عند الصاحب بن عباد • مــع الاسماعيلية في جرجان • ما حدث له في طريق نيسابور • تودده الى أبي بكر الخوارزمي وفشله في ذلك • تناظرهما أو تهاترهما في دار نقيب نيسابور • اصلاح ذات بينهما • تجدد الخصومة بينهما على يد الوزير أبي القاســم • اندحار الخوارزمي • سوء حال الهمذاني في نيسابور • خروجه منها • تطوافه في خراسان وما وراء النهر • مقامه في هراة • زواجه • ابتسام الحياة له • وفاته •

ب ــ صفاتــه : ما يجمع بينه وبين الخوارزمي من سمات وصفات • ما يمتاز به • رياؤه بعض ما يمثله • بذاءته • كرمه •

جـ ــ آثاره : مميزاتها الفنية • بعض ما يعاب عليها • مُثل منها • نبذ من رسالة يطري فيها العرب ويندد بالمجوس • نبذة في وصف الكتّاب • رسالة الى سائل ألحف في التمــاس صلته • مثل من وصيته • مقاماته • نظرة فيها • مثل منها • شعره : مثل منه •

د ــ خاتمة: الفصل بين الخوارزمي والهمذاني •

أ ـ حيانـــه :

أخصب قريحة واوسع خيالاً وأقوى عارضة واكرم خلقاً أيضاً من أبي بكر الخوارزمي خصمه ووارث مكانته وشهرته في عالم صناعة الانشاء أحمد ابن الحسين بن يحيى التغلبي المكنّى بأبي الفضل والملقب ببديع الزمان الهمذاني وبالحافظ لسعة حفظه .

ولد في همذان حيث تقيم أسرته سنة ثمان وخمسين وثلثمائة للهجرة ، وبها نشأ وتلقى علومه . وليس من شك في أنه درس على اساتذة عديدين ، ولكننا لا نعرف من أساتذته سوى رجلين ، وهما احمد بن الحسين المعروف بابن فارس صاحب المجمل في اللغة وعيسى ابن هشام الأخباري الذي نحله نيما بعد مقاماته الآتي ذكرها . ويقول الرواة إنه استنفد علم استاذه ابن فارس وما ذلك عليه بعسير . وخرج من همذان سنة ثمانين وثلثمائة للهجرة . يطلب المال والجاه والصيت الذائع والشهرة الواسعة . ومن يدري لعله كان يحلم بأكثر من هذا ، فانه يقول لخلف بن أحمد والي سجستان في رسالة . « فما ازعجني عن همذان فقر ولا جوع وعري ، ولا ساقني إلى سجستان طمع في شبع وري ، وإنما نحوم حول المراد :

ولو ان ما اسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المـال

لا يكثر الأمير عليّ من خلعه وصلاته ، فوالله لو علمت انقصارى أمري سجستان أليها ، ضياعها أقتنيها . وغلمانها اشتريها ، وأموالها أتسع فيها ولا مطمع في زيادة ، لآثرت الزهد على الطلب » [1] .

(١) رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية ١٣١٥ ص ١٦٣ .

وواضح ان من يقول هذا لا ينوي ان يكتفي بالدنانير والخلع وبالصيت المدوّي والشهرة البعيدة المدى . وليس الهمذاني أول أديب ينتجع الملوك والأمراء بالمديح . ويخفي في نفسه اطماعاً واسعة . ترمي إلى اقتناص الحكم واغتصاب الملك والسلطان ، فقد سبقه المتنبي إلى مثل هذا ، وفي فوضى ذلك الزمان واضطراب أحواله ما يسمح لأمثال ذينك الأديبين الشجاعين باضمار مثل تلك المطامع .

ومهما يكن من شيء فقد بدأ بديع الزمان تطوافه بزيارة الصاحب ابن عباد فراجت عنده سوقه ونفقت بضاعته ، ولكنه ما عتم ان تركه إلى جرجان حيث أتصل بدعاة الاسماعيلية ولا سيما بأبي سعد محمد بن منصور . وكان هذا رجلا فاضلاً ومفضالا أيضاً ، فأكرم وفادة البديع وغمره بالهبات . ولكن لم يطل الوقت حتى برح صاحبنا جرجان إلى نيسابور إحدى عواصم العلم والأدب في ذلك العصر . وهنا خانه الحظ ، فقد خرجت عليه عصابة من قطاع الطريق سلبته كل ما كان معه من نقود وخلع . ولم يرو أحد من المؤرخين هذه الحادثة . ولكن الهمذاني يشير اليها في أولى رسائله إلى أبي بكر الخوارزمي كما سترى . ووصل نيسابور وهو بالحالة التي أشرنا اليها ، فرأى ان يستعين بالخوارزمي على ما ألم به من بؤس وشقاء فكتب اليه رسالة رقيقة هذا نصها :

« أنا لقرب الأستاد أطال الله بقاءه (كما طرب النشوان مالت به الخمر) ومن الارتياح للقائه (كما أنتفض العصفور بلله القطر) ومن الامتزاج بولائه (كما التقت الصبهاء والبارد العذب) ومن الابتهاج بمرآه (كما أهتز تحت البارح الغصن الرطب) . فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتي

نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في بردة جمّال وجلدة حمال
رثّ الشمائل منهج [٢] الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب
كمهلهلٍ وربيعة بن مكدّم وعيينة بن الحارث بن شهاب

وهو أيده الله وليّ انعامه بانفاذ غلامه الى مستقري لأفضي اليه بسرّي ان شاء الله » [٣] .

وكان من واجب الخوارزمي أن يكون عند حسن ظن البديع به ، ولكنه لم يكن كذلك لضيق نظره ونقص مروأته ومع ذلك فقد زاره الهمذاني ،ولكنه تمادى في تقصيره نحوه فاستقبله استقبالاً فاتراً كما يتبين من رسالة بعث بها اليه البديع . وهنا دارت بين الرجلين رسائل هي إلى السخف أقرب منها الى أي شيء آخر . فقد كان الهمذاني يعاتب الخوارزمي على عدم استقباله إياه بلطف وبشاشة ، ويقارن بين مسلكه في قرى الضيف وبين مسلك العرب في هذا الشأن . وكان الخوارزمي يعتذر عما وقع له بأنه فعل كل ما في طوقه وبذل كل ما في وسعه في أكرام البديع . ثم بدأ للمترجم ان يناظر الخوارزمي ويساجله في كل ما يتشدق به من سعة حفظ ووفرة علم وحضور بديهة ، وشجعه على ذلك نفر من علماء نيسابور وأدبائها كانوا مستوحشين من الخوارزمي. فعقد أبو علي نقيب الأشراف في نيسابور مجلساً لهذا الغرض ، ودعا الخوارزمي فترفّع عن الحضور ، ولكنّ النقيب ألحّ ، وبعث الى أبي بكر مركباً فلم يجد بدّاً من تلبية الدعوة . وحضر المجلس ومعه عدد كبير من تلاميذه . وعرض عليه الهمذاني أن يناظره في أي فن من فنون

(٢) منهج : من انهج الثوب خلق وبلي .
(٣) رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ٨ ومعجم الادباء لياقوت ج ٢ ص ١٦٨ .

الأدب أراد ، فأختار الخوارزمي المبادهة « أي المسابقة في سرعة الخاطر » • ورضي الهمذاني بذلك ، ونظم أبياتاً مدح فيها النقيب وندّد بالخوارزمي ، مطلعها :

الشعر أصعب مذهباً ومصاعداً ... من أن يكون مطيعه في فكه

فردّ عليه الخوارزمي بأبيات من نفس العروض والقافية « لم يخرجها من غلافها » • ثم أقترح عليهما النقيب أن يقولا شيئاً على غرار قافية المتنبي التي مطلعها :

أرق على أرقٍ ومثلي يأرق ... وجوىً يزيد وعبرة تترقرق

فنظم أبوبكر أبياتاً أقل ما يقال فيها إنها لا تستحق الذكر ، وأجابه الهمذاني بأبيات لا أسرف اذا قلت لك انها على جانب كبير من البذاءة وسوء الأدب • واعترض الخوارزمي على بيت من أبيات البديع • فأجابه الهمذاني جواباً لا أثر فيه للمجاملة (٤) • وعاود النقيب الكرة ، فأقترح على الشاعرين المتساجلين أن ينسجا على منوال قصيدة أخرى للمتنبي مطلعها :

أهلاً بدار سباك أغيدها ... أبعد ما بان عنك خرّدها

فقال البديع :

يا نعمةً لا تزال تجحدها ... ومنّة لا تزال تكندها

فأنكر الخوارزمي استعمال « كند » بمعنى « كفر » وخطأه

(٤) اعترض الخوارزمي على صرف الهمذاني كلمة « احمق » في قوله:
« يا أحمقاً وكفاك تلك فضيحة ... جربت نار معرتي هل تحرق »
فقال له الهمذاني : « لا نزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف »
معجم الادباء ج ٢ ص ١٧٦ طبعة مصر .

الحاضرون مذكرين إياه قوله تعالى « ان الإنسان لربه لكنود » . وتقدم الليل ، ومال النعاس بالرؤوس ، فأوى المجتمعون الى مضاجع أعدت لهم في دار النقيب ، فلما اصبحوا تفرقوا : وبعضهم يقضي بغلبة البديع والبعض الآخر بغلبة أبي بكر . وسعى أهل الخير لاصلاح ذات بين الأديبين ، ونزل الهمذاني على رغبة هؤلاء فأعتذر الى أبي بكر وسأله الغفران قائلاً : « ان الصفو بعد الكدر والصحو بعد المطر » . وقبل أبو بكر عذره ورجاه أن يقضي سحابة نهاره عنده ففعل . ولكن الوزير أبا القاسم أبى إلا أن يلتح الفتنة بين الرجلين من جديد ، فعقد في داره مجلساً كبيراً حضره فقهاء نيسابور وأدباؤها وفتح باب المساجلة بين الخوارزمي والهمذاني مرة أخرى وكانت مهاترات وكانت مشاتمات انتهت بغلبة البديع على الخوارزمي غلبة تامة . وانك لتستطيع ان تتبين غرض الوزير أبي القاسم من هذا الاجتماع إذا علمت أنه قال للبديع في ختام المساجلة « ملكت فأسجح » وهي كلمة قالتها عائشة للامام علي (رض) عندما ظفر بها يوم البصرة .

وأمعن البديع بعد هذا في هجو أبي بكر ، فهجاه بشعره ونثره واصفاً إياه بما فيه وما ليس فيه من العيوب والنقائص . ذلك هو حديث البديع مع الخوارزمي بايجاز . ولكن كيف كانت حال الأول بنيسابور من الناحية المادية ؟

لا يقول مؤرخو الأدب لنا شيئاً في هذا الصدد ، ولكن البديع يقول لنا : أن فضلاء نيسابور كانوا يحبونه ولكنهم لا يعينونه ، حتى لقد أضطر للاستجداء إبقاءً على رمقه . استمع اليه يتحدث عن هذا في رسالة كتبها إلى الشيخ العميد يسأله عملا يقتات به :

« أنا أطال الله بقاء الشيخ العميد مع أحرار نيسابور في صنعة لا فيها أعان ولا عنها أصان ، وشيمة ليست بي تناط ولا عني تماط ، وحرفة لا فيها أدال ولا عني تزال ، وهي الكدية التي عليّ تبعتها وليست لي منفعتها . فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفاً يحط عنه درن العار وسمة التكسب والافتقار ، ليخف على القلوب ظله ويرتفع عن الأحرار كلته ، ولا يثقل على الاجفان شخصه باتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله ليعلق بأذياله ، وليستفيد من خلاله فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله والادب عن أذلاله واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله . وللشيخ العميد فيما يجيب به صنيعته عن وعد يعتمده ووفاء يتلو ما يعده ، عالي رأيه ان شاء الله . » (٥)

وما من أحد يجهل أن الهمذاني أملى في نيسابور أربعمائة مقامة في الكدية نحلها أبا الفتح الأسكندري . وعندي أن أبا الفتح الاسكندري هو أبو الفضل الهمذاني نفسه . وأن الأيام العصيبة التي مرّت به في نيسابور هي التي أوحت اليه هذه المقامات . بيد أنه استطاع بعد لأي أن يفلت من مخالب الفاقة التي كانت آخذة بخناقه في نيسابور ، وربما كان ذلك على يد عدنان بن محمد رئيس (هراة) . فاننا نجد للهمذاني رسالة يشكو فيها اليه سوء مقامه بنيسابور ويقول له إنه (بعث اليه بما عنده وهو المدحة) وبقي عليه هو الأخر (أن يبعث بما عنده وهو المنحة) .

ومهما يكن من شيء فقد ترك الهمذاني نيسابور غير آسف عليها، وزار سجستان وخراسان ومدح كثيراً من الأمراء والكبراء ، فظفر

(٥) رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ١٠٢ .

بالمال الكثير والجاه العريض . وفي رسالة كتبها إلى عمه ما يدل على أنه تقرّب من بعض الملوك فعلت منزلته وعظمت ثروته . ولكننا لانعرف لسوء الحظ ذلك الملك ولا نعلم كيف ومتى ظفر بعطفه وأستولى على قلبه . وقد لا يخلو من فائدة ان أقتطف لك شيئاً من هذه الرسالة رغبة في استقصاء حال الرجل على قدر المستطاع قال :

« إني في بـلاد وان لم يكن لأهلهـا تمييز ، فأنا بينهم عزيز ، يعظمونني تقليداً ويرونني فريدا ، والمال يجري فيضاً ولكني لا أبلعه ريقاً ولا آلوه تفريقاً . فهو يأتي مدّاً ويذهب جزرا ، والسلطان مقبل غاية الاقبال بالجاه والمال » (٦) .

ها هي ذي الدنيا أذن تبسم للهمذاني وتقبل عليه الاقبال كله في ظل ملك كريم يكبر فضله ويعجب بأدبه ويفتح له أبواب قلبه وخزائنه على السواء . ولكن الهمذاني يحدثنا في رسالة أخرى عن غضبة ملك تنذره بزوال نعمته بل بدنوّ منيته ولسنا نعلم أهذا الملك الساخط المنذر بالويل والثبور هو نفس الملك المنعم المحسن الذي تقدمت الاشارة اليه أم غيره ؟ ..

وعلى كل حال ألقى الهمذاني عصا تسياره في هراة احدى مدن خراسان واقتنى بها ضياعا فاخرة وأصهر الى أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي أحد فضلاء هذه المدينة ، فاطمأنت به الدار وطاب له المقام وعاش عيشة هنيئة مدة من الزمن . بيد ان هذه السعادة لـم تطل . فقد فارق الدنيا في الحادي عشر من جمادي الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة للهجرة ولم يجاوز الاربعين إلا قليلاً . ويقال انه

(٦) رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ١٥٣ .

جنّ في أواخر أيامه ، ويقال كذلك انه مات مسموما ، وقد دفن في حالة اغماء شديد فأفاق في قبره وسمع يستنجد ويستغيث ، وكشف عنه القبر فوجد ميتاً وقد انحرف عن مكانه وقبض على لحيته .

ب ـ صفاتـــه :

بين الخوارزمي والهمذاني وجوه شبه عدة من حيث السمات والصفات ، فكلاهما طالب مال وجاه وصيت ، وكلاهما رحالة مغامر حقق عن طريق الرحلة والمغامرة شيئاً غير قليل من مطامعه وآماله ، وكلاهما عظيم الحفظ الى درجة تبعث على الاستغراب ، وكلاهما سليط اللسان كثير السباب . ولكن الهمذاني يمتاز بكثرة التصنع وشدة الأنفة وبشيء آخر هو الرغبة الصادقة في اصطناع المعروف . وقـد حدثتك بشيء من التفصيل عن سجايا الخوارزمي في فصل سابق فأحدثك الآن بشيء من التفصيل كذلك عن سجايا الهمذاني .

ويؤسفني ان أقول لك انه شديد الرياء كثير التصنع يقول بلسانه ما ليس بقلبه . فيعلن الحب وهو يكتم البغض ، ويظهر الرضا ، وهو يضمر السخط ، ولا أدل على ذلك من هذه الاشواق الحارة التي يتحدث بها إلى الخوارزمي [٧] بعد أن أبى هذا أن يسعفه ويقدم له معونته . ولم يكن الخوارزمي من الغفلة بحيث يصدق هذه الأشواق، فقد طالبه ان يكف عن مؤاخذته ويمسك عن معاتبته إن كان صادقا في أشواقه [٨] .

(٧) معجم الادباء ج ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢ طبعة مصر .
(٨) المصدر نفسه ص ١٩٤ .

وبلغ من تكلف الرجل وتغييره حقائق الاشياء ان نحل أباه عدة رسائل زعم انه كتب بها اليه ليقول الناس ان والده صاحب يد طولي في صناعة الانشاء (٩) .

وكما يسرف الهمذاني على نفسه في الرياء والتصنع يسرف على نفسه كذلك في ثلب الناس والنيل من أقدارهم . وما أظنني أغلو اذا قلت لك ان كثيراً من رسائله في العتاب تعيد الى الذاكرة أهاجي جرير والفرزدق والاخطل (١٠) . وفي الواقع أن الخوارزمي خبيث اللسان مر الهجاء ، إلا انه يتحاشى استعمال الالفاظ البذيئة التي يحظر الادب أستعمالها بينا لا يرى الهمذاني شيئا يمنعه من استعمال أي لفظ . بيد أنه سريع الخاطر قوي الحافظة إلى درجة لا تكاد تصدق فصاحب اليتيمة ، وهو رجل يعرفه معرفة شخصية ، يقول عنه في هذا الشأن ما نصه تقريباً ، انه يرتجل القصيدة البليغة ويحبر الرسالة الجيدة على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه ، ويسمع القصيدة التي تتألف من خمسين بيتاً مرة واحدة فيعيدها دون ان يخرم منها حرفاً ، وينظر في الاوراق العديدة التي لم يرها قط نظرة واحدة فيهذ ما تحتويه هذه (١١) .

وغني عن البيان أني أروي هذه الاقوال بتحفظ . ولكني أستدل منها على أن حظ المترجم من سرعة الخاطر وقوة الحافظة عظيم وليس

(٩) من هذه الرسائل المنحولة التي حملها بديع الزمان على ابيه اذا صح ما يقول جامع رسائله قوله : « الابوة باطلها حق والبنوة حقها باطل . ولو علمت ان مناظرة الوالد بالحجة عقوق ومجاهرته بالشبهة فسوق لم تلقني بأبر من القبول واحسن من ترك الفضول . رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ١٦٩ .

(١٠) انظر رسائل الهمذاني ص ٨٧ و ٨٨ و ١٤٣ و١٩٥ وغيرها كثير .

(١١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ طبعة دمشق .

هذا كل شيء ، فان صاحبنا شديد الأنفة شديد الحرص على كرامته شديد الاعتداد بفضله وأدبه ، وربما كان هذا هو السبب في كونه كثير البرم بأصدقائه من السراة والنبلاء ، كثير العتب على إخوانه • وهو لا ينكر معروف ذي المعروف منهم ، ولكنه لا يسمح لأحد مهما كان أن يجرح كبرياءه أو يغض من شأنه ، أو أن لا يوفيه حقه أو ما تصبو اليه نفسه من التجلة والاحترام • وأشرف خصاله دون شك رغبته الاكيدة في اصطناع المعروف ، وقد رأيت أنه يقول لعمه في رسالة كتب بها اليه : « المال يأتي مدّاً ويذهب جزرا ، وأنا لا ابلعه ريقاً ولا آلوه تفريقا » • وما أريد ان اصدّق أن إنساناً يطلب المال كما يطلبه الهمذاني ويلقى في سبيل تحصيله ما يلقى من صعاب ومشاق ، يفرقه بهذه السهولة ، ولكني لا أشك في أنه كان يستخدم نفوذه في سبيل مصالح الناس إلى أبعد حدٍ مستطاع ، ويبذل شفاعته لكل من احتاج اليها • وفي رسائله العديدة التي يشفع فيها لدى أولياء الأمور للناس أفراداً وجماعات خير شاهد على ذلك (١٢) •

ح ـ آثاره :

للهمذاني رسائل ومقامات وديوان شعر • طبعت كلها وأعيد طبع بعضها • وأتحدث هنا عن رسائله ومقاماته على أن أتبع هذا طائفة من شعره دون درس ولا نقد ، لأني أدرسه وأؤرخه على أنه كاتب لا شاعر ، وإن كان شعره خليقاً بالنقد جديرا بالدرس لمتانته وجودته •

وأنت اذا تأملت رسائل المترجم رأيت أنها عبارة عن قصائد

(١٢) انظر رسائل الهمذاني ١٤٥ و ١٤٦ ـ ١٤٧ و ١٤٨ وغيرها .

منثورة لاشتمالها على المديح والرثاء والعتاب والهجاء . وغير ذلك من أبواب الشعر القديم . وهي من هذه الناحية تشبه رسائل الخوارزمي ـ كما تشبهها في اصطناع السجع وإيثار الازدواج دون اخلال بفصاحة اللفظ ومتانة التعبير وصفاء الديباجة على العموم . ولكنها تمتاز بكثرة الاستشهاد بالشعر والاتيان بالجمل المترادفة التي يشبه بعضها بعضاً ويغني بعضها عن بعض ، وبالزخرفة البيانية التي يعنى بها المترجم على اختلاف أنواعها عناية صادقة . والتي يضحّي أحيانا في سبيلها بسلامة أدائه وصفاء ديباجته وجلاء مقاصده وأغراضه . كما في قوله عن العرب انهم « ألطى وألطف وأحصى وأحصف » . فان المعنى المعقول الوحيد الذي يمكن أن يحمل قوله « ألطى » هو أنهم أكثر التجاءً الى الصخور والكهوف ، وهو مما لا يحسد عليه جيل من الناس . أما قوله إنهم « أحصى » فانه منقوض بالبداهة اذا كان يعني أنهم أعرف بالحساب وتدبير أمور الدواوين . اذ من المعلوم أن العرب اعتمدوا في صدر دولتهم على الروم والفرس والقبط في تدبير أمور الحساب . وأكبر ظني أن الجناس وحده هو الذي حدا بالهمذاني الى تركيب هاتين الجملتين.

على أن في لغة الهمذاني وأسلوبه هنات أخرى لا بد من مؤاخذته عليها . منها استعمال الألفاظ البذيئة التي لا يبيح الأدب استعمالها وما أظن أنه كان سيء الادب . ولكني أظن أن حدة مزاجه [١٣] هي التي كانت تدفعه الى استعمال هذه الألفاظ ، فلا يحتاط ولا يتحفظ. ومنها تحميل اللغة أكثر مما تستطيع ، أو قل غموضه الشديد في بعض الاحيان . ومن الامثلة على ذلك قوله : « ورد للخوارزمي كتاب يتقلب

(١٣) وصف الهمذاني نفسه في رسالة فقال انه « ناري المزاج ضعيف البنية يابس العظام حاد الطبع » رسائل الهمذاني ص ٩٨ .

فيه على جنب الحر » [١٤] وقوله : « احتكمنا الى الحجارة والتعبير نصف التجارة » [١٥] وقوله : « أنا أخاطب الشيخ الإمام والكلام معجون والحديث شجون » [١٦] اذ ما معنى « يتقلب على جنب الحر»؟ وما معنى « احتكمنا الى الحجارة والتعبير نصف التجارة » ؟ وما معنى « الكلام معجون » ؟! الواقع أن الهمذاني كان في غنى عن أمثال هذه التعابير .

ومنها الامعان في تكلف السجع الى درجة تبعث على النفور والاشمئزاز . ومن الامثلة على ذلك قوله : « مدّ لها اللحظ فلم يحظ ، وهذا ابن عبّاد شدّ لها الرحل فلم يحل » وقوله : « هذا والرحيل غدا وإن رغم أنف أبي الدردا وقرت عيون الاعدا وعلا نفسي الصعدا وانطوى القلب على الدا » [١٧] .

ولكن من الانصاف أن نقرر أن هذه الهنات قليلة في آثاره ، وأنه في الغالب فصيح اللغة نقي الديباجة متين التأليف . وهو كذلك في رسائله وفي أكثر مقاماته على حد سواء . وهناك من رسائله ومقاماته ما ينهي بتأييد هذا الزعم قال من رسالة يندد فيها بعيد من أعياد المجوس ويفخر بالعرب :

« نحن أطال الله بقاء الشيخ اذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الامم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ولم ننكر أن تكون

(١٤) رسائل الهمذاني ص ١٢٢ طبعة مطبعة هندية بمصر سنة ١٣١٥ هجرية .
(١٥) المصدر نفسه ص ١٣٤ .
(١٦) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
(١٧) رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية ١٣١٥ هـ ص ٢٠٢ .

أمة أحسن من العرب ملابس . وأنعم منها مطاعم . وأكثر ذخائر وأبسط مسالك . وأعمر مساكن ولكنا نقول : العرب أوفى . وأوفر . وأوقى . وأوقر . وأنكى . وأنكر . وأعلى . وأعلم . وأحلى . وأحلم ؛ وأقوى . وأقوم . وأبلى . وأبلغ . وأشجى . وأشجع . وأسمى ؛ واسمح . وأعطى . وأعطف . وألطى . والطف . وأحصى . وأحصف ؛ وأنقى . وآنق . ولا ينكر ذلك الا وقح وتح [١٨] . ولا يجحده الا نغل نغر [١٩] . وانما قدم الله تعالى ملك العجم ليحتج عليها وانما أخر ملك العرب ليحتج بها » [٢٠] . ومنها : « ان عيد الوقود لعيد إفك . وان شعار النار لشعار شرك . وما أنزل الله بالسدق [٢١] سلطانا . ولا شرف نيروزا ولا مهرجانا . وانما صب الله سيوف العرب على فروق [٢٢] العجم لما كره من أديانها . وسخط من نيرانها . واورثهم ارضهم وديارهم وأموالهم حين مقت فعالهم . وان أنصف الشيخ الرئيس أيام الله لديه وجدها كلها أعيادا ضاحكة المباسم . ظاهرة المواسم . فلا وقدت نار المجوس ، والله ما أقول ذلك الا غيرة على نعمته وشفقة على خطته » [٢٣] .

---

(١٨) الوتح : الخسيس .

(١٩) نغر : حاقد .

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

(٢١) عيد السدق احد اعياد الفرس الكبرى وهي النيروز والمهرجان وهو ، وقد اعتاد الفرس القدماء ان يشعلو فيه نيرانا كثيرة تقديسا لاسطورة من الاساطير .

(٢٢) الفروق : جمع فرق ، وهو هنا وسط الراس .

(٢٣) رسائل الهمذاني ص ١٧٠ طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ .

وقال من رسالة كتب بها الى أبي نصر بن المرزبان :

« كنت ـ أطال الله بقاء سيدي ومولاي ـ في قديم الزمان • أتمنى للكتّاب الخير • وأسأل الله أن يدر عليهم أخلاف الرزق • ويمد لهم أكناف العيش • ويوطئهم اعراف المجد • ويؤتيهم اصناف الفضل ويركبهم أكتاف العز • وقصاراي أن أرغب الى الله تعالى في أن لا ينيلهم فوق الكفاية • ولا يمد لهم في حبل الرعاية • فشد ما يطغون للنعمة ينالونها • والدرجة يعلونها• وسرعان ما ينظرون من عال بما ينظمون من حال • ويجمعون من مال وتنسيهم أيام اللدونة أوقات الخشونة • وأزمان العذوبة ساعات الصعوبة • وللكتاب مزية في هذا الباب • فبيناهم في العطلة أخوان كما انتظم السمط ، وفي العزلة أعوان كما أنفرج المشط ، حتى لحظهم الجد لحظة حمقاء بمنشور عمالة • أوصك جعالة ، فيعود عامر ودهم خرابا ، وينقلب شراب عهدهم سرابا • فما علت أمورهم حتى اسبلت ستورهم ، ولا غلت قدورهم الا خلت بدورهم • ولا اتسعت دورهم الا ضاقت صدورهم ، ولا أوقدت نارهم الا انطفأ نورهم ، ولا زاد مالهم الا نقص معروفهم ، ولا ورمت أكياسهم الا ورمت أنوفهم ، ولا تبلجت عتاقهم الا فظعت أخلاقهم ، ولا صلحت أحوالهم الا فسدت أفعالهم ، ولا حسنت حالهم الا قبحت خلالهم ، ولا فاض جاههم الا غاضت مياههم ، ولا لانت برودهم الا صلبت خدودهم ، ولا علت جدودهم الا سفل جودهم ، ولا طالت أيديهم الا قصرت أياديهم » (٢٤) •

---

(٢٤) رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ٩٢ ـ ٩٤ .

وقال يخاطب مستميحاً عاوده مراراً :

« عافاك الله ، مثل الانسان في الاحسان ، مثل الأشجار في الإثمار. سبيل من أتى بالحسنة أن يرفه الى السنة . وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدي ، وهما فؤادي ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليد فتولع بالجود ، ولكن هذا الخلق النفيس لا يساعده الكيس وهذا الطبع الكريم ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الأدب والذهب فلمَ جمعت بينهما . والأدب لا يمكن ثرده في قصعة ولا صرفه في ثمن سلعة . ولي مع الأدب نادرة : جهدت في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ من جيبية الشماخ لوناً فلم يفعل ، وبالقصاب أن يسمع أدب الكتاب فلم يقبل . واحتيج في البيت الى شيء من الزيت ، فأنشدت شيئاً من شعر الكميت ، ألفاً ومئتي بيت ، فلم يغن . ولو وقعت أرجوزة العجاج في توابل السكباج ما عدمتها عندي . ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ ! فان كنت تحسب اختلافك إلي افضالا عليَّ ، فراحتي أن لا تطرق ساحتي ، وفرجي في أن لا تجي . والسلام » (٢٥) .

وقال في وصيته :

« أوصى إذا جاءه الحق وأشخصه الأمر وجدَّ به الجدّ وتوفاه الموت ، أن لا تعقد عليه مناحة . ولا يلطم خد ولا يخمش وجه ولا ينشر شعر ولا يمزَّق ثوب ولا يشق جيب ولا يهال نقع ولا يرفع صوت ولا يدعى ويل ولا يسوَّد باب ولا يخرق متاع ولا يقلع غرس ولا يهدم بناء ولا يطرق الشيطان اليه طريقاً ولا يمثل له أمراً . فمن فعل ذلك

(٢٥) المصدر نفسه ص ١٣٦ .

فليس من الله تعالى في حل ولا من الميت في حل • وإنما يفعل ذلك من لا يرى الحياة عارية ولا يرى العارية مردودة ومن علم أن الدنيا دار جهاز وأن الموت جسر جواز استشعره قبل حلوله ولم يرعه وقت نزوله • وأن يكفن في ثلاثة أثواب بيض قباطي لا سرف فيها • وحرج على من يتولى أمره أن يقرنه ثوب خيلاء مطرّزاً أو معلماً أو إبريسما أو منسوجا بذهب انه لمحتاج أن يستكين ويتشبه بالمساكين • فمن بدله بعد ما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه • ان الله سميع عليم • وأن يتولى الصلاة عليه أصحاب الحديث وأهل السنة ، وأن يلحد ولا يبنى عليه • ولا تشهد النساء فيحملهن على الصراخ والعويل • » (٢٦)

وكلام الهمذاني المختار في رسائله كثير ، أكتفي منه بهذا المقدار رغبة في الايجاز •

أما مقاماته فانها مجموعة حكايات كثرتها الكبرى في الكدية تتخللها نكت وطرائف أدبية وفوائد لغوية معظمها مرذول وقليل منها مقبول • وقد قلت لك عند الاشارة اليها بصدد إقامة المؤلف في نيسابور إن بطلها أبو الفتح الاسكندري هو أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني نفسه • وأحسب أني اقمت البرهان على هذا عندما تحدثت اليك عن أيام الضيق والضنك التي مرت به في نيسابور وقلت لك في مكان آخر إن راويتها عيسى بن هشام رجل خيالي نحله المؤلف اسم استاذه الذي روى عنه الأخبار • والآن إليك هذه المقامة الموسومة بالقزوينية والتي يخيل اليّ أنها من أقل مقامات المؤلف خسة وأولاها بالقبول ان صح هذا التعبير • قال :

---

(٢٦) رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

« حدثنا عيسى بن هشام قال : غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين ، في من غزاه • فما أجزنا حزناً ، إلا هبطنا بطنا • حتى وقف المسير بنا على بعض قراها • فمالت الهاجرة بنا إلى ظل اثلات في حجرتها [٣٧] بين كلسان الشمعة ، أصفى من الدمعة ، تسيح في الرضراض سيح النضناض [٣٨] • فنلنا من الطعام ما نلنا ، ثم ملنا الى الظل فقلنا • فما ملكنا النوم حتى سمعنا صوتاً أنكر من صوت الحمار ، ورجعاً أضعف من رجع الحوار • يشفعهما صوت طبل كأنه خارج من ماضغي أسد ، فذاد عن القوم رائد النوم • وفتحت التوأمتين [٣٩] اليه ، وقد حالت الأشجار دونه ، واصغيت فاذا هو يقول على إيقاع الطبول :

أدعو الى الله فهل من مجيب ... إلى ذرىً رحبٍ ومرعىً خصيب

وجنةٌ عاليةٌ ماتني ... قطوفها دانية ما تغيب

يا قوم اني رجل تائب ... من بلد الكفر وأمرى عجيب

إن أك آمنت فكم ليلة ... جحدت ربي وأتيت المريب

يا رب خنزير تششته [٣٠] ... ومسكر أحرزت منه النصيب

ثم هداني الله وانتاشني [٣١] ... من ذلة الكفر اجتهاد المصيب

فظلت أخفي الدين في أسرتي ... وأعبد الله بقلب منيب

أسجد للات حذار العدى ... ولا أرى الكعبة خوف الرقيب

وأسأل الله اذا جنني ... ليل وأضناني يوم عصيب

---

(٣٧) فى حجرتها : فى ناحيتها .
(٣٨) النضناض : الافعى .
(٣٩) المراد بالتوامتين : الاذنان .
(٣٠) تمششته : مصصت عظامه .
(٣١) انتاشني : خلصني .

ربي كما انك أنقذتني فنجّني ، إني فيهم غريب
ثم اتخذت الليل لي مركباً وما سوى العزم أمامي جنيب
فقدك [٣٢] من سيري في ليلة يكاد رأس الطفل فيها يشيب
حتى اذا جزت بلاد العدا الى حمى الدين نفضت الوجيب
فقلت إذ لاح شعار الهدى نصر من الله وفتح قريب

فلما بلغ هذا البيت قال : يا قوم وطئت داركم بعزم لا العشق شاقه ، ولا الفقر ساقه . وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا وكواعب اترابا ، وخيلاً مسومة وقناطير مقنطرة ، وعدة وعديداً ومراكب وعبيداً ، وخرجت خروج الحية من جحره وبرزت بروز الطائر من وكره ، مؤثراً ديني على دنياي ، جامعاً يمناي الى يسراي ، واصلاً سيري بسراي . فلو دفعتم النار بشرارها ، ورميتم الروم بحجارها . واعنتموني على غزوها . مساعدة واسعاداً . ومرافدة وارفاداً ، ولا شططت فكل على قدر قدرته وحسب ثروته ، ولا استكثر البدرة واقبل الذرة ولا أرد التمرة ، ولكل مني سهمان ، سهم اذلّقه [٣٣] للقاء ، وآخر افوقه بالدعاء وارشق به أبواب السماء عن قوس الظلماء . قال عيسى بن هشام : فاستفزني رائع ألفاظه . ونضوت جلباب النوم وعدوت الى القوم . فاذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري بسيف قد شهره وزيٌّ قد نكّره . فلما رآني غمز إليّ بعينه وقال . رحم الله من أحسن عشرته . وملك نفسه وأعاننا بفاضل ذيله ، وقسم لنا من نيله . ثم أخذ ما أخذ . وخلوت به فقلت أ أنت من أولاد بنات الروم ؟ فقال :

أنا حالي مع الزما ن كحالي مع النسب

(٣٢) قدك : حسبك .
(٣٣) اذلقه : احده .

نسبي في يـــد الزما ن إذا سامـــه انقلب
أنا أمسي مـن النبيـــيط وأضحي مـن العرب

شعره :

أما شعر الهمذاني فانه يشبه نثره من حيث مقاصده وأغراضه . أعني أنه شخصي بحت يدور حول المديح والرثاء والهجاء والعتاب وما إلى ذلك . ولكنه يقل عنه بعض الشيء من حيث لغته وأسلوبه . إليك منه هذه الارجوزة في المديح :

يا آل عصم أنتم أولو العصم (٣٤) لم توسموا إلا بنيران الكرم
طابت مبانيكم وطبتم لا جرم يا سادة السيف وأرباب القلم
تهمي سجاياكم بعقيان ودم أنتم فصاح ماخلا في لا ولم
الجار والعرض لديكم في حرم والمال للآمال نهب مقتسم
أنتم أسود المجد لا أسد الأجم يا سيداً نيط له بيت القدم
بالعمد الأطول والفرع الأشم هل لك أن تعقد في بحر الشيم
عارفة تضرم ناراً في علم ويقصر الشكر عليها ؟ قل نعم
أما وإنعامك انه قسم وثغر مجدٍ عن معاليك ابتسم
إنك في الناس كبرء في سقم يا فرق ما بين الوجود والعدم
وبعد ما بين الموالي والخدم ما أحد كهاشمٍ وإن هشم
ولا امرؤ كحاتم وإن حتم ليس الحدوث في المعالي كالقدم

وهذه الابيات فى ذم الزمان :

قبحاً لهذا الزمان ما أربه في عمل لا يلوح لي سببه

(٣٤) العصم : كعنب جمع عصمة وهي المنعة .

ماذا عليه من الكرام فما تظهر إلا عليهم نوبه
ألم يجد في سواهم سعة ممن يسوّى برأسه ذنبه
لا يعرف الضيف أين منزله ولا يرى المجد أين منقلبه
مالي أرى الحرّ ذاهبا دمه ولا أرى النذل ذاهبا ذهبه

وهذين البيتين فى الزمن أيضاً :

إنما الدهر عدو ولمن أصغى نصيح
ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيح

د ـ خاتمة :

إذا لم يخطيء ظني فان الهمذاني أطول باعاً وأعلى كعبا من الخوارزمي في صناعة الانشاء . ولكن الخوارزمي أنفذ بصراً وأثبت يداً منه في معالجة القريض .

أما مقامات الهمذاني فانها جناية لا تغتفر على الأدب العربي ذلك انه خلق فيها أدب الشحاذة خلقاً وأنشأه انشاءً . ولم يخل الادب العربي من الشحاذة لسوء الحظ على السن الشعراء المدّاحين ولكنها ظهرت في هذه المرة بأبشع صورها وأقبح اشكالها واخس طرقها واساليبها .

سامح الله الهمذاني ، فانه أساء الى الادب بمقاماته اكثر مما أحسن إليه بشعره ورسائله .

الفصل الثالث

الحريري

أ ــ حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه • مولده • نشأته وتعليمه • ما شغل من مناصب الحكومة • أقاويل الرواة في مقاماته • وفاته •

ب ــ صفاته : ما ساء منها وما حسن •

جـ ــ آثاره : مجمل القول فيها • مقاماته • راويتها • خاصته • بطلها • مميزاته • تنازعهما وتصافيهما • تقليدهما عيسى بن هشام وأبا الفتح الاسكندري • حظوة هذه المقامات الكبرى عند القدماء • أهليتها لهذه الحظوة • قيمتها بالقياس إلى العصر الحديث • اشتمالها على معلومات أدبية وتأريخية واجتماعية مهمة ••

لغته وأسلوبه : مساوئهما • ميله الى استعمال الغريب • استعماله ألفاظاً في غير ما وضعت له • نحته ألفاظاً على غير القياس تنافر بعض كلامه وضعف تأليفه • فشله احياناً في استعمال المحسنات البيانية • محاسنه • فصاحته وجودة تأليفه على العموم • معرفته بموسيقى الجملة • خصائصها عنده • تأثره بالسّور المكيّة من القرآن • ما يستحسن من مقاماته في هذا العصر • مثل منها • المقامة الحرامية •

د ــ خاتمة : الحريري والتأريخ •

آ ـ حيانـــه :

أما فارس حلبة المقامات الذي لا يشق له غبار فهو القاسم بن علي ابن محمد ابن عثمان البصري الحرامي ، نسبة الى بني حرام قوم من العرب • والمكنّى بابي محمد ، ومحمد هذا كبير ولديه اللذين يشير اليهما ابن خلكان ، والملقب بالحريري نسبة الى بيع الحرير او صنعه •

ولد سنة ست واربعين وأربعمائة للهجرة في المشان (بفتح الميم) بليدة بقرب البصرة كثيرة النخل سيئة المناخ • ونشأ بالبصرة • وفيها أخـــذ الأدب عن ابي القاسم الفضل بن محمد القصباني البصري • وكان صاحب الخبر [1] في ديوان الخلافة بالبصرة ، وقد احتفظ أولاده وأحفاده بهذا المنصب من بعده أجيالاً متعاقبة فيما يقول العماد في (الخريدة) •

وتأريخ الرجل انما هو تأريخ مقاماته • إذ كل ما يتحدث به الرواة عنه أو جلّه لا يعدو ان يكون اجابة عن أحد هذه الأسئلة الثلاثة ، لمن كتبت المقامات : ومن راويتها الحارث بن همّام : ومن بطلها أبو زيد السروجي : ••• وقد فصل ابن خلكان في الاجابة عن السؤال الاول ، إذ قال لنا انه أطلع في القاهرة على نسخة من المقامات كتبت بخط المؤلف نفسه مكتوب على ظهرها بخط المؤلف أيضا « انه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن بن أبي العز علي بن صدقة وزير

(١) هكذا فى معجم الادباء . ولم اجد تفسيرا شافيا لهذه الجملة . بيد انه من المحتمل ان يكون « صاحب الخبر » مدير قلم الاستخبارات فى زماننا أو من يشبهه .

المسترشد » [٢] ، وبهذا لم يبق محل للنظر في هذه الروايات العديدة المتضاربة التي تتحدث عن صلة المقامات الموهومة بشرف الدين أنوشروان وزير المسترشد أو السلطان مسعود السلجوقي وفصل ابن خلكان كذلك في الاجابة عن السؤال الثاني فقال ان الحارث بن همام هو الحريري نفسه . وأضاف الى ذلك ان هذه التسمية مأخوذة من قول النبي (ع س) « كلكم حارث وكلكم همّام » أي كلكم كاسب وكلكم شديد الاهتمام بأمور معيشته ، لأن الحارث هو الكاسب . والهمّام هو الرجل الكثير الاهتمام بما يعنيه [٣] .

أما أبو زيد السروجي فان الرواة يختلفون في أمره . فمنهم من يزعم انه شحّاذ فصيح دخل مسجد بني حرام في البصرة وزعم ان الروم أسروا ولدا له ، وسأل الناس فديته ، فسألوه عن كنيته ، فقال انه يكنى أبا زيد ، وعن بلده ، فقال انه سروج . ومنهم من يزعم انه تلميذ من تلاميذ الحريري اسمه المطهر بن سلام في رواية ابن خلكان وسلام « بالتشديد » في رواية ياقوت .وتذهب هذه الرواية الى أبعد من هذا فتقول : ان المطهر هذا شرب الخمر ذات يوم وبلغ استاذه الحريري خبره فكتب اليه :

أبا زيد اعلم أن من شرب الطلا تدنّس ، فافهم سرّ قولي المهذّب
ومن قبل سمّيت المطهّر ، والفتى يصدّق بالافعال تسمية الأب
فلا تحسها كيما تكون مطهّرا والا فغيّر ذلك الاسم واشرب

وتقول هذه الرواية ان الابيات المذكورة فعلت فعلها في نفس

(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٢٠ .
(٣) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٢٠ .

المطهر . فجاء الى استاذه حافيا وبيده مصحف فأقسم به ان لا يعود الى شرب مسكر . فقال له الحريري : « ولا تحاضر من يشرب » [٤].

وأحسب ان تناقض هاتين الروايتين المتعلقتين بابي زيد السروجي يشعر بأنهما مكذوبتان ، وأن أبا زيد رجل خيالي لا وجود له . ومما يقوّي هذا الظن سكوت الحريري عنه في مقدمة مقاماته سكوتا تاما .

وليس هذا كل ما لفق حول المقامات من الكذب . بل ان هناك أكذوبة أخرى تناقلها الرواة على انها حقيقة واقعة ، خلاصتها : ان الحريري كتب في البصرة عشر مقامات ، وقيل اربعين مقامة ، وقدم بها بغداد . فلما عرضها على أدبائها وذوي الفضل فيها شكوا في نسبتها اليه . فقالوا مرة انها من صنع رجل مغربي من أهل الفضل . مات في البصرة واستولى الحريري على أوراقه . وقالوا تارة : انه ، أي الحريري وجد هذه المقامات في حقيبة اشتراها من عصابة أخذتها فيما أخذت من بعض المسافرين . وكان من نتائج هذا التشكك بدعوى الحريري أن امتحن في صناعة الانشاء ففشل في الامتحان وان شاعرا يعرف بابن جكينا هجا الحريري بسبب فشله فقال :

شيخ لنا من ربيعة الفَرَس [٥] ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان كما رماه وسط الديوان بالخرس

وأنت اذا رجعت الى خطبة المقامات رأيت ان الحريري يقول : ان مشيرا « اشارته حكم وطاعته غنم » أشار عليه بانشاء مقامات يتلو فيها تلو البديع ومعنى هذا ان المقامات اقترحت عليه اقتراحا ، وانه لم

(٤) معجم الادباء ج ١٦ ص ٢٧٢ طبعة مصر .

(٥) كان الحريري ينتسب الى ربيعة القبيلة المشهورة ، ويظهر ان هذا امر مشكوك فيه عند الرواة .

يتقدم بصنع شيء منها من تلقاء نفسه ، وان الذي اقترحها عليه رجل نافذ الكلمة مسموع الاشارة ، وهذا الرجل هو بالطبع جمال الدين الذي تقدم ذكره • وواضح ان هذا يناقض الاكذوبة التي تقدمت خلاصتها مناقضة تامة •

وتوفي المترجم عام ٥١٦ للهجرة •

ب ـ صفاتـــه :

يتحدث الرواة عن صفات المترجم فيقولون : انه بخيل قصير القامة • دميم المنظر • قذر الملبس رث الهيئة • وهم يحدثوننا ان رجلا سمع بفضله ولم يعرفه عن كثب جلس اليه ذات يوم ليأخذ عنه ، فلما رآه استصغره وازدرى هيئته ومنظره • وشعر الحريري بدبيب هذا الشعور في نفسه ، فلما استملاه أملى عليه هذين البيتين :

ما أنت أول ســار غرّه قمــر ورائــد أعجبتــه خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري انني رجل مثل المعيدي ، فاسمع بي ولاترني

فخجل الرجل وقام • وليس ما تقدم من عيوب الحريري كل ما ابتلاه الله به ، بل انه كان مبتلىً بنتف عثنونه • وقد زعموا ان أحد ولاة البصرة نهاه عن هذا وتوعده عليه ، فامتنع عن اتيانه مدة من الزمن ولكنه فاه عنده ذات يوم بكلام بليغ أعجب به اعجابا شديدا فسأله حاجة يقضيها له تقديرا لذلك الكلام • فما كان منه الا ان سأله الاذن له بنتف لحيته ، فضحك وأذن له •

ولكن أليس الى جانب هذه المساوىء محاسن ترفع من قــدر الرجل وتعلي منزلته ؟؟ بلى انه لذكي القلب • متوقد الذهن • واسع

الخيال . خصب القريحة . كثير الحفظ غزير الاطلاع . وفي آثاره عامة . ومقاماته خاصة . ادلة لا تنقض على صحة جميع هذه الأقوال .

حـ ـ آثاره :

للحريري آثار عدة منها « درّة الغوّاص في أوهام الخواص » وهو كتاب نبّه فيه الى كثير من الأغلاط اللغوية التي يرتكبها حملة الأقلام من معاصريه . ومنها منظومة في النحو اسمها (مُلحة الإعراب) ومنها ديوان شعر يحتوي على غير ما ورد في المقامات من شعره . وخير آثاره دون شك وأكبرها شأنا وأشيعها ذكرا مقاماته التي تناقلها الناس في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه وتدارسوها جيلا بعد جيل . وهي عبارة عن مجموعة أقاصيص تقصر غالباً وتطول أحيانا يرويها الحارث بن همّام عن أبي زيد السروجي ، كما يروي عيسى بن هشام مقامات الهمذاني عن أبي الفتح الاسكندري . فأما الحارث بن همام فهو رحّالة يجوب البلاد ويطوف الآفاق متّجراً مرة ومتنزهاً تارة . وأما أبو زيد السروجي فانه شحاذ كثير الطمع شديد الجشع [٦] ، الا انه فصيح اللسان قوي الجنان واسع الحيلة ، وهو يفتنّ في الكدية افتنانا ويستنبط منها ضروبا وألوانا . فيسلك اليها مرة طريق الوعظ . ويتذرع لها حينا بنشر الفوائد وتقييد الشوارد في الأدب واللغة ، ويتوصل اليها حينا عن طريق مخاصمته زوجته . وبيعه أحد اولاده . وربما ندب زوجته للقيام بها نيابة عنه . ولعل أغرب ما توصل به أبو زيد الى المال . حراسة القوافل من أذى اللصوص . وشر قطاع الطرق

(٦) تستثني المقامتان النصيبية والفراتية من هذا الحكم .

ولكن بأية وسيلة ؟! . بانشاء الدعوات وتلاوة الصلوات .

والحارث بن همام يعاتب أبا زيد على كثير من أقواله واعماله . ويؤنبه على اقتناص المال بالمكر والحيلة . ولكنه ينتهي معه دائما أو غالبا الى صلح ، بل والى صداقة واعجاب . وأبو زيد في عمله وأدبه وشحاذته ودناءته ولصوصيته. صورة صادقة من أبي الفتح الاسكندري كذلك الحارث بن همام في كثرة أسفاره وطول تجواله وضعف ذاكرته وبلادة طبعه [٧] صورة صادقة أيضا من عيسى بن هشام . بيد أن أبا زيد يختم حياته بتوبة صادقة تغسل عاره وتحط عنه أوزاره . بينما يستمر أبو الفتح الاسكندري في ارتكاب جرائمه وآثامه حتى الموت .

وقد رزقت مقامات الحريري حظوة كبرى فتناقلها الناس في حياة المؤلف وبعد مماته وتدارسوها بعناية واتقان .

قال جابر بن هبة الله : قرأت على الحريري مقاماته سنة أربع عشرة وخمسمائة فلما انتهيت الى قوله في المقامة الكوفية :

يا أهل ذا المغنى وقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم خرا
قد دفع الليل الذي اكفهرا الى ذراكم شعثا مغبرا

وضعت سهوا (سغباً معترا) مكان (شعثاً مغبرا) . فصمت الحريري برهة ثم قال . والله لقد أجدت في التصحيف فانه أجود . فرب شعث مغبر غير محتاج ، والسغب المعتر موضع الحاجة . ولولا أني قد كتبت خطي الى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرأت عليّ لغيرت

(٧) يستحق الحارث بن همام ان يوصف بضعف الذاكرة وبلادة الطبع لانه لا يعرف ابا زيد عندما يلتقي به الا بعد جهد ومشقة على كثرة ما يلتقي به وعذره ـ ان كان له فى هذا عذر ـ هو انه مضطر الى ان يعيد الى الاذهان ابا الفتح الاسكندري فى كل ما له من محاسن ومساوىء .

الشعث بالسغب والمغبر بالمعتر » [٨] .

وقيل لعلي بن الحسن الشميبي الحلي أحد كبار القرن السادس للهجرة وأدبائه ، وكان كثير الاعجاب بنفسه شديد الاعتداد بفضله وأدبه : « لم لا تجاري الحريري بمقامات تخمل بها ذكره وتقضي على شهرته ؟ » فقال : « لقد جربت هذا ثلاث مرات ففشلت ؛ وما أظن أن الله خلقني إلا لاظهار فضل الحريري » [٩] .

وليس هذا كل شيء ، فقد عني العلماء بشرح هذه المقامات فشرحوها شروحا لا تحصى . بعضها مطول وبعضها مختصر . أهمها شروح الشريشي والعكبري والزبيدي . وجاراها فريق كبير من حملة الأقلام . أشهرهم الزمخشري الذي حلف بالله أنها حرية أن تكتب بالذهب » [١٠] ، والشيخ ناصيف اليازجي وأبو الثناء الألوسي .

ولكن ، أكانت هذه المقامات أهلاً لهذه الحظوة ؟ !

كان القدماء منذ القرن الخامس للهجرة ، وهو بداية انحطاط في في تاريخ الادب العربي ، يريدون من الكاتب أن يكون فصيح اللفظ متين التعبير . ماهراً في استعمال المحسنات البيانية . جيد الحفظ لمتن اللغة . وكانوا يفهمون الادب على أنه وسيلة حسنة لترويح النفس وتزجية الفراغ لما فيه من نكت وحكايات ونوادر . وليس من شك

(٨) معجم الادباء ج ١٦ ص ٢٦٦ طبعة مصر .
(٩) المصدر نفسه ص ٢٦٧ .
(١٠) فعل الزمخشري هذا في ابيات هذه هي :

اقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
ان الحريري حري بان نكتب بالتبر مقاماته
معجزة تعجز كل الورى ولو سروا في ضوء مشكاته

في أن الحريري جهبذ من جهابذة اللغة . وإمام من أئمة الانشاء ، يعرف كيف يلعب بالالفاظ وكيف يحمل القاريء على الاعجاب بمهارته الفائقة في الانشاء . وعلمه الواسع باللغة . هذا الى أن بطله أبا زيد مثل في غرابة النادرة وبراعة النكتة . وإذن فلا عجب أن تكون مقاماته متعة القاريء . وبغية الباحث . وضالّة المتأدب . يقرأها الجميع فيجدون فيها ما يطلبون . ويظفرون منها بما يشتهون .

بقي ان نسأل ما قيمة هذه المقامات بالقياس إلينا نحن أبناء هذا القرن ؟

الواقع أنها تحتوي على معلومات أدبية واجتماعية وتأريخية كثيرة لا يستغني عن معرفتها مؤرخ الادب العربي في القرنين الخامس والسادس للهجرة . فأنت تفهم من المقامة المغربية مثلاً كيف يتحلّق الشيوخ بعد فراغهم من الصلوات . وكيف يتناجون وفيم يتناجون . وتفهم من المقامة القطيعية (١١) كيف يخرج ظرفاء بغداد في أيام الربيع الى أرباض مدينتهم . وكيف يستمتعون بلذات الشراب والسماع . وكيف يتحادثون ، وفي ماذا يتحادثون اثناء ذلك . وتعلم من المقامة الواسطية كيف كانت تقام حفلات الزواج . وكيف تلقى خطب النكاح في ذلك العصر ، بل تعلم منها أن (البنج) الذي يظن كثير من الناس أنه من مستحدثات هذا العصر . كان معروفاً بأسمه ومسمّاه على عهد المؤلف . وتعلم من المقامة الدمشقية . أن ولاة الامور في أيام الحريري كانوا عاجزين عن تأمين السبل وحماية القوافل التي تقطع الصحراء بين دمشق وبغداد ، وأن هذه القوافل كانت تسير بحراسة زعماء القبائل نظير

(١١) نسبة الى « قطيعة الربيع » محلة معروفة في بغداد .

جعلٍ تدفعه لهم . وتعلم من المقامة الصنعانية [١٢] أن الوعّاظ في ذلك الزمان أو فريقاً منهم على الاقل يحتالون على الناس . فيحثونهم على الزهد . ويدعونهم الى التقشف والنسك ، ولكنهم يفعلون في خلواتهم كل ما ينكرون ، ويستبيحون كل ما يحرمون ، وهكذا . .

وتحتوي كذلك . أي المقامات ـ على لطائف وطرائف وفوائد أدبية ولغوية كثيرة .

لغته وأسلوبه :

وتسألني رأيي في لغة الحريري وأسلوبه ، فأقول لك : إنهما على جانب كبير من الجمال والروعة . وليس معنى هذا أنهما مبرءان من كل عيب منزهان عن كل نقص كما كان يظن القدماء . كلا فأنت تجد في ثنايا مقاماته اللفظ الغريب الذي يمجه السمع وينفر منه الطبع كما في قوله « يايلا مع القاع ويرامع 'لبقاع » [١٣] . أي يا أشباه السراب وأمثال الحجارة البيضاء . وكما في قوله : « ثم انه جلس محقوقفاً وأجرثم مقفقفاً » [١٤] ، أي جلس منحنياً منضما بعضه الى بعض . وتجد فيها اللفظ المستعمل في غير ما وضع له كما في قوله : « فلما خشمت الاصوات والتأم الانصات » [١٥] فكلمة (التأم) وهي تعني (اجتمع) مستعملة هنا في غير ما وضعت له ؛ ولو استعمل الحريري مكانها كلمة (تمّ) نصحّت جملته وكانت وافية بالغرض . وكما في

---

(١٢) نسبة الى صنعاء وهو اشتقاق على غير قياس .
(١٣) مقامات الحريري ص ١٩٦ طبعة مصر سنة ١٩٢٥ .
(١٤) مقامات الحريري ص ٣٥٣ طبعة مصر سنة ١٩٢٥ .
(١٥) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

قوله : « فعجت إليه لأسبك سرّ جوهره » [١٦] ، فكلمة (أسبك) مستعملة هنا في غير ما وضعت له ، وكان الصواب أن تحل محلها كلمة (لأتبين) أو (لأجتلي) وكما في قوله : « فسولت لي النفس المضلة والشهوة المذلة المزلة أن نادمت الابطال وعاطيت الارطال » [١٧] فكلمة (ابطال) مستعملة هنا في غير ما وضعت له ، لأن النديم يوصف بالظرف ورقة الحديث وجمال العشرة ولا يوصف بالبطولة . بل تجد فيها اللفظ المنحوت على غير قياس كما في قوله : « فعجت الى سرحة كثيفة الاغصان . وريقة الاغصان لاغوّر تحتها الى المغيربان » [١٨] فكلمة (مغيربان) تصغير للمغرب على غير قياس ، هذا فضلا عن أن (القيلولة) وهي المقصودة بقوله (لأغوّر) لا تدوم الى المغرب عادة . وتجد فيها الكلام المتنافر الضعيف التأليف كما في قوله : « أما بعد أن سحقتم حقي لأجل سحقي » [١٩] يريد أما بعد أن غمطتم حقي ورمتم سحقي. وتجد فيها الاستعارة غير الموفقة كما في قوله : « وهم يتعاطون كأس المنافثة » [٢٠] ولو وضع (محادثة) موضع (منافثة) لحسنت الاستعارة واستقامت الجملة . وهناك مواطن ضعف أخرى كثيرة في هذه المقامات وليس من الضروري احصاؤها جميعا .

ولكنك تستطيع ان تقرر رغم كل ذلك . أن الحريري على العموم بل في الكثرة الكبرى من مقاماته . منشىء فصيح اللفظ . شديد الأسر . حسن التأليف . بديع الجرس . يجيد اختيار الألفاظ وتأليفها

(١٦) المصدر نفسه ص ٣٨٤ .
(١٧) المصدر نفسه ص ٥٦٣ .
(١٨) المصدر نفسه ص ٢٧٣ .
(١٩) المصدر نفسه ص ٢١٨ .
(٢٠) مقامات الحريري ص ٥٠ طبعة مصر سنة ١٩٢٥ .

وهندسة الجمل وتقطيعها • بل نعلي أستطيع أن أزعم أنه من أعرف كتاب العرب القدماء بالجملة الموسيقية ، وهي عنده قصيرة محكمة السبك • لا يتجاوز عدد كلماتها الخمس ، شديدة الشبه بما قبلها وما بعدها • ويخيل إليّ أن الحريري من هذه الناحية • عظيم التأثر بالسور المكية من القرآن حيث يغلب السجع ويراعى الازدواج مراعاةً كاملة ، وحيث تتألف الآية الواحدة من أصغر عدد ممكن من الكلمات ، كما في قوله تعالى : (بسم) « والضحى ، والليل اذا سجى ، ما ودّعك ربك وما قلى » وكما في قوله (بسم) « الرحمن ، علّم القرآن ، خلق الانسان ، علّمه البيان » •

ولقد كانت هذه المقامات كلها خلال تسعة قرون تقريبا المثل الأعلى في بداعة الأداء وبراعة الانشاء وفي ظرافة المبني ورشاقة المعنى • أما اليوم فقد فقدَ أكثرها هذه المنزلة ، ولم يعد لها سوى قيمة تاريخية صرف • بيد أنه من الحق ان نلاحظ أنه لا يزال بينها عدد يسير تلذ قراءته وتفيد دراسته • من هذا القبيل المقامات الفراتية والنصيبية والبكرية والبصرية والحرامية • وأروي لك فيما يلي هذه الأخيرة على سبيل المثال ، لأنها في ظني خير ما تحسن روايته من هذه المقامات • قال الحريري •

« روى الحرث بن همّام عن أبي زيد السروجي قال : ما زلت مذ رحلت عنسي ، وارتحلت عن عرسي وغرسي ، أحن الى عيان البصرة ، حنين المظلوم الى النصرة ، لما اجتمع عليه أرباب الدراية ، وأصحاب الرواية ، من خصائص معالمها وعلمائها ، ومآثر مشاهدها وشهدائها ،

وأسأل الله أن يوطئني ثراها ، لأفوز بسراها ، وأن يمطيني قراها [٢٠] . لأفتري قراها [٢١] ، فلما أحلنيها الحظ ، وسرح لي فيها اللحظ .

رأيت بها ما يملأ العين قرة ويسلي عن الأوطان كل غريب

فغلّست [٢٢] في بعض الايام ، حين نصل خضاب الظلام . وهتف أبو المنذر [٢٣] بالنوّام ، لأخطو في خططها ، وأقتضي الوطر من توسطها فأدّاني الاختراق في مسالكها ، والانصلات في سككها ، الى محلة موسومة بالاحترام منسوبة الى بني حرام ، ذات مساجد مشهورة ، وحياض مورودة ، ومبان وثيقة ، ومغان أنيقة ، وخصائص أثيرة ، ومزايا كثيرة .

بها ما شئت من دين ودنيا وجيران تنافوا في المعاني
فمشغوف بآيات المثاني ومفتون برنّات المثاني [٢٥]
ومضطلع بتلخيص المعاني ومطّلع الى تخليص عان
وكم من قاريء فيها وقار أضرا بالجفون وبالجفان [٢٦]
وكم من معلم للعلم فيها وناد للندى حلو المجاني
ومغنىً لا تزال تُغَنّ فيه أغاريد الغواني والأغاني [٢٧]
فصل ان شئت فيها من يصلي واما شئت فادن من الدنان

---

(٢٠) قراها : ظهرها .
(٢١) أفتري « هنا » اتبع . وقرى : جمع قرية .
(٢٢) غلس : خرج فى الغلس وهو آخر ظلمة الليل .
(٢٣) ابو المنذر : كنية الديك .
(٢٥) المقصود « بمثاني » الاولى : سورة الفاتحة او مادون المئتي آية من القرآن و « بمثاني » الثانية ما فتل من اوتاد العود على قوتين وفى القاموس المثاني : من اوتار العود الذي بعد الاول .
(٢٦) قار : مضيف .
(٢٧) تغن : اي تسمع من الغنة وهي الصوت من الخيشوم .

ودونك صحبة الأكياس فيها أو الكاسات منطلق العنان

قال فبينما أنا أنفض [٢٨] طرقها، واستشف رونقها ، اذ لمحت عند دلوك براح [٢٩]، واظلال الرواح [٣٠] ، مسجدا مشتهرا بطرائفه ، مزدهرا بطوائفه ، وقد أجرى أهله ذكر حروف البدل ، وجروا في حلبة الجدل ، فعجت نحوهم ، لا ستمطر نوأهم ، لا لأقتبس نحوهم ، فلم يك الا كقبسة العجلان [٣١] ، حتى ارتفعت الاصوات بالاذان ، ثم ردف التأذين بروز الإمام ، فأغمدت ظبى الكلام ، وحللت الحبى [٣٢] للقيام وشغلنا بالقنوت عن استمداد القوت ، وبالسجود ، عن استنزال الجود ولما قضي الفرض ، وكاد الجمع ينفض ، انبرى من الجماعة ، كهل حلو البراعة، له مع السمت الحسن، ذلاقة اللسن ، وفصاحة الحسن[٣٣] وقال يا جيرتي ، الذين اصطفيتهم على أغصان شجرتي ، وجعلت خطتهم دار هجرتي ، واتخذتهم كرشي وعيبتي [٣٤] وأعددتهم لمحضري وغيبتي أما تعلمون أن لبوس الصدق أبهى الملابس الفاخرة ، وأن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، وأن الدين إمحاض النصيحة ، والإرشاد عنوان العقيدة الصحيحة ، وأن المستشار مؤتمن ، والمسترشد

---

(٢٨) انفض طرقها : اتتبعها .

(٢٩) دلوك الشمس : دنوها الى الغروب وبراح : كحذام علم على الشمس .

(٣٠) اظلال الرواح : مجيء العشي .

(٣١) قبسة العجلان : مثل فى السرعة .

(٣٢) الحبى : جمع حبوة وهي جمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٣٣) المراد بالحسن هنا : الحسن البصري .

(٣٤) كرشي وعيبتي : آي اهلي ومحل سري .

بالنصح قمن ، وأن أخاك هو الذي عذلك ، لا الذي عذرك ، وصديقك من صدقك ، لا من صدّقك ، فقال له الحاضرون أيها الخل الودود ، والخدن المودود ، ما سرّ كلامك الملغز ، وما شرح خطابك الموجز ، وما الذي تبغيه منا لينجز ، فو الذي حبانا بمحبتك ، وجعلنا من صفوة أحبتك ، ما نألوك نصحا ، ولا ندّخر عنك نضحا [٣٥] ، فقال جزيتم خيراً ، ووقيتم ضيراً ، فانكم ممن لا يشقى بهم جليس ، ولا يصدر عنهم تلبيس ، ولا يخيب فيهم مظنون ، ولا يطوى دونهم مكنون ، وسأبثكم ما حاك [٣٦] في صدري ، وأستفتيكم فيما عيل فيه صبري ، إعلموا أني كنت عند صلود الزند [٣٧] وصدود الجد . أخلصت مع الله نية العقد ، وأعطيته صفقة العهد ، على أن لا أسبأ [٣٨] مداما ، ولا أعاقر ندامى ، ولا أحتسي قهوة ولا أكتسي نشوة [٣٩] ، فسوّلت لي النفس المضلة ، والشهوة المذلة المزلة ، أن نادمت الابطال [٤٠] ، وعاطيت الأرطال [٤١] ، وأضعت الوقار ، وأرتضعت العقار ، وامتطيت مطا الكميت [٤٢] ، وتناسيت التوبة تناسي الميت ، ثم لم أقنع بهاتيكم

(٣٥) نضحا : اي عطاء .

(٣٦) حاك فى صدره : اثر وثبت فيه .

(٣٧) صلود الزند : عدم خروج النار منه مع القدح ، ويستعمل كناية عن الفقر .

(٣٨) اسبأ مداما : اشتري خمرا ، ومنه سميت المدام سبيئة .

(٣٩) يقول شراح المقامات فى تفسير هذه الجملة : لا اكتسي نشوة اي لا البس بسكر . وعندي ان هذا تعسف فى التفسير والتأويل ، والصواب ان كلمة اكتسي مستعملة هنا فى غير ما وضعت له .

(٤٠) سبق ان نبهت الى ان كلمة « ابطال » مستعملة هنا استعمالا غير صحيح .

(٤١) الأرطال هنا : الاقداح .

(٤٢) المطا : الظهر ، والكميت : من اسماء الخمر .

المرّة ، في طاعة أبي مرة ، حتى عكفت على الخندريس ، في يوم الخميس وبتُّ صريع الصهباء ، في الليلة الغرّاء [٤٣] ، وها أنا بادي الكآبة ، لرفض الإنابة ، نامي الندامة ، لوصل المدامة ، شديد الاشفاق ، من نقض الميثاق ، معترف الاسراف ، في عب [٤٤] السلاف .

فيا قوم هل كفّارة تعرفونها تباعد من ذنبي وتدني إلى ربي

قال أبو زيد : فلما حل أنشوطة نفثه [٤٥] . وقضى الوطر من اشتكاء بثه . ناجتني نفسي : يا أبا زيد . هذه نهزة صيد . فشمّر عن يدٍ وأيد [٤٦] . فانتهضت من مجثمي انتهاض [٤٧] الشهم . وانخرطت من الصف انخراط السهم . وقلت :

أيها الأروع الذي فاق مجداً وسؤددا
والذي يبتغي الرشا د لينجو به غداً
إن عندي علاج ما بت منه مسهّداً
فاستمعها عجيبة غادرتني ملّددا [٤٨]
أنا من ساكني سرو ج ذوي الدين والهدى
كنت ذا ثروة بها ومطاعاً مسوداً
مربعي مألف الضيو ف ومالي لهم سدى

---

(٤٣) الليلة الغراء : اي الليلة البيضاء وهي ليلة الجمعة وقد سميت بذلك لما لها من الفضل .

(٤٤) العب : الشرب بلا تنفس او بغير مص .

(٤٥) الانشوطة : العقدة غير المحكمة .

(٤٦) الأيد : القوة .

(٤٧) الشهم : الذكي الحديد الفؤاد .

(٤٨) ملدداً : مستعملا لديدي وهما صفحتا العنق ، اي متلفتا يميناً وشمالاً من الخوف .

أشتري الحمد باللهى وأقي العرض بالجدا
لا أبالي بمنفس طاح في البذل والندى
أوقد النار باليفا ع اذا النكس أخمدا
ويراني المؤمما ن ملاذاً ومقصدا
لم يشم بارقي صدٍ فانثنى يشتكي الصدا
لا ولا رام قابس قدح زندي فأصلدا
طالما ساعد الزما ن فأصبحت مسعدا
فقفى الله أن يغيّر ما كان عوّدا
بوّأ الروم أرضنا بعد ضغن توكدا
فاستباحوا حريم من صادفوه موحدا
وحووا كل ما استترّ بها لي وما بدا
فتطوّحت في البلا د طريداً مشرداً
أجتدي الناس بعدما كنت من قبل مجتدى
وترى بي خصاصة أتمنى لها الردى
والبلاء الذي به شمل أنسى تبددا
استباء ابنتي التي أسروها لتفتدى
فاستبن محنتي ومدّ إلى نصرتي يدا
وأجرني من الزما ن فقد جار واعتدى
وأعني على فكا ك ابنتي من يد العدا
فبذا تنجي المآ ثم عمّن تمردا
وبه تقبل الإ نا بة ممن تزهّدا
وهو كفّارة لمن زاغ من بعدما اهتدى

ولئـن قمت منشـداً فلقـد فهت مرشدا
فأقبـل النـصح والهدا يـة واشكر لمن هـدى
واسمح الآن بالـذي يتسنى لتحمـدا

قال أبو زيد فلما أتممت هذرمتي [٤٩] ، وأوهم المسؤول صدق كلمتي ، أغراه القرم [٥٠] الى الكرم بمواساتي ، ورغبه الكلف بحمل الكلف في مقاساتي . فرضخ لي على الحافرة [٥١] ، ونضخ [٥٢] لي بالعدة الوافرة ؛ فانقلبت الى وكري فرحاً بنجح مكري ، وقد حصلت من صوغ المكيدة ، على سوغ الثريدة ، ووصلت من حوك القصيدة ، إلى لوك العصيدة قال الحرث بن همام فقلت له سبحان من أبدعك ، فما أعظم خدعك ، وأخبث بدعك ، فاستغرب [٥٣] في الضحك ثم أنشد دون مرتبك :

عش بالخداع فأنت في دهر بنوه كأسد بيشه [٥٤]
وأدر قنـاة المـكر حتى تستدير رحى المعيشة
وصد النسور فان تعـذر صيدهـا فاقنـع بريشه
واجن الثمار فان تفتـك فرض نفسك بالحشيشه
وأرح فؤادك إن نبـا دهر من الفـكر المطيشه
فتغـاير الأحـداث يؤذن باستحالة كـل عيشه

---

(٤٩) الكلام الكثير غير المفهوم .
(٥٠) القرم : شهوة اللحم ، والمراد به هنا حب الجود واحسب انه اسراف فى التجوز .
(٥١) رضخ لي : اعطاني عطاء قليلا . على الحافرة : اي فى اول الامر .
(٥٢) نضخ : فاض ، يقول : ووعدني بالعطاء الجم .
(٥٣) استغرب فى الضحك : افرط وتجاوز الحد فيه .
(٥٤) بيشه : ماسدة قيل انها فى اليمن .

د ـ خاتمـــة :

ليس هناك شك في أن نجم الحريري قد أفل الآن ، وأن أحداً لا يسترشد به اليوم في سبل البيان ومذاهب الانشاء • ولكن من العدل أن لا ننسى أن نجمه بقي ساطعا في سماء الأدب العربي نحواً من تسعة قرون •

الباب الثالث

في شعراء القرن الثاني للهجرة

تمهيد في الشعر العباسي وتأثره بالشعر الجاهلي

قلت لك في مستهل هذا الكتاب إن الكتاب العباسيين من حيث مذاهبهم في الكتابة وأساليبهم في الاداء عيال على القرآن • عنه أخذوا وبه تخرجوا • وأقول لـك الآن • إن الشعراء العباسيين من حيث مذاهبهم في النظم وبالأضافة إلى كثير من مقاصدهم وأغراضهم • عيال على الشعر الجاهلي • به يتأثرون وعلى منواله ينسجون • وإثبات هذا أمر غير عسير ، فأنت تستطيع أن ترجع الى ديوان أي شاعر عباسي لتتبين أنه يقول القصيدة على رويواحد •وفي عروض واحد • ويتطرق فيها الى المواضيع المختلفة التي لاصلة بينها مطلقا • فمن نسيب الى فخر الى مديح الى غير ذلك مما هو معروف • وهو يفعل هذا كله متأثراً بطريقة امريء القيس وغيره من الشعراء الجاهليين في تأليف القصيدة وحشر المقاصد والاغراض في طياتها حشرا • وليس هذا كل شيء • بل إنه كثيراً ما ينتحل أخيلة أولئك الشعراء وخواطرهم في بكاء الأطلال ورثاء الديار ووصف حل الاحباب وترحالهم • وظعنهم وإقامتهم • وفي تصوير كرم الممدوح وشممه وشجاعته وبراعته وصراحته •وفصاحته • ومع ذلك حذار أن تذهب إلى أن الشعراء العباسيين لم يتأثروا بالثقافة العباسية • ولم يصغوا شيئا من أحوال الدولة التي نشأوا

في كنفها • وعاشوا في ظلها • وتأثروا بارتقائها وانحطاطها وضعفها وقوتها • إذ الواقع أنهم كانوا على الضد من ذلك فقد تأثروا بعلوم عصرهم ومعارفه ووصفوا حروبه وسياسته وصوروا حضارته وعمرانه• ولكنهم فعلوا هذا كله في حدود التقاليد الأدبية الموروثة وطبقاً للأساليب العامة المتبعة • فأحترموا وحدة العروض والروى احتراماً لا داعي له • وجمعوا بين المواضيع المختلفة في القصيدة الواحدة • ووقفوا على الأطلال الدارسة والآثار الطامسة في ربوع لم يعرفوها إلا بالسماع وقفات لا مبرر لها ألبتة • وبذلك جمعوا بين القديم والحديث والابتكار والتقليد جمعاً لا يجيزه تفكير سديد ولا ذوق سليم • فتطور أدبهم على مر الايام ولم يتعرض إلى انقلاب مع أنه كان شديد الحاجة إلى انقلاب جارف محكم الخطط • ثابت الأسس واضح الغايات •

وقد وصف بشار بن برد وأبو نواس بأنهما مجددان للقريض العربي • يتفق على ذلك الرواة والنقاد القدماء • ويأخذ به كثير من النقاد المعاصرين وأحاول فيما يلي أن أدرس حياة هذين الشاعرين وأن أتبين مخلصا مقدار ما أدخلا من الاصلاح على القريض العربي وأبدأ ببشار لأنه أقدم الرجلين •

الفصل الأول

بشار بن برد

أ ــ حياته : نسبه • ولاؤه ، عتقه ، مولده ، بركته • كنيته ولقبه ، لماذا لقب بالمرعّث • نشأته ، نبوغه • ذيوع شهرته ، خشية الناس إياه • حبه لعبدة ، حبه غيرها من النساء • ثقافته ومعتقده ، سادس ستة ، شعوبيته ، صلته ببني أمية • صلته ببني العباس : غضب المهدي عليه ، سببه ، هجاؤه المهدي • وفاته • تناقض أقوال الرواة فيها ، فرح الناس بموته • حكايتان لهما مغزى •

ب ــ صفاته : تصوير الأصمعي إياه ، مجونه ، ظرفه ، سرعة جوابه ، قدرته على ارتجال الشعر ، خوفه من الهجاء ، كرمه ، بره بأهله ، وفاؤه لأصدقائه •

حـ ــ شعره : كثرته • غزله : خلوّه من العواطف الصادقة ، أصالته مظاهرها ، مثل منه • مديحه : اعتداله • مثل منه ، هجاؤه بذاءته وصرامته ، مخافة الناس إياه ، جزع الأخفش منه• ميميته في هجاء المنصور ، نقدها ، لماذا أوثرها بالنقد • رثاؤه : تفاهته • فخره : غرابته ، مثل منه • حكمه : المبتكر منها والمقتبس ، مثل من كل منهما ، مكان الصديق من هذه الحكم ، تغيره •

د ــ خاتمة : مقارنة بين بشار والحطيئة وجرير ، فيم يفضلانه وفيم يفضلهما • هل كان مجدداً ؟ نفي هذا الزعم •

آ ــ حيانـــه :

كان عبد الله بن المقفع رأس مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية من الكتاب أما رأس مخضرمي الدولتين من الشعراء غير مدافع فهو بشار بن برد •وللرجل نسب طويل يختلف فيه الرواة لا أحدثك عنه بشيء لاني اعتقد أنه من وحي خيال الشاعر ــ فقد كان على ضعة مولده وخمول نسبه ــ يود أن يوهم الناس ويوهم نفسه أيضاً أنه سليل أسرة لها في فارس ما لآل ساسان من علوّ المنزلة وسمو الكلمة وضخامة الملك والسلطان :

ورب ذي تاج كريم الجد كـآل كسرى وكـآل برد

كما كان على قبح صورته وبشاعة منظره يود أن يوهم الناس ويوهم نفسه أيضاً أنه جميل الصورة رشيق القوام لطيف الهندام يخلب ألباب النساء ويأسر قلوبهن بماله من صباحة الوجه وملاحـة القدّ ، وبلغ من اطمئنانه الى هذه الدعاوى الموهومة أن جهر بها أمام الخليفة المهدي فقد حدّث راويته يحيى بن الجون العبدي أن المهدي قال له فيمن تعتد يا بشار فأجابه أما اللسان والزي فعربيـان وأما الاصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونبئت قوم بهم جنـــة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيهـا السائلي جاهداً ليعرفني أنا أنف الـــكرم
نمت في الـكرام بني عامر فروعي وأصلي قريش العجم

فاني لأغني مقـــام الفتى وأصبي الفتـاة فمـا تعتصم

وكان أبو دلامة الشاعر الظريف حاضراً فقال له : « كلا لوجهك أقبح من ذلك ووجهي مع وجهك » [1] وأحسب ان هذا رد فعل نفسي شديد يساعد على نموه الخيال الشعري مساعدة كبرى يقع فيه من يبلغ حدا بعيدا من خلة من الخلال المذمومة من الشعراء فاذا كان جبانا مسرفا في الجبن ظن أنه شجاع واذا كان بخيلا مسرفا في البخل ظن أنه كريم واذا كان قبيحا مسرفا في القبح ظن أنه جميل ومن أمثلة ذلك ان حسان ابن ثابت شاعر الرسول (ص) كان جبانا مسرفا في الجبن ولكنه كان يخضب عنفقته [2] « نيكون كأنه أسد والغ في الدم » ومع أنه لم يقف بين يدي النبي موقفاً حربيا واحدا لم يحجم عن انشاده بين يديه :

وقد غدوت أمام القوم منتطقاً بأبيض مثل لون الملح قطّاع

فلم يتمالك (ص) عن الابتسام . وقل مثل ذلك عن الفرزدق فانه كان جبانا ولكنه كان كثير التحدث عن شجاعته يلقى الأسـود والذئاب فتتراجع أمامه ويلقى بعضها حتفه على يده . وكان كثير عزة آخر من تحترمه امرأة وتعجب به لشدة حمقه وقصر قامته وقبح صورته ولكنه كان يوهم نفسه أنه أثير عند النساء كبير في أعينهن يقمن لـه اجلالا اذا حضر ويتحاشين الكلام والضحك بحضرته :

وكنت اذا ما جئت أجللن مجلسي وأظهرن مني هيبـة لا تجهمـا

يحـاذرن مني غيرة قـد عرفنها قديما فمـا يضحكن الا تبسـما

وأعود الى بشار فأقول ان أباه برداً فارسي من طخارستان قيل إنه كان مملوكا لخيرة القشيرية زوجة المهلب بن أبي صفرة وكان يعمل

(1) الاغاني ج ٣ ص ٢١ طبعة مطبعة التقدم بمصر .
(٢) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

في ضيعة لها في البصرة اسمها «خيرفان» مع عبيد لها وإماء فوهبته خيرة بعد ان زوجته لصديقة لها من بني عقيل وولدت له امرأته وهو فيملكها بشارا فاعتقته العقيلية [٣] وقيل انه ــ أعني بردا ــ كان مولى أم الظباء العقيلية السدوسية وقد ادعى بشار لهذا أنه مولى بني عقيل [٤]« وفي رواية أن رجلا من أولاد بشار اسمه حمدان كان قصّارا أكد ولاء جده لبني عقيل » وتروى في ولاء بشار أخبار أخرى منها أن بشارا وأمه كانا كانا لرجل من الأزد فتزوج امرأة من بني عقيل فأصدقها فيما أصدقها بشارا وأمه وكان بشار ولدا مكفوفا فأعتقته العقيلية [٥] ومنها أن أم بشار باعته من أم الظباء السدوسية زوجة أوس بن ثعلبة بدينارين فأعتقته أم الظباء سخاءاً وكرماً [٦] وأنت تستطيع أن تشك في هذه الاخبار كلها أو أكثرها وان ترفضها كلها او اكثرها اذا شئت ولكن شيئا واحدا لا تستطيع أن ترفضه ولا تستطيع أن تشك فيه وهو أن بشارا من أصل فارسي وأنه نشأ في أحضان الرق والولاء عند العرب وأن أسياده من هؤلاء أنعموا عليه بالعتق فصار حرا بعد أن كان عبدا .

ويتحدث الرواة بأن بشارا كان شديد الاعتزاز بهذا الولاء مدة من الزمن وفي شعره ما يدل على هذا دلالة صادقة ولكنه آثر الركون الى الشعوبية متأثرا بما يجرى حوله من منابثات ومنافسات بين العرب والموالي في البصرة وسأعود الى الكلام على شعوبيته في مكان آخر من هذا الفصل .

(٣) الاغاني ج ٣ ص ٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر .
(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠ .
(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠ .
(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢١ .

لم يعين الرواة مولد بشار ولكنهم تحدثوا عن تاريخ وفاته ومقدار عمره واختلفوا فيهما فقالوا مرة ان وفاته كانت سنة ١٦٧ هـ [٧] وقالوا تارة انها كانت سنة ١٦٨ هـ [٨] . وقالوا في مقدار عمره حينا انه ناهز الستين [٩] وطورا انه يزيد على السبعين [١٠] وآونة انه يزيد على التسعين [١١] وأحسب انه لم يجاوز السبعين أو أنه لم يبلغها فانه يقول في قصيدة مدح بها المهدي مشيرا الى اقلاعه عن التشبيب بالنساء عملا بنصيحة الخليفة العباسي :

وأخرجني من وزر خمسين حجة فتى هاشمي يقشعر من الوزر

فاذا فرضنا أن هذه الخمسين حجة تبتديء ببلوغه الحلم فانه يكون وقت نظمه هذه القصيدة في نحو الخامسة والستين من عمره وقد قتل بعدها بمدة قصيرة قد لا تتجاوز السنة وعلى هذا لا يكون قد بلغ السبعين عندما وافاه أجله .

وولد بشار في البصرة أو في أحد ارباضها مكفوف البصر فلم ير من الدنيا شيئا . ومع هذه النكبة التي صبت على رأسه في بدء حياته . كانت ولادته مبعث خير وبركة لأسرته فيما يظن والده الذي كان في ذلك التاريخ طيانا . وكان دخله من هذا العمل قليلا لا يكفيه . فلما ولد له بشار بارك الله في رزقه . فلم يحل عليه الحول حتى جمع مائتي درهم . فكان يذكر هذا وينوه به عندما يتحدث عن ابنه الميمون[١٢] .

(٧) وفيات الاعيان ج ١ ص ٨٩ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .
(٨) الاغاني ج ٣ ص ٧٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر .
(٩) الاغاني ج ٣ ص ٦٩ .
(١٠) الاغاني ج ٣ ص ٧٠ .
(١١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٨٩ .
(١٢) الاغاني ج ٣ ص ٥١ .

وكان بشار يكنى بأبي معاذ . وأكبر الظن أنه كنّي بهذا عندما كبر ونبه شأنه . ويلقب بالمرعّث . ويقال انه لقب بهذا لقوله :

قال ريم مرعث ساحر الطرف والنظر
لست والله نائلي قلت أو يغلب القدر
أنت ان رمت وصلنا فانج هل تدرك القمر (١٣)

وقيل بل انه لقب بهذا . لأنه كان يلبس قميصا له جيبان . جيب عن يمينه وجيب عن شماله . فاذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه . واذا أراد نزعه حل ازراره وخرج منه . فشبهت تلك الجيوب بالرعاث لاسترسالها وتدليها . ولقب من أجلها بالمرعث (١٤). وهناك رواية تقول انه لقب بالمرعث . لأنه كان يلبس في صغره رعاثا في أذنيه . والرعاث جمع رعثة . وهي القرطة . وربما كانت هذه الرواية أقرب الروايات الثلاث الى الصحة وأولاها بالقبول .

ونشأ صاحبنا نشأة متواضعة . يغلب عليها الخمول والفقر . ومن المحقق أنه لم يرسل الى الكتاب . ولم يعن بتربيته وتعليمه أحد (١٥). ولكنه عوّض عن كل ما لحق به من فقد بصر . وبشاعة صورة . وضعة مولد . ورقة حال . بخيال خصب . واحساس قوي . وشعور

(١٣) الاغاني ج ٣ ص ٢٢ .
(١٤) الاغاني ج ٣ ص ٢٢ .

(١٥) في خبر يذكره ابو الفرج : ان بشاراً يعزو ادبه وفصاحته الى نشأته في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ . ولو كان مثل هذه النشأة يكفي لخلق الادباء الفصحاء من امثاله . لخلق من اخويه بشر وبشير القصابين اديبين فصيحين والواقع ان بشاراً كغيره من الشعراء النوابغ مدين بادبه لفطرته قبل كل شيء على ان للبيئة اثرها . ولكنه يأتي دون شك بعد اثر الفطرة .

فياض • ولسان ذرب • كما عوض الحطيئة عن كل ما لحق به من فقر وضعة نسب • ودمامة منظر • بأدبه وشاعريته قبل ١٥٠ سنة تقريبا • وقال بشار الشعر ولما يبلغ العاشرة • وقد فكر وهو في تلك السن المبكرة • فرأى أنه لن يحرز مالا ولن يصيب جاهاً الا اذا خافه الناس • ولن يخافه الناس الا اذا سلط عليهم قوارص الهجاء • فجرى على سنة سلفه الحطيئة • وجرد عليهم سيف لسانه البتار • وأسمعهم في نفوسهم وفي أحسابهم وأنسابهم ما يكرهون • وفزع هؤلاء الى أبيه يشكونه اليه • وأصغى الأب الساذج لشكواهم • فأخذ يضرب ولده ضربا مبرحاً • وشق هذا على أم الغلام • فقالت ذات يوم لأبيه : « كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه » فقال لها : « بلى والله إني لأرحمه • ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي » وسمعه الصبي « فطمع فيه • وقال له يا أبت • ان هذا الذي يشكونه مني اليك • هو قول الشعر • واني ان ألمست عليه أغنيتك وسائر أهلي • فان شكوني اليك فقل لهم أليس الله يقول : « ليس على الأعمى حرج » •

وعاود بشار هجاء الناس • فعاود هؤلاء شكواهم الى أبيه فقال لهم هذا ما قاله له بشار « فانصرفوا وهم يقولون فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار » •

ولم يطل الوقت حتى ذاع صيت الشاعر الضرير • وطارت شهرته في الآفاق • فخشي الناس معرة لسانه وتحاموا هجاءه • وافتدوا أحسابهم وأعراضهم منه بأموالهم • ويقول الرواة ان عمر بن هبيرة أول من منحه جائزة سنية على مديحه • أجازه على بائيته التي يمدحه فيها والتي منها قوله :

اذا الملك الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

بعشرة آلاف درهم ومنذ ذلك الحين علا قدره ـ فيما يقول صاحب الأغاني وارتفع ذكره . وكان اذا تأخرت عليه جوائز ممدوحيه هددهم بالهجاء . أو لذعهم به دون سابق انذار . فيبادرون الى استرضائه ومضاعفة صلته والاعتذار اليه .

مدح عقبة بن سلم بأرجوزته التي مطلعها : « يا طلل الحي بذات الصمد » فأثابه عليها بخمسين ألف درهم . ولكن وكيله أخر دفع المبلغ اليه ثلاثة أيام . فما كان من بشار الا أن أمر غلامه ان يكتب على باب عقبة هذا الانذار :

ما زال ما منيتني من هشي والوعد غم فأزح من غمّي
ان لم ترد مدحي فراقب ذمي

فلما خرج عقبة من داره وقرأ ما كتبه بشار على بابه . قال لخازنه أدفعت الى بشار ما أمرت به . فأجابه « نحن مضيقون وغدا أحملها اليه » فقال له زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها اليه في الحال .

وكان سهيل بن عمرو أحد أعيان قريش يهدي بشارا قواصر من تمر في كل سنة . فأبطأ عليه ذات سنة فكتب اليه بشار :

تمر كم يا سهيل درّ وهل يطـ ـمع بالدر من يدي متعت (١٦)
فاحبني يا سهيل من ذلك التمـ ـر نواة تكون قرطاً لبنتي

فبعث اليه سهيل بقواصر التمر وضاعفها ملتمساً منه ألا يضيف شيئاً الى البيتين . وبهذه الطريقة عاش بشار مخشي الجانب مقضي

(١٦) المتعت : السائل اذا الحف فى المسالة . يقول بشار لسهيل انت من السؤال الملحفين فى المسالة فكيف يطمع طامع باخذ الدر منك .

الحاجة بل قل موفور الجاه والمال . يلهو . ويلعب . ويستمتع بأطايب الحياة . ويزوره الناس نساء ورجالا ليأخذوا عنه ويسمعوا منه . ويشعروه احترامهم لـه ويتأنق في استقبالهم فيستقبلهم في مجلسين مختلفين أحدهما خاص بالصباح اسمه (البردان) وثانيهما خـاص بالمساء اسمه (الرقيق) .

وفي ذات يوم زاره فريق من النساء يلتمسن منه شيئا من شعره. بينهن جارية حسناء اسمها عبدة فتنته بصوتها الرخيم وحديثها العذب. فبعث اليها مع غلامه رسالة غرامية قبلتها بسرور . ولكنها لم تسعفه. وانما كانت تثيبه على رسائله الرقيقة برسائل مماثلة . فتشوق اليهـا وشبب بها مدة من الزمن . حتى صارت بطلة نسيبه . وسأروي لك مثلا من شعره فيها في مكان آخر من هذا الفصل .

وقد أحب بشار نساء عديدات غير عبدة . وراسلهن وتغزل بهن. بعضهن معروف وبعضهن غير معروف . ومن المؤكد أن بشارا لم يحمل بين جوانحه حبا طاهرا عفيفاً لعبدة ولا لغيرها من النساء . وانما كان يهوى النساء . كما يهواهن أمرؤ القيس . وكما يهواهن عمر بن أبي ربيعة والفرزدق .

وقد قلت لك اني أجزم بأن بشارا لم يرسل الى الكتّاب وأنأحداً لم يعن بتدريبه وتخريجه . وانما هو تلميذ طبعه وخرّيج فطرته . وأقول لك الآن انه طلب العلم عندما بلغ أشده . وعمل على توسيع معارفه فنظر في أمر الكون ووجود الخالق والجبر وما الى ذلك من العلوم الشائعة في عصره . ويعده سعيد بن سلام أحـد ستة كلهم أصحاب كلام . وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وصالح بن عبد

القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء وجرير بن حازم الأزدي الذي كان بيته ناديا لهذه الفئة وهو . فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال. وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة . وأما جرير بن حازم فدان ببعض خرافات الهند . وأما بشار فقد شك وتحير . ومن شعره الدال على حيرته قوله :

طبعت على ما في غير مخبر هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت الا التعجبا

ويعتقد الرواة أنه دان بالرجعة . وكفّر الأمة كلها بعد رسول الله. وسئل عن رأيه في علي بن ابي طالب بهذه المناسبة فقال :

وما شر الثلاثة أم عمر بصاحبك الذي لا تصبحينا

ومما لاشك فيه أن بشاراً قال بتفضيل إبليس على آدم معللاً ذلك بأن الاول من نار والثاني من طين والنار خير من الطين لأنها مضيئة والطين مظلم :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وقد أحدث رأي بشار هذا ضجة عالية في الاوساط العلمية الدينية المعاصرة . فحمل عليه صديقه القديم واصل بن عطاء حملة شعواء . وجاهر برغبته في قتله . لولا أنه يترفع عن الغيلة . ورد عليه صفوان الانصاري بقصيدة طويلة يشرح فيها مزايا الارض وأسباب تفضيلها على النار . أروي لك منها هذه الابيات القليلة لطرافتها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً وفي الارض تحيا بالحجارة والزند
ويخلق في أرحامها وأرومها أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد

وفي القعر من لج البحار منافـع من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الارض في البحر كله وفي الغيضة الغناء والجبل الصلد(١٧)

وكما حاد بشار عن النهج القويم في الدين • حاد كذلك عن النهج القويم في السياسة • فأعتنق الشعوبية ودان ببغض العرب • وانكر ولاءه لهم • بعد أن ملأ الدنيا به فخراً بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فحرض من بالبصرة من الموالي على مناهضة أسيادهم • والخروج من طاعتهم • وقد عاتبه أحد سراة البصرة في ذلك فرد عليه رداً موجعاً • وشتم عرضه شتماً قبيحا • على أني أرى في تفضيل بشار إبليس على آدم • وتمجيده النار لوناً آخر من ألوان الشعوبية • فأنت تعلم أن النار معبودة الفرس القدماء ومعبودة من بقي منهم على المجوسية • في ظل الاسلام • ومن أجل ذلك يخيل إلي أن مذهب بشار في تقديس النار سياسي أكثر منه ديني •

ولم يمدح بشار أحداً من بني أمية ــ فيما نعلم ــ سوى سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان أميراً على « حران » مدحه بقصيدة يقول فيها :

وقائـلة لي حـين جد رحيلنـا وأجفان عينيهـا تجود وتسكب
أغاد إلى حـر ان في غـير شيعة وذلـك شأو عن هواهـا مغرب
فقلت لهـا كلفتني طلب الغنى وليس وراء ابن الخليفة مذهب (*)

وأجاز سليمان بشارا على مديحه بخمسة آلاف درهم فاستقلها

(١٧) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٦ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر
(*) اخذ ابو نواس معنى هذه الابيات الثلاثة وحوره قليلا وزاد فيه فى أبياته المشهورة التي يمدح بها الخصيب من قصيدة وهي :
تقول التي من بيتهـا خف مركبي عزيز علينا ان نراك تسير . الابيات

وردها وهجا سليمان وآل مروان قاطبة بهذه الابيات التي أرويها كلها لا لبيان موقفه من آل مروان فحسب . بل لدلالتها على أشياء عديدة من خصاله واحواله قال :

إن أمس منقبض اليدين عن الندى ... وعن العدو مخيس [18] الشيطان
فلقد أروح على اللئام مسلطاً ... ثلج المقيل منعم النـــدمان
في ظـــل عيش عشيرة محمودة ... تندى يدي ويخاف فرط لساني
أزمان خيبني الشبـاب مطاوع ... وإذ الأمـير علي من حران [19]
ريم بأحويـة العراق اذا بـدا ... برقت عليـــه أكلة المرجـــان
فأكحل بعبدة مقلتيك من القذى ... وبوشك رؤيتهـــا من الهمـلان
فلقرب من تهوى وأنت متيـم ... أشفى لدائـــك من بني مروان

ولم يفد بشار بمديحه على السفاح ولا على المنصور من خلفاء بني العباس بل إنه هجا الثاني هجاء مرا بسيميته الآتي ذكرها . وذلك عندما ثار عليه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي ولكنه وفد على المهدي في أيام خلافته ورجا يزيد بن مزيد أحد رجال دولته أن يقدمه اليه فوعده يزيد ما أراد ولكنه مطله وأمعن في مطله . فانتهز روح بن حاتم ــ وكان قد زار بغداد ــ هذه الفرصة وقدم بشاراً إلى المهدي دون أن يسأله ذلك . ودون ان يعلم به أيضا .

فدخل على الخليفة العباسي وأنشده مدحة له . كان قد أعدها فقبلها منه وأثابه عليها بعشرة آلاف درهم . وخلع عليه خلعاً كثيرة

---

(١٨) المخيس هنا المذلل .

(١٩) هكذا في الاغاني ج ٣ ص ٥٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر . وربما كان الصواب : ازمان اسعف والشباب مطاوع .

واعطاه عبداً وقينة [٢٠] وبقيت صلته بالقصر حسنة الى أن نظم أبياتاً في الغزل . أحب أن أنزه عنها هذا الفصل بلغت المهدي وكان غيوراً شديد الغيرة على النساء . فغضب ونهاه عن التشبيب بهن . وأطاع بشار اشارة الخليفة . ونوه بذلك مراراً في شعره . ولعل الابيات التالية خير ما قال في هذا الباب وهي :

يا منظراً حسناً رأيتـــه ... من وجـه جارية فديتـه
بعثت إلـي تســومني ... برد الشباب وقـد طويتـه
والله رب محمـــــد ... ما إن غدرت ولا نويتـــه
أمسكت عنـــك وربما ... عرض البـلاء وما أبتغيته
إن الخليفة قـــد أبى ... وإذا أبى شيئـاً أبيتـــه
ومخضب رخـص البنـا ... ن بـكى علي وما بكيته
ويشوقني بيت الحبيب إذا أذكرت وأين بيتـــه ؟
حال الخليفـــة دونـه ... فصبرت عنه وما قليتـــه
ونهـاني الملـك الهمـا ... م عن النساء فمـا عصيته
لا بل وفيت فـلم أضـع ... عهداً ولا رأيا رأيتـــه
وأنا المطـل على العـدى ... وإذا غلا الحمد اشتريتـه

وأنشد بشار المهدي هذه الأبيات في إحدى قدماته عليه . وأتبعها مديحاً لا تشبيب فيه . فحرمه مع ذلك ولم يعطه شيئاً . وشق هذا الحرمان على بشار وقيل له إن المهدي لم يستجد شعرك . فقال كلا والله . لقد مدحته بشعر لو مدح به الدهر لم يخش صرفه على أحد . ولكنا نكذب في المديح فنكذب في الآمال . ثم سولت له نفسه أن

(٢٠) الاغاني ج ٣ ص ٥٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

يهجو المهدي فقال فيه هجاءاً أقله هذان البيتان :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وكان يعقوب بن داود وزير المهدي واجداً على بشار • لأنه هجا أخاه صالحاً الذي كان والياً على البصرة بقوله :

هم حملوا فوق المنابر صالحاً أخاك فضجت من أخيك المنابر

فأطلع الخليفة على هجاء بشار له فتميز غيظاً • ولكنه آثر الأناة والتثبت • فطلب إلى وزيره أن يقيم البينة • على أن بشاراً هجاه بما أطلعه عليه • فأقامها • وعند ذلك عقد المهدي النية على التنكيل بالشاعر تنكيلاً يقضي على حياته • فكان ذلك • وتختلف الروايات في كيفية تنكيل المهدي ببشار • فتزعم رواية أنه انحدر إلى البصرة • فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً في وقت الضحى • فأمر بالبحث عمن فعل هذا • فاذا هو بشار • فلما أتي به وكان سكران قال له يازنديق أتلهو بالاذان في غير وقت صلاة وأنت سكران • والله لقد علمت أن غيرك لا يفعل هذا ثم أمر بضربه على صدر الحراقة فكان إذا أوجعه الضرب قال « حس » وهي كلمة تقال في الشيء اذا أوجع فقال أحد الحاضرين أنظر يا أمير المؤمنين إلى زندقته يقول حس ولا يقول بسم الله • فقال له بشار أطعام هو فأسمي عليه ؟ ثم ترك بعد الضرب وقد أشفى على الموت فمات وسلمت جثته الى أهله ، وتزعم أخرى أن يعقوب بن داود وشى ببشار في أثناء زيارة من زيارات المهدي للبصرة • فأمر المهدي (صاحب الزنادقة) وهو عبد الجبار أو حمدويه أن يأخذ بشاراً ويحتفظ به • فلما بلغ البطيحة عائداً الى بغداد ذكره وأمر بضربه فضرب حتى

أشرف على الموت . وتقول ثالثة إن المهدي أمر صاحب الزنادقة بضرب بشار في البصرة فمات من الضرب . وفرح الناس بموته فحملوا إلى صاحب الزنادقة هدايا كثيرة .

والشيء المؤكد الذي يستخلص من هذه الروايات المتضاربة هو أن بشاراً مات بسبب ضربه ضرباً مبرحا . وأنه ضرب لزندقته في الظاهر ولهجائه المهدي في الحقيقة .

وهناك قصتان تتعلقان بوفاة بشار قد لا تخلو روايتهما من فائدة وطرافة . تقول إحداهما إن المهدي لما قتل بشاراً أمر بتفتيش داره فوجد فيها « طوماراً فيه بسم الله الرحمن الرحيم إني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله (ص) فأمسكت عنهم إجلالاً له على أني قد قلت فيهم :

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبابليين حفنا بالعفاريت
لا يبصران ولا يرجى لقاؤهما كما سمعت بها روت وما روت

فلما قرأه المهدي بكى وندم على قتله وقال « لا جزى الله يعقوب بن داود خيراً فانه لما هجاه لفق عندي شهوداً على انه زنديق فقتلته ثم ندمت حين لا يغني الندم » (٢١) .

وتقول الأخرى إن المهدي لما قتل بشاراً وسلم جثته إلى أهله دفنه هؤلاء بقرب حماد عجرد الذي كان يهاجيه في أيام حياته فوقف على قبريهما أبو هشام الباهلي ــ وهو شاعر بصري كان يهاجي بشاراً أيضا : فقال :

قد تبع الأعمى قفا عجرد فأصبحا جارين في دار

(٢١) الاغاني ج ٣ ص ٧٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

قالت بقاع الارض لامرحباً بقرب حمـــــاد وبشار
تجاورا بعـــد تنائيهما ما أبغض الجار الى الجـار
صارا جميعا في يدي مالك في النار والكافر في النار (٢٢)

ب ـ صفاتـــه :

وصف الأصمعي بشاراً فقال : « كان بشار ضخما عظيم الخلق والوجه مجدوراً طويلاً جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً وكان اذا أراد أن ينشد صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب » (٢٣) وأنا أضيف الى ما تقدم أنه كان ماجناً ظريفاً فياض البديهة بالجواب الحاضر والشعر المرتجل شديد الإشفاق من الهجاء كريماً متلافا باراً بأهله وفياً لأصدقائه وأخبار الرجل الدالة على مجونه كثيرة اليك منها هذا الخبر وهو من أقلها امعانا في المجون ، روي أن سعد بن القعقاع كان ينادم بشاراً فقال له ذات يوم ويحك يا أبا معاذ قد نسبنا الناس الى الزندقة فهل لك أن تخرج بنا الى الحج لننفي هذه التهمة عنا قال نعم ما رأيت وخرجا الى الحج فلما وصلا الى الكوفة ومرا بزرارة وهي محلة فيها ندم ابن القعقاع على القيام بهذه المجازفة . فقال لبشار ويحك يا أبا معاذ ثلاثمائة فرسخ من هنا إلى مكة متى نقطعها ؟ مل بنا الى زرارة نلهو ونلعب . فاذا قفل الحاج عارضناهم بالقادسية وجززنا رؤوسنا . فلم يشك الناس أنا جئنا من الحج . فقال له بشار نعم ما رأيت . ولكني أخشى أن تفضحنا . فوعده سعد أن يكتم سر هذه المغامرة . ومالا

(٢٢) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٩٧ .
(٢٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢ .

إلى زرارة . فأقاما فيها يشربان ويلعبان . فلما نزل الحاج بالقادسية راجعاً من مكة . أخذا بعيراً ومحملاً وجزا رأسيهما وأقبلا وتلقاهما الناس يهنئونهما فنكث ابن القعقاع عهده وفضح سر بشار وسره بهذه الأبيات :

ألم ترني وبشارا حججنا ... وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبي سفر بعيد ... فمال بنا الطريق إلى زرارة
فآب الناس قد حجوا وبروا ... وأبنا موقرين من الخسارة (٢٤)

قد تقول ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الخبر مكذوبا . وأجيب بأن ذلك ممكن كل الامكان . ولكنه على هذا منسجم وحياة بشار وسائر أخباره انسجاماً تاماً . وظرف بشار معروف تدل عليه نكته الكثيرة اللاذعة . ونوادره العديدة الفكهة . التي تمثل حدة ذكائه وسرعة جوابه . فمن هذه النوادر ما يروى من أن أحدهم قال له « إن الله لم يذهب بصر أحد الا عوضه بشيء فما عوضك » قال « الطويل العريض » قال وما هو قال ان لا أراك وأمثالك من الثقلاء . ومنها جوابه ليزيد بن منصور الحميري خال المهدي عندما سأله عن صناعته فقد قال له « أثقب اللؤلؤ » وما أشك في أن المهدي استحسن هذا الجواب الظريف الاستحسان كله . ولكنه تظاهر بحماية خاله فقال لبشار ويحك أتتنادر على خالي . فأجابه بشار « وما أصنع به يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته » .

ومن أجوبة بشار الظريفة . ما يرى من أنه قرض أبا النضير أحد شعراء زمانه . فقال له هذا لعلك تحابيني يا أبا معاذ . فاجابه

(٢٤) الاغاني ج ٣ ص ٤١ .

(أنت أبقاك الله أهون علي من ذلك) وسرعة جواب بشار هذه • تقودنا الى الكلام عن قدرته على ارتجال الشعر • فقد كان حاضر البديهة سريع الخاطر يقول الشعر متى أراد • وأخباره في هذا الباب كثيرة • منها أن أبا الشمقمق شكا اليه الضيق ذات يوم فقال له والله يا أبا الشمقمق • ما عندي شيء يغنيك • ولكن قم معي الى عقبة بن سلم • ودخل الشاعران على الرجل وقرض بشار ابا الشمقمق وأثنى عليه فوهب له عقبة خمسمائة درهم فقال بشار على الفور :

يا واحد العرب الذي أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

ودعا عقبة هذا بشارا وحماد عجرد واعشى باهلة ذات يوم فقال لهم : خطر ببالي البارحة هذا المثل المعروف (ذهب الحمار يطلب قرنين فجاء بلا أذنين) فاشتهيت أن ينظم شعرا فمن نظمه منكم فله خمسة آلاف درهم • أما اذا لم تفعلوا جلدت كلا منكم خمسمائة جلدة • فقال حماد أعز الله الأمير • اجلنا شهرا وقال الأعشى أجلنا اسبوعين • وكان بشار ساكتاً فسأله عقبة أن يتكلم فقال له : أصلح الله الأمير حضرني في قصدك أبيات انشدها اذا أحببت قال قل فأنشد :

شط بسلمى عاجل البين وجاورت أسد بني القين
ورثت النفس لها رنة كادت لها تنشق نصفين
يا ابنة من لا أشتهي ذكره أخشى عليه علق الشين
والله لو القاك لا أتقي عيناً لقبلتك الفين
طالبتها ديني فراغت به وعلقت قلبي مع الدين
فصرت كالعير غدا طالبا قرناً فلم يرجع بأذنين

ومن غريب صفات بشار انه كان شديد الاشفاق من الهجاء . يخافه ويتألم له ويجزع منه .

روي انه لما سمع قول حماد عجرد فيه :

شبيه الوجه بالقرد اذا ما عمى القرد

بكى فقيل له أتبكي لهجاء . فقال والله ما ابكي من هجائه ولكن ابكي لأنه يراني فيصفني ولا أراه فأصفه . وقد يكون في هذا الخبر شيء من المبالغة ولكن اشفاق بشار من الهجاء أمر لا شك فيه . وكان شاعرنا برماً بالناس يضيق بهم وينفر منهم ويعيب عليهم أقوالهم وافعالهم. الا أنه كان بارا بأهله وفياً لأصدقائه . وليس هذا كل ما عنده من حميد الخلال . بل انه كان كريما متلافاً ينفق كل ما يصل الى يده من المال وقد مر بك قوله « تندى يدي » وقوله : « واذا غلا الحمد اشتريته » ونحن نضيف الآن الى هذا قوله من أبيات :

ناري محرقة وبيتي واسع للمعتفين ومجلسي معمور

جـ ـ شعره :

في رواية أن بشارا زعم ان له اثنى عشر الف أو ثلاثة عشر الف بيت شعر عين . فقيل له ان هذا مالا يدعيه أحد . فأجاب بأن له اثنتي عشرة الف أو ثلاث عشرة الف قصيدة فلعنها الله ولعن قائلها ان لم يكن في كل واحدة منها بيت عين واحد [٢٥] . وأحسب أن هذه الرواية مكذوبة أو أن بشارا غلا غلواً فاحشاً في التحدث عن كثرة انتاجه فاننا

(٢٥) الاغاني ج ٣ ص ٢٤ .

لو فرضنا أن بشارا عاش سبعين عاما • وأنه كان يقول مائة قصيدة في العام • منذ أن بلغ العاشرة من سنه • لما تجاوز شعره نصف هذا المقدار الذي تقدمت له الاشارة • هذا مع العلم بأن نظم مائة قصيدة في السنة أمر يصعب تصديقه جدا • اللهم الا اذا كان الشعر من نوع :

ألا يا عتبـــة الساعة أموت الساعة الساعة

فان نظم مائة قصيدة في الاسبوع من هذا النوع من الشعر أمر لا يصعب على أحد • وليس هذا مايعنيه بشار اذا صح أنه صاحب الزعم المذكور • وقد طبع ديوان المترجم بمصر بين سنتي ١٣٦٩ هـ و ١٣٨٦ هـ و ١٩٥٠ م و ١٩٦٦ م • وهو ديوان ضخم • يتألف من أربعة أجزاء من القطع المتوسط •

مصدر بترجمـــة وافية للشاعر • ومقدمـــة ضافية • فيهـــا ما يفيد وما لا يفيد • ومشتمل على شروح وتعليقات كثيرة :

وشعر الرجل يتألف من الغزل والمديح والهجاء والرثاء والفخر والحكم • وتقع كثرته في الابواب الثلاثة الأولى • وهذا طبيعي لان بشارا صاحب مجون وتكسب بالشعر قبل كل شيء •

غزلـــــه : وأحدثك أول ما أحدثك عن غزله فأزعم أنه لا يحتوي على ما يمكن أن يسمى عواطف غرامية صادقة • ولكنه يحتوي على ما يمكن أن يسمى خواطر لطيفة وأخيلة طريفة • ومعاني دقيقة أو غير دقيقة ــ ذلك أن بشارا رجل شهوة • وصاحب لذة • يهمه من المرأة جسمها ولا يهمه عقلها ولا خلقها ولا أدبها وهو يتودد اليها ويشبب بها طمعا بقضاء أوطاره منها • واذن فلا بد له من أن يقول لها انه يسهر الليل هياما بها وشوقا اليها وانه يهذي بها ليل نهار وان الناس يلومونه

في ذلك وانهم يسرفون في هذا اللوم . ولكنه يعيرهم أذنا صماء . ولا يحفل بلومهم كثيرا ولا قليلا وان الآلام برحت به فأوهنت قواه . ونهكت جسمه حتى أنها ـ أي المرأة ـ لو توكأت عليه لا نهدم مع انه على جانب غير قليل من ضخامة الجثة ومتانة البنية ، هو مضطر الى ان يقول لها هذا . والا فانها تنبذه وتطرحه وتحرمه عطفها . وتمنعه وصلها ، وغني عن البيان أن هذه المعاني متداولة مألوفة . قالها شعراء كثيرون قبل بشار . فهل لهذا الشاعر الماجن المجيد غزل أصيل يمثل حياته ويصور مقاصده وأغراضه. ولا يظهر فيه أثر الاقتباس والتقليد.؟

بلى ان له لغزلا أصيلا لا يمثل الا حياته . ولا يصور سوى مقاصده واغراضه ، من أهمه هذه المقطوعات العديدة التي يصف فيها غرامه بعبدة وغيرها من النساء . رغم فقدانه حاسة البصر . ويتحدث عن قيام أذنه مقام عينيه في تعرف معالم الجمال وتبين ملامح الصباحة والفتنة .

فأنت عندما تقرأ هذا القسم من غزله . مضطر الى أن تشعر في الحال أنك انما تقرأ غزل عاشق ضرير . يهمه أن يشارك ذوي الابصار في الاتصال بالنساء والظفر بعطفهن والاستمتاع بقربهن . ويهمه أن يؤكد لهم أنه يعرف من الجمال ما يعرفون . ويدرك منه ما يدركون . وبالتالي يعشق منه ما يعشقون ، بل انك مضطر عندما تقرأ هذا القسم من غزل بشار الى ان تشعر انك انما تقرأ غزل بشار نفسه . لأن بشارا في مجونه وقوة شعره وشدة حرصه على أن يظهر بمظهر ذوي الابصار في كل شيء نسيج وحده في الأدب العربي كله . ومن طريف غزله في هذا الباب قوله :

يزهدني في حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان الا من القلب

وقوله :

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
ما كنت أول مشغوف بجارية (٢٦) يلقى بلقيانها روحاً وريحانا
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقوله :

وكاعب قالت لأترابها يا قوم ما أعجب هذا الضرير
هل يعشق الانسان من لا يرى ؟ فقلت والدمع بعيني غزير
ان تك عيني لا ترى وجهها فانها قد صورت في الضمير

ومنه . أي من غزل بشار الاصيل الذي يمثّل حياته ويصوّر مقاصده وأغراضه . هذه القصائد والمقطوعات التي يتحدث فيها عن مغامراته الغرامية ويروي ما يدور بينه وبين خليلاته من غزل وحوار كله عبث ومجون . وهو في هذا النوع من غزله يعيد الى الذاكرة عهد عمر بن أبي ربيعة . وإن كان ما يروى له من الغزل القصصي الأباحي قليلا . ولعل خير كلمة له في هذا الباب رائيته التي مطلعها :

قد لامني في خليلتي عمر واللوم في غير كنهه ضجر

على أن غزل بشار الذي لا يمتاز بالتحدث عن الدور الذي تلعبه

(٢٦) ويروى : « هل من دواء لمشغوف بجارية » .

أذنه في شؤونه الغرامية . ولايمتاز كذلك بالتحدث عن مغامراته ورواية ما يجري بينه وبين خليلاته . يمتاز في كثير من الأحيان بدقة معانيه وجمال أخيلته ولطافة أسلوبه .

وما أظنك الا موافقاً لي على هذا الزعم اذا قرأت قوله :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني إليك فان الحب أقصاني

وقوله :

أنا والله أشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق

وقوله :

كأن فؤاده كرة تنزى حذار البين لو نفع الحذار
كأن جفونه سملت بشوك فليس لنومه فيها قرار
أقول وليلتي تزداد طولاً أما لليل بعدهم نهار
جفت عيني عن التغميض حتى[٢٧] كأن جفونها عنها قصار

ففي هذه الأمثلة من غزل بشار من دقة المعنى وجمال الخيال ولطف الأسلوب مالا يخفى على أحد .

مديحه : أما مديح بشار فانه في الغالب قريب إلى الاعتدال . بعيد عن الغلوّ والإسراف . وهو يسلك فيه سبيل زهير بن أبي سلمى وتلميذيه الحطيئة وكثير في عرض فضائل الممدوح وأخلاقه كما هي . ووصفها وصفاً يكاد يكون جافاً لشدة قربه من الحقيقة . وماذا تنكر من شاعر يقول لممدوحه : إن الصلة الوحيدة التي تجمع بينه وبينه هي

(٢٧) يقال . جفاه . ولا يقال . جفا عنه . لان جفا فعل متعد راسا

« أنه عاف وهو جواد » وأنه إن أكرم وفادته وأحسن صلته رزق عظيم الأجر وجزيل الشكر • وإلا فان أرض الله واسعة :

أخالد لـم أخبط إليك بذمـة سوى أنني عاف وأنـت جـواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتي فأيهمـا تأتي فأنت عمـاد
فان تعطني أفرغ عليك مدائحي وإن تأب لـم تضرب علي سداد
ركابي على حرف وقلبي مشيع ومالي بأرض الباخلـين بـلاد
إذا أنكرتني بلـدة أو نكرتهـا خرجت مـع البازي عليّ سواد

وماذا تنكر من شاعر يقول لممدوحه الذي أثابه على الأبيـات السالف ذكرها بأربعة آلاف دينار : أيها الجواد المفضال إن الحمد خالد والمال بائد • فأشتر الخالد بالبائد • وإن الدنيا عارية فكل منهـا ما تشاء • وأطعم منها ما تشاء • ولا تستبقها فأنها مردودة في يوم من الأيام :

أخالد إن الحمـد يبقى لأهـله جمالا ولا تبقى الكنوز على الكد
فأطعم وكـل من عارة مستردة ولا تبقهـا إن العواري للرد

بل ماذا تنكر من شاعر يطري جواداً منحه ستين ألف درهم نظير أبيات قليلة من المديح [٢٨] فلا يزيد على أن يقول إنه لا يعطيك رغبة في الثناء ولا رهبة من الهجاء • وإنما يعطيك لأنه كريم يسره العطاء :

ليس يعطيـك للرجاء ولا الخو ف ولـكن يلـذ طعـم العطاء

على أن بشاراً قد يتغلغل في مديحه إلى أبعد من هذا فيأتي بالمعاني الدقيقة التي لم يسبقه إليها سابق فيما أظن ــ على الاقل ــ والتي تبرأ

(٢٨) حدث هذا لعقبة بن سلم عندما مدحه بشار بأرجوزته التي مطلعها : « باطلال الحي بذات الصمد » والتي لم يتجاوز مديحه فيها خمسة وعشرين مصراعاً .

من الغلوّ والاسراف براءة تامة كما في قوله :

لمست بكفي كفــه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فــلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ما عنــدي

ولكنه لا يفعل هذا دائماً . على أنك قد تقول وكيف يبرأ هذان البيتان من الغلو والاغراق . وأجيب بأن العطاء الكثير قد يحمل على الانفاق الكثير . وبهذا يعدي خالد بشاراً بمرض السخاء . فينفق كل ما يشيبه به على مدائحه . وقد قلت لك عند الكلام على أخلاق بشار إنه كان كريماً متلافاً .

هجاؤه : بيد أنه إن كان بشار معتدلاً في مديحه اعتدالاً لاشك فيه . فانه مسرف في هجائه إسرافاً لاشك فيه أيضاً . وعلة ذلك أنه يرى أن الهجاء يجب أن يكون موجعاً ليكون مخيفاً . وليأتي بالنتيجة المقصودة . وإلا فلافائدة في نظمه . وقد قيل له : « إنك لكثير الهجاء » فأجاب « إني وجدت انهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع . ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام فليستعد للفقر . وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى » (٢٩) وصدق ظن بشار فقد أخذ الهجاء بضبعه ورفع منزلته في عيون الناس . فخافه الأمراء والكبراء والعلماء . وأكرمه كل فريق منهم بأسلوبه . وعلى قدر طاقته . بل وفوق طاقته أحياناً . أكرمه الامراء والكبراء بالهبات والجوائز السنية . وأكرمه العلماء بالتنويه بأدبه والاستشهاد بشعره . ولم يفعلوا ذلك معه إلا خوفاً من هجائه واتقاءً لمعرة لسانه . وقد مر بك ما يدل على مخافة العظماء إياه . وإليك بعض ما يدل على خوف العلماء منه .

(٢٩) الاغاني ج ٣ ص ٥١ .

حكي ان الاخفش طعن على بشار في قوله :

فالآن أقصر عن سمية باطلي وأشـار بالوجلى عليّ مشير

وفى قوله :

على الغزلى مني السلام فربما لهوت بهـا في ظل مرءومة زهر

وفي قوله في وصف سفينة :

تلاعب نينان البحور وربمـا رأيت نفوس القوم من جريها تجري

وقال لم أسمع من الوجل والغزل فعلى • ولم أسمع بنون ونينان• فبلغ ذلك بشاراً فقال • ويلي على القصازين متى كانت الفصاحة فيهم• دعوني وإياه • فبلغ ذلك الاخفش فبكى وجزع • فقيل له ما يبكيك ؟ فقال ومالي لا أبكي وقد وقعت في لسان بشار الأعمى • فذهب أصحابه إلى بشار واستوهبوه عرضه فوهبهم إياه بعد أن وصفه باللؤم • فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه ليبلغه ذلك • وليكف شره عنه • وفي رواية أن سيبويه هو الذي ندد بأخطاء بشار السابق ذكرها لا الأخفش • فهجاه بما لايسعنا ذكره • فاتعظ واعتبر • وكان بعد ذلك يحتج بشعر بشار بدلاً من أن ينقده وينبه الى ما فيه من هنات وهفوات (٣٠) •

وقد رويت لك مثلاً قليلة مما يسمح الأدب بروايته من هجاء بشار • وأروي لك الآن قصيدة كاملة منه ــ أستغفر الله ــ فان القصيدة

---

(٣٠) الاغاني ج ٣ ص ٥٢ .

التي أريد ان أرويها لا تشتمل على الهجاء فحسب . وإنما تشتمل على المديح وعلى الحكم أيضاً . هذه القصيدة التي أريد أن أرويها لك هي ميمية بشار التي هجا بها المنصور عندما ثار عليه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ومدح إبراهيم وجاء في أثناء ذلك بحكم ونصائح ربما كانت من خير ما تفتقت قريحته عنه . وقد قمعت فتنة إبراهيم وقتل فخاف الشاعر . وجعل « أبامسلم» مكان « أبي جعفر » في صدر القصيدة زاعماً أنه نظمها في هجاء الاول. وهذا ما نجاه من فتك المنصور وإلا لضربت عنقه كما ضربت عنق ابراهيم . وكما ضربت عنق ابي مسلم أيضا . ومهما يكن من شيء . فهذه هي القصيدة كما يرواها أبو الفرج وكما يرويها الديوان :

أبا جعفر ماطول (٣١)عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوّج ... عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم ... وأمسى أبوالعباس (٣٢) أحلام نائم
وقد كان لايخشى انقلاب مكيدة ... عليه ولا جري النحوس الأشائم
مقيماً على اللذات حتى بدت له ... وجوه المنايا حاسرات العمائم
وقد ترد الأيام غراً وربما ... وردن كلوحاً باديات الشكائم
ومروان قددارت على رأسه الرحى ... وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادراً في طريقهم ... ولا تتقي أشباه تلك النقائم
تجردت للاسلام تعفو سبيله ... وتعري مطاه لليوث الضراغم

(٣١) هكذا فى الديوان والاغاني . وربما كان الصواب . ما طيب . وقد تكون هذه سقطة من سقطات بشار .

(٣٢) المقصود بأبي العباس هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

فما زلت حتى استنصر الدين أهله ... عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم
فرم وزراً ينجيك يا ابن سلامة ... فلست بناج من مضيم وضائم (٣٣)
لحى الله قوماً رأسوك عليهم ... وما زلت مرؤوسا خبيث المطاعم
أقول لبسام عليه جلالة ... غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى ... جهاراً ومن يهديك مثل بن فاطم (٣٤)
سراج لعين المستضيء وتارة ... يكون ظلاماً للعدو المزاحم
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينى للضعيف ولاتكن ... نؤوماً فان الحزم ليس بنائم
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة ... شبا الحرب خير من قبول المظالم

وأنت إذا تدبرت هذه القصيدة رأيت أنها تنطوي على مغامز كثيرة ينبغي أن يبرأ منها شعر شاعر فصيح مطبوع على الكلام مثل بشار . فجمعه نقمة على نقائم في البيت التاسع من قصيدته خطأ . لأن نقمة تجمع على نقم . كعنب . ونقم ككلم . ونقمات ككلمات . ولا تجمع مطلقاً على نقائم . وكان في وسع بشار ان يتحاشى هذا الخطأ بوضع « عظائم » موضع « نقائم » ولكن فاته هذا . وقوله . في عجز البيت الثالث عشر « وما زلت مرؤوسا خبيث المطاعم » مغلوط لانه مناقض

(٣٣) غير بشار هذا البيت عندما زعم انه نظم القصيدة فى ابي مسلم الخراساني فوضع وشيكة وهي أم ابي مسلم موضع سلامة ام المنصور .

(٣٤) ينص الديوان على ان بشاراً وضع « هاشميين » موضع « فاطميين » و « هاشم » موضع « فاطم » عندما ألصق القصيدة بابي مسلم الخراساني : انظر الصفحة ١٧٢ من الجزء الرابع من الديوان .

لقوله في صدر البيت « لحي الله قوماً رأسوك عليهم » اذ كيف يكون المخاطب رئيساً ومرؤوسا في وقت واحد . وقوله .

(أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحياً عاشقا للمكارم)

رديء أو قل هو أقرب الى الهجاء منه إلى المديح لأن جملة « غدا أريحياً » تعني أنه كان غير أريحي فيما سلف من أيامه وهذا مالا يريد بشار أن يقوله ولو وضع « طليق المحيا » أو « شريف السجايا » موضع غدا أريحيا لامكنه تحاشي هذه السقطة ، وقوله :

(سراج لعين المستضيء وتارة يكون ظلاماً للعدو المزاحم)

رديء لأن تشبيه الممدوح بالظلام يشبه أن يكون هجاءً لامديحاً ولو وضع « شواظا » موضع « ظلاماً » لاستقام له ما أراد من وصف ممدوحه بالهداية لأوليائه وشدة الوطأة على اعدائه دون أن يلجأ إلى تشبيهه بظلمة الليل .

وقوله :

(اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم)

مستهجن لاشتماله على ترديد لا محل له اذ المفروض في المستشار أن يكون حازماً أميناً مخلصا وإلا لا داعي لاستشارته . ولو وضع بشار « ثاقب الفكر حازما » أو « صائب الرأي حازما » موضع « أو نصيحة حازم » لسلم بيته من الهجنة . هذا إلى اننا لا نعلم متى « يبلغ الرأي المشورة » حسب رأي بشار وكيف ؟ واحسب انه لو قال . (إذا طرقت احدى الملمات فاستعن .. الخ) لكان ذلك اقرب الى الفهم.

وقولـــه :

(وخل الهوينا للضعيف ولا تكن تؤوما فان الحزم ليس بنـائم)

سخيف إذ من المعلوم جداً أن الحزم والنوم أو الاستغراق في النوم أمران متناقضان ، ويزداد شعورنا بسخف البيت إذا تذكرنا أن بشاراً يخاطب به ثائراً كبيرا يرشح نفسه لتولي منصب الخلافة ، وقد أخذ السيد صالح القزويني أحد شعراء نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر هذا المعنى فأودعه بيتاً لا أغلو مطلقاً اذا قلت لك انه يفضل بيت بشار مراراً عديدة وهو :

أمط عنك أبراد الكرى وامتط السرى

فمـا في اغتنـام المجد حظ لنائـم

نأين قوله « فما في اغتنام المجد حظ لنائم » من قول بشار « ولا تكن نؤوماً فان الحزم ليس بنائم » وفي قصيدة بشار مواطن ضعف أخرى عديدة أقل خطراً من التي ذكرت رأيت أن أضرب عنها صفحاً .

وقد رويت هذه القصيدة كلها وآثرتها بالنقد لأنها أكبر قصيدة وصلتنا من شعر بشار وأجمعها لأغراضه . وأظهرها لعيوبه وسقطاته . ولأن الرواة والنقاد القدماء كانوا يعجبون بها إعجاباً شديداً . فأبو عبيدة مثلاً يفضلها على ميميتي جرير والفرزدق اللتين هما من عروضها وقافيتها . ولأن النقاد المحدثين الذين كتبوا عن بشار أظهروا رضاءهم عنها واستحسانهم لها . وقد عللت إعجاب القدماء بها وعدم انتباههم إلى عيوبها بموافقتها هوى في نفوسهم ــ ذلك لأنها تعد بحق وثبة

جريئة في وجه طاغية أرهقهم بظلمه وأشقاهم بعسفه واستبداده • هو أبو جعفر المنصور • ولكني لم أستطع أن أعلل رضاء المحدثين عنها وعدم انتباههم الى عيوبها بشيء •

على أني لا أنفي أن القصيدة تشتمل على أبيات نفيسة حقاً ، منها هذان البيتان :

ولاتجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم

ومنها هذا البيت :

وحارب اذا لم تعط الا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

وان كان مثله كثيرا في القريض العربي •

رثاؤه : وما أحدثك بشيء عن رثاء بشار لانه في زعمي تافه لا قيمة له • وليس بشار أول شاعر ماجن ميت العاطفة متحجر الاحساس نزلت به المصائب وفقد الابناء والاحباب فلم يقل في ذلك كلاما يشف عن لوعة صادقة ويدل على احساس متأثر •

فخره : ولكني أحدثك عن فخره وهو كثير وعجيب وموضع العجب منه أنه لايغادر صغيرة ولاكبيرة مما يفخر به الناس حتى يعرض لها ويسجلها ويستغلها لمصلحة الشاعر • فبشار كما يصوره فخره أمير جليل ولد في أحضان الملك • ونشأ في ظل النعيم والترف ، له كل مالأبناء الملوك النجباء من جمال وجلال وهيبة ووقار وكرم وشجاعة وفصاحة ووسامة • الى غير ذلك مما يبهر ألباب الرجال ويسيل لعاب ربات الحجال • وما أريد أن أنكر على بشار ذكاءه ولا أدبه ولا فصاحته ولا كرم طبعه • ولكن يخيّل الي أنه يسرف بعض الشيء في انتحال

جميع ما ورد ذكره من الصفات والمواهب العالية . وقد رويت لك في صدر هذا الفصل أبياتا له يفخر فيها بنسبه وشجاعته وجماله . ورويت لك كذلك في مكان آخر منه أبياتا يفخر فيها بكرمه واريحيته وأروي لك الآن مثلا من فخره بأسياده من قيس عيلان [٣٥] الذين ينوه بعددهم وعددهم في بائيته الشهيرة التي يمادح بها عمر بن هبيرة ويتحدث عن الدور الحاسم الذي لعبوه تحت راية هذا القائد في دحر الضحاك بن قيس وأنصاره من الخوارج قال بشار :

رويد[٣٦] تصاهل بالعراق جيادنا ... كأنك بالضحاك قد قام نادبه

وسام لمروان ومن دونه الشجا ... وهول كلج البحر جاشت غواربه

ركبنا له جهرا بكل مثقف ... وأبيض تستسقي الدماء مضاربه

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى[٣٧] ... وبالشول والخطى حمر ثعالبه

غدونا له والشمس في خدر أمها ... تطالعنا والطل لم يجر ذائبه

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجى الفرار مثالبه

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

بعثنا لهم موت الفجاءة اننا ... بنو الموت خفاقا علينا سبائبه [٣٨]

فراحوا فريق في الإسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

اذا الملك الجبار صعر خده ... مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

---

(٣٥) قيس عيلان قبيلة كبرى من مضر منها بنو عقيل الذين نشأ الشاعر بين ظهرانيهم فى البصرة وانتمى اليهم بالولاء .

(٣٦) اذا اريد التهديد برويد نصبت من غير تنوين .

(٣٧) الحصى هنا العدد الكثير . والشول على (رواية الديوان)

(٣٨) خفاق : متحرك ، والسبائب : جمع سبيبة ، وهي شقة رقيقة من الكتان ، والمراد بها هنا الراية يقول : نحن بنو الموت تخفق علينا راياته .

حكمـــه : أما حكم بشار فانها قليلة تأتي عرضا في أثناء المديح والهجاء والعتاب ولكنها نفيسة رائعة وقد قال بعضـــها في مناسبات خاصة أوحتها اليه وأملتها عليه فأجاد فيها اجادة تامة • ومن هذا القبيل أبياته في الشورى) فان سياسة أبي جعفر الاستبدادية الغاشمة هي التي أملتها عليه املاءً وقال بعضها الآخر على سبيل الافضاء بما يجول في النفس من آراء وخواطر تحتشد في نفس الشاعر من حين لآخر فتشق طريقها الى شعره بمناسبة وبدون مناسبة ومن هذا القبيل قول بشار في ارجوزته المعروفة :

وافق حظـــا من سعى بجـــد ما ضر أهل النوك ضعف الجد
الحر يلحى والعصى للعبـــد وليس للملحف مثـــــل الرد

النصف يكفيك من التعدي

فهذه الحكم لا ترمي الى معالجة حادث أو موضوع بعينه وانما هي آراء وملاحظات استمدها الشاعر من تجاربه واختباراته • فأفرغها في هذا القالب التعليمي • والادب العربي غني بأمثال هذه الحكم قبل بشار وبعده ومن أجل هذا يخيل اليَّ أنني لا أظلم بشارا ولا أسوؤه اذا قررت أن أكثر حكمه غير جديد فمن المعلوم أنه أخذ قوله : الحر يلحى والعصا للعبد) من قول أبي الاسود الدؤلي :

العبد يضرب بالعصا والحر تكفيـــه المقـــالة

وقولـــــه :

خير اخوانك المشارك في المر وأين الشريك في المر أينـــــا

من قول المرقش :

أخوك الذي ان أجرضتك ملمة من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما

ولو شئت لأفضت في سرد الأمثلة حتى أرد أكثر حكم بشار الى أصول جاهلية أو اسلامية ولكن ما أنا بسبيل هذا الآن . على أني لا أميل الى القول ان بشارا أخذ هذه الحكم ممن سبقه من الشعراء أخذاً ولكني أرجّح انها وردت على خاطره بسبب الظروف والأحوال التي أحاطت به كما وردت على خاطر من تقدمه من الشعراء . على أن هذا لا يعني أننا لا نجد لبشار كلمة أصيلة في هذا الضرب من الشعر فأكبر الظن أن شاعراً لم يسبقه الى قوله في الشورى :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم

وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم (٣٩)

ولكن كم نعد من أمثال هذين البيتين في شعر بشار ؟ .

وللصديق في حكم صاحبنا مكان كبير فهو يوصي برعايته والمحافظة عليه ويدعو الى تقدير حسناته والصفح عن سيئاته ويحث على معاملته بكرم ورفق وتسامح ذلك لانه يعتقد أن البشر عرضة الخطأ قليله وكثيره وأنه لا غنى للانسان عن الأنسان . وعلى هذا فخير للاخوان أن يتسامحوا في هفواتهم ويتبادلوا الصفح عن زلاتهم :

اذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحدا أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

(٣٩) من طريف ما يحكي في هذا الصدد ان الاصمعي قال لبشار : « يا أبا معاذ ، ان الناس يعجبون بابياتك في المشورة » فقال له : « يا أبا سعيد ان المشاور بين صواب يفوز بثمرته او خطأ يشارك فيه » فأجابه الاصمعي : « انت والله في قولك هذا اشعر منك في شعرك » الاغاني ج ٣ ص ٢٩ .

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

على أن بشارا قد يثور على سياسته التقليدية هذه فيعلن سخطه على الآخوان وشكّه فيهم ونفوره منهم ويصفهم بأنهم أعداء منافقون وخصوم مخادعون :

خير اخوانك المشارك في المر وأين الشريك في المرّ أينا
الذي ان شهدت سرّك في الحي وان غبت كان أذنا وعينا
مثل سر الياقوت ان مسه النار جلاه البلاء فازداد زينا
أنت في معشر اذا غبت عنهم بدّلوا كل ما يزينك شينا
واذا ما رأوك قالوا جميعاً أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام ودّاً صحيحا عاد كل الوداد زورا ومينا

وغني عن البيان أن بشاراً لم يكن أول من خبر الناس فأساء الظن بهم ودعا للاعراض عنهم والزهد بهم ولا آخره .

د ــ خاتمة : أما بعد فان بشارا ثالث ثلاثة هم : الحطيئة ، وجرير ، وهو ، ليست له عفة هجاء الأول ولا صحة لغته وصفاء أسلوبه وليست له براعة الثاني في الرثاء والعتاب ولا كثرة جيده في المديح والهجاء بل ولا رقة غزله وذلك على الرغم مما رويت لك من روائع غزل بشار ، ولكن لهضعة نسب الرجلين وسعةمطامعهما وسمو مواهبهما وقوة عارضتهما وقدرتهما على التكسب بالشعر على أنهما لا يرتفعان من ناحية أخرى الى ما عنده من أنفة وشمم من حيث هو رجل . ومن أمثال وحكم من حيث هو شاعر .

أما تجديده القريض العربي فانه حديث خرافة قد لا يعدو أن يكون دعاية شعوبية .

الفصل الثاني

أبو نواس

أ ــ حياته : اسمه ونسبه وكنيته • مولده • مسقط رأسه • نشأته ، في حانوت عطار • مع أدباء البصرة المجان ، مع والبة ، خروجه الى البادية ، عودته منها ، قفوله الى البصرة ، تناقض أخباره فيها ، جد ولعب ، سفره الى بغداد ، خيبته فيها ، رحلته الى مصر ، نجاحها ، خاتمتها السيئة، عودته الى بغداد ، حبسه ، سببه ، الافراج عنه ، اتصاله بالأمين ، حظوته عنده ، أثره في سمعته ، دعوة الأمين اياه الى تحسين سلوكه ، طاعته في الظاهر ومخالفته في الباطن،حبسه ثانية،التفكير فيقتله ، توبته في السجن ، شفاعة الفضل بن الربيع له ، اطلاقه ، ما يقال عن توبته خارج السجن ، وفاته ، سببها • تاريخها •

ب ــ صفاته : محاسنه ومساوئه •

جـ ــ شعره : جمعه وطبعه ، أبواب ديوانه ، ماذا ندرس منه •

غزله : نصيبه من الاصالة ، مثل منه •

مديحه : تصديره ببكاء الاطلال ووصف الناقة ، الجمع بين ما تقدم وبين الخمر في صدور مدائحه • قصيدة له في مدح الرشيد • بعض عيوب مديحه الأخرى : غلوه ، غموضه ، ركاكته ، سرقاته ، مديحه الجيد ، ومثل منه •

هجاؤه : بذاءته وصرامته ، سببه وغايته ، غلبة الفكاهة على بعضه • مثل من هجائه الفكه •

خمرياته : ما أضيف اليها من خمريات الآخرين ، أثر الخمر في القريض العربي ، في شعر الأعشى ، في شعر طرفة ، في شعر الأخطل ، في شعر الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، نسج ابي نواس على منوال من تقدمه من الشعراء في الخمر • مثل من خمرياته ، بعض مجددي القريض العربي ، الفرق بينهم وبين أبي نواس •

د ـ خاتمـة : الفصل في شاعرية ابي نواس وقدرته على التجديد •

آ ـ حياتـــه :

كان بشار حامل لواء الشعر في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة • أما حامل هذا اللواء في النصف الثاني من القرن المذكور ، فهو فيما يعتقد الرواة ابو نواس : وهو الحسن بن هانيء ، وحسبك هذا من نسبه ، لأن الرواة يختلفون في جده • فمنهم من يزعم أنـه عبد الأول ، ومنهم من يزعم أنه الصبّاح • وانه لغريب حقا أن يختلف الرواة في جده الاول ثم يرتقون بنسبه الى يعرب بن قحطان • ثم الى نوح عليه السلام • وكان صاحبنا يكنّى في أول امره بأبي علي ، الا انه لما رغب في الانتساب الى تميم • وأن يكون من أبنـاء الفرزدق الشاعر • اكتنى بأبي فراس • وهي كنية الفرزدق ، توكيدا لصلته به، فلما أبت عليه تميم ذلك • وتحول الى اليمن أكتنى بأبي نواس مشتقا هذه الكنية من أسم أحد ملوك اليمن (ذي نواس) ، وكان ملوك

اليمن يسمون بالذوين فكان أحدهم يدعى (ذا يزن) والثاني (ذا كلاع) والثالث (ذا جدن) وهكذا . ويقال ان استاذه خلفا الأحمر الذي كان يحبه حباً جما وهو ذو ولاء في اليمن . هو الذي أشار عليه باتخاذ كنية تدل على صلته الموهومة باليمن . وقيل انه كني بأبي نواس لذؤابتين كانتا تنوسان « أي تتحركان على عاتقيه » .

وكان هانيء والد الشاعر جنديا في جيش مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية . وأتفق أن ذهبت (الوحدة) التي يعمل فيها الى الاهواز ، فعرف هناك (جلبان) ـ أي وردة البستان ـ والدة الشاعر ، وهي غاسلة صوف أو ناسجة جوارب وأخراج ، فتزوجها وأولدها عدة أولاد أحدهم صاحب الترجمة .

وليس من شك في أن ولادة الشاعر لم تسجل في حينها ، وليس من شك كذلك في أنها لم تلفت انتباه أحد . وهذا ما يفسر تضارب أقوال الرواة فيها الى الحد الذي نراه . ولكن ربما كان أحق هذه الأقوال بالاعتبار قول الجاحظ : « أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت أول سنة خمسين ومائة وولد في آخرها » [1] .

ومسقط رأس الرجل موضع خلاف شديد أيضاً ، فقد قيل إنه ولد في الأهواز ، وقيل انه ولد في البصرة ، وقيل انه ولد في مكان آخر .

ولكن الرواة متفقون على أن والده مات وهو صغير . فأسلمته أمه الى عطار في البصرة . يعمل في حانوته . ليعينها على ما تقاسي من ضنك العيش وضيق ذات اليد . ولكنه كان يكره هذا العمل ويميل الى رواية الشعر ودراسة الأدب ومجالسة الأدباء . فقاده ذلك الى

(١) معجم الادباء ج ١٦ ص ٧٤ طبعة مصر .

مصاحبة أدباء البصرة المجان ، فكان هؤلاء يقربونه ويستخدمونه ويأخذونه معهم كلما خرجوا الى نزهة في ضواحي البصرة . ويعطونه ديناراً نظير خدمته لهم .

وكان وهو في تلك السن المبكرة معجبا بشعر والبة بن الحباب الأسدي ، أحد مشاهير شعراء عصره الخلعاء ، ويود لو أتيح له الاتصال به والتخرج عليه . وقدم والبة البصرة في شأن من شؤونه . وارادت الظروف أن يمر بالعطار الذي يعمل أبو نواس في حانوته . فلفت انتباهه جمال الصبي وذكاؤه . فقال له : « يا غلام . إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها . وستقول الشعر فاتبعني أخرّجك » . وسأله الغلام عن اسمه فأخبره به فقال له : والله اني لفي طلبك . وقد أردت أن أخرج الى الكوفة من أجلك . وذهب والبة بذلك الصبي العاثر الحظ ودربه على قرض الشعر . ولكنه تقاضى ثمن ذلك منه غالياً جداً ، فقد رباه أسوأ تربية ونشأه أرذل نشأة . فخلق منه فتىً ماجناً سكيراً مستهتراً لا يتورع في ارضاء شهوة ولا يحجم عن اتيان منكر . وما كان له أن يكون أي شيء آخر . وهو عشير حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحى ابن زياد وأضرابهم من زنادقة الكوفة وخلعائها .

وعندما بلغ ذلك الغلام سن الشباب رأى أن يستكمل ثقافته الأدبية . فاستأذن والبة بالخروج الى البادية ليشافه الأعراب الفصحاء ويتزود بما عندهم من شعر ولغة وخبر . فأذن له . وقيل بل أرسله مع جماعة من بني أسد الى باديتهم . حيث أمضى سنة كاملة عاد بعدها الى الكوفة. ثم قفل راجعا الى البصرة .

وهنا تتناقض أخبار أبي نواس تناقضاً شديداً . فتصوره لنا رجل

جد واجتهاد ودرس حيناً ، ورجل غرام ولهو ومغازلة حينا آخر • فهي تقول لنا من جهة انه حذق القرآن على يعقوب الحضرمي حتى قال له « اذهب فأنت أقرأ من في البصرة » ودرس الحديث على جماعة من كبار محدثي البصرة • منهم عبد الواحد بن زياد العبدي ويحيى القطان وأزهر السمان • وأخذ الغريب عن أبي زيد الانصاري • والأخبار وأيام العرب عن ابي عبيدة • ودرس الشعر على خلف الأحمر • وراجع نحو سيبويه فتمكن منه • ولكنها تقول لنا من جهة أخرى • انه عشق جارية حسناء لعبد الوهاب الثقفي • اسمها جنان فكان يلاحقها ويطاردها ويصف ما يجري لها في شعره • ويذيعه في الناس • فاذا حضرت حفلة عرس قارن بينها وبين العروس • وفضلها عليها فتنةً وجمالا • واذا حضرت مأتماً في دار أحد مواليها نظر إليها من نافذة مجاورة ووصفها وهي تلطم وتبكي وتنشج وهكذا •

ويمضون في شرح حديثه معها فيقولون لنا ان سيدتها (عمارة) زوجة عبد الوهاب الثقفي المذكور • خرجت الى الحج فأخذتها معها • فما كان من أبي نواس إلا أن خرج حاجاً معهما • وواضح أن رجلا ينقطع الى القرآن والحديث • ويقبل على دراسة سائر العلوم المعروفة في عصره ذلك الاقبال الشديد ــ لا يملك من الوقت وفراغ البال ما يمكنه من تعقب الغيد الحسان • وملاحقتهن ومطاردتهن • والانتقال معهن من بلد الى بلد • ولكن ثقلة أخبار أبي نواس لا يرون بأساً في الجمع بين هاتين الحالتين المتعارضتين المتناقضتين •

ومهما يكن من شيء فقد غادر أبو نواس البصرة كارها لها بعد أن جاوز الثلاثين • ونزل بغداد واتصل ببعض ولد المهدي ونادمهم •

ثم بالقاسم بن الرشيد • ومدح الرشيد والعباس بن عبيد الله بن المنصور أحد كبار أمراء البيت العباسي • وآل برمك • وآل الربيع • ولكن يخيل اليّ أنه لم يلق كبير حظوة عندهم • فليس في شعره ما يدل على أنه ظفر بالميال الكثير والجاه العريض عند ممدوحيه في بغداد جميعا • أو عند أحد منهم • بل ان في شعره ما يدل على ضعة منزلته وضيق ذات يده دلالة قاطعة • فانه يقول متغزلاً في صدر قصيدة يمدح بها العباس بن الفضل بن الربيع :

أمشي الى جنبها أضايقها ولم يكن في الطريق من ضيق

ويقول متبرماً بأصحابه :

أريد قطعة قرطاس فتعجزني وجل صحبي أصحاب القراطيس (٢)

فما ظنك بهذا الشاعر الذي يضايق النساء في الطريق ولم يكن في الطريق من ضيق • ويذكر هذا في شعره ؟ بل ما ضنك بهذا الشاعر الذي يريد قطعة قرطاس فتعجزه ؟ انه بائس كل البؤس دون أدنى شك وضيع المنزلة كل الضعة دون أدنى شك أيضاً • وليس في هذا ما يدعو الى الاستغراب • فانه كان من شدة الغلوّ في اللهو والاستهتار بالدين والأدب بحيث يعترف في صدر قصيدة يمدح بها الرشيد أنه باع ريطته وحذاءه واشتري بثمنهما خمرا :

فما رمته حتى أتى دون ما حوت يميني حتى ريطتي وحذائي (٣)

وما أريد أن أخلع على الرشيد رداء القداسة • ولكني أستطيع أن أقرر بصورة جازمة • أنه لم يكن من خطل الرأي وضعف السياسة

(٢) اظنه يشير بهذا الى صاحبيه عمرو الوراق واسماعيل القراطيسي.

(٣) الضمير فى قوله : « فما رمته » عائد الى « بيت الحان » المذكور فى بيت سابق .

بحيث يقرّب شاعراً سكيرا خليعا مستهترا • يعترف في صدر قصيدة يمدحه بها مثل هذا الاعتراف •

اذن فقد كان محروما من عطف الرشيد محروما من جوائزه الا ما ندر • وصحيح أن آل الربيع كانوا يقربونه ويرفعون من شأنه ويجيزونه على مدائحه ليتخذوا منه داعية لهم • وليستعينوا به على الغض من البرامكة والطعن عليهم ، ولكن يظهر أن جوائزهم كانت أقل من أن تفي بنفقات مجالس الطرب التي كان يعقدها على الصراة أو في سوق الكرخ مع داود بن رزين • وعمرو الوراق • واسماعيل القراطيسي • وغيرهم من الخلعاء •

ولهذا صفرت يده وساءت حاله في بغداد • فعوّل على انتجاع الخصيب والي مصر في مقر عمله • وكان قد عرفه من قبل • فشد اليه الرحال من بغداد • ومدحه أول ما مدحه برائيته الشهيرة التي مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

والتي يقول فيها :

تقول التي من بيتها خفّ مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلّب ... بلى ان أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في جريهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة ... الى بلد فيه الخصيب أمير
اذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأي فتى بعد الخصيب تزور

وقد أكرم الخصيب وفادته وأحسن صلته • فبلغت جوائزه له على عدة مدائح • ثلاثة آلاف دينار ــ فيما يقول الرواة ــ ولكنه أنفق جوائز الخصيب كلها في وقت قصير • وطلب المزيد كما كان يفعل مع

ممدوحيه في بغداد ، ورأي الخصيب أنه بلغ حدّ طاقته في اثابة أبي نواس على مدائحه • فرغب اليه أن يفارقه • وكانت هذه صدمة عنيفة قضت على آخر أمل لأبي نواس في الثراء ورغد العيش • وذكر الشاعر بغداد وأيام لهوه وطربه فيها • فتقطعت نفسه حسرة وألما • وعبّر عن تلك الحسرة وذلك الألم بهذين البيتين اللذين يرويهما له المصريون دون غيرهم من الناس وهما :

اذا ذكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شباة سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم الى أهله من أعظم الحدثان

وعاد الشاعر الى بغداد صفر اليدين كما رحل عنها ، ولسنا نعرف شيئاً واضحا من تأريخه فيها بعد عودته من مصر • سوى أن الرشيد حبسه لأنه هجا القبائل العدنانية عامة وقريش خاصة هجاء أسرف فيه الاسراف كله اليك منه هذه الابيات التي يخيل الي أنه لا حرج في روايتها :

إن قريشاً اذا هي انتسبت كان لنا الشطر من مناسبها
فأم مهدي هاشم أم موسى الخير منا فافخر وسام بها (٤)
إن فاخرتنا فلا افتخار لها الا التجارات من مكاسبها
وانها ان ذكرت مكرمة جاءت تجاراتها بغالبها

ولكني أظن ان الرشيد حبس أبا نواس لسبب أعمق من هذا بكثير ألا وهو هجاؤه أخته العباسة • أو هجاؤه بها هجاء قبيحا تجده في الصفحة ١٤٤ من ديوانه طبعة المطبعة الحميدية بمصر سنة ١٤٢٢ هـ • وسواء أحبس الرشيد أبا نواس لأنه هجا العدنانيين عامة • وقريش

(٤) يريد أم المهدي ثالث خلفاء بني العباس لانها يمنية مثله كما يزعم .

خاصة . أم لأنه هجا أخته العباسة أو هجاه بها . فاني ألمح في اقدام أبي نواس على نظم هذه الأهاجي رغبة شديدة في الانتحار . فقد كسدت سوقه وساءت حاله في بغداد . وقصد مصر « وهو يرجو اليسارة على يد الخصيب آخر الدهر » ولكنه رجع من مصر ومن الخصيب بخفي حنين ــ أستغفر الله ــ بل إنه رجع وحاله أسوء بكثير مما كانت عليه من قبل . ولم يكن ذلك نتيجة شحّ الخصيب . فقد قلت لك انه أعطاه ثلاثة آلاف دينار . ولكنه كان نتيجة عبث الشاعر وأسرافه فضاق ذرعاً بهذه الحياة التي وصفها بقوله :

ولو أني استزدتك فوق ما بي من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياتي بعيش مثل عيشي لم يريدوا

وعول على الانتحار ليضع حداً لآلامه . ولكنه لم يكن يملك الشجاعة التي تمكنه من أن يتناول جرعة سمّ تقضي على حياته أو أن يفعل شيئاً آخر من هذا القبيل . فرأى أن يتحدى الخليفة بهذه الأهاجي وكله يقين أن الرشيد قاتله لا محاولة . ولكن الرشيد خيب أمله فأمر بحبسه فقط . ظناً منه أن هذه العقوبة تكفي لتأديب شاعر بذيء اللسان سيء الأدب . وأساء رجال السجن معاملة الشاعر . فضاق صدره ونفد صبره . واخذ يتضرع ويستغيث بالرشيد والفضل ابن الربيع وكل مقرّب في القصر كبيرا كان أم صغيرا ، فلم يصغ الى ندائه أحد . ولكن يظهر أنه كان كبير الأمل بعطف الفضل بن الربيع لكثرة مديحه إياه . ومشايعته له في مناهضة البرامكة ولأنه آخر الامر يمني مثله . فلما خيب هذا أمله ولم يشفع له عند الرشيد أو لم تجد شفاعته له عنده . صب عليه جام غضبه . وهجاه واليمن التي ينتسب

ـ أستغفر الله ـ بل ينتسبان اليها معاً بهذه الأبيات :

على مركبي مني السلام وبزتي ... وغدوات لهو قد فقدن مكاني
فلو أن خدنيّ القريبين أبصرا ... خضوعي للسجان ما عرفاني
ولو أبصراني والقيود تقودني ... ومشيي الى البواب بالنجشان (٥)
لحى الله من أمسى يرشح نصره ... بفك أسير منه عند يماني
ومالي وقحطاناً وبث مديحها ... ونصبي لها نفسي بكل مكان
فان أمس لا تخشى لسيفي فتكة ... فلا تأمنن يا فضل فتك لساني
واني لأرجو أن أراك كجعفر ... ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

والمعروف بين الرواة أن الرشيد لم يصفح عن أبي نواس ولم يعد اليه حريته . وأن الأمين هو الذي فعل ذلك بعد وفاة والده . وقد فعله تلبية لرجاء وزيره الفضل بن الربيع . ولكن أبو نواس يقول لنا ان الرشيد غفر له وصفح عنه وأطلقه :

هذا أمير المؤمنين اتاشني ... والنفس بين محنجر ومخنق (٦)
نفسي فداؤك يوم دابق منعما ... لولا عواطف حلمه لم أطلق
حرّمت من لحمي عليك محللا ... وجمعت من شتى الى متفرق

وليس ثمة ما يدل على أن الرشيد حبس أبا نواس مرة أخرى ليتسنى التوفيق بين ما يقوله أبو نواس عن نفسه وبين ما يقوله الرواة عنه في هذا الشأن .

وتوفي الرشيد فخلفه ابنه الأمين وألقى بمقاليد وزارته أو قل مملكته الى الفضل بن الربيع . ورأى هذا أن يقرب شاعره وداعيته الى

---

(٥) النجشان : السوق الشديد .

(٦) اتاشني : انقذني ، ومحنجر : بلغ الحنجرة ، ومخنق بلغ المخنق يقول انقذني الرشيد من الموت عندما أوشكت نفسي ان تزهق .

الخليفة الجديد ففعل ، ومدح أبو نواس الأمين بميميته التي يقول فيها:

وتجشمت بي هول كل تنوفة هوجاء فيها جرأة اقدام
تذر المطي وراءها فكأنها صف تقدمهن وهي إمام
واذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام [٧]

وأجاز الخليفة الشاعر على مدحته بألف دينار • ثم أمره بملازمة القصر فكان شاعره المقدم ونديمه المقرب • واذا صح ما رواه أبو الفرج استطرادا في أخبار أبي العتاهية • من أن أبا نواس رؤي (في نهر طابق) جالساً ممدود الرجل • وبنو هاشم وكبار القواد يمرون به ويسلمون عليه فيرد عليهم السلام وهو جالس [٨] أقول اذا صح هذا وهو ما استبعده فينبغي أن يكون قد حدث في أيام الأمين • لأن الرشيد أكثر جدا وأشد حرصا على وقار الخلافة من أن ينال شاعر ما جن كأبي نواس عنده مثل هذه الحظوة •

ولكن لم تدم هذه السعادة طويلا فما لبثت الفتنة أن نشبت بين الامين والمأمون • والتمست العيوب والمطاعن للاول • فكانت صلة أبي نواس من أشدها • وقد وجد الفضل بن سهل في هذا المطلع :

ألافاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

مسوغا لنقض بيعة الأمين • وسببا لاعلان الحرب عليه ، وبلغ الأمين ذلك فغير مظاهر حياته وأمر نديمه وشاعره أن يفعل فعله •

---

(٧) من اغرب ما فى هذه الابيات ان ابا نواس يزعم انه تجشم التنائف اي القفار واعمل المطي الى الامين مع انه مقيم فى بابه يراوحه ويغاديه اضف الى ذلك ان الناقة لا توصف بالجراة والاقدام وانما توصف بشدة الاسر وسرعة الجري وان كلمة (اقدام) عطفت على جراة بدون واو مع ان هذه لازمة فى مثل هذا المقام .

(٨) الاغاني ج ٣ ص ١٥٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

فتظاهر هذا بالطاعة . ووصف طاعته وتوبته واقلاعه عن غوايته بهذه الابيـات :

أعـاذل اعتبت الإمـام وأعتبا وأعربت عمـا في الضمير واعربا
وقلت لساقيها أجزها فلم يكن ليـأبى أمير المؤمنين وأشـربا
فجوّزها عني سـلافا ترى لها الى الأفق الأعـلى شعاعا مطنّبا
اذا عب فيها شـارب القوم خلته يقبل في داج من الليـل كوكبا
ترى حيث ماكانت من البيت مشرقاً وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدور بها سـاق أغن ترى لـه على مستدار الأذن صدغا معقربا
سقاهم ومنـاني بعينيه منيـة فكانت الى قلبي ألـذ وأطيبـا

وواضح أن هـذه الأبيات لمـا فيها من وصف طريف للخمر . وتشبيب بالساقي . أقرب للدلالة على الاصرار منها للدلالة على التوبة. ويؤكد هذا أن أبا نواس لم يغير شيئاً من أحواله . بل انه ذهب الى أبعد من ذلك فهجا الأمين وسخر منه غير مرة . ولم يكن ذلك ليخفى على الأمين فعقد النية على حبسه بل على قتله . واتهز فرصة نظمـه قصيدة في الفخر يقول فيها :

وقد زادني تيها على الناس أنني أراني أغناهم وان كنت ذا فقـر
ولو لم أنل فخرا لكان صياتني فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر
ولا يطمعن في ذاك مني طـامع ولا صاحب التاج المحجب بالفصر

فاستدعاه ووبخه توبيخاً شديداً وكان عنده سليمان بن أبي جعفر فزاد في الطين بلة وذلك بأن شهد على الشاعر أنه من كبار (الثنوية)[٩] وشهد الحاضرون بذلك فأمر الأمين بحبس الشاعر ويبدو من حبسه

(٩) الثنوية : فرقة من المجوس تعبد النور والظلمة .

بهذه الصورة أن خطة مدبرة كانت مرسومة للايقاع به . وهنا صحا المترجم من سكره فرأى أجنحة الموت ترفرف على رأسه . وعاوده هلعه المعتاد ففزع الى الأمين يستوهبه دمه ويسأله الابقاء على حياته .

بك أستجير من الردى متعوّذا من سطو باسك
وحياة رأسك لا أعو د لمثلها وحياة راسك
من ذا يكون أبا نوا سك ان قتلت أبا نواسك

ولم يعبأ الأمين به . ففزع الى وزيره الفضل بن الربيع يستغيثه ويستعطفه . ويؤكد له أنه قد أقلع عن غوايته وتاب توبة صادقة . ويعزو اليه الفضل في ذلك :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلي وأقصر حبلي[١٠] وتبدلت عفة وزهاده
لو تراني ذكرت بي الحسن البص ري في حسن سمته أو قناده
المسابيح في ذراعي والمصـ حف في لبتي مكان القلادة
واذا شئت أن ترى طرفة تعـ جب منها مليحة مستفاده
فأدع بي لاعدمت تقويم مثلي وتفطن لموضع السجاده
تر إثرا من الصلاة بوجهي توقن النفس أنه من عباده
لو رآه بعض المرائين يوماً لاشتراه يعده للشهاده
ولقد طالما شقيت ولكن أدركتني على يديك السعاده

وغني عن البيان أن الفضل بن الربيع لم يكن لينخدع بهذا الكلام المزخرف وما يجري مجراه مما كان يرسله اليه أبو نواس من سجنه معلنا توبته . مؤكدا اقلاعه عن مجونه واسرافه على نفسه . ولكنه

(١٠) هكذا فى الديوان وربما كان الصواب واقصر جهلي .

شفع بالشاعر رأفة به . أو طمعا بمديحه • وقبلت شفاعته فخرج صاحبنا من السجن بعد أن كان يخيل له أنه غير خارج منه الا الى القبر • فكتب الى أهله يقول :

اني أتيتـــكم من القبـــر والناس محتبســـون للحشر
لولا أبو العباس ما نظـــرت عيني الى ولـــد [11] ولا وفر

ومعلوم أن المقطوعات التي كتب بها أبو نواس الى الفضل بن الربيع من سجن الأمين معلناً فيها توبته واقلاعه عن غوايته والتي رويت لك مثلا منها لا يمكن أن تتخذ دليلا على توبته • لأنها لم تكتب الا لحمل الوزير على التوسط في أمر الشاعر لدى الخليفة • ومعـــلوم كذلك ان حياة أبي نواس بعد خروجه من سجن الأمين لم تطـــل الى

(11) يتحدث الرواة بأن ابا نواس كان كارها للزواج . وان اهله ارادوه عليه فتزوج من جارية لم يقض معها يوما كاملا . ولكن هذا البيت يدل دلالة قاطعة على انه متزوج وله اولاد . وهناك شواهد اخرى عديدة من شعر الرجل تؤيد ما ذهبنا اليه تأييدا قاطعا منها قوله فى ابنـــة له اسمها برة :

الا ان بنتي بنت من لم ير ابنة ولا ابنا ســـواها قد تبر وتؤنس
فيا بر بريني حياتي وان امت فلا تذخريني دمعـــة حين ارمس
فداك ابن سوء لا يرى لعشيرة سلاحا ولا يعطى اللواء فيراس
تحب يباها حب من لا ابا لـــه وتذكره فى الصدر وحشى فتانس

وقوله فى قصيدة يمدح بها الخصيب :

يا ابنتي ابشري بميرة مصـــر وتمني واســـرفي فى الامـــاني
انا فى ذمـــة الخصيب مقـــيم حيث لا تعتدي صروف الزمان

وهناك شواهد اخرى على هذا رايت ان اضرب عنها صفحا ، رغبة فى الايجاز ولكن ما تقدم ذكره كاف للبرهنة بصورة قاطعة على ان الرجل متزوج وله اولاد . اما الرواية القائلة بعكس هذا فاحسب انها من صنع راوية لم يكن له الملم كاف بشعر ابي نواس .

درجة يمكن معها استكناه حقيقة أمره . وعلى هذا يخيل الي أن توبته لم تكن سوى اسطورة من الاساطير الكثيرة التي حملت عليه . وأنه مات دون أن يغير شيئا من أحواله . أما شعره في الزهد فلا أريد أن أقول انه منحول كله ولكني أظن أنه نظم بعضه في أيام فقره وضيق ذات يده . اذ ما من شك في أنه خير للفاسق المعدم أن يتحدث عن توبته ويتشدق بأنقطاعه الى ربه من أن يتحدث عن فجور وآثام لا يستطيع أن يأتي منها شيئاً .

بقي أن نعلم كيف لقي أبو نواس حتفه ومتى ؟ .

يتحدث الرواة عن سبب وفاة أبي نواس أحاديث شتى . فيزعمون مرة أن آل نوبخت ــ وهم رهط من الفرس كانوا يكرهون الشاعر ويضيقون به لأنه يكرههم ويهجوهم ــ داسوا بطنه حتى مات . ويدعون تارة أنه مازح علي بن أبي سهل النوبختي أيضا فهجاه على سبيل المزاح ببيت بذيء لم يحتمله . فضرب به الأرض وبرك على صدره . يوسعه لكما ولطما . ودخل الناس بينهما فخلصوه منه . ولكن أبو نواس مات بسبب هذه الحادثة بعد أيام . ويذكرون حينا أنه ــ أعني أبا نواس ــ كان يهاجي زنبورا الكاتب الشاعر . فنحله هذا أبياتا في سب الامام علي (ع س) استحل بها آل نوبخت دمه . أما آل نوبخت فانهم ينكرون أن تكون لهم يد في القضاء على حياته ، ويؤكدون أن الخمرة هي التي قتلته . وليس فيما بين أيدينا من المصادر التي تتحدث عن أبي نواس ما يحملنا على ترجيح بعض هذه الاقوال على بعضها الآخر ولكن قد لا يبعد أن يكون أبو نواس فريسة حقد كان يكنه له آل نوبخت .

وكما يختلف الرواة في سبب وفاة أبي نواس • يختلفون كذلك في تأريخها • ولكنهم يضعونها على كل حال بين سنة خمس وتسعين ومائة (١٩٥) وسنة مائتين (٢٠٠) وهكذا تنتهي حياة ابي نواس بغموض تام كما ابتدأت بغموض تام •

ب ـ صفاتـه :

لا أحدثك طبعاً في هذا المكان عن خلاعـة أبي نواس ومجونه فأنت تعرف هذا كل المعرفة • ولكني أحدثك عن صفاته الاخرى • والظاهر أنه كان « حسن الوجه • رقيق اللون أبيض حلو الشمائل • ناعم الجسم وكان في رأسه سماجة وتسفيط [١٢] وكان ألثغ بالراء يجعلها غيناً وكان نحيفا في حلقه بحة لا تفارقه » [١٣] وهذا ما يقوله ابن منظور • أما أنا فأضيف إلى ما تقدم أنه كان حوّلاً قلّباً • كثير الطمع • شديد الجشع • منكرا للجميل • خبيث اللسان • قليل الصبر • خائر العزيمة •

حاول الاتصال بالعرب بكل وسيلة ممكنة • سواء كان ذلك عن طريق النسب أم عن طريق الولاء • فأنتسب مرة إلى تميم • وتارة إلى حاء وحكم من قبائل اليمن • مريداً بذلك أن تكون له بالعرب علاقة • كائنة هذه العلاقة ما كانت ثم انقلب عليهم واعتنق مذهب الشعوبية • فصار يسبهم علانية وينتقصهم جهراً • ومدح الرشيد والأمين والفضل ابن الربيع وابنه العباس ، والخصيب • وأخذ جوائزهم جميعا وعاش

(١٢) اي ان راسه يشبه السفط .
(١٣) اخبار ابي نواس ص ٦ .

بها مدة من الزمن • ونادم بعضهم وأكل على موائدهم أياماً كثيرة • ثم هجاهم قاطبة أقبح هجاء • وذمهم أشنع ذم • لأنهم لم يجعلوا مواردهم وقفاً على لهوه وعبثه ، وسرفه ومجونه • وأقدم على هجاء قريش وفيها الملك والخلافة وكان ينبغي أن يكون قد وطّن نفسه على ما يفضي اليه ذلك الهجاء من نتائج سيئة • وعواقب وخيمة • ولكنه ما كاد يلقى في السجن حتى أخذ يبكي ويتضرع • ويستشفع بالكبير والصغير ملتمساً الرأفة به والصفح عنه • رحمه الله إنه كان كثير العيوب جم الهنات والسيئات •

حـ ـ شعره :

لأبي نواس ديوان شعر ضخم جمعه راويته يحي بن الفضل وأبو بكر الصولي وعلي بن حمزة وحمزة بن الحسن الاصبهاني وابن السكيت وأبو سعيد السكّري وتوزون الطبري ـ الذي لم يخلف أثراً آخر سواه ـ على اختلاف في روايته وتبويبه • وطبع مراراً عديدة في « فينا » و « مصر » و «بيروت » ولا يشك أحد في أن هذا الديوان يحتوي على قصائد ومقطوعات كثيرة ليست من نظم أبي نواس • ولكن يخيل إلي أن الذين حملوا عليه الشعر كانوا من ذوي الخبرة الحسنة به • وبمذاهب أصحابه لأنهم حملوا على أبي نواس منه ما يتفق ومقاصده وأغراضه • ويتلاءم ولغته وأسلوبه أيضاً • ولذلك كانت الكثرة الكبرى من الشعر المروي له متجانسة منسجمة • يمكن إلحاق بعضها ببعض • وضم بعضها إلى بعض بسهولة •

يتألف ديوان أبي نواس من أحد عشر باباً في المديح والهجاء

والرثاء والعتاب والغزل المذكر والخمر « وما جاء بينها وبين المجون » والصيد والزهد والنقائض وهي المساجلات التي جرت بين الشاعر وبين معاصريه ومنافسيه من الشعراء . وما أعدك أن اتحدث اليك عن كل باب من أبواب هذا الديوان . لأني لا أجد كبير فائدة في الحديث عن كثير من أبوابه . فأنا لا أحدثك مثلا عن زهدياته لاني أشك في نسبة أكثرها إلى أبي نواس . وهذا مع اعجابي بقوله :

وما الناس الا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
اذا أمتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ولا أحدثك عن رثائه . لأن معظمه خلو من المشاعر والانفعالات . صفر من الأحاسيس والعواطف . وتقول لي إن أبياته في رثاء الأمين لا تخلو من حسرة مرة . وأسف شديد . وأجيب بأني أرتاب كثيراً في نسبة هذه الأبيات الى أبي نواس . لأن ما جرى بينه وبين الامين في أواخر أيامه لا يحمله على أن يتفجع لفقده . ويأسى لمصرعه . ولا أحدثك عن طردياته لأنها في زعمي مجموعة كلام مكرر . لا تكاد تلمس فيه أثراً للجمال الفني . ولا أحدثك عن عتابه لأنه مجموعة كلام في الهجاء والفخر لا يتخللها العتاب الا نادراً . ولا أحدثك عن غزله المذكر لأن الركاكة غالبة عليه غلبة تامة . ولا أحدثك عما جاء بين الخمر والمجون لأنه مما يجب أن ينزه عنه مثل هذا الفصل . ولا أحدثك أخيراً عن نقائضه لأن الكلام فيها يقودنا الى الاطالة على غير طائل .

ولكني سأحدثك عن غزله المؤنث ومديحه وهجائه وخمرياته وفي هذا كفاية .

غزلـــه :

وغزل أبي نواس كثير وهو يتحدث فيه عن صلاته العديدة بطائفة من النساء . أو قل من القيان اللواتي عرفهن في بغداد وغيرها . فسحرنه بجمالهن وأدبهن . وفتنه بغنائهن وظرفهن . وانه لمن الغفلة أن نسأل : أكان أبو نواس مخلصاً في حبه لهؤلاء القيان ، صادقا في كلفه بهن ؟

فما كان لأبي نواس ، وهو هو في ايثاره المجون وركونه إلى اللذة ان يخلص في صبابة أو يصدق في حب . وما كان هؤلاء القيان من عفة النفوس وطهارة الجيوب بحيث يلهمن حبا حقيقيا أو يوحين بعاطفة صادقة .

ستقول وما رأيك في حبه لجنان التي تقدمت لها الاشارة والتي بلغ من كلفه بها أنه خرج معها من البصرة الى مكة ؟ وأجيب بأنه أحبها حب من يريد أن يقضي وطراً . فلما عز عليه بلوغ ذلك الوطر . شكا وتألم وألح في الشكوى وأسرف في التألم . حتى خيل لمن يقرأه او يسمعه أنه محب متيم . وما هو من الحب الحقيقي في شيء . ولكن من الجائز أن يكون الشاعر الغزل كاذباً في غرامه . مدعياً في حبه . كما كان كثيرٌ عزة . وكما كان الاحوص في غرامه المزعوم بأم جعفر . وكما كان عمر بن أبي ربيعة نفسه في كثير من صلاته الموهومة . ولكنه يظل مع ذلك قوي النسيب رائع التشبيب لما يتضمن غزله من خواطر ومشاعر لا تجدها في كلام غيره من الشعراء . فهل كان أبو نواس من هذا النوع في غزله على الأقل ؟ !

الواقع أنه لم يكن كذلك على الأكثر : ولك أن ترجع الى غزله

لتتبين أنه إنما يتحدث في الغالب عن أشواق مضنية . وآلام مبرّحة . ووعود ممطولة . وعهود منقوضة . وشكاة خائبة . ورسائل مردودة. الى غير ذلك مما تجده تقريباً في كل مكان . ومع هذا لا يخلو غزل أبي نواس من شذرات أصيلة قالها في جنان إليك منها هذه الأبيات :

يا ذا الذي عن جنان ظل يخبرنا ... بالله قل وأعد يا طيّب الخبر
قال اشتكتك وقالت ما ابتليت به ... أراه من حيث ما أقبلت في أثري
ويعمل الطرف نحوي إن مررت به ... حتى ليخجلني من حدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمني ... في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه ... حتى لقد صار من همي ومن وطري

وهذه الأبيات :

إذا التقى في النوم طيفانا ... عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرّة العين فما بالنا ... نشقى ويلتذ خيالانا
لو شئت إذ أحسنت لي في الكرى ... أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اصطلحا في الكرى ... وأصبحا غضبى وغضبانا
كذلك الأحلام غدارة ... وربما تصدق أحيانا

وهذه الأبيات أيضاً :

دست له طيفها كيما تصالحه ... في النوم حين تأبى الصلح يقظانا
فلم يجد عند طيفي طيفها فرجاً ... ولا رثى لتشكيه ولا لانا
حسبت أن خيالي لا يكون لما ... أكون من أجله غضبان غضبانا
جنان لا تسأليني الصلح سرعة ذا ... فلم يكن هيّناً منك الذي كانا

فأكبر الظن أن الخواطر التي يتحدث عنها أبو نواس في هذه المثل من غزله خواطره ، وأن الذكريات والآلام التي يصورها ذكرياته

وآلامه التي استمدها من حياته واستفادها من مغامراته . ولكن أمثال هذه الصفحات الأصيلة في غزله قليلة جداً .

مديحه : وقد أدهشك إذا قلت لك إن مديح أبي نواس أقل أصالة وأكثر تقليداً من غزله . وإنه صورة مصغرة من مديح زهير والحطيئة والأعشى . وأقول صورة مصغرة منه لأنه يمثل أخيلته وخواطره ومقاصده وأغراضه . ولا يمثل فصاحة لغته ومتانة أسلوبه . وأول شيء انكره على مديح أبي نواس . تصديره في كثير من الأحيان ببكاء الاطلال أو وصف الناقة أو بهما معاً .

إن شعراء المديح الجاهليين والمخضرمين والامويين معذورون إذا صدروا مدائحهم ببكاء الأطلال . لأن الاطلال محيطة بهم . ماثلة أمام أعينهم أينما توجهوا ، وحيثما ساروا ، وهم معذورون كذلك إذا صدروا مدائحهم بشيء من وصف الناقة . لأن هذه تحتل مكاناً خطيراً جداً في حياتهم . وفي حياة ممدوحيهم على السواء .

أما أبو نواس . فانه غير معذور إذا صدر مدائحه بهذه المقدمات العقيمة الفارغة . لأنه يقيم في عاصمة الرشيد . ويستمتع بما فيها من نعيم وترف ، ولأنه يختلف الى أبواب ممدوحيه وينادم بعضهم ويسامرهم ويعاشرهم . ثم مالنا ولهذا كله . أليس هو عدوّ البادية اللدود الذي طالما هزأ بحياتها وسخر من أدبها ونددّ بشعرائها واحتقر عواطفهم وازدرى أخيلتهم ومشاعرهم ؟ أليس هو القائل :

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ... لا درّ درّك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفّهما ... ليس الأعاريب عند الله من أحد

لاجفّ دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها وبين باك على نؤي ومنتضد

أيجمل به وهو الذي يقول هذا وعشرات في معناه ويتخذه ـ على تفاهته ـ مذهبا يمتاز به بين الشعراء أن يقول في صدر قصيدة يمدح بها الأمين :

يا دار ما فعلت بك الأيام ضامتك والايام ليس تضام

وأن يقول في صدر قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى البرمكي :

أربع البلى ان الخشوع لباد عليك واني لم أخنك ودادي

ويقول في صدر قصيدة يمدح بها محمد بن الفضل بن الربيع :

لمن طلل لم أشجه وشجاني وهاج الهوى اوهاجه لأوان

أيجمل به وهو شاعر الحضارة فيما يزعم أن يعمد الى الناقة وهي عماد الحياة في الصحراء . وقوام المعيشة في البادية . فيصفها في صدور عدد كبير من مدائحه بمثل قوله من قصيدة يمدح بها الرشيد :

لما نزعت عن الغواية والصبا وخدت بي الشدنية المذعان
سبط مشافرها دقيق خطمها وكأنّ سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان

ومثل قوله من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى البرمكي :

سأرحل من قود المهارى شملة[١٤] مسخرة لا تستحث بحاد
مع الريح ماقامت وان هي أعصفت تهوس برأس كالعلاة وهاد
فكم حطمت من جندل بمفازة وخاضت كتيار الفرات بوادي

(١٤) الشملة : السريعة .

قد تقول انه فعل ذلك ارضاءً لرغبات المحافظين من ممدوحيه . وايهاماً لهم بأنه محافظ مثلهم وان ما يشاع عنه من الانهماك في وصف الخمر افتراء محض . وأجيب بأن هذا غير صحيح . لانه يجمع بين بكاء الاطلال ووصف الخمر تمهيداً للمديح في القصيدة الواحدة . استمع الى هذه القصيدة التي يمدح بها الرشيد :

لقد طال في رسم الديار بكائي ... وقد طال ترادي بها وغنائي
كأني مريع في الديار طريدةٌ ... أراها أمامي مرة ووراثي
فلما بدالي اليأس عدّيت ناقتي ... عن الدار واستولى عليَّ عزائي
الى بيت حان لا تهرّ كلابه ... عليَّ ولا ينكرن طول ثوائي
فان تكن الصهباء أودت بتالدي ... فلم توقني أكرومتي وحيائي
فما رمته حتى أتى دون ما حوت ... يميني حتى ريطتي وحذائي
وكأس كمصباح السماء شربتها ... على قبلة أو موعد بلقاء
أتت دونها الأيام حتى كأنها ... تساقط نور من فتوق سماء
ترى ضوءها من ظاهر الكأس ساطعا ... عليك ولو غطيتها بغطاء
تبارك من ساس الامور بعلمه ... وفضّل هارونا على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الامناء
إمام يخاف الله حتى كأنه ... يؤمّل رؤياه صباح مساء
أشم طوال الساعدين كأنما ... يناط نجادا سيفه بلواء

على أني أحب أن أسألك . أتعتقد حقيقة أن الرشيد والأمين وآل برمك وآل الربيع ومن لفَّ لفَّهم من الكبراء والعظماء كلهم محافظون متزمتون . وأن أبا نواس وحده مجدد حرّ العقل خفيف الظل ؟ .

انني اخالف في هذا مخالفة تامة . ونأتي الآن الى مديح أبي نواس

نفسه فماذا نجد فيه ؟ اننا نجد فيه غلواً لا يستسيغه عقل • وغموضا لا يهتدي الى ما وراءه فكر • وسقطات بالغة منتهى السخف • وسرقات لم يقدّر فيها النجاح للشاعر • فمن أمثلة غلوّ أبي نواس قوله في مدح الرشـــيد :

وأخفت أهـــل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخـلق

ومن أمثـلة مديحه الغامض • قـوله في مدح العبـــاس بن عبيد الله بن المنصور :

لا تغطى عنـه مكرمـة بربى وادٍ ولا خُشُـرِه
ذللّت تلك الفجـاج له فهو مختـار على بصـره
سبق التفريـط رائـده وكفـاه العـين من أثره

ومن سـقطاته البالغـــة منتهى السخف في مديحـه قولـــه في مدح الفضل بن يحيى البرمكي :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالـد
هـراك لعـــل الفضل يجمع بيننـا
أمير رأيت المـــال في نعمائـه ذليلاً مهين النفس بالضيم موقنا
وللفضل صولات على صلب ماله ترى المـال فيها بالمهانة مذعنـا

وقوله في مدح العباس بن الفضل بن الربيع الذي كان ينادمه ويشاركه في فسوقه وفجوره • وهو يصف في هذه الأبيات مسيره اليه على متن ناقة نجيبة سريعة السير :

وسـبسب قد علوت طامسه بنـاقة فوقة من النـــوق
كأنما رجلهـا قنـــا يدها رجل وليد يلهو بدبّوق (١٥)

(١٥) الدبوق بفتح الدال لعبة .

كأنما أسلمت قوائمها اذا مرتهنٌ [١٦] من مجانيق
الى امريء أم ماله أبدا تسعى بجيب في الناس مشقوق

ومن مديح ابي نواس المسروق سرقة غير موفقة قوله :

فتى لا تلوك الخمر شحمة ماله ولكن أياد عوّد وبواد

فانه أخذه بعد أن أضاف اليه هذه « الشحمة » الدسمة من قول زهير بن أبي سلمى :

أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله

وقوله في نفس القصيدة :

فيوم لا لحاق الفقير بذي الغنى ويوم رقاب بوكرت بحصاد

فانه أخذه من قول جرير في مدح عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك :

فيومان من عبد العزيز تفاضلا ففي أي يوميه تلوم عواذله
فيوم تحوط المسلمين جياده ويوم عطاء ما تغب نوافله

وقد أخذ هذا المعنى من جرير قبل أبي نواس الحسين بن مطير أحد مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية فأفرغه في قالب أفضل من القالب الذي أفرغه به أبو نواس وذلك حيث يقول :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الندى ويمطر يوم البأس من كفه الدم

فليس من شك في أن أبا نواس لم ينجح نجاح صاحبيه ولاسيما

---

(١٦) مرى : جر .

جرير في ابراز هذا المعنى اللطيف . ولكل ما ذكرنا من مساوىء مديح أبي نواس أمثلة كثيرة يمكنك أن تراجعها في ديوانه .

على أني لا أريد أن ابخس أبا نواس حقه او انكر محاسنه فان له مدائح حسنة قليلة منها هذه الأبيات التي يمدح بها الفضل بن الربيع:

قولا لهارون إمام الهدى ... عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحة الفضل وإشفاقه ... أخل له وجهك من حاسد
لصادق الطاعة ديانها ... وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة ... فلست مثل الفضل بالواجد
أوجده الله فما مثله ... لطالب ذاك ولا ناشد
وليس لله بمستنكر ... أن يجمع العلم في واحد (١٧)

وهذه الابيات التي يمدح بها الخصيب من قصيدة :

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحر
لاتقعدا بي عن مدى أملي ... شيئاً فما لكما به عذر
ويحق لي أن صرت بينكما ... ألا يحل بساحتي فقر

هجاؤه : أصدق شعوراً وأخصب خيالا وأظرف لغة وأسلوباً من مديح أبي نواس هجاؤه الذي لم ينج من قوارصه أحد فقد طعن أبو نواس في كل عرض وأساء إلى سمعة كل كريم . فتطاول على الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء والزعماء . وعلى الشعوب والقبائل الاسلامية الكبرى . كالعدنانيين والقحطانيين . وهذا فضلا عن الأدباء

(١٧) تناقل الناس هذا البيت وحرفوه بعض الشيء فوضعوا (ليس على الله) موضع (وليس لله) وعندي ان التحريف اصح من الاصل واحسن .

والشعراء والمغنين ومن يجري مجراهم ممن يسهل على أبي نواس أن يلذعهم بقوارص هجائه متى أعجبه ذلك دون خوف ولا اشفاق . وقد يسبق إلى ظنك أن أبا نواس هجا ولاة الامور في عصره . لأنهم لم يقيموا العدل أو يعملوا على نشر العلم أو قصّروا في حماية الثغور وتأمين السبل . فأؤكد لك أنه لم يهج خليفة ولا أميراً ولا وزيراً ولا أي انسان آخر الا لسبب شخصي بحت . وقد تدهشك سلاطة لسان أبي نواس هذه . ولكن لا باعث على الدهشة فقد كان أبو نواس وضيع الأصل . وضيع النشأة . وضيع المنزلة . بسبب تهتكه وإسرافه على نفسه . وكان مع ذلك يريد أن يخافه الناس . وأن يتقوا شره . ويجزلوا عطاءه ويقضوا حوائجه . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالهجاء . وقديماً نعل الحطيئة وجرير هذا ، ونهج بشار الذي أدركه أبو نواس وعاصره قليلا سبيلهما فأتقى الناس شرهم . وخشوا معرة ألسنتهم . وقبلوا مدائحهم وأحسنوا جوائزهم .

وهجاء أبي نواس صارم ثقيل الوطأة شديد النكاية بذيء العبارة في كثير من الأحيان ، ولكنه ظريف خفيف الروح لطيف الوقع ــ في غير نفس المهجو طبعاً ــ أحياناً كثيرة كذلك . وما أظنك تكلفني أن أروي لك شيئا من هجائه الثقيل الصارم البذيء . فأروي لك مثلا من النوع الثاني من هجائه . قال يهجو الفضل ولا أدري أهو الفضل ابن يحيى البرمكي أم الفضل بن الربيع لأن الديوان لايصرح بشيء من هذا :

رأيت الفضل مكتئباً يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمعه لمّا رآني قادماً وبكى

فلمـــا أن حلفت لـه بأني صائـم ضحـــكا

وقال يهجو سعيد بن مسلم :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلّبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كمـه فيشمه ويجلسه في حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقـد ثكلته أمـه وأقاربه
يكرّ عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه

وقال يهجو اسماعيل النوبختي :

خبز إسماعيـــل كالوشـ ـــي إذا ما انشق يـرفا
عجبـاً من أثـر الصنـ ـــعة فيـه كيـف يخفى
إن رفاءك هـــذا أحـــذق الأمـــة كفّا

وقال يهجو الخصيب الذي رفعه بمديحه الى السماء ؛

خبز الخصيب معلّق بالكوكب يحمى بكل مثقّف ومشطب
جعل الطعـام على بنيه محرما قوتاً وحلله لمـن لـم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا طرب الصيام إلى أذان المغرب

لعلك تلاحظ أني رويت أكثر مما ينبغي من هجاء أبي نواس . فأحب أن أقول لك إني فعلت هذا على سبيل الانصاف للرجل . لأن باب الهجاء في ديوانه يكاد يكون أغنى أبوابه بأمثال هذه الملح التي إن كانت اساءة لا شك فيها الى المهجوّ فانها احسان لا شـك فيه الى الفن .

خمرياته : أبرع وأنقى ديباجة من كل ما تقدم من شعر أبي نواس خمرياته التي طار ذكرها في الآفاق والتي تعد بحق مظهر شاعريته وترجمان شعوره ورمز حياته وأخلاقه . وليس من شك في أن الرواة أدخلوا فيها أقوال شعراء عديدين لم تسمح ظروفهم بذكر أسمائهم إلى جانب أقوالهم في الخمر . بل لا أكاد أشك في أن أبا نواس نفسه سطا على أقوال بعض معاصريه في الخمر فادعاها لنفسه . ودسها في شعره. فأبو الفرج يحدثنا في الجزء ١٦ من كتابه عن غلام أبي نواس المعروف بالدعلجي أنه قال : « أنشدت يوماً بين يدي أبي نواس قوله » :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن عيني [١٨] ولم أنم

وكان قد سكر فقال : « أخبرك عن شيء على أن تكتمه . قلت نعم قال أتدري من المعني بـ [١٩] « يا شقيق النفس من حكم » قلت لا . قال أنا والله المعنى بذلك . والشعر لوالبة بن الحباب ، قال وما علم بذلك غيرك وأنت أعلم فما حدثت بهذا حتى مات » [٢٠] وغنى عن البيان أن هذا الخبر يدل دلالة قاطعة على أن أبا نواس يبيح لنفسه أن ينتحل شعر غيره إذا أعجبه ويذيعه في الناس على أنه له . وهناك أحاديث من هذا القبيل يتناقلها الرواة عن سطو أبي نواس على كل قصيدة أو بيت أو معنى يعجبه من شعر صديقه وزميله في منادمة الخلفاء والوزراء الحسين بن الضحاك الخليع لا مجال للأفاضة في ذكرها هنا ، وأحسبك توافقني على أن هذا يجعل تمحيص خمريات

(١٨) طبعا الصواب ليلي كما هو مشهور ولكنه مروي هكذا فى هذا المكان من الاغاني .

(١٩) لا وجود لهذه الباء فى الاغاني .

(٢٠) الاغاني ج ١٦ ص ١٤٣ .

أبي نواس وتمييز صحيحها من منحولها من الصعوبة بمكان • وما أريد أن أبذل جهداً في سبيل تذليل هذه الصعوبة الكبرى لأني لا أتوقع من ورائه كبير فائدة • على أن الذي يعنيني قبل كل شيء في الكلام على خمريات أبي نواس هو أن أتبين ما ذهب اليه بعض النقاد القدماء والمحدثين من أن أبا نواس مجدد في القريض العربي وأن خمرياته هي مظهر هذا التجديد •

كانت الخمر عند العرب منذ أقدم العصور كما كانت عند غيرهم من الأمم مصدر إلهام وإيحاء في الشعر • يستوحيها شعراء اللهو شيئاً غير قليل من أخيلتهم وخواطرهم وأحاسيسهم ومشاعرهم • ولا نزاع في أن ما وصلنا من خمريات الأعشى قليل جدا • ولكنه على قلته دليل كاف على غرام هذا الشاعر بالخمر • وحبه لها • وبراعته في التحدث عنها • أليس هو القائل :

تريك القذى من فوقها وهي فوقه إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

والقائل :

نازعتهم قضب الريحان متكئاً وقهوة مزة [٢١] راووقها خضل
لايستفيقون منها وهي راهنة [٢٢] الا بهات وإن علوا وإن نهلوا
يسعى بها ذوزجاجات لهنطف [٢٣] مقلص أسفل السربال معتمل [٢٤]

(٢١) مزة : (بفتح الميم) لذيذة الطعم . والراووق : المصفاة .
(٢٢) راهنة : دائمة .
(٢٣) النطف : جمع نطفة (بفتح النون والطاء) وهي القرطة .
(٢٤) معتمل : دائب نشيط .

والقائـــل :

وكـأس شربـت على لـــذة وأخرى تداويـت منهـــا بها

ففي هذه المثل القليلة دلالة كافية على عناية الشاعر الفائقة بالخمر وعكوفه عليها وتغنيه بوصفها • وقد ذهب طرفة مذهبه في الولع بها • فجعلها مظهر حيويته ومبعث لذته ورمز رجوليته • بل لقد جهر انه إنما يحيا لها وللحرب والمرأة • وأنه لولا هذه الثلاث لم يبق في الحياة ما يحببها إليه أو يرغبه فيها :

ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربـة كميت متى ما تعـل بالمـاء تزبد

وكرّي إذا نادى الصريخ محنبا[٢٥] كسيد الغضا نبهتـه المتورد[٢٦]

وتقصير يوم الدجن[٢٧] والدجن معجب

ببهكنة[٢٨] تحت الطراف[٢٩] المعمـد

بل لقد ذهب طرفة إلى أبعد من هذا فنزل عن ثروته كلها ومكانته في قومه في سبيل الخمر :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طريفي ومتلـدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا فأفردت إفراد البعير المعبـد[٣٠]

وأحسب أن رجلا يضحي بثروته كلها ومكانته في سبيل الخمر

(٢٥) محنب : بعيد ما بين الرجلين وقيل غير ذلك .
(٢٦) متورد : متصد الى ورود الماء .
(٢٧) الدجن : اكتساء السماء بالغيم وقيل غير ذلك فى معناه .
(٢٨) البهكنة : المراة التامة الخلق .
(٢٩) الطراف : الخباء او الخيمة .
(٣٠) المعبد : المطلي بالقطران لجربه .

سكير عربيد بلغ الغاية في عبادة أم الخبائث وإحلالهـا المحل الذي لا تستحقه في هذه الحياة ولـم يزل شعراء الخمر من العرب يتعاقبون على نعتها والتشوق بشربها والتهتك في هذا السبيل حتى جاء الأخطل فأحلها المكانة الأولى من شعره . وكان بحق امام وصّاف الخمر في العصر الاموي [٣١] وانه لمن الصعب أن تفضل قصيدة ما في الخمر لأميته الشهيرة التي يقول فيها :

تدب دبيباً في العظام كأنه دبيب نمال في نقـا يتهيـل

ولم يطل الوقت حتى ظهر الوليد بن يزيد بن عبد الملك . فأعاد على الناس عهد الأعشى وطرفة والأخطل بعكوفه على الخمر . وتفننه في وصفها . وإجادته إجادة تامة في هذا الوصف ، وكان هذا خاصة بسبب تحضره ورقة خياله ودقة إحساسه . إماماً لأبي نواس فيما يعتقد أبو الفرج . فانه يقول « وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة . قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم . سلخوا معانيها . وأبو نواس خاصة . فانه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره وكررها في عدة مواضع منه . ولولا كراهة التطويل لذكرتها ههنا على أنها تنبيء عن نفسها » [٣٢] .

أفيصح بعد هذا أن تتخذ أبا نواس اماماً أو مجدداً للقريض العربي من ناحية وصفه الخمر ؟ . ولنأت الآن إلى خمريات الرجل فنستعرض أهم معانيها وأكثرها دوراناً على لسانه . وهذه تتلخص على وجه التقريب فيما يأتي :

(٣١) سئل ابو نواس عن رايه فى الاخطل فقال : « امامي فى الخمر » . (معاهد التنصيص ج ١ ص ٣٠ طبعة المطبعة البهية) .

(٣٢) الاغاني جزء ٦ ص ١٠٧ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

إن الناس يلومون الشاعر في شرب الخمر . ولكنهم مخطئون في هذا . لأن لومهم إياه اغراء له فيها . وهم يقولون له انها حرام ولكنهم لا يعلمون أن الحرام يلائمه ويوافق طباعه وأخلاقه . والخمر فتاة كريمة ينبغي أن لايخطبها إلا فتى كريم . له مال وله حسب . وعليه أن ينزل عن ماله كما ينزل عن حسبه في سبيل هذه الفتاة . والشاعر من ناحيته يغلي مهرها إلى حد يجعل معه ثمنها وزنها ذهباً . وهي قديمة خزنت حتى كاد القدم يأتي على حياتها . ومكرمة لا تجلى إلا في أجمل الاباريق وأظرف الكؤوس . على أنها متى جليت على الندمان هذبت طباعهم ولطفت أخلاقهم فأحالت البيخل منهم كريماً . والجبان شجاعاً . والفدم فصيحا وهكذا . وأحسب أنك اذا تتبعت هذه المعاني في أقوال شعراء الخمر الذين سبقوا أبا نواس . وجدت أنهم تداولوها وابتذلوها وأفرغوها في صور مختلفة وأشكال متعددة ، على أني لا أريد أن أبخس أبا نواس شاعريته وبراعته في وصف الخمر . بل إني أعترف أنه أجاد في طائفة من خمرياته أجادة تامة . وأنه من الحق على مؤرخ الأدب أن يلم بهذه النخبة من شعره . وأن يتحدث عنها كثيراً أو قليلا . وقد ضاق المقام عن أن أنقد أو احلل بعض هذه الخمريات. فأكتفي برواية مثل منها على سبيل الانصاف لأبي نواس ، اسمع قوله:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جني ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم ... واني على أمثال تلك لحابس
ولم أدر منهم غير ما شهدت به ... بشرقي ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويومين بعده ... ويوما له يوم الترحل خامس

تدور علينا الراح في عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مهاً تدّريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرّت عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانس

وقوله :

لاتبك ليلى ولا تطرب الى هند(٣٣) ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت في حلق شاربها ... أجدته حمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة ... في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها ... خمراً فما لك من سكرين من بدّ
لي نشوتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم
فلو رُدّ في كسرى بن ساسان روحه ... اذن لا صطفاني دون كل نديم

بيد أني أروي لك هذه المثل من خمريات أبي نواس على أنها شعر جيد لا على أنها شعر جديد . فأنا مؤمن بأن أبا نواس لم يكن في يوم من الأيام مجدداً . وانما كان مقلدا ماهرا . سبقه الشعراء الى تمجيد الخمر والتنوية بشربها . والتفنن في وصفها . فمهدوا له

(٣٣) افهم ان ابا نواس ينهى عن بكاء الاطلال والوقوف على دمن الاحباب وان كان قد فعل هذا مرارا كثيرة ولكني لا افهم نهيه عن البكاء على حبيبة مفارقة والطرب لذكرها ، ان فى صدر هذا المطلع حملة شعواء مباشرة على المراة التي طالما احبها او تظاهر بحبها وتغنى بحسنها ابو نواس .

السبيل وأقاموا عليها المعالم الواضحة ، وأتى هو فسلكها تابعا لهم مسترشدا بهم • يقتبس معانيهم مرة ويتوسع فيها تارة • وينسج على منوالها طورا • وعلى هذا فليس من العدل ولا من الصواب في شيء • أن نعدّه اماماً أو مجدداً •

انك تستطيع أن تقول عن عمران بن حطان ــ على قلة شعره ــ انه مجدد • لأنه اتخذ الصدق له مذهبا في صناعة القريض • حتى اذا فضل رجلا شجاعا على أسد • واعترضت زوجته عليه في ذلك التفضيل دافع عن نفسه بقوله : (ان مجزأة فتح بلدة والأسد لا يفتح بلـدة) وتستطيع أن تصف عمر بن أبي ربيعة بأنه مجدد • لانه وسع القصة الغرامية في القريض العربي •وأطالها وهذبها حتى أصبح من الحق أن يقال انه امام القصة الغرامية في القريض العربي • بل تستطيع أن تقول عن كثير عزة انه مجدد أيضا • لأنه كان صاحب مذهب خاص فيالمديح يحتم عليه ان يصف ممدوحه بما فيه دون زيادة ولا نقصان • حتى لقد مدح عبد العزيز بن مروان بالمنع لانه كان يفعل هذا اذا اقتضاه الحزم •

تستطيع ان تعتبر هؤلاء كلهم مجددين لانهم ذهبوا مذاهبجديدة اصطنعوها وتقيدوا بها • ولكنك لا تستطيع أن تعد أبا نواس مجددا لانه لم يبتكر طريقة ولم يذهب مذهبا جديدا في صناعـة القريض • ولكنه قلّد فأحسن التقليد • واتبع فحذق الاتباع • على أنه لم يكن على الدوام حاذقا محسنا في اتباعه وتقليده •

هـ ــ خاتمـــة :

إما أن أبا نواس شاعر مجيد في بعض ضروب الشعر فهذا ما لا

شك فيه ، ولكنه لم يكن مجددا في يوم من الايام لأي نوع من أنواع القريض • على أنه لو أراد ذلك لما تهيأ له • لانه لم يكن من خصب القريحة وسعة الخيال وعمق التفكير بحيث يستطيع أن يكون مجددا لشيء من الأشياء • أما هذه القصائد والمقطوعات الكثيرة التي تتلخص في بضع كلمات وهي لا تتحدث عن الطلل وتحدث عن الخمر فانها ان دلت على شيء فانما تدل على ضعف خياله وتفاهة تفكيره لان فيها من التكرار الممل لملاحظة سخيفة مبتذلة مالا يتورط فيه شاعر يثق بنفسه ويؤمن بملكاته ومواهبه •

الباب الرابع

في شعراء القرن الثالث للهجرة

الفصل الاول

أبو تمام

أ حياته : اسمه وكنيته ونسبه • الشكوك في نسبته الى طي • مناقشتها • مولده • نشأته وتربيته • سفره الى مصر • خيبته فيه • مبارحته مصر • علاقته بالمأمون • صلته بالمعتصم ووزرائه • تطوافه في الآفاق • بعض ممدوحيه من الولاة والقواد • كيف استقبل في البصرة • أثر أسفاره في شعره • تعيينه واليا على بريد الموصل • وفاته •

ب ــ صفاته : مجونه • تبذيره • غلوه في الاستجداء • حبه الأسفار • حدة ذكائه • قوة حافظته •

جـ ــ رأيه في الدين والسياسة : تشيعه • تذبذبه •

د ــ شعره : ديوانه • أبوابه : فخره • موضوعاته • وصفه • مكان الطبيعة منه • براعته في تصوير سائر الأشياء • رثاؤه : المطبوع منه والمصنوع • ميزة كل منهما • رثاؤه لاهل بيته وذوي قرباه • مثل منه • مديحه : أكاذيبه • ما ينطوي عليه من حقائق التاريخ • مصدر جماله • هجاؤه:

صرامته وبذاءته • مثل منه • لغته وأسلوبه ــ أبرز ما فيهما من محاسن ومساوىء •

هـ ــ خاتمة : ما يفيد وما لا يفيد من شعر أبي تمام •

آ ــ حياتـــه :

كانت الشعوبية والخلاعة أبرز صفات القريض في القرن الثاني للهجرة • أي في عهد بشار وأبي نواس • أما في القرن الثالث ولا سيما النصف الأول منه حيث يتعاقب أبو تمام والبحتري على زعامة الشعراء• فقد خفت صوت الشعوبية • ولم تعد الخلاعة من أبرز صفات القريض• وحل محل هذين العنصرين ــ ١ ــ وصف سياسة الدولة وأعمالها في الداخل والخارج ــ ٢ ــ تصوير حياة القصور وما فيها من لهو ومرح وترف ــ ٣ ــ التحدث عن الطبيعة وما فيها من فتنة وجمال وسحر ــ ٤ ــاطالة المراثي وتجويدها بشكل لم يسبق له نظير [1] • هذا الى ارتقاء ملحوظ في لغة الشعراء • وصفاء غالب على أساليبهم • وسنرى هذه الخصائص ممثلة أصدق تمثيل في شعر كبار شعراء القرن الثالث للهجرة • وهم أبو تمـــام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز • وأبدأ بالحديث عن أولهم فأقول :

هو حبيب بن أوس ، وكنيته أبو تمام ، من طي • وطي • من• أمهات القبائل اليمنية • ويعتقد الآمدي أنه دخيل في طي وأنه من أصل رومي وأن اسم أبيه ــ وهو صاحب حانة ــ « تيودوس » فحرفـه وجعله أوسا • ويذهب ابن خلكان مذهب الآمدي في هذا الشأن مع

(١) يستثنى من هذا شعر ابن المعتز لانه لم يكن من شعراء الرثاء .

أن الآمدي شديد التحامل على أبي تمام . ولك أن تتصفح كتابه (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) لتلمس روح التحامل على المترجم في أماكن كثيرة منه . ويرى أكثر النقاد المحدثين ــ وفي مقدمتهم المستشرقون ــ رأي الآمدي وابن خلكان .

وعندي أنه لو كان أبو تمام من أصل رومي ــ كما يزعم الامدي وابن خلكان وبعض النقاد المعاصرين ــ لكان من المعقول أن يفخر بهذا الاصل كما فخر به ابن الرومي ، لانه نبغ في عصر غلبت عليه الثقافة اليونانية وراجت فيه ترجمة علوم اليونان وفلسفتهم الى اللغة العربية رواجاً كبيرا . ولو كان أبو تمام من أصل رومي حقا لما وسعه أن ينكر أصله ، وأهله أحياء يدينون بالمسيحية ويتكلمون اليونانية ويحملون السحنة [٢] اليونانية في وجوههم ويعتنقون الأخلاق والتقاليد اليونانية ، وصلته بهم قائمة مطردة ، فهو يقرع السن ندما على مفارقتهم في لاميته التي يصف بها خيبته في مصر فيقول :

نأيت ، فلا مالا حويت ،ولم أقم فامتع ، اذ فجعت بالمال والأهل

ويشير اليهم في قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات بقوله:

قبيل وأهل لم الاق مشوقهم لو شك النوى الا فواقا كلاولا[٣]

كأنهم كانوا لخفة وقتتي معارف لي ، أو منزلي كان منزلا

ويشيراليهم كذلك فياستئذانه أبا سعيدالثغري بالانصراف بقوله:

فمُنّ بالاذن على نازح عن أهله ساعته دهر

وفي ديوانه مرثية بليغة يجمع الرواة على أنه رثى بها أخا له حضر

---

(٢) السحنة : اللون والهيئة .

(٣) الوشك : القرب . الفواق : ما بين الحلبتين . كلا ولا . اي كقولهم « لا حول ولا قوة الا بالله » .

وفاته . هذا الى أن أبا الفرج الأصبهاني ينفي كل شبهة عن أصل أبي تمام فيقول انه طائي صميم .

اذا لم يخطيء ظني فان الذين قالوا ان أبا تمام رجل واسع الرواية غزير الحفظ وهو يسرق محاسن الشعراء القدماء التي لم يطلع عليها أحد غيره ويدسها في شعره فتكسبه ماله من جمال ورونق هم الذين قالوا انه سليل أسرة رومية .

وبعد ، فان عقل أبي تمام ــ الذي يود بعض النقاد المحدثين أن يقولوا انه يوناني ــ عربي بحت لأن ثقافته عربية تماما . والثقافة ، كما تعلم ، هي التي تكون العقول وتوجه القرائح والأفهام قبل أي شيء آخر .

ومهما يكن من شيء ، فمورخو الادب متفقون على أن صاحبنا ولد في (جاسم) قرية من قرى دمشق . ولكنهم مختلفون في سنة ولادته ، فقد قيل انه ولد سنة (١٩٠) هـ وقيل انه ولد سنة (١٨٨)هـ وقيل أنه ولدسنة (١٧٢) هـ وأكبرالظن ان هذه الأخيرة أقرب الروايات الى الصحة ، وقد أخذ بها الاستاذ بطرس البستاني في كتابه (أدباء العرب في الأعصر العباسية) وبرهن على وجاهتها بقول أبي تمام في قصيدة مدح بها الحسن بن سهل الذي وزر للمأمون من سنة (٢٠٢)هـ الى سنة (٢٠٣) هـ :

ست وعشرون تدعوني فأتبعها الى المشيب ولم تظلم ولم تحب

ويلاحظ الاستاذ بطرس أنه لا مجال للقول ان أبا تمام مدح الحسن ابن سهل بعد سنة (٢٠٣) هـ أي بعد تنحيته عن منصبه ، لأنه لم ينتح عن الوزارة الا بسبب اختلال عقله هذا الى انه من المرجح أن

يكون أبو تمام قد مدح الحسن بن سهل بهذه القصيدة قبل استيزاره لانه ليس فيها ما يشير الى وزارته وعلى هذا يكون القول بأن أبا تمام ولد سنة (١٧٢) هـ أقرب الاقوال الى الصواب .

وليست نشأة أبي تمام اكثر وضوحا من تاريخ ميلاده فقد قيل إنه نشأ بمصر [٤] وقيل بل انه نشأ في دمشق حيث بدأ حياته عاملا صغيرا في حانوت حائك [٥] وعندي انه نشأ في دمشق وانه رحل الى مصر عندما بات في مقدوره ان يفعل ذلك . واكبر الظن أنه قام بهذه الرحلة وهو ابن سبع عشرة سنة . فقد أشار اليها في رائيته التي مدح بها أهل البيت (عليهم السلام) بقوله :

وان نكيرا ان يضيق بمن لـــه عشيرة مثـــلي أو وسيلته مصر [٦]

اما كونه ابن سبع عشرة سنة وقت نظمه هذه القصيدة فيدل عليه قوله فيها :

وان الذي احذاني الشيب للذي رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر [٧]

ولا مجال للقول بأنه ذهب الى مصر في صحبة ابيه فانه يحمل نفسه تبعة القيام بهذه الرحلة الفاشلة . حيث يقول :

نأيت فلا مالا حويت ولم أقم فامتع اذ فجعت بالمال والاهـــل

وحيث يقول في نفس القصيدة :

بخلت على عرضي بما فيه صونه رجاء اجتناء الجود من شجر البخل

والظاهر ان سبب رحيل ابي تمام عن الشام هو عدم تقدير مواطنيه

---

(٤) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٣ طبع المطبعة الميمنية بمصر .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) فاعل يضيق هو الدهر المذكور فى بيت سابق .
(٧) احذاني : اعطاني .

اياه حق قدره ، فقصد مصر ظنا منه أنـه سيلقى فيها شيئا غير قليـل من العطف والتشجيع • ولكن الظروف شاءت أن تعاكسه في مصر كما عاكسته في الشام ، فلم يلق في وادي النيل ما كان يتوقع من تكريم وترحيب • فشكا خيبة أمـله وسوء مغبة عمله في لاميته التي تقدم بعضها والتي أروي لك منها الآن هذه الابيات :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طالع سـعد ولا طائر سـهل
وساوس آمال ومذهب همـة مخيمة بين المطيـة والرحـل
وسورة علم لم تسدد فأصبحت وما يُتمارى انها سورة الجهـل

وقد طال مكث أبي تمام بمصر على الرغم من انه لم يجد فيهـا عملا سوى سقاية الماء في الجامع • فهو يحدثنا في لاميته التي رويت لك مثلا منها أنه قضى في مصر خمسة أعوام وبعض عام : :

أخمسة أحـوال مضت لمغيبـه وشهران، بل يومان ثكل من الثكل

وليس هناك ما يدل على أنه ترك مصر على أثر نظم هذه القصيدة بيد أنه مما لا شك فيه أنه بدأ تطوافه في الآفاق وهو في عنفوان شبابه• وقد قلت لك انه مدح الحسن بن سـهل وزير المأمون في السادسة والعشرين من عمره ، وأقول لك الآن إن هذا يعني أنه زار بغداد وغيرها من الحواضر الاسلامية الكبرى وهو في تلك السن ، لأنه لو أرسل مدحته إلى الحسن بن سهل في البريد لجازف بالجائزة التي لولاها لما نظمت القصيدة • والغريب أن أبا تمام لم يمدح المأمون مدة خلافته بأكثر من قصيدتين اثنتين • ولعل هذا ناشيء عن عدم اهتمام المـأمون به •

ومهما يكن من شيء فقد سطع نجمه في أيام المعتصم الذي بلغ

من عنايته به أن أستصحبه في غزوة عمورية ثقة منه بقدرته على تصوير عظائم الامور وجلائل الأعمال ورغبة في تمكينه من وصف مواقفه الباسلة المشرّفة بشعره الخالد . ولقد صدّق أبو تمام ظن خليفته به فوصف ظفره الباهر في عمورية ببائيته الشهيرة التي تعد بحق غرة ديوانه . وله فيه عدا هذه البائية سبع مدائح بليغة ، وكانت منزلة أبي تمام عند محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وأحمد بن أبي دوآد قاضي قضاته عظيمة أيضاً . إلا أن هذا لم يمنعه من التطواف في الآفاق وانتجاع ولاة الأقاليم وأمراء الثغور بالمديح . ولهذا التجوال في الارض أسباب خلقية ونفسية سأعرض لها عند الكلام على أخلاق المترجم . وممن قصدهم أبو تمام بمديحه عبد الله بن طاهر في خراسان، وخالد بن يزيد بن مزيد في أرمينية ــ ، ومحمد بن يوسف المعروف بالثغري في الثغور ــ أستغفر الله ــ بل إن الأخير هو الذي خطب مودة أبي تمام والتمس مديحه . ولم يستقبل صاحبنا في بلد من البلدان بأسوأ مما استقبل به في البصرة ، فقد كتب اليه شاعرها عبد الصمد المعروف بابن المعذّل عندما بات على مقربة منها هذه الأبيات :

أنت بين اثنتين تبرز للنا ... س وتلقاهم بوجه مذال
لست تنفك راجيا لوصال ... من حبيب أو راغباً في نوال
أي ماء يبقى لوجهك هذا ... بين ذلّ الهوى وذل السؤال ؟!

فعدل عن قصده وقال : لقد استولى هذا على ما يليه ، فلنتركه وشأنه » . وقد انتهى تطواف أبي تمام بتعيينه والياً على بريد الموصل. عينه والياً عليه الحسن بن وهب كاتم سر محمد بن عبد الملك الزيات ،

فقضى في هذا المنصب نحواً من سنتين . وتوفي في مقر عمله .

وكما يختلف الرواة في سنة مولده يختلفون كذلك في سنة وفاته. فمن قائل انه توفي سنة (٢٢٨) هـ ومن قائل انه توفي سنة (٢٣١) هـ ومن قائل انه توفي سنة (٢٣٢) هـ ، وليس لدينا الآن ما يحملنا على ترجيح أحد هذه الأقوال والشيء الذي لا نزاع فيه هو أن المترجم توفي في خلافة الواثق ، لأنه مدحه وهنأه بالخلافة ولم يفعل مثل ذلك مع المتوكل . ومن المعلوم أن خلافة الواثق تمتد من سنة (٢٢٧) هـ الى سنة (٢٣٢) هـ .

ب ـ صفاتـه :

وأبرز صفات أبي تمام : المجون ، والتبذير ، والغلو في الاستجداء، وحب الاسفار ، وحدة الذكاء ، وقوة الحافظة .

بدأ ابو تمام حياته فقيراً معدماً ، ولكنه كان يشرب الخمر مع ذلك . تدلنا على هذا لاميته التي شكا فيها خيبته في السفر إلى مصر والتي يقول فيها :

وكأسٍ كمعسول الأماني شربتها ولكنها أجلت وقـد شربت عقلي

وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب ، فكثيرهم الفقراء الذين يزيدون فقرهم باتفاق ثمن الخبز في سبيل « أم الخبائث » زاعمين انها تسري عنهم أحزانهم وتنسيهم همومهم . الا أن أبا تمام كان يسرف أحياناً في استعمال الشراب . فيشرب حتى يفقد صوابه . ويحمل على أكتاف الرجال الى منزله . ويسأل في اليوم التالي عما جرى له في أثناء غلبة السكر على عقله . ! ومن أصدق الشواهد على ذلك أبياته النونية

التي كتب بها الى الحسن بن وهب على أثر حادثة من هـذا القبيل ومطلعها :

أفيكم فتى حرّ فيخبرني عني ؟ بما شربت مشروبة الراح من ذهني؟!

وكان الى هذا يسرى الجواري والغلمان مع أنه رب أسرة له زوجة وله أولاد . وكانت هذه الحياة المعقدة الماجنة تضطر أبا تمام إلى الانفاق الكثير ، فكان ينفق كل مايصل الى يده من جوائز ممدوحيه ويسألهم المزيد ، ويلحف في المسألة اذا هم أعاروه أذناً صماء . ومن الطبيعي أن ذلك يفضي إلى نفورهم منه . واعراضهم عنه . والى معاتبته لهم في كثير من الأحيان . ولك أن تتصفح باب العتاب في ديوانه لترى أنه عاتب أكثر ممدوحيه براً به وأشدهم عطفاً عليه . فقد عاتب عتاباً مرا أبا دلف العجلي الذي أجازه على بائيته التي مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

بخمسين ألف درهم . وعاتب احمد بن أبي دؤاد الذي اضطر بعد منحه اياه الجوائز السنية الى أن يثيبه على مدائحه الأخيرة له بالشكر فقط . وعاتب مراراً عديدة أبا سعيد الثغري الذي دعاه وهو نضو أسفار الى الأقامة في كنفه اعجاباً بشعره أو تكريما له لأنه طائي مثله ، وغمره بالعطاء حتى مدحه بتسع وعشرين قصيدة . أكثرها من غرر شعره . وعندي أن الرسالة التي زعم أبو تمام أنها وردت عليه من أهله وجعلها سبباً لاستئذانه من أبي سعيد انما كانت مفتعلة (٨) . والحقيقة هي أن أبا تمام أدرك نفور أبي سعيد منه وضيقه به فعوّل

(٨) اشار ابو تمام الى هذه الرسالة ووصفها بالخطورة فى ابيات كتب بها الى ابي سعيد مطلعها :

يامن به يفتخر الفخر ومن به يبتهج الشعر

على مفارقته بهذه الطريقة .

وليس من شك في أن الرجل مفطور على المجازفة وحب التجوال في الآفاق تشهد بذلك أسفاره العديدة البعيدة المدى التي بدأها وهو ابن سبع عشرة سنة والتي قضت عليه أن يموت في دار غربة بعيداً عن أهله واخوانه . الا انه يخيل اليّ أن حياة السرف التي كان يحياها والتي كانت تستدعي نفقاتٍ طائلة لا ينوء بعبئها ممدوح مهما كثر ماله وغزر عطاؤه كانت عاملا قوياً أيضا في ركونه الى الأسفار والتنقل من بلد الى بلد رغبة في أن لا يثقل على أحد وعمـلا على أن لايبرم به ممدوح ، وعلى هذا بنى بيتيه الشهيرين اللذين ان صحا على أحد فانما يصحان عليه وهما قوله :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيـه ، فاغترب تتجـدد
ألم تر أن الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد!؟

بيد أنه كان حاضر البديهة سريع الخاطر حاد الفطنة حدة شديدة . قال له أبو العميثل يوماً : « يا أبا تمام ، لم لا تقول ما يفهم ؟!» فأجابه على الفور . وأنت ، لِم لا تفهم ما يقال ؟ ! » . وما أظنك تجهل نقد أبي اسحق الكندي الفيلسوف قوله في احمد بن المعتصم .

اقـدام عمرو في سماحـة حاتم في حـلم أحنف في ذكـاء إياس

واجابته له على الفور بقوله :

لا تنكروا ضربي له من دونـه مثلا شروداً في الندى والبـاس
فالله قـد ضرب الأقـل لنوره مثـلا من المشكاة والنبراس

ومثل ذكاء أبي تمام في شدته وقوته ، حفظه ، قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب عدا القصائد والمقطّعات . وقد يكون

في هذا شيء من المبالغة ، إلا أننا نستطيع أن نتبين منه الى حدٍ ما كثرة حفظ أبي تمام وغزارته • ومن يدري لعل « الحماسة » و « الاختيارات من شعر الفحول » و « فحول الشعراء » خير ما حفظ لا خير ما قرأ •

ح ـ مذهبه السياسي الديني :

ولكن ، ألأبي تمام رأي في السياسة ؟ وبعبارة أخرى : أهو عباسي أم علوي أم خارجي ؟ !

إننا إذا سألنا شعره عن هذا أنبأنا أنه كان علوياً متطرفاً في فجر حياته • الا أنه لم يلبث أن عمد الى الكتمان والمصانعة (فلبس لكل زمان لبوساً) وواجه كل فئةٍ بالوجه الذي تقبله وتميل اليه • وقد سبق أن أشرت في هذا الفصل الى رائيته التي مدح بها أهل البيت عليهم السلام وهو ابن سبع عشرة سنة •

وأضيف الآن إلى ما تقدم أن هذه القصيدة تتضمن بحثاً مسهبا لموقف جمهور المسلمين من أهل البيت • ففي اعتقاد المترجم أن كثرة المسلمين لم تحفظ عهد الرسول في آله • ولـم ترع حقه في ولده • فسلبتهم حقهم وأحلت غيرهم محلهم من الأمر والنهي ، بل انها فعلت بهم « أفاعيل أدناها الخيانة والغدر » • ويحدثنا هذا الغلام أنه ربما سهر الليل حتى الصباح مفكراً في أمر الناس متأملا في انحرافهم عن جادة الصواب باحثاً عن الوسائل التي تمكنه من إرشادهم وهدايتهم والخروج بهم من الظلمات الى النور • ولكنه ينتهي الى القول بأنه إذا كان الوحي لم يهدهم سواء السبيل فما عسى أن يصنع الشعر ؟ ! • الا أن هذه الحدة في الرأي خفت كثيراً مع الزمان حتى أصبح أبو

تمام علوياً مع العلويين وعباسياً مع العباسيين • فهو يقول مثلا في مديح محمد بن عبد الملك الزيات • العلوي برأيه• والعباسي بعمله : وزير حق ، ووالي شرطة ، ورجا ديوان ملك ، و (شيعي)،ومحتسب

ويقول في أبي سعيد الثغري • العباسي برأيه وعمله على السواء :

فلو صح قول الجعفرية بالذي تنص من الالهام خلناك ملهما

وهكذا يتطور رأي أبي تمام في الدين والسياسة كما يتطور كل شيء في حياته الأدبية والمادية •

د ـ شعره :

لأبي تمام ديوان متوسط الحجم طبع في بيروت ومصر عدة طبعات يحتوي على الغزل والمديح والفخر والوصف والرثاء والعتاب والهجاء والوعظ • وما أريد أن أقف عند غزل أبي تمام • لأنه لا يمثل شعوراً حقيقياً او عاطفة صادقة ، وهو إن مثّل شيئاً فانما هو العبث والمجون • وما أريد كذلك أن أقف عند عتابه أو وعظه لأنه ليس في هذين البابين ما يستوقف الباحث • ولكني سأتحدث اليك عن أبواب ديوانه الأخرى مبتدئاً بفخره لأنه أقل متعة وفائدة من غيره فيما أظن •

فخره : يعالج أبو تمام في فخره أربعة مواضيع لا يكاد يتعداها إلى غيرها هي : شعره ، وأسفاره ، وأخلاقه ، ونسبه • فكثيراً ما باهى بروائعه وبدائعه ووصفها بأنها (شديدة الأسر) (سالمة من الأقواء [٩] والسناد [١٠]) (منزهة عن السقط) (مكرمة عن المعنى المعاد [١١])

(٩) الاقواء : هو المخالفة بين القوافي من حيث الاعراب .

(١٠) السناد : هو اختلاف ما قبل الروي من حرف .

(١١) يخيل اليّ ان ابا تمام يغلو في هذا بعض الشيء . اذ الواقع

وهو يشبهها (بالوشي المنمنم) مرة و (بالدر المطلي بالشذر) تارة ، وينعتها (بالسحر الحلال) ، ويعدها أحيـانا طعنات نافذة وضربات قاصمة . وعلى الجملة هي خير ما تفتقت عنه قرائح الشعراء ونطقت به ألسنتهم . ومن جميل فخره في هذا الباب قوله :

خـذها مغربة في الأرض آنسة ... بـكل فهم غريب حـين تغترب
من كل قافية فيهـا اذا اجتنبت ... من كل ما يشتهيه المدنف الوصب
الجد والهزل في توشيع لحمتها ... والنبل والسخف والأشجان والطرب
لاتستقي من حفير الكتب رونقها ... ولم تزل تستقي من بحرها الكتب
حسيبة في صميم المدح منصبها ... إذ أكثر الشعر ملقىً مالـه حسب

وأما أسفاره فأنها تلعب دوراً خطيراً في فخره . وهذا على الرغم من أنها كانت مبعث شقائه ومثار شكاته في كثير من الاحيان . وهو يفخر بها لأنه يعتبرها رمز نشاطه ومظهر حيويته ودليل مضاء عزيمته وعلو همته ، وهي من هذه الناحية مبعث فخر كما يظن لولا أنها كانت دائماً وسيلة للاستجداء وسبباً للتكسب بالمديح . والغريب أن أبا تمام لا يبتكر شيئا في هذا الضرب من الفخر على شدة ولعه به . وإنما يقلد على الدوام تلك الصورة الجميلة التي رسمها أبو نواس لنفسه ولزوجته في رائيته التي مطلعها (أجارة بيتينا أبوك غيور .. الخ) والتي لم يبتكرها أبو نواس بدوره وإنما اقتبسها من بشار وقد أشرت الى ذلك

انه مولع بالتكرار ولعاً شديداً . فقد كرر وصف بكاء زوجته لسفره وتعزيته اياها تكراراً يبعث على السأم . وكرر كذلك وصف مواقف ابي سعيد الثغري فى فتنة بابك الخرمي تكراراً مملا وربما كرر طرق الموضوع الواحد فى القصيدة الواحدة ومن امثلة ذلك وصفه نعمة المعتصم عند الافشين ، ونفاق هذا فى اظهاره الاسلام واسراره الكفر فى رائيته الشهيرة مرتين تغني اولاهما عن الثانية تماماً .

عند الكلام على حياة بشار . ولكنه هذّبها وحسّنها فكان أحق بها منه واليك مثلا من فخر أبي تمام بأسفاره ، قال :

خذي عبرات عينك عن زماعي ... وصوني ما أذلت من القناع
أقلي ، قد أضاق بكاك ذرعي ... وما ضاقت بنازلة ذراعي
أ آلفة النحيب كم افتراقٍ ... ألم ، فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الأوبات الا ... لموقوفٍ على ترح الوداع

وأكثر ما يلفت نظر أبي تمام من أخلاقه . صبره وعلو همته ، فهو يفخر بهما دائماً . وعندي أنه صادق في هذا الفخر كل الصدق ، فلو لم يكن عالي الهمة لما هجر وطنه دمشق طلباً للرزق وهو غلام لم يشتدّ ساعده بعد . ولم يقو على مقارعة الخطوب ، ولو لم يكن على جانب كبير من الصبر ورباطة الجأش لما صبر على مكابدة تلك الاهوال التي كانت تتقاذفه من مصر الى بغداد الى أرمينية الى خراسان الى غيرها من بلاد الله الواسعة . ومن طريف فخره بماله من عالي الهمة قوله :

أبدت أسى ان رأتني مخلس القصب ... وآل ماكان من عجب الى عجب[١٢]
ست وعشرون تدعوني فأتبعها ... الى المشيب ولم تظلم ولم تحب[١٣]
يومي من الدهر مثل الدهر مشتهر ... عزما وحزما وساعي منه كالحقب[١٤]
فأصغري أن شيباً لاح بي حدثا ... وأكبري أنني في المهد لم أشب
فلا يؤرقك ايماض القتير به ... فان ذاك ابتسام الرأي والادب[١٥]

(١٢) اخلس الشعر : شاب او اختلط بياضه بسواده . القصب جمع قصبة ـ او هي محركة ـ وهي الخصلة الملتوية من الشعر .
(١٣) لم تحب : لم تصنع حوباً اي اثماً .
(١٤) الساع : جمع ساعة . والحقب جمع حقبة وهي المدة غير المحدودة من الزمن .
(١٥) القتير : أوائل الشيب .

أما في الصبر فحسبي أن أروي لك قوله :

اذا أناخ عليَّ الدهر كلكلـه قراه صبرا وعزما مني الكرم [١٦]
وان علتني من أزماته ظلـم صبَّرت نفسي حتى تكشف الظلم

ولقبيلة الشاعر مكانها اللائق بها في شعره ، ومن رأيه انها اكبر القبائل شأنا وأعلاها منزلة وأغزرها جودا وأشدها بأسا . (أمردها كهل) لرجاحة عقله وحصافة رأيه ، (وأشيبها حبر) لسعة علمه وعزارة فضله ، ومن معتدل فخره بقبيلته قوله :

أنا ابن الذين أسترضع الجود فيهم وسمِّي فيهم وهو كهل ويافع [١٧]
سما بي أوس في السماح وحاتم وزيد القنا والأثرمان ونافع
وكان إياس ، ما إياس ونافع ، وحارثة ، أوفى الورى ، والأصابع

مضوا ، وكأن المكرمات لديهم ، لكثرة ما أوصوا بهن ، شرائع

هم استودعوا المعروف محفوظ مالنا فضاع وما ضاعت لدينا الودائع

أصارت لهم أرض العدوّ قطائعا ، نفوس لحد المرهفات قطائع
بكل فتى ما شاب من روع وقعة ولكنه قد شبن منه الوقائع
اذا ما أغاروا فاحتووا مال معشر أغارت عليهم فاحتوته الصنائع
فتعطي الذي تعطيهم الخيل والقنا أكف لا رث المكرمات موانع

وصفه : أدل من فخر ابي تمام على سعة خياله وخصب قريحته

(١٦) الكلكل : هو الصدر ومقدم العنق .
(١٧) اليافع : هو الغلام المراهق للعشرين : وكان الصواب ان يقول « وهو يافع وكهل » الا ان القافية حالت بينه وبين ذلك .

وصفه الحافل بالصور الصادقة والمشاهد الرائعة . وأول شيء يلاحظ في هذا الوصف هو أن الطبيعة تحتل المكان الأول منه . ولك أن تقرأه لتتبين فيه دويّ الرعد ولمعان البرق وهطول الأمطار وابتسام الروض. وليس أبو تمام أول من فعل هذا في الأدب العربي ، ولكنه ربما كان أول من أحب الطبيعة حبا حقيقيا ووصف بعض ظواهرها وصفاً يكاد يكون غزلا ، اسمع قوله :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثري المكروب
لو سعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تستطيع قامت فعانقتها القلوب [18]
فهي ماء يجري وماء يليه وعزالى تنشا وأخرى تذوب
كشف الروض رأسه واستسر الـ ـسحل منها كما استسر المريب
فاذا الري بعد محل وجرجا ن لديها يبرين او ملحوب [19]
أيها الغيث حي أهلا بمغدا ك وعند السرى وحين تؤوب

فقد لا أخطيء اذا لاحظت ان أبا تمام أول من وجد في شؤبوب الغمام لذة تكاد تحمل القلوب على معانقته . وقد لا أخطيء اذا لاحظت أن أبا تمام أول من رحب بالغيث على النحو الذي نجده في هذا البيت:

---

(١٨) من هذا القبيل قول ابي تمام فى ارجوزة مطولة يصف بها سحابة :

لما بدت للارض من قريب تشوقت لوبلها السكوب
تشوق المريض للطبيب وطرب المحب للحبيب
وفرحة الاديب بالاديب

وبهذه المناسبة احب ان اقول : ان لابي تمام شعراً كثيراً فى وصف الامطار اكثره فى باب الوصف من ديوانه .

(١٩) يدل هذا البيت على ان ابا تمام يعتبر شبه جزيرة العرب مضرب المثل فى الخصب وجودة التربة مع انها ليست كذلك فى الحقيقة .

أيها الغيث حي أهلا بمغداك وعند السرى وحين تؤوب

وقد لا أخطيء كذلك اذا لا حظت أن أبا تمام أول من تحدث عن الغيث بهذه اللهجة التي تدل على الاعجاب مرة ، وعلى الاعظام تارة ، وعلى الحب والحب الشديد طورا . والذي أستنتجه من هذا هو أن أبا تمام يفهم جمال الطبيعة فهماً تاما ويهيم بها هياماً تاما : فهو يفهم جمالها اذا تلفعت السماء بالسحاب . وغمرت الارض هواطل الامطار. وهو يفهم جمالها اذا حسرت السماء رداء السحاب . واخذت الشمس المشرقة تنشر النور والدفء والخصب في الأرض :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك حسنه والصحو غيث مضمر

وهو يفهم جمالها كذلك اذا تبسم النور واختلط لونه الفضي بشعاع الشمس الذهبي . ونشأ عن اختلاطهما ما يشبه نور القمر في لطفه وسجوه وسحره وايحائه :

ياصاحبيَّ تقصيّا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوَّر
تريا نهاراً مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

على أن هذا الفهم الدقيق الذي يلهم أبا تمام روائع الغزل بالطبيعة يستثير في قلبه كوامن الايمان أحيانا فيملأ نفسه خشوعا ولسانه تسبيحا فاذا هو يهلل الخالق الأعظم ويكبره ويقدسه ويمجده ، واذا هو يستخرج العبر البليغة مما يرى من مشاهد الطبيعة وما يطرأ عليها من نمو وازدهار وذبول وانحلال . اسمع قوله في وصف الزهر واختلاف ألوانه :

من فاقع غضَّ النبات كأنه درر تشقق قبل ثم تزعفر

أو ساطع في حمرة فكأنما يدنو اليه من الهواء معصفر
صبغ الذي لولا بدائع لطفه ما عاد أصفر بعد اذ هو أخضر

وقوله مشيرا الى انتهاء زمن الربيع وذبول أزهاره :

عجبت من ذي فكرة يقظان رأى جفاف زهر الغيطان (٢٠)
فشك أن كل شيء فان

وكما يجيد أبو تمام تصوير الطبيعة ، يجيد كذلك وصف غيرها من الاشياء ، من ذلك وصفه القلم في قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات وها هو :

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه
وأري الجنى اشتارته أيد عواسل (٢١)
له ريقة طل ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب وأعجم ان خاطبته وهو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وافرغت
عليه شعاب الفكر وهي حوافل (٢٢)
أطاعته أطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل

فليس من شك في أن هذه الابيات صورة صادقة لقلم تتعلق مصائر الناس بشقيه ، فيقضي على من يشاء منهم بالويل والثبور .

(٢٠) فى طبعة الديوان المنجزة ببيروت تحت اشراف محي الدين الخياط : « راى جفون زهر الالوان » واكبر الظن ان الصواب ما اثبتناه .
(٢١) الاري : العسل . الجنى : القطف . اشتارته جنته .
(٢٢) الشعاب : مجاري الماء . حوافل : ممتلئة .

ويقضي لمن يشاء منهم بالرزق الواسع والجاه العريض • يشير بالحرب فاذا هي شعواء تلتهم الاموال والارواح التهاما • ويشير بالسلم فاذا هي نامية زاهرة عميمة الخيرات عظيمة البركات • على أنه لم يكن رسول حول وطول فحسب ، بل انه رسول فطنة نافذة • وحكمة بالغة وتجربة كلها توفيق وسداد • وقس على ما تقدم من وصف أبي تمام تصويره لكثير من الأشياء التي نبهت حسه وألهمت خياله واستوحت شاعريته •

رثاؤه : أما رثاء ابي تمام فمن الممكن ان يقسم الى مطبوع ومصنوع • وهو في الاول قوي العاطفة صادق الشعور حاد الألم • وفي الثاني صاحب صناعة يحسن اختيار المعاني وانتقاء الألفاظ ويجيد صقل الديباجة على الاكثر واقول على الاكثر لأنه يسف أحياناً في هذا النوع من رثائه اسفافاً لا يكاد يصدق ، فليس من السهل ان تتصور أن القائل :

فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لهـا جمر

هو الذي يقول :

مضى خالد بن يزيد بن مزيـد قمر الليـل شمس الضحـاء

وأن القائـل :

يود اعـداؤهم لو انهم قتـلوا وأنهم صنعوا بعض الذي صنعوا

هو الذي يقول :

ولم انس سعي الجود خلف سريره بأكسف بال يستقيـم ويظلـع

وتكبيره خمساً عليه معالناً وان كان تكبير المصلين أربع

هذا الى أن اعراب البيت الثاني غير مستقيم اذا أستقام معناه لأن المعقول في اعرابه هو أن تكون (تكبير) اسم كان و (اربع) خبرها لا العكس كما يريد أبو تمام أو كما تريد له الضرورة الشعرية . ولكن إن كانت الصنعة قد غلبت على هذا الجانب من رثاء أبي تمام ، وان كان الاسفاف قد تطرق اليه في أماكن كثيرة بسبب عدم إخلاصه فيه . فان له رثاءاً تتفجر من ثناياه الدموع . وتجيش في طيانه الحسرات . وتتردد خلال كلماته الأنفاس الحارة ، فضلا عن أنه مثل رائع في النفاسة والجودة ، هذا الرثاء هو رثاؤه لولده ولاخوته ولآل حميد الذين تجمع بينه وبينهم رابطة النسب . وأنت إذا تأملت هذا الرثاء رأيت أنه صورة صادقة لما نزل بالشاعر من فجائع وكوارث في أهله الأقربين والأبعدين ولما يجيش في صدره من عواطف وأحاسيس ، ولما يعتلج في نفسه من اشجان وآلام . فهذه قصيدة بل عدة قصائد تصف إقدام آل حميد وشهامتهم وثباتهم وبسالتهم وركوبهم متون الأخطار دفاعاً عن المملكة الاسلامية وورود كل منهم حتفه في هذا السبيل . وهذه قطعة تذكر فقدان الشاعر طائفة من ولده وإخوته في سنة واحدة ، وتشير إلى شماتة أعدائه به والى صبره على ما يلقى من عنت الخطوب ، وهذه أخرى تصور ما لقي آخ له من أهوال الاحتضار بمنظر منه ، وهكذا . وليس من شك في أن رائية أبي تمام الشهيرة التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي ، ابلغ رثائه واحسنه . اليك منها هذه الأبيات :

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر ان فاته النصر

وما ماتحتى مات مضرب سيفه من الضربواعتلت عليهالقنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده اليـه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العـار حتى كأنما هوالكفريوم الروع او دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجـله وقال لهامن تحت اخمصك الحشر
غدا غـدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا واكفانه الاجـر
تردى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل إلا وهي من سندس خضر
كـأن بني نبهـان يوم وفاتـه نجوم سماء خر من بينها البـدر
يعزون عن ثاو تعزى بـه العلى ويبكي عليه البأس والجود والشعر
وانى لهم صبر عليه وقـد مضى الى الموت حتى استشهداهو والصبر

مهما نقل في تقريض هذه القصيدة فاننا لن نبلغ من ذلك مبلغ أبي دولف العجلي الذي قال لأبي تمام وهو يشير اليها (لوددت انها لك فيّ) وعندما قال له أبو تمام (بل أفدي الأمير بنفسي) أجابـه (ما مات من رثي بهذا الشعر) .

* * *

مديحه : ومهما يكن من جودة رثاء أبي تمام فان مديحه أحسن شعره وأجوده كما أنه اكثره أيضا . بيد أنه مما يؤسف له ان أبا تمام لا يتوخى الحقيقة ولا يلتزم الصدق في مديحه وإنما يمدح الناس بما يعجبهم أن يمدحهم به وبما يعجبه هو أيضاً ان يمدحهم به . ولسنا نظلم أبا تمام عندما نشهد عليه بالكذب فهو يقول لعمر بن طوق التغلبي بصريح العبارة :

ومتى مدحت سواك كنت متى يضق عني له صدق المقالـة أكـذب

ويصرح في أهاجيه لممدوحيه القدماء بأنه كذب في مديحهم كذباً

لا غبار عليه .

وسأذكر مثلاً من اعترافه بكذبه عند الكلام على هجائه ولكن الى جانب هذه الأكاذيب التي يسلبه بها مديح أبي تمام حقائق كثيرة يفيض بها وصفه لما كان جارياً بين المسلمين والروم من نضال دائم ونزاع لاينقطع على حدود آسيا الصغرى ، ولفتنة بابك الكبرى التي استفحل أمرها حتى شملت أذر بيجان كلها ودامت نحواً من عشرين سنة وقضت على عدد غير قليل من جنود السلطان وقواده ، ولحوادث سياسية أخرى . وغني عن البيان أن موقف أبي تمام من حيث هو شاعر متكسب تهمه الجائزة ويستهويه رضا الممدوح لا يسمح له أن يبحث دائماً عن الحقيقة وأن يقررها كائنة ما كانت . فقد مدح الأفشين في أيام حظوته عند المعتصم مديحاً رفعه به إلى منزلة الأبطال وعدّه رجل القضاء على فتنة بابك الخرمي (٢٣) ، ولكنه هجاه أفظع هجاء عندما خانه الحظ وحل عليه غضب المعتصم . الا أنه ــ أعني أبا تمام ــ لا يتردد في تقرير الحقيقة اذا اتفقت ومصلحة الممدوح ، وأنت اذا تأملت بائيته في فتح عمورية ولاميته التي هنأ فيها المعتصم بقمع فتنة بابك والتي مطلعها : ــ

آلت أمور الشــرك شر مآل وأقرّ بعد تخمط وصيال (٢٤)

رأيت أنه حريص كل الحرص على عرض حقائق الأشياء كما هي ، وسبب ذلك أنها تتفق ومصلحة ممدوحه ورغبته كل الاتفاق ، وقل مثل ذلك في إطرائه مواقف أبي سعيد الثغري في منازلة الروم ومناهضة

(٢٣) الخرمي : نسبة الى الخرمية وهي طائفة من الفرس تدين بالتناسخ والاباحية .

(٢٤) التخمط : التكبر .

بابك الخرمي . على ان قيمة مديح ابي تمام ليست في تمثيله حقائق الحرب والسياسة فحسب . وإنما هي في دقة معانيه وفصاحة ألفاظه وجودة أدائه ، اسمع قوله في وصف إحراق عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا ، وقد أفلت ... والشمس واجبة فيذا ولم تجب(٢٥)

وقوله في وصف بلاء أبي سعيد الثغري في سبيل القضاء على فتنة بابك الخرمي : ـ

أنهبت أرواحه الأرماح اذ شرعت ... فما ترد لريب الدهر عنه يد
كأنها وهي في الاوداج والغة ... وفي الكلى ، تجد الغيض الذي تجد
من كل أزرق نظار ، بلا نظر ، ... الى المقاتل ، ما في متنه أود
كأنه كان ترب الحب مذ زمن ... فليس يعجزه قلب ولا كبد

وقوله واصفاً سطوة أبي سعيد أيضا في بلاد الروم : ـ

لما لقوك تواكلوك وأعذورا ... هرباً فلم ينفعهم الاعذار (٢٦)
فهناك نار وغىً تشب ، وههنا ... جيش له لجب وثمّ مغار (٢٧)
خشعوا لصولتك التي هي عندهم ... كالموت يأتي ليس فيه عار
فالمشي همس" ، والنداء اشارة" ، ... خوف انتقامك والحديث سرار

(٢٥) واجبة : غائبة .
(٢٦) تواكلوك : وكلك بعضهم الى بعض خوفاً منك .
(٢٧) اللجب : الصياح .

ان لا تنل منويل أطراف القنـا أو تثن عنـه البيض وهي حرار
فلقـد تمنى أن كـل مدينـةٍ جبـل أشم وكـل حصن غار

فلا نزاع في أن في هذه المثل ، وهي قل" من كثر من محاسن مديح أبي تمام ، من دقة التفكير وجمال التعبير وصفاء الديباجة ما يرفعها إلى أسمى مراتب الكلام .

* * *

هجاؤه : والبحث عن مديـح أبي تمام يقودنا الى البحث عن هجائه وأقل ما يقال في هذا إنه لاذع قارص ، هدفه القضاء على سمعة المهجو وتمزيق عرضه تمزيقاً ، والباسه ثوب العار والصغار الى الأبد سواء أكان ذلك حقاً أم باطلاً . هذا الى أنه غير منزه عن الفحش والهجر . وبعض مهجوّي المترجم هم من ممدوحيه القدماء . وقد غلا في هجائهم كما غلا في مديحهم . وأسرف في ذمهم كما أسرف في الثناء عليهم . والجائزة هي العامل الأول بل الوحيد في هذا كله لسوء الحظ، وقد ينتقل خصوم أبي تمام الى دار البقاء قبل أن يشفي غليله منهم بالهجاء فلا يشفع لهم هذا عنده ، ولا تخطر له المغفرة على بال ، وانما يمضي في ذمهم والطعن عليهم كما لو كانوا أحياء يناصبونه العداء ويبادلونه البغضاء والشحناء ، فمن ذلك أنه هجا عياش بن لهيعة بعد موته ، فقال : إن القبر تضوّر من وجوده فيه حتى كأنه هو المقبور : وان منكراً ونكيراً فرا منه ظناً منهما أنه منكر ونكير ، ولعلي أروي لك مثلا من أقسى هجاء أبي تمام وأعنفه . إذا رويت لك الأبيات التالية التي يهجو بها موسى بن إبراهيم الرافقي وكان قد مدحه :

أمويس لا تفن اعتـذارك طالباً عفوي فما بعد العقاب عتـاب
هب من له شيء يريـد حجابه ما بال لا شيء عليه حجـاب ؟
ما إن سمعت ولا أراني سامعاً أبـداً بصحراء عليهـا باب !
من كان مفقود الحياء فوجهـه من غـير بـواب لـه بـواب
ما زال وسواسي لعقـلي خادعاً حتى رجا مطراً وليس سحـاب
ما كنت أدري لا دريت ، بأنـه يجري بأفنيـة البيوت سـراب

. . . . . .

عجبـاً لقوم يسمعون مدائحي لك لم يقولوا قم فأنت مصاب
نبزوا بكـذاب مسيلمـة فقد وهموا وجاروا ، بل أنا الكذاب
هتكت ديني فاستترت بتوبـة فأنا المقرّ بذنبـه التواب

* * *

فالرافقي كما تصوره هـذه الأبيات لا شيء . بل هو صحراء قاحلة . بل هو رجل لا حياء له أما مديحه فدليل واضح على جنون الشاعر : هذا الى أنه أشنع وأفظع من أكاذيب مسيلمة الكذاب . وهل بعد هذا كله زيادة لمستزيد .

* * *

لغته وأسلوبه : بقي أن أقول لك كلمة في لغة أبي تمام واسلوبه . والواقع أن شعره غير منزّه عن وحشي الكلام وحوشيه وأنه حافل بالزخارف البديعية المتكلفة (٢٨) إلا أنه فصيح اللفظ متين السبك على

(٢٨) بين النقاد المعاصرين زمرة تستحسن تكلف ابي تمام زخارف

العموم مرصّع بالامثال الحكيمة التي يضربها الشاعر من حين لآخر تأييداً لوجهة نظره ترصيعاً جميلا .

يحدثنا أبو تمام في قصائد كثيرة أنه يقضي الليل في تهذيب شعره وتنقيحه ولكن في شعره ما يناقض هذا مناقضة تامة ، فمن ذلك قوله :

قدك اتئب أربيت في الغلواء كم تعذلون واتئم سجرائي

وقوله :

وأباح نصل السيف كلّ مرشح لم يحمر ردمه من الاطفال

وقوله :

فأنت وصنواك الكريمان أخوة خلقتم سعوطاً للأنوف الرواغم

« فقدك اتئب » ــ أي حسبك ــ و « أربيت » ــ أي أسرفت ــ و « سجراء » ــ أي خلطاء ــ كلمات غريبة اقل ما يقال فيها إنها ثقيلة الجري على اللسان ثقيلة الوقع في السمع و « لم يحمرر » كلمة متنافرة الحروف ، و « سعوط » كلمة سمجة الى الغاية . وهناك تعابير ركيكة منها قول أبي تمام : ــ

صبّحته بمدامة صبحتها بسلافة الخلطاء والندماء

أي باكرت الروضة بمدامة أسميتها مدامة الخلطاء والندماء ، ومنها قوله متغزلاً :

عبدك يشكو باسطاً خمسه مبتهلا يدعو فلا تنسه

والبيت من الركاكة بحيث لا يحتاج الى تعليق .

البديع استحسانا شديدا وترى فى ذلك دليلا آخر على انه من أصل يوناني . فاكتفى بأن اسجل على هؤلاء النقاد انهم من انصار التكلف .

وكان على أبي تمام أن ينزه شعره عن هذه السقطات التي لم نذكر منها إلا النزر اليسير . إلا أن شغفه بشعره حال بينه وبين ذلك[٢٩] على أنك اذا درست شعره وتأملته رأيت انه في جملته فصيح اللفظ متين السبك نقي الديباجة ، وفي ما تقدم وما سيأتي منه خير شاهد على ذلك. أما الزخرفة البديعية فلا شك في أن أبا تمام قد أسرف في استعمالها إسرافاً شديداً ، وأنها قد أدخلت الوهن بل الفساد على كثير من شعره فجاءت فيه الاستعارة الزائفة والطباق المرذول والجناس غير الموفق . فمن استعاراته الزائفة قوله :

رأي لو استسقيت (ماء نصيحة) لجعلتـه أريا من الارياء

ومن مطابقاته المرذولة قوله :

أيا قمر السماء (سفلت) حتى كأنك قـد ضجرت من (العـلو)

ومن مجانساته غير الموفقة قوله :

أي حسن في الـذاهبين تولى وجمـال على ظهـور الجمـال
ودلال مخيـم في ذرى الخيـ ـم وحجل معذب في الحجـال

اذ من الجلي أن استعارة الماء للنصيحة زخرفة زائفة لأن الاستعارة

---

(٢٩) يحدثنا صاحب الاغاني ان ابا تمام انشد احد معاصريه من الشعراء قصيدة لم يكن فيها سوى بيت ضعيف واحد . فقال له الشاعر: (يا أبا تمام لو القيت هذا البيت ما كان فى قصيدتك عيب .) فقال له: (انا والله أعلم منه مثلما تعلم . ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو فى نفسه . فهو وان احب الفاضل لم يبغض الناقص وان هوي بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر) الاغاني ج : ١١ ص ٦. طبعة مطبعة التقدم بمصر .

يجب أن تقوم على شبه ما بين المستعار والمستعار له . وما أظنك تجد هذا في استعارة أبي تمام المتقدم ايرادها ، ونعت الحبيب بالسفل وان كان المقصود منه مشيه على الأرض بعد امعانه في العلو تعبير لا يجيزه أدب الحب . وحشر الجمال والجِمال والحجل والحجال في تعابير جافة كالتي سبق ذكرها زخرفة لفظية لا يستسيغها قاريء له ذوق . وفي الامكان اعطاء أمثلة أخرى كثيرة جدا لهذه السقطات .

ولكن ان كان التعمل قد أفسد على أبي تمام طائفة من شعره فانه قد وافق طبعه في كثير منه فأدى الى أحسن النتائج وأفضلها ، والا فمن ينكر تلاؤم الطبع والصنع في قوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب

وفي قوله في نفس القصيدة :

لبيت صوتا زبطرياً [٣٠] هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب [٣١]

وفي قوله واصفاً فرح العالم الاسلامي بشنق الافشين واحراقه :

رمقوا اعالي جذعه فكأنما وجدوا الهلال عشيّة الافطار

---

(٣٠) زبطري : نسبة الى زبطرة : بلدة على الحدود الرومية الاسلامية
(٣١) حصب : بارد .

واستنشقوا منه قتارا نشره من عنبر ذفر[٣٢] ومسك داري[٣٣]
وتحدثوا عن هلكه كحديث من بالبدو عن متتابع الأمطار
وتباشروا كتباشر المحرمين في قحم[٣٤] السنين بأرخص الاسعار

وفي قوله مادحاً المعتصم :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة أضاء لها من كوكب الحق آفله

وفي قوله واصفا الجندي العباسي :

خلط الشجاعة بالحياء فاصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

ففي هذه المثل تشابيه حسنة واستعارات جميلة ومجانسات طريفة لم تستلزم غموض معنى ولا ركاكة لفظ وانما أضافت الى دقة المقاصد والاغراض ولطف الأداء وسلامته جمال الزخرفة البيانية التي لا تلمس فيها أثر التكلف . وليس من شك في أن شعر أبي تمام الذي يتعاون الطبع والصنع على تجويده يحتوي على أمثلة أخرى كثيرة من هذا القبيل .

وتسألني عن أمثال أبي تمام فأقول لك انها على جانب كبير من النفاسة لأنها ثمرة علم غزير وخبرة طويلة وتجربة واسعة . ولقد كان أبو العلاء على حق عندما وصف المترجم والمتنبي بأنهما حكيمان . وليس أدل على ذلك من هذه الحكم الغالية التي يرصع بها أبو تمام

---

(٣٢) ذفر : جيد .

(٣٣) داري : نسبة الى دارين بليدة فى البحرين معروفة بتجارة الطيب .

(٣٤) قحم : جمع قمحة وهي السنة الشديدة الجدب .

شعره فتتضمنها قصائده حينا وتجيء مستقلة حينا آخر . وهي في كل حال خلاصة تفكيره ومجموعة خواطره وآرائه في الحياة والاجتماع ، اسمع منها قوله :

اذا المرء لم يزهد وقد صبغت له ... بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وقوله :

محاسن أصناف المغنين جمّة ... وما قصبات السبق الا لمعبد

وقوله :

والسيف مالم يلف فيه صيقل ... من سنخه لم ينتفع بصقال

وقوله :

ولم أر نفعا عند من ليس ضائرا ... ولم أر ضرا عند من ليس ينفع

وقوله :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ... ويكدي الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجا ... هلكن اذن من جهلهن البهائم

وما أشك في أنك تروي قوله :

واذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت ، أتاح لها لسان حسود

وقوله :

واذا أمرؤ أسدى اليك صنيعة ... من جاهه فكأنها من ماله

وقولـــه :

ليس الغبي بسـيد في قومـــه لكنّ سـيد قومـه المتغـــابي

هـ ـ خاتمـــة :

كثير هو دون شك شعر أبي تمام الذي لا يغذي في هذا العصر عقلا ولا عاطفة والذي ان درس فانما يدرس لغاية تاريخية . ولكـن لا تزال بين دفتي ديوانه ولا سيما في بابي الرثاء والوصف غرر ونفائس أشك جدا في أنها تموت في يوم من الايام ، أما أمثاله فكثرتها الكبرى تستحق أن تروى في كل زمان وفي كل مكان .

الفصل الثاني

البحتري

أ ــ حياته : اسمه ونسبه وكنيته • مولده ونشأته • ثقافته • ما يقال عن تخرجه على ابي تمام • مناقشته • أسفاره الاولى • ما نشأ عنها من اثرائه • هجرته الى العراق • اتصاله بالفتح بن خاقان • تقديم هذا اياه الى المتوكل على الله• حظوته عنده • برم المتوكل والفتح بن خاقان به • رضاؤهما عنه • اثره في نقل المتوكل دواوينه الىدمشق• بقاؤه في حاشيته حتى آخر ساعة من حياته • حاله على عهد المنتصر • صلاته بالمستعين • حظوته عند المعتز • صلاته بالمهتدي والمعتمد على الله • اختلافه الى سورية وتنكر هذه له •ثروته • كونها مصدر شقاء له • استرداد الحكومة جزءا غير يسير منها • وفاته •

ب ــ أخلاقه : بخله • اعجابه بشعره • اقدامه • وفاؤه • حبه الشديد للخير •

جـ ــ مذهبه السياسي الديني •

د شعره : جمعه وطبعه • غزله : مكان التقليد منه ، حظه من الاصالة • حبه لعلوة • مثل من غزله فيها • مديحه : اشتماله على صفحات اصيلة واخرى مبتذلة ، ماله من المزايا التاريخية

العديدة ، تمثيله حياة القرن الثالث للهجرة العسكرية والسياسية ، بعض ما يمثلها منـــه ، ماله من القيمـــة التصويرية ، بعض غرره في هـــــذا الباب • رثاؤه : المتوسط والممتاز منه • خصائص كل منهما ، مرثيته للمتوكل على الله : تحليلها ، مرثيته لآل حميد ، مجمل القول فيها ، موقف النقاد المحدثين من رثائه • فخره : عناصره• لقاؤه الذئب وقتله اياه• تصويره هذه الحادثة• وصفه : تمثيله حضارة القرن الثالث للهجرة • تصويره قصور المتوكل على الله وابنـــه المعتز ، وصفه ايوان كسرى • سببه والغرض منه • نقده وتحليله • بعض من جاراه • براعة البحتري في وصف الطبيعة ، بعض بدائعه في هذا الباب • هجاؤه : تفاهته • مثل منه • عتابه : لطفه • ما يحمله على التلطف فيه • مثل منه • فلسفته• آراؤه في الدنيا والحياة والموت وما الى ذلك • بعض كلماته في هذا الباب • لغتـــــه واسلوبه : ما سبقت الاشارة اليه فيهذا الصدد• مساوىء منظومه ومحاسنه• غلبة التنافر على جزء منه • شيوع الزحاف فيه • بعض ما يؤيد ذلك • مخالفته بعض قواعد الاعراب • قدرته على تأليف الصور الشعرية • أمثاله • طائفة منها •

هـ ــ خاتمة ــ أهمية شعره : فائدة درسه وتمحيصه •

آ ـ حيانـــه :

كانت حصة طيء من القريض العربي في القرن الثالث للهجرة حصة الاسد فأبو تمام شيخ شعراء القرن ، طائي ، والبحتري ثاني شعرائه في نظر عامة الرواة والنقاد طائي أيضا . وقد حدثتك فيما مضى عن الطائي الاول فأحدثك الآن عن الطائي الثاني وهو الوليد بن عبيـــد من بحتر وبحتر بطن من طيء وكنيته أبو عبادة . ولد سنة خمس وقيل ست ومائتين للهجرة [1] بمنبج [2] احدى قرى حلب وبها نشأ وقرض الشعر . وكان لبادية الجزيرة وجوها النقي وسمائها الصافية عظيم الاثر في ايقاظ خياله وتكوين شاعريته ، واذا صدقنا ما يقوله صالح ابن الأصبغ التنـــوخي المنبجي من أنه رآه يمـــدح « باعة البصـــل والباذنجان » [3] لم يبق مجال للريب في أن المترجم سليل أسرة فقيرة خامـــلة .

وقد أحب في أيام شبابه فتاة حلبية اسمها علوة يظهر من غزله بها وهجوه اياها [4] أنها فتاة فائقة الجمال الا انها ليست ممن يضـــرب بعفتهن المثل من بنات حواء .

والمعروف أن البحتري تخرج على أبي تمام وعنه أخذ ، ولكن

(١) تختلف كتب التراجم فى تاريخ ولادة البحتري ولكن الكامل فى التاريخ يجزم بانه ولد سنة « ٢٠٦ » هـ . وهو يذكر هذا عند الكلام على وفاة الشاعر فى حوادث سنة « ٢٨٣ » هـ .

(٢) وقيل بـ (زردفنة) والاول اشهر .

(٣) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٧٥ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٤) هجا البحتري علوة على الرغم من حبه لها مراراً عديدة وذلك بسبب ما كان يحدث بينه وبينها من منازعات ومشاجرات .

أمكث أبو تمام في بلد من البلدان مدة تمكنه من تخريج شاعر ؟ ألم تكن حياته مجموعة اسفار متواصلة من الشام الى مصر الى العراق الى أرمينية وهلم جرا ؟ .. ولنستعرض تاريخ نشأة علاقة البحتري بأبي تمام كما يحدثنا به الرواة لنرى أينسجم هذا مع القول بأن الثاني كان استاذ الاول ومخرجه ؟

يحدثنا الرواة أن البحتري لقي أبا تمام أول ما لقيه في مجلس محمد بن يوسف الثغري وذلك عند انشاده اياه مدحته التي مطلعها :

أأفاق صب من هـوى فأفيقـا أم خان عهدا أم أطـاع شقيقـا

وهم يقولون لنا في هذه القصة ان انشاد البحتري قصيدته هذه أغضب ابا تمام لانه لم يكن بأذن منه ، فادعى أن القصيدة له وأعـاد بعض أبياتها واتهـم البحتري بسرقتها الى آخر ما هنالك [٥] وهم يحدثوننا من جهة أخرى أن البحتري لقي أبا تمام اول ما لقيه في مسجد حمص حيث كان الشعراء يعرضون أشعارهم عليه ، وهم يقولون لنا في هـذه القصة ان ابا تمام استحسن البحتري وفضله على سـائر الشعراء [٦] وواضح أن كلتا الروايتين المكذوبتين المتناقضتين تنص على أن البحتري لقي أبا تمام أول ما لقيه وهو شاعر مجيد يمكن أن يدعي أبو تمام شعره أو أن يفضله على كل من حضره من الشعراء فكيف يتفق هذا والقول ان المترجم درس على أبي تمام وعنه أخذ ؟ وشيء آخر ينبغي أن لا يعزب عن أذهاننا ، وهو أن بين ابي تمام وبين البحتري فروقا فنية لا ينبغي أن تكون بين تلميذ وأستاذه . فأبو تمام رجـل

(٥) الاغاني جـ ١٨ ص ١٧٥ طبعة مطبعة التقدم بمصر ووفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٧٥ طبع المطبعة الميمنة بمصر .

(٦) نفس المصدرين .

تفكير وتأمل يقتنص الافكار اقتناصا ويغوص على المعاني غوصا مجهدا والبحتري رجل بديهة يحدثك بما خطر على باله في غير عناء ولا تكلف، وابو تمام محب لفخامة اللفظ ورصانة التعبير • والبحتري محب لرقة اللفظ وجمال التعبير • وأبو تمام مسرف كل الاسراف في استعمال الزخرفة البيانية • يفرضها على شعره فرضا سواء أكانت مؤاتيه أم مستعصية ، ملائمة أم غير ملائمة ، والبحتري معتدل كل الاعتدال في استعمال هذه الزخرفة • يأخذها ما جرت على لسانه عفوا ويتركها ما استعصت على قريحته وامتنعت على بديهته • أفترى بعد كل هذا أن البحري مدين بتثقيفه وتدريبه على ممارسة فنون الشعر لابي تمام؟ ولست أنفي ان البحتري اقتبس طائفة من معاني أبي تمام • ولكن كم هي المعاني التي اقتبسها ابو تمام من الشعراء ؟ • قد تقول : ولكن البحتري رد على سؤال وجه اليه في مجلس ابن المعتز بصدد تفضيله على أبي تمام بقوله « انه الرئيس والاستاذ » وأجيب عن ذلك : أولا بان هذه رواية كغيرها من الروايات يمكن تصديقها ويمكن تكذيبها • وثانيا ان البحتري قال ــ اذا صح هذا التعبير ــ عن أبي تمام « انه الأستاذ » أي أستاذ صناعة القريض ، ولم يقل انه أستاذه ، وليس ثمة من يفترض أن البحتري يناقش في زعامة أبي تمام الشعرية •

ونعود الى سيرة البحتري ، فنقول انه كان في أول أمره صاحب أسفار كأبي تمام ، فقد زار مصر وكثيرا من المدن السورية والعراق قبل اتصاله بالمتوكل وبعض أقاليم فارس الا أنه لم يستوطن اذ ذاك أي بلد من هذه البلدان، وانما كان يسافر طلبا للرزق ثم يعود الى منبج• ولم تكن أسفاره الاولى هذه قليلة الجدوى ، فقد بدأت ثروته تتجمع

منذ ذلك الحين وأخذ يشتري الضياع بدليل أننا نراه يلتمس من محمد ابن يوسف الثغري أن يؤدي عنه خراج ضيعته [٧] وأنت تعلم أن محمد ابن يوسف هذا من أوائل ممدوحيه • وترك البحتري منبج الى العراق ليتخذه دار اقامة له في عهد المتوكل على الله • وبدأ يمدح الفتح بن خاقان وزير المتوكل فاستحسنه هذا ووعده أن يقدمه الى الخليفة ، ولم ينجز الفتح وعده بسرعة ، فاستحثه البحتري على انجازه بأكثر من قصيدة واحدة فمن ذلك قوله :

وعدت فأوشك نجح وعدك انه من المجد اعجال المواعيد بالنجح
وأنت ترى نصح الامام فريضة واخباره عني سبيل من النصح

ولبى الوزير طلب الشاعر فقدمه الى الخليفة فأعجب هذا بشعره وأدبه واتخذه نديما له ورفع منزلته حتى صار من ذوي الكلمة النافذة في قصره • يشفع لذوي الحاجات ويتوسط في حل مشاكل الناس اذا صح ما يقوله هو في تائيته التي سأذكر لك مثلا منها عند الكلام على فخره • وما أشك في أنه صحيح على أن هذا لا يعني أن علاقته بالمتوكل كانت حسنة على الدوام • فقد أعرض عنه مرة بسبب وشاية كاذبة ، واضطر الى أن يستعطفه ويترضاه في قصيدة مطلعها (شوق اليك تفيض منه الادمع ••• الخ • وبرم به ذات مرة بسبب اعجابه بشعره وثقل انشاده ، فأمر أبا العنبس الصيمري أن يهجوه ، فهجاه هجاءً قبيحا حمله على الغضب والتفكير في العودة الى منبج من غير اذن ، لولا أن هدأه الفتح بن خاقان وسرى عنه ما علق بخاطره [٨] • ولم تكن علاقته

(٧) التمس البحتري هذا من محمد بن يوسف في ابيات اولها :
نفسي فداك ووالداي كلاهما وجميع من ولدا من الاسواء
(٨) الاغاني ج ١٨ ص ١٧٤ .

بالفتح بن خاقان أقل تعرضا للخطر ، فقد ساءت هذه الى درجة كادت معها تودي بحياته أو تضطره على الأقل الى مبارحة العراق والعودة الى منبج خائبا محروما • والبحتري نفسه يصف لنا هذه المرحلة الدقيقة التي اجتازتها علاقته بالفتح بن خاقان حيث يقول من قصيدة يعاتب بها الوزير المذكور ويستعطفه :

رأيت العراق ناكرتني، وأقسمت عليَّ صروف الدهر أن اتشأما
وكان رجائي أن أؤوب مملكا فصار رجائي أن أؤوب مسلَّما

ولكنه استطاع بفضل ذكائه ودهائه أن يتغلب على جميع هذه الصعاب وأن يحتفظ بعطف المتوكل والفتح بن خاقان وأن يظل شاعر دولتهما الى آخر أيام حياتهما •

وقد لا يبعد أن يكون البحتري هو الذي حمل المتوكل على الانتقال بدواوينه الى دمشق [٩] لأننا نراه يحبب اليه العاصمة الأموية فيقول : ـ

ان دمشقاً أصبحت جنةً مخضرة الروض عذاة البراق [١٠]
هواؤها الفضفاض غض الندى وماؤها السلسال عذب المذاق
والدهر طلق بين أكنافها والعيش فيها ذو حواش رقاق
ناظرة نحوك مشتاقة منك الى القرب ووشك [١١] التلاق
وكيف لا تؤثرها بالهوى وصيفها مثل شتاء العراق

ويهنئه بالسفر اليها فيقول :

قد رحلنا عن العرا ق وعن قيظها النكد

---

(٩) انتقل المتوكل الى دمشق سنة (٢٤٤ هـ) ونقل اليها دواوين ملكه وأمر بالبناء بها ، الا انه تركها بعد شهرين وايام لاسباب طبيعية واقتصادية فى الظاهر .

(١٠) عذاة : طيبة الهواء والبراق : موضع بالشام .

(١١) الوشك : السرعة .

حبـــذا العيش في دمشـــق اذا ليلهـــــا بـــرد
حيث يستقبـــل الزمـــان ويستحسن البـــــــلد
ســـفر جـــددت لنـــا اللهـــو أيامـــه الجـــدد
عـــزم الله المخليفـــــة فيـــه على الرشـــــد

منهـــــا :ـ

يا امـــام الهدى الذي احتاط للدين واجتهـــد
سر بسعد السعود في صحبةالواحد الصمد

ويطري محاسنها عنده في أثناء اقامته بها اطـــراء من وفى له بوعد فيقول :

أما دمشق فقـــد أبـــدت محـــاسنها
وقـــد وفى لك مطريهـــا بما وعـــدا (١٢)

ولو لم تحل العوائق دون اقامة المتوكل بدمشق لباتت هذه المدينة عاصمة الخلافة الاسلامية مرة أخرى ، ولغلبت الصبغة العربية في أقرب الاحتمالات على سياسة خلفاء بني العباس ، ولكانت للبحتري بذلك علاقـــة ما .

وبقي المترجم في حاشية المتوكل يعاشره ويسامره ويعاقره أيضا الى أن قتل وكان شاهد مصرعه فوصفه في رائيته القادم ذكرها وصفا منقطع النظير . وركن البحتري الى الانزواء في أيام المنتصر بسبب حظوته عند أبيه وهجائه اياه في مرثيته لوالده هجاءا مرا ، ولكنه عاد

---

(١٢) سأروي بقية وصف دمشق هـــذا عند الكلام على وصف البحتري .

فمدحه واسترضاه ، وكان الفضل في التوفيق بين الخليفة والشاعر لأحمد بن الخصيب وزير المنتصر • ومدح صاحبنا المستعين ولكنه لم يكن ذا مكانة عنده • الا ان نجمه سطع ثانية في خلافة المعتز الذي انزله منه منزلته من أبيه ولك أن ترجع الى قافيته التي مطلعها :

بودي لو يهوى العذول ويعشق فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق

لتتبين مقدار العطاء الذي كان يغمره به المعتز • ومدح البحتري المهتدي والمعتمد على الله ، الا أنهما لم يقرباه •

ويعتقد الاستاذان أنيس المقدسي وبطرس البستاني أن البحتري هجر العراق الى منبج بعد مقتل المتوكل ، ولكني لم أعثر على ما يؤيد هذا والذي أستنتجه من شعره هو أنه كان يختلف الى منبج من حين لآخر ليجدد العهد بأسرته ويتعهد املاكه ، وانه لم يكن يطيل الاقامة في هذه المدينة بسبب ما يلقى فيها من عنت الخصوم والحساد • وقد وصف لنا سوء مقامه في سوريا عامة ومنبج خاصة غير مرة ، فمن ذلك قوله في قصيدة يمدح بها جعفر بن عبد الغفار :

بأبي أنت لا تسلني بحالٍ في دخيل الأحشاء منها وجيب
أنا بالشام موطن غير أني بعد عهد العراق فيها غريب
نبوات من الصديق يروّعن جناني كما يروع المشيب
واجتهاد من العدو ودهري طالب في السلاح أو مطلوب
لا أزور المنام إلا رقيب لي على الخيل أو عليّ رقيب

وقد أشرت أكثر من مرة الى ثروة الرجل فأحب أن ألاحظ الآن أنها كانت مصدر شقاء له لا ينتهي • فهو يشكو مرة استيلاء بعض الناس على غلته ، وتارة انتزاع بعض أراضيه وطورا سوء معاملة

الموظفين اياه وهلم جرا . وقد رد جزءا غير قليل من ثروته الى خزانة الدولة وذلك بالزامه أداء مبلغ كبير من المال يؤديه أقساطا وبذلك تخبرنا هذه الابيات :

أمرتجع مني حباء خلائف توليت تسيير المديح لهم وحدي
ولم يحتمل الا الذي قلت فيهم
وان رفدوا قوما وزادوا على الرفد
فان أخذ الايغار أخذ صريمة
ودارت على الأقطار دائرة الرد (١٣)
ولم يغن توكيد السجلات والذي
تناصر فيها من ضمان ومن عقد
فردوا القوافي السائرات بمدحكم
وما أكسبتكم من ثناء ومن مجد
وشرخ شباب قد نضوت جديده
لديكم كما ينضو الفتى سمل البرد
وما أنا والتقسيط اذ تكتبونني
وتكتب قبلي جلة القوم أو بعدي
سبيلي أن أعطي الذي تطلبونه
وشرطي أن يجدى علي ولا أجدي
صحبت أناسا أطلب المال عندهم
فكيف يكون المال مطلبا عندي

---

(١٣) الايغار : منح السلطان الارض من غير خراج ، او على ان يؤدى الخراج له راسا لا الى العمال . ولم اجد لقوله « اخذ صريمة » مدلولا واضحا الا انه قد يعني اخذاً لا هوادة فيه .

وسأل الخليفة المعتمد صاحبنا عن ماله فأجاب بانه لم يبق منه شيء سوى اوقاف ضئيلة لا يعتد بها [١٤] .

وتوفي المترجم بداء السكتة بمنبج وقيل بحلب سنة (٢٨٣) هـ على رواية ابن الأثير التي تخالفها روايات عدة قد لا يصح التعويل عليها . ولم يخطيء القاسم بن عبد الله الـذي قال عندما أخبر ان البحتري توفي بداء السكتة « ويحه رمي في احسنه » [١٥] .

ب ـ اخلاقـه :

كان البحتري سامحه الله بخيلا مغرما بجمع المال معجبا بشعره الى أبعد حدود الاعجاب الا أنه كان عالي الهمة شجاعا وفيا محبا للخير . وما أريد أن استمد رأيي في بخله وحرصه الشديد على المال من قول صاحب الأغاني : « انه كان من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة وابخلهم على كل شيء » وانه كان يقتل أخاه وغلامه جوعا ، ولا يعطيهما ثمن أقواتهما الا بمشقة .. لأني أعتقد أن البحتري قد تحضر وألف النظافة وحسن الهندام منذ اتصاله بالمتوكل على الاقل ، ولاننا لا نعرف اسمي ذينك الشقيين اللذين قيل ان البحتري كان يقتلهما جوعا ولا ندري أين كتب لهما هذا الشقاء على يده ومتى !؟ . ولكني أستمد رأيي في بخله وحرصه الشديد على المال من قوله :

وموضح لي سبيل الرشـد قلت لـه
الرشـد صاب وبعض الغي من شـهد

---

(١٤) انظر قافية البحتري التي مطلعها :
اريتك الآن المـع البروق ام شعلا مرفضة من حريـق

(١٥) الاغاني ج ١٨ ص ١٧٢ طبع مطبعة التقدم بمصر .

أهوى الثراء ، وكـم من ثروة كسبت
لي العـداوة من رهطي ومن ولدي !
حتى لأنكرت من قد كنت أعرفه من الأخلاء واستوحشت من بلدي

فواضح أن الرجل من شدة البخل بحيث لا يصغي الى لوم لائم في سبيل حشد المال وتكديسه وأن البخل قد فرق بينه وبين أهله وولده، وأنه قد أفقده عطف أصدقائه وأكسبه عداوة مواطنيه • وهناك شيء آخر له دلالته أيضاً على تمكن هذا الخلق الذميم منه ، وهو تنزله الى مدح الناس • وطلب جوائزهم بعدما غمره المتوكل والفتح بن خاقان بالعطاء حتى صار من أولى الثروات الطائلة والأملاك الواسعة ، وبعد أن وهبه المعتز وحده ما يغنيه عن السؤال مدة حياته • ولكنه الشح ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون •• »

وما أستمد رأيي كذلك في إعجابه الشديد بشعره من قول صاحب الاغاني : « إنه كان من أبغض الناس انشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيته ، مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول ــ أحسنت والله ــ ثم يقبل على المستمعين فيقول ــ مالكم لا تقولون أحسنت ؟ • هذا والله ما لا يحسن أحد ان يقول مثله • » ولكني أستمد رأيي من قوله :

فاذا ما بنيت بيتـاً تبختـ رت كأني بنيت ذات العماد

ففي هذا البيت ما يغني عن أقوال الرواة التي تحتمل الجدل ويمكن قبولها ورفضها معاً ولكن ينبغي أن لا ننسى أن الرجل كان عالي الهمة ماضي العزيمة شجاعاً مقداما • وحسبك دليلاً على ذلك أنه استطاع أن يرتفع بنفسه من مدح باعة البصل والباذنجان في منبج الى

منادمة الخلفاء ومعاشرة الوزراء . وفي لقائه الذئب وقتله إياه على النحو الذي وصفه في داليته الآتي أكثرها دليل كافٍ على شجاعته . على أنه قد نزل الى ميادين القتال ووقف فيها مواقف أولي البسالة والنجدة ، وهو يستشهد على ذلك يوسف بن محمد بن يوسف الثغري حيث يقول له :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي بعقرقس والمشرفية شهّدي [١٦]
ورأيتني فرأيت أعجب منظر ربّ القصائد في القنا المتقصد

وكما أستدل بالبحتري على البحتري في القول بأنه بخيل وفي القول بأنه كثير الأعجاب بشعره استدل به على نفسه كذلك في القول بأنه وفيّ لأنه يقول :

إني وإن كنت ذا وفاء لا يتخطى اليّ غدر

ولأنه يقول :

أدين بأن لا تستحل أمانة لحرٍ وأن لا يستباح ذمام

ولأنه يقول :

إني وإن كنت مرهوباً لعاديةٍ أرمي عدوي بها في الفرط والحين
لذو وفاءٍ لأهل الودّ مدّخر عندي وغيب على الأخوان مأمون

أضف إلى ذلك أنه أقدم على رثاء المتوكل وهجاء المنتصر معرّضاً نفسه بذلك لخطر الموت . وأقام على حب صاحبته علوة يحن اليها ويشبب بها عشرات الأعوام ، مع أنه كان قادراً على الاستعاضة عنها

(١٦) عقر قس : واد فى بلاد الروم .

بمن يلقى من الحسان في قصور سرَ من رأى وبغداد ، كائناً غرضه من حبها ما كان .

ستقول ولكنه تنكرَ لرجال كثيرين فهجاهم في أيام محنتهم بعدما مدحهم في أيام عزهم ودولتهم . وفي ظني أن ذلك ناشيء عن كون صلته بهم صلة مادية بحتة ، فقد مدحهم لا ليعرب عن إعجابه بفضائلهم ومناقبهم ولا ليكافئهم على ودٍ كانوا يمحضونه إياه . وإنما مدحهم ليأخذ جوائزهم . وليس ثمة من ينكر تكسب البحتري بالشعر .

أما حبه الشديد للخير ، فانه يتجلى في كرهه إراقة الدماء ودعوته للسلم ما وجد الى ذلك سبيلا ولك أن ترجع الى لاميته التي مطلعها :

ضمان على عينيك أنيَ لا أسلو وأن فؤادي من جوى بك لايخلو

والتي يأسف فيها أشد الأسف لأنشقاق ربيعة على نفسها وإراقة دماء ابنائها بأيديهم ، والى عينيته التي مطلعها :

مني النفس في أسماءلو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعهـــا

والتي يعالج فيها نفس الموضوع ويعرب عن نفس الشعور ، والى أمثال هذه الصفحات في ديوانه لتلمس عواطفه الانسانية السامية وتتبين مبلغ حرصه على سلم الناس وسلامتهم . ويتجلى حبه الشديد للخير أيضاً في موقفه الودي ممن عاصره من الشعراء . فمؤرخو الأدب القديم مجمعون على أنه كان حسن السلوك حيالهم يثني عليهم جميعاً ويقرضهم ويذكر محاسن أشعارهم . وفي ذلك ما فيه من إيثار التفاهم والتقارب ونبذ الخصومات والعداوات .

حـ ـ رأيه في الدين والسياسة :

يعتقد الاستاذ مرجليوث أن المترجم أموي الرأي لقوله في نكبة محمد بن يوسف الثغري :

ياضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الأسلام
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يجزى على الأيام بالأيام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لو رعت بنيام

ويرى الأستاذ انيس المقدسي أنه عباسي صميم . ويذهب الاستاذ بطرس البستاني الى أنه كان ميالاً الى العلويين إلا أنه لم يجاهر بميله هذا إلا في رائيته التي مدح بها المنتصر والتي مطلعها :

تبسّم عن واضح ذي أشر وتنظر عن فاتر ذي حور

وأزعم أنه كان علوياً متطرفاً في أول أمره كما كان أبو تمام في فجر حياته . ولمن أراد الاطلاع على حقيقة رأيه في الدين والسياسة أن يرجع إلى قافيته التي مطلعها :

أأفاق صبٌ من هوى فأفيقا [17] ... الخ

وأن يقرأ فيها هذه الأبيات التي تبدأ بقوله :

كنا نكفر من أمية عصبة طلبوا الخلافة فجرةً وفسوقا

والتي أضرب صفحاً عن ذكرها كلها لأن في بعضها كلمات شائكة. إلا أن علويته هذه ذابت في بودقة عبادة المال كما ذابت قبلها علويّة أبي تمام في نفس البودقة . بيد أنه من الحق أن نلاحظ أنه لم يفعل

(١٧) قد لا يخلو من غرابة ان يجهر البحتري بتشيعه في هذه القصيدة التي يمدح بها محمد بن يوسف الثغري الذي يصانعه ابو تمام بنقد التشيع نقدا حفيفاً .

فعل أبي تمام في تعريضه برأيه الذي كان يجاهر به تزلفاً لأحد ممدوحيه. وهذا على الرغم من علاقته الوثيقة بالمتوكل المعروف ببغضه لعلي وأبنائه أضف الى ذلك أنه هجا عليّ بن الجهم لتطاوله على عليٍّ بن أبي طالب (رض) هجاءً فظيعا ، وأثنى على سياسة المنتصر الرامية الى تقريب العلويين والرفق بهم بعدما أصابهم من التنكيل في عهد أبيه ثناء عطراً.

د ـ شعره :

للبحتري ديوان ضخم يحتوي على كل باب من أبواب الشعر والمديح أكبر أبوابه لانه مصدر رزق الشاعر ، وقد جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف . ثم جمعه علي بن حمزة الاصفهاني ورتبه على الانواع . وطبع هذا الديوان في الاستانة وبيروت والقاهرة طبعات عديدة اهمها واحسنها واكثرها استيعابا لشعر المترجم طبعة الاستاذ حسن كامل الصيرفي الذي بذل في سبيل اخراج هذا الديوان على أحسن وجه جهداً يستحق الثناء والتقدير .

غزله : قلت لك عند الاشارة الى غزل أبي تمام « انه لا يمثل شعورا حقيقيا ولا عاطفة صادقة وانه ان مثل شيئا فانما هو العبث والمجون » وأقول لك الآن ان جزءا غير يسير من غزل البحتري تقليدي مصطنع لا يمتاز بشيء سوى رقة الديباجة . ولكن الى جانب هذا الغزل التقليدي المتكلف غزل أصيل حي هو هذا الذي يشبب فيه البحتري بصاحبته علوة التي تقدمت لها الاشارة . وأسرع فأقول لك ان المترجم لم يكن يحب هذه الفتاة حبا طاهرا عفيفا ، وقد شهر خفتها كما شهر جمالها في شعره ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون حبه لها صادقا

وغرامه بها حقيقيا . على أنه قد لا يخلو من غرابة أن يكون البحتري قد أحب هذه الحسناء كل هذه الأعوام التي لم يفتر في أثنائها عن التغزل بها ، فقد صدر بذكرها عددا غير قليل من مدائحه للخليفة المعتز ، ومعنى هذا أنه ظلّ يشبب بها خلال عشرين سنة أو أكثر مرت على مفارقته اياها ، وهذا كثير على حب مصدره الشهوة وغايته اللذة. ولكنك اذا رجعت الى غزله فيها وجدته في الغالب مفعما صدقا وأصالة وجمالا وحيوية . اسمع قوله فيها :

يا ليلتي بالقصر من بطياس (١٨) ومعرسي بالقصر بل أعراسي
باتت تبرّد من جواي وغلتي انفاس ظبي طيب الأنفاس
يدنو الي براحه وبريقه فيعلني بالريق بعد الكاس
هيف الجوانح منهاض جوانحي ونعاس مقلته أطار نعاسي (١٩)

وقوله في صدر قصيدة يمدح بها المعتز :

نظرت وضمّت جانبيّ التفاتة وما التفت المشتاق الا لينظرا
الى أرجواني من البرق كلما تنمر علوي السحاب تعصفرا
يضيء غماما فوق بطياس واضحا يبصّ وروضا دون بطياس أخضرا
وقد كان محبوبا اليّ لو انه أضاء غزالا عند بطياس أحورا

وقوله :

أخيال علوة كيف زرت وعندنا أرق يشرّد بالخيال الزائر

(١٨) بطياس : احد متنزهات عديدة بالقرب من حلب منها «باتقوسا» (وباتليّ) كان يلتقي فيها الشاعر بحبيبته . ومنه ـ اي بطياس ـ نستدل على ان المقصود في هذه القطعة والابيات التي تليها « علوة » لا غيرها .

(١٩) الهيف : هنا رقة الخاصرة .

طيف ألم بنا ونحن بمهمه مرت يشق على الملثم الخاطر [٢٠]
أفضى الى شعث تطير كراهم روحات قود كالقسيّ ضوامر [٢١]
حتى اذا نزعوا الدجى وتسربلوا من فضل هلهلة الصباح الغائر
ورموا الى شعب الرحال بأعين يكسرن من نظر النعاس الفاتر
أهوى فأسعف بالتحية خلسة والشمس تلمع في جناح الطائر
سرنا وأنت مقيمة ولربما كان المقيم علاقة للسائر
اما انجذبن بنا فكم من عبرة تثني اليك ولفتة من ناظر

فما أظنك تشك في أن هذا النسيب صادق كل الصدق أصيل كل الاصالة ، وما أظنك تشك في أنه يرمز الى ذكريات حية ويعبر عن أحاسيس صادقة على الرغم من أن بعضه قيل بعد مرور عشرات الاعوام على مفارقة الشاعر حبيبته ، ومن يدري لعلّ علوة هذه من الجمال واللطف بحيث لا يستطيع المحب أن ينساها مهما قدم بها العهد وطال على حبها الأمد . وهناك نسيب غزل يخيل الي أنه مقول في علوة لما أحس فيه من صدق الشعور وحرارة العاطفة ، أروي لك منه هذه الابيات :

شوق اليك تفيض منه الأدمع وجوى عليك تضيق عنه الاضلع
وهوى تجدده الليالي كلما قدمت وترجعه السنون فيرجع
اني وما قصد الحجيج ودونهم [٢٢]خرق تخبّ به الركاب وتوضع
أصفيك أقصى الود غير مقلل ان كان أقصى الود عندك ينفع

(٢٠) المرت : المفازة بلا نبات او الأرض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها .
(٢١) القود : ما سلس قياده من الخيل والابل .
(٢٢) الخرق : الارض الواسعة .

وأراك أحسن من أراه وان بدا منك الصدود وبان وصلك أجمع
يعتادني طربي اليك فيغتلى وجدي ويدعوني هواك فاتبع
كلفا بحبك مولعا ، ويسرني أني أمرؤ كلف بحبك مولع

* * *

مديحه : وكما يجمع البحتري في غزله بين العواطف المنتحلة وبين المشاعر والانفعالات الغرامية الحقيقية كذلك هو يجمع في مديحه بين المعاني المألوفة المبتذلة وبين الصور الاصيلة الرائعة التي تمثل حياة القرن الثالث للهجرة تمثيلا صادقا . ولست أعنى طبعا بهذه المعاني المبتذلة التي أدخلها البحتري في اطراء ممدوحيه رغبة في ارضائهم وطلبا لعطاياهم ، وان كان كثير منها قد أفرغ في قوالب جميلة جذابة ، ولكني أسجل أن مدائحه الكثيرة تحمل في ثناياها وصفا فائقا جدا لالوان مختلفة من الحضارة العباسية وتصويرا بالغا منتهى الاجادة لكثير من الوقائع السياسية والحربية المهمة . وانه لمن الحق أن نلاحظ أن البحتري يصف الأشياء والحوادث التي يصفها بمنتهى الامانة والمهارة فلا يزيد فيها ولا ينقص منها ، وانما يرسمها لنا في ألواح شعره كما هي . ووصف البحتري قصور العباسيين ومواكبهم ومواسم افراحهم كثير ، سأروي لك طرفا منه عند الكلام على وصفه . أما سرد الحوادث الحربية والسياسية والتعقيب عليها بصورة مؤثرة فانه كثير في شعره كثرة عجيبة ، ولك ان تتصفح ديوانه لترى أنه سجل حافل بما حدث للخلافة العباسية في أثناء القرن الثالث للهجرة من حروب ومشاكل سياسية في الداخل والخارج . فبينا هو يحدثك عن فتنة بابك الخرّمي

التي اشتعلت نارها في أوائل هذا القرن اذا هو يحدثك عن تمرد آل الصفار وقيام ثورة صاحب الزنج في أواسطه • وبينا هو يحدثك عن فتنة مدينة أو ثورة قبيلة اذا هو يحدثك عن خلع خليفة وابعاده الى زاوية من زوايا ملكه بالامس • وبينا هو يحدثك عن هذه الشؤون الداخلية المضطربة المعقدة أشد التعقيد اذا هو يحدثك عن المعارك الطاحنة التي تدور رحاها في آسيا الصغرى بين المسلمين والروم • وغني عن البيان أن هذا الفصل لا يتسع لضرب الأمثال الكثيرة من هذا المديح التاريخي النفيس ، فأكتفي بضرب مثلين لك ، أحدهما في وصف بلاء محمد بن يوسف الثغري في سبيل قمع فتنة بابك الخرمي ، وثانيهما في وصف غزوة من غزوات محمد بن يوسف هذا نفسه في بلاد الروم • فأما الأول فهو قول البحتري :

ما زلت تقرع باب بابك بالقنا ... وتزوره في غارة شعواء
حتى أخذت بنصل سيفك عنوة ... منه الذي أعيا على الخلفاء
أخليت منه البذ(٢٣) وهي قراره ... ونصبته علما بسامراء
لم يبق فيه خوف بأسك مطمعا ... للطير في عود ولا ابداء
فتراه مطردا على أعواده ... مثل اطراد كواكب الجوزاء
مستشرفا للشمس منتصبا لها ... في أخريات الجذع كالحرباء

وأما الثاني فهو قوله :

أحسن الله في ثوابك عن ثغر مضاع أحسنت فيه البلاءا
كان مستضعفا فعز ومحروما ... فأجدي ومظلما فأضاءا

(٢٣) البذ : قرية باذربيجان . اتخذها بابك مقرا له .

لتوليتـه فكنت لاهليه غنىً مقنعـا وعنهـم غنـــاءا
لم تنم عن دعائهم حين نادوا والقنا قد أسال فيهم قناءا (٢٤)
اذ تغدى العلوج منهم غدوا فتعشـتهم يـداك عشـاءا
لم تسغهم برود جيحان حتى قلسوا في الدماء ذاك الماءا (٢٥)
وكـأن النفير حـط عليهم منك نجما أو صخرة صمـاءا
لم يكن جمعهم على الموج الا زبدا طار عن قنـاك جفـاءا
حين أبـدت اليـك خرشـنة العليا من الثـلج هامة شمطاءا
بتها والقرآن يصدع فيهـا الهضب حتى كادت تكـون حراءا
وأقمت الصلاة في معشر لا يعرفـون الصـلاة الا مكاءا (٢٦)
في نواحي برجان اذ أنكـروا التكبير حتى توهموه غنـاءا
حيث لم تورد السيوف على خمس ولم تصدر الرماح ظماءا (٢٧)
يتعثرن في النحـور وفي الأوجه سـكرا لمـا شـربن الدماءا
وأزرت الخيـرل قبر امريء القيس سراعا فعـدن منه بطـاءا
وجلبت الحسان حوًا وحوراً آنسات حتى أغرت النساء (٢٨)
لم تدعك المهـا التي شغلت جيشك بالسوق أن تسوق الشاءا
علم الروم أن غزوك ما كـان عقاباً لهـم ولكن فنـاءا
بسباء سقاهم البـين صرفاً وبقتل نسوا لـديه السباءا

(٢٤) قناء : كسحاب : اسم ماء شبهت به الدماء لغزارتها .
(٢٥) قلسوا لفظوا .
(٢٦) مكا مكاء : صفر بفيه ، او شبك باصابعه ونفخ فيها .
(٢٧) الخمس : هو اظماء الأبل ثلاثة ايام يتقدمها يوم شرب ويليها مثله .
(٢٨) حو : ذوات شفاه حمر الى سواد ، الواحدة حواء . وحور : ذوات اعين شديدة السواد والبياض واحدتها حوراء .

يوم فرقت من كتائب آرائك جنداً لا يأخـــذون عطـــاءا
بـين ضـرب يفلّق الهام أنصافاً وطعن يفـرّج الغمـــاءا
وبودّ العـــدو لو تضعف الجيش عليهم وتصـــرف الآراءا

على أن أهمية مديح البحتري لا تقف عند حد الفائدة التاريخية التي تتجلّى مرة في وصف القصور والافراح والحفلات وتارة في سرد الحوادث السياسية والحربية والتعقيب عليها تعقيباً مؤثراً ، ولكنهـا تتعدي ذلك الى وصف مواهب عظماء الرجال ومزاياهم وصفاً رائعا أصيلاً . ولكي تتبين وجاهة هذا الزعم ، إسمع قوله في وصف رسائل محمد بن عبد الملك الزيات :

لتفننت في الكتابـــة حتى عطّل الناس فن عبد الحميـد
في نظـام من البلاغـــة ما شـك امرؤ أنـه نظـام فريد
وبديـع كـأنه الزهر الضاحـك في رونق الربيـــع الجديد
مشرق في جوانب السمـع ما يخلقـــه عوده على المستعيـد
ما أعيرت منه بطون القراطيس وما حمّلت ظهور البريـــــد
مستميل سمع الطروب المعنّى عن أغاني مخارق وعقيد (٢٩)
حجج تخرس الألـدّ بألفا ظ فرادى كالجوهر المعـدود
ومعـان لو فصلتهـا القوافي هـجنت شعر جرول ولبيـــد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنّبن ظلمـــة التعقيـد
وركبن اللـفظ القريب فأدركن بـه غـاية المـراد البعيـد
كالعذارى غدون في الحلل البيض إذا رحن في الخطوط السود

* * *

(٢٩) مخارق وعقيد : مغنيان كان اولهما للرشيد وثانيهما للمأمون .

وقوله في وصف مبارزة الفتح بن خاقان للأسد وقتله إياه :

وقد جربوا بالأمس منك عزيمة ... فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر [٣٠] ... يحدد نابا للقاء ومخلبا
يحصّنه من نهر نيزك معقل ... منيع تسامى روضه وتأشبا [٣١]
يرود مغاراً بالظواهر مكثباً ... ويحتل روضا بالأباطح معشبا
يلاعب فيه أقحواناً مفضضاً ... يبص وحوذانا على الماء مذهبا
إذا شاء غادى عانة [٣٢] أوعدا على ... عقائل سرب أو تقنص ربربا
يجر الى أشباله كل شارق ... عبيطاً [٣٣] مدمّى أو رميلاً مخضبا
ومن يبغ ظلماً في حريمك ينصرف ... إلى تلف أو يثن خزيان أخيبا
شهدت لقد انصفته يوم تنبري ... له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً إذا الهيّابة النكس كذّبا
هزبر مشى يبغي هزبراً وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه [٣٤] أغلبا
أدلّ بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جناناً وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا ... وأقدم لما لم يجد منك مهربا
فلم يغنه أن كرّ نحوك مقبلاً ... ولم ينجه أن حاد عنك منكّبا
حملت عليه السيف لا عزمك اثنى ... ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
وكنت متى تجمع يمينك تهتك الضريبة أولا تبق للسيف مضربا [٣٥]

---

(٣٠) مخدر : رابض فى اجمته .
(٣١) تأشب : التف .
(٣٢) العانة : القطيع من حمر الوحش .
(٣٣) العبيط : اللحم الطري .
(٣٤) هكذا فى الديوان وربما كان الصحيح « باسم الوجه » .
(٣٥) وصف المتنبي قتل بدر بن عمار أحد حكام جنوب سوريا . اسداً بسوطه ، وحمله آخر على الفرار فى قصيدة مطلعها : =

أليس في كل من هاتين القطعتين من الاحاطة بالموضوع والافاضة في التحليل والبراعة في التصوير ما يجعلها خليقة بالبقاء على توالي الأجيال ؟ !

* * *

رثاؤه : وما يقال في مديح البحتري من حيث أنه مشتمل على معانٍ مكررة مألوفة وصور أصيلة رائعة يقال في رثائه . فهو في طائفة من مراثيه . منها رائيته في رثاء بعض بني طاهر . وكافيته في رثاء سلمان بن وهب . وبائيته في رثاء غلامه قيصر . شاعر مجيد إلا أنه غير أصيل . وفي طائفة أخرى من مراثيه في مقدمتها ميميته في رثاء آل حميد . ورائيته في رثاء المتوكل على الله . شاعر مبدع فذ ، يفيض رثاؤه جدةً وأصالة ويتدفق صدقاً وإخلاصاً . وما هي إلا أن تقرأه حتى تشعر كأن الفاجعة التي يصورها قائمة ماثلة تهلع منها القلوب . وتدمع العيون . وتهمس بها الشفاه وتحار لها الألباب ، إقرأ قوله واصفا جلاء سكان الجعفري عنه بعد قتل صاحبه المتوكل على الله :

تغيّر حسن الجعفري وانسه ... وقوّض بادي الجعفري وحاضره (٣٦)

تحمّل عنه ساكنوه فجاءةً ... فآضت سواء دوره ومقابره (٣٧)

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ... واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره (٣٨)

في الخد ان عزم الخليط رحيلا ... مطر تزيد به الخدود محولا

ويخيل اليّ ان البحتري ادق وصفاً واصدق تصويراً واحسن اسلوباً .

(٣٦) الجعفري : قصر عظيم بناه المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ على مقربة من سامراء .

(٣٧) آض : صار .

(٣٨) المراد بوحش القصر : نساؤه تشبيهاً لهن ببقر الوحش لجمال

وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غض مكاسره (٣٩)

وقوله واصفاً مصرع المتوكل على الله :

تخفّى له مغتاله تحت غرّة وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
فما قاتلت عنه المنايا جنوده ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر المعتز من كان يرتجى له وعزيز القوم من عزّ ناصره
تعرّض نصل السيف من دون فتحه وغيب عنه في خراسان طاهره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة يجود بها والموت حمر أظافره
أدافع عنه باليدين ولم يكن ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره

وقوله راثيا آل حميد الذين وصفت جهادهم لك عند الكلام على رثاء أبي تمام :

مضوا يستلذون المنايا حفيظةً وحفظاً لذاك السؤدد المتقدم
فما طعنوا إلا برمح موصّل ولا ضربوا إلا بسيف مثلم
ولما رأوا بعض الحياة مذلة عليهم وعز الموت غير محرّم
أبوا أن يذوقوا العيش والذم واقع عليهم فماتوا ميتةً لم تذمّم

على أنك اذا تأملت رائية شاعرنا في رثاء المتوكل على الله رأيت أنه يتصرف فيها تصرف الشاعر المثقف الذي يعرف كيف يعبر عن مشاعره وانفعالاته وكيف يصف عظائم الأمور وجلائل الاحداث وصفا صادقا

أعينهن ، وباطلائه : أطفاله ، والطلا ، ولد الظبية ساعة يولد ، وبجآذره فتيانه ، والجؤذر ولد البقرة الوحشية تشبه به المراة لحسن عينيه .
(٣٩) مكاسر : جمع مكسر وهو المخبر .

مستفيضا ، وكيف يبتديء بسرد ما لديه وكيف يتدرج في ذلك حتى يبلغ قمة بيانه ، وكيف ينتهي : ذلك أنه يقف في صدر هذه القصيدة على أطلال الجعفري الذي كان يلهو ويسرح في ظله بالأمس هاديء البال هانيء العيش في كنف سيده الخليفة الراحل ، فيستوحي الذكريات ويستلهم الآثار التي لم يجمد فيها بعد دم الفقيد ، مقارنا بين ماضي القصر وحاضره وأمسه ويومه متفجعا لما حل به تفجعا مرا ينتهي منه الى تصوير جلاء سكانه عنه ذلك التصوير الدقيق الذي رويته لك مشيرا أثناء ذلك الى عظمة الخليفة الراحل وجلال ملكه وجمال أيامه اشارة بارعة يشفعها بوصف مصرعه ، ذلك الوصف الفائق الذي تقدم ايراده ، متبعا ذلك تنديده بالخليفة الجديد الذي يوجه اليه أحد سهام نقده ويصب عليه جام غضبه واصفا اياه بالغدر والخيانة واضعا في عنقه تبعة قتل أبيه متمنيا زوال ملكه وانتهاء حكمه في وقت قصير راجيا أن تعود الخلافة الى من هو أحق بها منه ، الى من يأخذ بثأر الخليفة الراحل من قتلته الأثمة الخونة ، ويسوس الامور سياسة كلها حزم وعزم ، وليس ثمة شك في أنه يعني المعتز الذي ورد ذكره فيما رويت لك من القصيدة . وهكذا ينشيء من مرثيته هذه وحدة بيانية مطردة الاجزاء متماسكة الأطراف منسجمة كل الانسجام . وليست هذه القصيدة هي الاولى من نوعها في شعر البحتري . فقد سبق له أن فعل مثل ذلك في ميميته التي رثى بها آل حميد ، ذلك انه استهل هذه القصيدة أيضا بوقفة على قصر الأسرة النبيلة البائدة ، ناجى فيها اطلاله العافية بلغة الدموع والحسرات نادبا مصارع أبنائه التي تتابعت في أمد قصير ، باكيا لفقدانه اياهم بكاءً صادقاً مرا ، منوها بشرف المقاصد

التي أوردتهم مناهل الردى ، ثم استطرد الى وصف قبورهم فقال : انها متفرقة في أطراف الثغور واقعة منها مواقع الشهب من آفاق السماء. فهذا قبر في البذ وهذان قبران في النباج ، وهذا ضريح في الموصل وهذا آخر في القاطول . وخلص من ذلك الى تصوير المناحات التي أقيمت على أولئك الأبطال في طول المملكة الأسلامية وعرضها ، وبعد أن وصفها وصفا قصيراً وجه نظره الى أبي الاسرة فعزاه ــ استغفرالله ــ بل هنّأه بأبنائه لأنهم أعطوا السيف حقه وخلدوا مواقفهم الباسلة في صحف التاريخ ، وماتوا وكلهم قادة جيوش وأبطال حروب . وختم قصيدته بارسال تحية عاطرة الى أرواح اولئك الشهداء الذين ابوا أن يعيشوا أذلاء فماتوا أحرارا أعزاء . وبهذه المهارة الفائقة يكون البحتري من قصيدته هذه وحدة بيانية أخرى قلما تجد لها نظيرا في دواوين الشعراء. وقد رويت لك أبياتا قليلة من هذه القصيدة التي لم ينتبه لها النقاد القدماء والمحدثون مع أنها من أبلغ الرثاء وأحسنه ، فأروي لك الآن مثلا أخرى منها لتتبين مبلغ اجادة الشاعر واحسانه فيها . إسمع قوله منها : ــ

أقصر حميد لاعزاء لمغرم ... ولاقصر[٤٠] عن دمع وان كان من دم
أفي كل عام لا تزال مروعا ... بفذ نعي تارة أو بتوأم
مضى أهلك الأخيار الا أقلهم ... وبادوا كما بادت أوائل جرهم
فصرت كعشٍ خلفته فراخه ... بعلياء فرع الأثلة المتهشم
أحب بنوك المكرمات ففرقت ... جماعتهم في كل دهياء صيلم
تدانت مناياهم لهم[٤١] وتباعدت ... مضاجعهم عن تربك المتنسم

(٤٠) القصر هنا خلاف المد .
(٤١) في الديوان « بهم » والصواب ما اثبتناه .

فكل لـه قبر غـريب ببـلدة فمن منجد نائي الضريح ومتهـم
قبـور بأطراف الثغـور كأنما ،واقعها منها مواقـع أنجـم

وقولـــه :

ترى البيض لم تعرفهـم حين واجهت
وجـوههم في المـــأزق المتجهـم ؟
ولم تتـذكر رَيهـا بأكفهـم اذا أوردوهـا تحت أغبر اقتم ؟
بلى،غير ان السيف اغدر صاحب واكفر من نالته نعمة منعـــم !!

وقولـــه :

ولا عجب للأسد ان ظفـرت بها كلاب الاعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى ومرت عليٍّ عن حسام بن ملجم (٤٢)

الواقع أن هذه القصيدة وحدها تكفي لحملنا على وضع البحتري في طليعة شـعراء الرثاء ، فكيف اذا أضيفت اليها الرائية التي يقول فيها المبرد (ما قيلت هاشميه مثلها) . على أن رثاء المترجم وصيفا . أحد كبار قادة الأتراك ومحمد بن يوسف الثغري من النفاسة والجودة بمكان.

اذا لم يخطيء ظني فان مؤرخي الادب الذين لم يحفظوا للبحتري مقامه بين كبار شعراء الرثاء لم ينصفوه انصافا تاما .

فخره : أما الفخر فان البحتري يحذو فيه غالبا حذو أبي تمـام ذلك أنه يتبجح بأسفاره وينوه بمجد آبائه ويتشدّق بحسن منظومه وطيب أخلاقه . وقد رأيت هذا كله عند أبي تمام ، ولكن البحتري يضيف الى ما تقدم فخره بمنادمة الخلفاء وعلو منزلته عندهم وذلك ما لم يظفر به ابو تمام . ونعرض فيما يلي لكل ناحية من نواحي فخر الشاعر ، فنتحدث عنها بايجاز .

---

(٤٢) قد لا يكون خطأي كبيراً اذا لاحظت ان هذه القصيدة تفضل مراثي ابي تمام لآل حميد كلها رقة شعور ودقة تصوير وجمال تعبير وحسن ترتيب ،واريد بحسن الترتيب ترتيب الافكار ترتيبا منطقيا محكما.

كان البحتري قبل ان يلقي عصاه في وادي الرافدين صاحب أسفار كثير التجوال كما مرّ وقد تحدث عن أسفاره هذه كثيرا في شعره . ونحمد له أنه لم يكلف بتقليد ابي تمام في تصويره وداع حليلته اياه وجزعها لفراقه كلما خطر له أن يزور خليفة أو وزيرا أو واليا أو قائدا فانه لم يفعل ذلك الا نادرا . وحديث السفر عنده حديث عن جور الأيام ونكد العيش وقلة ذات اليد وعن مضاء العزيمة وعلو الهمة والرغبة في الحصول على المال . ومن طريف فخره بأسفاره قوله :

مالي وللأيام صرّف صرفها حالي وأكثر في البلاد تقلبي
أمسي زميلا للظلام وأغتدي ردفا على كفل الصباح الأشهب
فأكون طورا مشرقا للمشرق الاقصى وطورا مغربا للمغرب
واذا الزمان كساك حلة معدم فالبس لها حلل النوى وتغرب
ولقد أبيت مع الكواكب راكبا أعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لون الغراب كأنه (٤٣) هو في حلوكته وان لم ينعب
والعين تنصل من دجاه كما انجلى صبغ الشباب عن القذال الأشيب
حتى تجلى الصبح في جنباته كالماء يلمع من وراء الطحلب

وفخر الرجل بآبائه قليل ، ولكنه على جانب كبير من الغلو والاسراف . فطيء عنده أكرم الناس قاطبة وأشجعهم ، وهي « قد ملكت الارض قبل أن تملك » ، وقد كان « عرب الحجاز لقومه عندما نزلوه عبيدا ارقاء » وأكبر الظن أن هذا الفخر انما كان من نزوات الشباب ونزغاته . فقد ورد كل هذا في داليته التي مطلعها : .

انما الغي ان يكون رشيدا فأنقصا من ملامه أو فزيدا

(٤٣) ربما كان الصواب كأنما .

وهي قصيدة تدل مقدمتها على أنها قيلت في شرخ الشباب .

أما فخره بفضائله ومناقبه فانه قليل أيضاً ولكنه من جيد شعره ، وهو إذا حدثنا عن نفسه قال لنا إنه شديد البأس سديد الرأي صليب العود حمول لعظائم الأمور صبور على المكروه . ولعلنا لا نخطيء إذا لاحظنا أن أحسن ما له في هذا الباب داليته التي وصف فيها لقاءه الذئب وقتله إياه والتي نروي أحسنها فيما يلي :

فقل لبني الضحّاك مهلاً فانني ... أنا الافعوان الصلُّ والضيغم الورد
بني ناهل مهلاً فان ابن أختكم ... له عزمات هزل آرائهـا جـدّ
متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى ... وإن كان خرقاً مايحل له عقد (٤٤)
مهيباً كنصل السيف لو ضربت به ... ذرى أجأ ظلت وأعلامها وهد (٤٥)
يودُّ رجال أنني كنت بعض من ... طوته الليـالي لا أروح ولا أغدو
ولولا احتمالي ثقل كـلّ ملمّة ... تسوء الأعادي لم يودّوا الذي ودّوا
ذريني وإياهم فحسبي صرامتي ... إذا الحرب لم يقدح لمخمدها زند
ولي صاحب عضب المضارب صارم ... طويل نجاد ما يفـلُّ له حـدُّ
وباكية تشكو الفراق بأدمـع ... يبادرنها سحاً كمـا انتثر العقـد
رشادك ، لا يحزنك بين ابن همة ... يتوق الى العليـاء ليس له نـد
فمن كان حراً فهو للعزم والسرى ... ولليل من أفعاله لا الكرى (٤٦) عبد
وليل كأن الصبح في أخرياتـه ... حشاشة نصل ضمّ إفرنده غمـد
تسربلته والذئب وسنان هاجـع ... بعين ابن ليل ماله بالكرى عهـد

(٤٤) الخرق « بكسر الخاء » : الفتى الكريم الخلق .
(٤٥) أجا : جبل لطيء .
(٤٦) في الديوان (والكرى) ولا معنى لهذا العطف اما قوله (ومن افعاله) فانه حشو لا مبرر له .

أثير القطا الكدري عن جثماته ... وتألفني فيه الثعالب والربد (٤٧)

وأطلس ملء العين يحمل زوره ... وأضلاعه من جانبيه شوىً نهد (٤٨)

له ذنب مثل الرشاء يجرّه ... ومتن كمتن القوس أعوج منأدّ

طواه الطوى حتى استمر مريره ... فما فيه إلا العظم والروح والجلد (٤٩)

يقضقض عصلاً في أسرتها الردى ... كقضقضة المقرور أرعده البرد (٥٠)

سما لي وبي من شدّة الجوع ما به ... ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد

كلانا بها ذئب يحدّث نفسه ... بصاحبه والجدّ ينعسه الجدّ

عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته ... فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد

فأوجرته خرقاء تحسب ريشها ... على كوكب ينقضّ والليل مسودّ (٥١)

فما ازداد إلا جرأة وصرامة ... وأيقنت أن الأمر منه هو الجدّ

فاتبعتها أخرى فأضللت نصلها ... بحيث يكون اللبّ والرعب والحقد

فخرّ وقد أوردته منهل الردى ... على ظمأ لو أنه عذب الورد

وقمت فجمّعت الحصى فأشتويته ... عليه وللرمضاء من تحته وقد

ونلت خسيساً منه ثم تركته ... وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

إلا أنه شديد الفخر بشعره كثير الاعجاب به ـ كما مرّ ـ وفي اعتقاده أن قصائده (منقوشة نقش الدنانير ، ينتقي لها اللفظ كما ينتقى التبر) وهي (جامعة بدد العلى ، تعلقت من قبل الشاعر واتعبت من

(٤٧) الكدري : غير الصافي . الربد : جمع اربد وهو حية خبيثة .

(٤٨) اطلس : اغبر . الزور : وسط الصدر او ما ارتفع منه . الشوى . الاطراف او اليدان والرجلان . النهد : المرتفع .

(٤٩) استمر مريره : اشتدت عزيمته .

(٥٠) قضقض : اصطكت اسنانه . وانياب عصل : عوج ، واحدها اعصل واسرة : جمع سر بضم السين وهو جوف كل شيء وباطنه .

(٥١) اوجره الرمح : طعنه به في فيه .

بعده وهي (سائرة أمام الريح ، غدوتها شهر وروحتها شهر) ومن بليغ فخره في هذا الباب قوله :

هـذي نوافلـك التي خولتها ... رجعت غرائبهـا إليك قصائدا
تعطيك شهرتهـا النجوم طوالعاً ... وتريـك أنفسها الجبال خوالدا
متعسّفات ما تزال روانهـا ... تأبى عليهـا أن تسير قواصـدا
وهي القوافي ما تقرّ ثوابتـاً ... لممـدّحٍ حتى تعـود شواردا
عال لاتواء الذخائر كلمـا ... جلبت على ملك أباح التالدا (٥٢)
والبحر لـولا أن تسير سفينه ... بالريح ما برحت عليـه رواكـدا

* * *

أما منادمته الخلفاء فقد كانت موضوع فخره في تائيته التي ندد فيها ببعض أقربائه الذين يتمنّون موته بغضاً وحسداً مع أنه لسانهم ومفخرتهم . ولكنه استطرد عند ذكره هذه المنادمة إلى انتفاع الناس بمركزه في بلاط الخليفة ، وبذلك أصبح فخره مقبولاً مستساغاً . اسمع قوله في هذا :ـ

ومن الأقارب من يسـر بميتتي ... سفهـاً وعزّة حياتهـم بحياتي
إن أبق أو أهلك فقد نلت التي ... مـلأت صدور أقاربي وعداتي
وغدوت ندمان الخلائف نابهـاً ... ذكري ، وناعسـة بهم نشواتي
وشفعت في الأمر الجليـل إليهم ... بعـد الجليـل فأنجحوا طلباتي
وصنعت في العرب الصنائع عندهم ... من رفد طلّاب وفكّ عنـاة (٥٣)

(٥٢) انواء المال : انفاقه ، التالد : المال .

(٥٣) من هذه الصنائع التي يشير اليها البحتري شفاعته برجال ربيعة ، وقد جيء بهم بعد قمع فتنة قبلية الى المتوكل على الله مكبلين بالحديد . وفي هذه الشفاعة يقول البحتري : =

وصفه : أنتقل بك الآن الى وصف البحتري الممتليء حياة وحركة وجمالاً وقد قلت لك عند الكلام على وصف أبي تمام إن الطبيعة تحتل المكان الاول منه وأقول لك الآن ان القصور ، بما فيها من زينات وزخارف ومسرات ومباهج ، تحتل المكان الأول من وصف البحتري . ولا غرابة في ذلك ، فقد قدّر لصاحبنا أن ينادم المتوكل على الله مدة خلافته ، وأن يكون ذا حظوة كبيرة عند ابنه المعتز . وأنت تعرف غرام المتوكل ببناء القصور ورغبته الصادقة في الاستمتاع بالحياة . ولم يكن ابنه المعتز أقل منه ولعاً بالبناء والاستمتاع برغد العيش على قصر حكمه وسوء الحالة في عهده . من أجل هذا حفل وصف البحتري بمشاهد ومناظر لم يقدّر لغيره من الشعراء أن ينعم بها وأن يصفها وصفاً قوامه المشاهدة والخبرة المباشرة ومن هنا أيضاً يمكن القول إنه أرّخ لنا جانباً مهما من حياة عصره الاجتماعية كما أرخ لنا جانباً مهما من حياته السياسية : فهو يصور لنا في عينيته التي مطلعها :

شوق إليك تفيض منه الأدمع ... الخ

وميميته التي مطلعها :

عذيري فيك من لاح اذا ما شكوت الحب حرّقني ملاما

جمال المتوكلية [٥٤] وبهجتها واشرافها ، إلا أنه يصفها لنا في هاتين القصيدتين وصفاً مجملاً ، ثم إنه يعود فيفصّل لنا محاسن هذه المدينة

جاءتك اسرى فى الحديد اذلة مجموعة الايدي الى الاذقان
فافكك جوامعهم بمنك انها سمرت على ايدي ندى وطعان

(٥٤) المتوكلية : مدينة بناها المتوكل على الله بقرب سر من راى سنة خمس واربعين ومائتين هـ فعمرت واكتظت بالسكان . الا ان الناس هجروها بعد قتله فاسرع اليها الخراب .

في قصائد عديدة تفصيلاً كافياً . مثال ذلك أنه يعطينا في رائيته التي مطلعها :

إن الغباء عـــداة سمح محجر هيّجن حرّ جوى وفرط تذكر (٥٥)

فكرةً قريبة واضحة عن « حصن الجعفري » ، وهو خير ما في هذه المدينة ، وما يمتاز به من طيب في التربة وجودة في الهواء وأناقة في الفناء وفخامة في البناء وجمال في المناظر وجلال في المشاهد . ويصف لنا في ميميته التي مطلعها :

ان طيفا يزورني في المنـــام لخليّ من لوعتي وغرامـــي

قصري « الصبيح » « والمليح » ، وهما من أجمل قصور تلك المدينة ، وصفاً رائعاً مستفيضا نعلم منه أن في احدهما « بركة حسناء ، إذا توسطها الماء القت عليه صبغ الرخام » وبدا كأنه ماء بحر ، وأن بساتينه تسقى بدواليب ليس لها ناضح (٥٦) الا النعام . ويحدّثنا في هائيته التي مطلعها : «ميلوا الى الدار من ليلى نحييها»عن البركة السالف ذكرها أوبركةأخرى للمتوكل تضارعهاأوتفوقها حسناً،حديثالا أظنه يغيب عن ذهنك . ويمضي في تصوير هذا الترف الذي يغمر حياة سيده فيصف لنا في ميميته التي مطلعها :

ألا هل أتاها بالمغيب سلامي وهل خبرت وجدي بها وغرامي

قصراً بناه المتوكـــل على الله في نوع من السفن عظيم يسمى « الزوّ » يقاد بزمام كما يقاد البعير ، ويسير في الماء كما تسّير العربة على الارض وتنزه فيه على دجلة مستصحبا قيانه وندمانه مطلقاً بزاته في الجو مضيفاً بهجة الصيد إلى لذات الشراب والسماع .

(٥٥) محجر : موضع .

(٥٦) الناضح : ما يستقى عليه الماء من الحيوان .

وكما يصف لنا البحتري قصور المتوكل على الله وما فيها من نعيم وصفاء عيش يصف لنا كذلك قصور ابنه المعتز وما فيها من روائع وبدائع وعجائب وغرائب ، فيقول لنا مرّة إنه بنى قصراً طلى سقوفه بالذهب وصنع بعض حيطانه من الزجاج وأغدق عليه صنوف الزخارف والزينات . وتارة إنه بنى لنفسه صرحاً ممرّداً من قوارير يباهي به صرح سليمان بن داود الذي ورد ذكره في التنزيل .

فوق صرح ممرد من قوارير ر غريب التاليف والتمريد [٥٧]

هذا إلى أنه يصف جولاته في « الزوّ » وسائر أفراحه وأعياده وصفاً رائعاً نفيسا . ومما تدلنا عليه هذه الصفحات من شعر البحتري أن المعتز كان يؤثر دائما أن (يدشّن) قصوره في أيام الربيع ــ هكذا فعل في (تدشين) « الكامل » القادم وصفه ، وهكذا فعل في (تدشين) صرحه الممرد من قوارير ، وهكذا فعل في تدشين « قصر الساج [٥٨] » . فأنظر كيف يتذوّق هؤلاء الناس لذات العيش . وكيف يقرنون أعيادهم بأعياد الطبيعة لينالوا أعظم حظ ممكن من السرور ، والانشراح ! . على أننا لا نحمد لهم ذلك كثيراً ، فقد كان لهم من فساد ملكهم وانحلال أمرهم ما يحملهم على التفكير في تشييد قصور الاصلاح ، ويدفعهم إلى إقامة مواسم الانشاء والتعمير لمملكتهم المتضعضعة البنيان المتداعية الأركان ، ولكن ما كان ذلك ليشغل بالهم ويثير اهتمامهم وقد جنوا ثمار ما غرسوا ورأوا نتيجة ما عملوا ... لنخلّهم وشأنهم أذن ولنعد

(٥٧) من الغريب ان البحتري لم يصف هذا القصر العجيب الا بابيات قليلة جداً .

(٥٨) انظر قافية البحتري التي مطلعها :

اما الخيال فانــه لم يطرق الا بعقب تشوف وتشــوق

الى أبي عبادة ليسمعنا قوله في قصري الصبيح والمليح :

قد صفا جانب الهواء ولذّت رقة الماء في مزاج المدام
واستتم الصبيح في خير وقت فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يستطيع حيّاه معلناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذاك فمن ضاحك ومن بسّام
كالمحبّين لو أطاقا التقاءً أفرطا في العناق والالتزام

منها في وصف أحد القصرين :

مستمدّ بجدول من عباب الماء كالابيض الصقيل الحسام
واذا ماتوسّط البركة الحسناء ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحر يخدع العين وهو ماء غمام
والدواليب إن يدرن ولا نا ضح يمشي بهنّ غير النعام

ومنها :

حلل من منازل الملك كالأنـ جم يلمعن في سواد الظلام
مفحمات تعيي الصفات فما تدرك إلا بالظن والأوهام
فكأنا نحسّها بالأماني أو نراها في طارق الاحلام
شوقتنا إلى الجنان فزدنا في اجتناب الذنوب والآثام

وقوله في الزوراء :

أبى يومنا بالزوراء الا تحسناً لنا بسماع طيب ومدام
غنينا على قصر يسير بفتية قعود على أرجائه وقيام

تظل البزاة البيض تخطف حولنا ... جآجىء طير في السماء سوام (٥٩)
تحدر بالدراج من كل شاهق ... منخضبة أظفارهن دوامي
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه ... تدفق بحر بالسماحة طام
ولا جبلاً كالزو يوقف تارة ... وينقاد إمّا قدته بزمام

وقوله فى وصف الكامل : (٦٠) :

لمّا كملت روّية وعزيمة ... أعملت رأيك في ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفقاً ... منه لأيمر حلّة ومنازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرياح سموكه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوّه ... لجج يسجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى ... تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمّر ... ومسيّر ومقارب ومشاكل (٦١)
لبست من الذهب الصقيل سقوفه ... نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق ... متلهب العالي أنيق السافل
وكأنما نشرت على بستانه ... سيراء وشي اليمنة المتواصل (٦٢)
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها ... عن صوب منسجم الرباب الهاطل

(٥٩) الجآجىء : جمع جؤجؤ كهدهد وهو الصدر .
(٦٠) لولا هذه الأبيات لجهلنا امر هذا القصر جهلا تاماً . لأن كتب التاريخ والجغرافيا عند العرب لا تحدثنا عنه بشيء .
(٦١) الحبك : جمع حبيكة ، وحبيكة الغمام ما تكسر او تجعد منه . المنمر : ما احتوى على النمرة وهي النكتة من اي نوع كانت . المسير : ثوب مخطط شبه به الغمام فى بعض حالاته .
(٦٢) السيراء : الحرير الصافى . واليمنة : برد يمني .

وتنفست فيه الصبا فتعطفت أشجاره من حول وحوامل
مشي العذارى الغيدرحن عشية من بين حالية اليدين وعاطل

* * *

وافيته والورد في وقت معاً ونزلت فيه مع الربيع النازل
وغدا بنوروز عليك مباركاً تحويل عام إثر عام حائل

ووصف البحتري قصور العباسيين وأعيادهم وسائر أفراحهم كله على هذا النحو فنجتزيء منه بما تقدم ، بيد أنه مما يجب أن يلاحظ أن البحتري يحسن وصف قصور الملوك وهم أموات كما يحسن وصف قصورهم وهم أحياء . بل إنه أدق وصفاً وأصدق تصويراً لقصور الأموات منهم ولعل سبب ذلك ما في هذه من عظة صادقة وعبرة مؤثرة تصهر النفس وتنفذ الى قرارة الوجدان وتسمو بالشاعر الملهم إلى أوج الاحسان والابداع ، وما أشك في أنك فهمت ما أقصد ، فأنا أريد أن اتحدث عن السينية الخالدة ، وقبل ان أتحدث عنها اودّ أن اسأل متى نظمت هذه القصيدة ؟ وهل الغرض الأول منها وصف الايوان ؟

يخيّل إليّ أن هذه القصيدة نظمت في الاسابيع أو الأشهر القليلة التي تلت مصرع المتوكل والتي أفل فيها نجم البحتري على عهد المنتصر، وأن الغرض الأول منها وصف ما يحسه الشاعر من ألم شديد وحزن عميق على عهد ظفر فيه بكل ما يصبو إليه من مال وجاه وكل ما يحلم به من ترف ونعيم ، فهي اذن (مذكرّة نفس) كما يقول هيكو عن تأملاته قبل أن تكون قصيدة وصف ، ومع ذلك فقد بلغ ما فيها من وصف منتهى الاجادة والاحسان . وإنه لمن حق البحتري ومن حق الأدب أن نقف عند هذه القصيدة الفريدة ولو وقفة قصيرة لنتفهم بعض

ما فيها من فن بارع وجمال رائع .

تقع هذه القصيدة في ستة وخمسين بيتاً يتحدث البحتري في العشرة الأولى منها عن تنكر الايام له وتغير الزمن عليه ، ويشير إلى جفاء أحد أقاربه إياه اشارة المعتز بحسبه وخلقه المعتمد على ما عنده من صلابة العزم وقوة الارادة ، ويحدثنا فيما عدا ذلك من القصيدة بأنه زار أيوان كسرى في هذا الظرف العصيب من حياته طلباً للعزاء والتماساً للعظة بما نزل بآل ساسان من غير الدهر وأحداثه . وهنا يقف البحتري وقفة المتأمل المتدبر ، فيصف لنا مرة عظمة آل ساسان وضخامة ملكهم وسعة سلطانهم ، ويصف لنا تارة جمال الايوان وفخامته وأبهته وما يزينه من نقوش وتصاوير يكاد يجري فيها دم الحياة ، ويصف لنا طوراً مجلس خمر نعم به هناك ، ساقيه ولده أبو الغوث ، ونديماه كسرى أبرويز والبلهبذ ، ويصف لنا حيناً ما يملأ نفسه من خواطر وانطباعات تنتقل به من عالم الحس الى عالم النفس ، فيمعن في التفكير ويمعن في التخيل حتى يتراءى له سكان الايوان وكأنهم أحياء يرزقون ويسكب أبو عبادة دموعه الحارة في هذه المرحلة من تأمله وتخيله ، لا لأن الدار داره ولا لأن أهلها أهله ، بل لان أهلها ساعدوا على تحرير بلاده وهي اليمن من نير الاحباش ، ولأنه يحب الاشراف جميعا سواء في ذلك الاقربون منهم والأبعدون (٦٣) وظاهر أن القصيدة كما أصفها لك وحدة بنائية متماسكة تفيض بالحياة والجمال والانسجام . وهي من هذه الناحية تشبه رائية البحتري في رثاء المتوكل

(٦٣) نظمت فى مجاراة هذه القصيدة عدة سينيات احقها بالذكر سينية شوقي ولكننا قد لا نظلم شوقي اذا لاحظنا ان خير بيت له فى وصف اطلال الحمراء وهو قوله :

وميميته في رثاء آل حميد .

يقول ابن المعتز ما نصه تقريباً : لو لم يكن للبحتري إلا سينيته في وصف إيوان كسرى لكفى ، فليس للعرب سينية مثلها .. وأنا أزعم أنه ليس للعرب مثلها دون تقيد بالروي .

على أن البحتري لم يكن وصاف قصور ومصور زخارف وزينات فحسب ، بل إنه شاعر مبدع كل الأبداع في وصف محاسن الطبيعة . اسمع قوله في وصف دمشق للمتوكل على الله :

أمّا دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا
يسي السحاب على أجبالها فرقاً ... ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً ... أو يانعاً خضراً او طائراً غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته ... أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقوله في وصف منازل صالح بن وصيف في الجزيرة :

فكم بالجزيرة من روضة ... تضاحك دجلة ثغبانها (٦٤)
تريك اليواقيت منثورة ... وقد جلل النور ظهرانها
غرائب تخطف لحظ العيون ... اذا جلت الشمس الوانها

* * *

مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس ـ
ماخوذ من قول البحتري :
لو تراه علمت أن الليالي ... جعلت فيه ماتماً بعد عرس
واحب ان اشير هنا الى اني لم ارو شيئاً من سينية البحتري على نفاستها لأنها من الشهرة بمكان .

(٦٤) الثغبان : جمع ثغب وهو ما بقي من الماء في بطن الوادي او الغدير في ظل الجبل .

تسير العمارات أيسارها ويعترض القصر أيمانها
وتحمل دجلة حمل الجموح حتى تناطح أركانها
كأن العذارى تمشى بها اذا هزت الريح أفنانها
تعانق للقرب شجراؤها عناق الأحبة أسكانها
فطورا تقوم منها الصبا وطورا تميل أغصانها
جنوح تنقل أفياءها كما جرت الخيل أرسانها

أما بعد ، فقد لا أخطيء اذا لاحظت أن البحتري من اغزر شعرائنا مادة في الوصف وأكثرهم تمثيلا للحضارة الاسلامية وأدقهم تحليلا وأوفاهم تفصيلا وأنصعهم ديباجة .

هجاؤه : ولكن هجاء البحتري على عكس ما تقدم من شعره فانه قليل الجمال ضئيل القيمة من الناحية الفنية . ولم يخطيء النقاد القدماء والمحدثون في اعتباره دون عامة شعره قوة وبراعة ، اذ كل ما يمتاز به هو الفحش والصرامة ، على أن بعضه لا يخلو من ظرف وفكاهة . ولعل هذه الأبيات التي يهجو صاحبنا بها الخثعمي من أخف هجائه وطأة وأقربه الى الظرف والفكاهة وهذه هي :

ألان علمت أن البعث حق وان الله يفعل ما يشاء
رأيت الخثعمي يقل أنفاً يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعداً فقصر كل سام لهيبته وغصّ به الهواء
هو الجبل الذي لولا ذراه إذاً وقعت على الأرض السماء

* * *

عتابه : الا أن عتابه هيّن لين ، يغلب عليه الاستعطاف ويشيع فيه الاسترضاء ، وينحط أحيانا الى درك الاستجداء ، وليس في هذا ما

يسوء البحتري أو يخيفه • على أنه مضطر الى انتهاج مثل هذه الخطة في عتابه اضطرارا ، لانه يعاتب عظماء الدولة وأصحاب الحل والعقد أو من له منزلة كبرى عندهم ، وليس له طبعا أن يعاتب أحدا من هؤلاء الا بهذه اللهجة الرقيقة الناعمة ، هذا اذا أراد أن يحتفظ بمركزه وثروته ، وهو مريد ذلك مهما كان الثمن وعلى هذا كان عتابه مثلا في اللين وخفة الروح ، بل انه أقرب الى المديح منه الى العتاب • اسمع قوله معاتبا عيسى بن ابراهيم : —

قل لابي نوح شقيق الندى ... ومعدن الجود وحلف السماح
أعوذ بالرأي الجميل الذي ... عودته والنائل المستماح
من أن تصدّ الطرف عني وأن ... أخيب من جدواك بعد النجاح
ان كان لي ذنب فعفو وان ... لم يك لي ذنب ففيم أطراح ؟
أبعد أسباب متان القوى ... من فرط شكر سائر وامتداح
يخبرن عن قلب قديم الهوى ... فيك وعن صدر أمين النواح
أشمت حسادي ، وأخرجتني ... من سيبك المغدى عليّ المراح ؟!
فهل لأنس بان من رجعةٍ ؟ ... أم هل لحال فسدت من صلاح؟
لست على سخطك جلد القوى ... ولا على هجرك شاكي السلاح

* * *

فلسفته : ومع أن البحتري يقول لنا بصريح العبارة انه يهوى الثراء ويعشق الحياة الدنيا ولا يدّخر في سبيل الحصول عليهما وسعا ، فانه يقرر من جهة أخرى أن الدنيا عرض زائل ومتاع كاسد ، سرورها وحزنها صنوان ، ونعيمها وبؤسها سيان ، ويدعو للزهد بها والاعراض عنها ، ويزعم أنه لم يحفل بها حتى في أيام عزه واقباله • وكلماته في

الدنيا والحياة والموت وما الى ذلك كثيرة منتشرة في ثنايا ديوانه الضخم أروي لك منها قوله :

اذا عاجل الدنيا ألمّ بمفرح فمن خلفه فجع سيتلوه آجل
وكانت حياة الحي سوقا الى الردى وأيامه دون الممات مراحل
وما لبث من يغدو وفي كل لحظة له أجل في مدة العمر قاتل
وللمرء يوم لا محالة ماله غد وسط عام ماله الدهر قابل
كفانا اعترافا بالفناء ورقبة لمكروهه أن ليس للخلد آمل

وقوله :

يسر بعمران الديار مضلل وعمرانها مستأنف من خرابها
ولم أرتض الدنيا أوان مجيئها فكيف ارتضائيها أوان ذهابها

* * *

لغته وأسلوبه : أشرت في أثناء الكلام على ثقافة البحتري الى أنه رقيق اللفظ جميل التعبير ، معتدل في استعمال الزخرفة البيانية اعتدالا تاما . وما أريد أن أقيم البرهان على هذا . فقد مر بك من شعر الرجل ما يؤيده التأييد كله . ولكني أريد أن أقول الآن انه أي البحتري متساهل بتهذيب شعره الى حد ما . كثير الزحاف قليل الاكتراث لقواعد الاعراب ، الا أنه يحسن تأليف الصور الشعرية ويجيد ضرب الامثال اجادة تامة .

فمن الغريب حقا أن يتنافر كلام البحتري ويضعف تأليفه الى حد

قوله :

تدارك شمل الشعر والشعر شارد الث ـوارد مرذول غريب الغرائب

وقولـــــه :

وقصارى المشوق يصرمه الشـــائق اقصار شوقه أو قصوره

وقولـــــه :

هيهـــات مارس قلقلا متيقظـــا قلقا اذا ســـكن البليد رشيقا (٦٥)

ففي شينات البيت الأول وراءاته وهلهلة نسجه ، وقافات البيت الثاني وصاداته وراءاته وسقم تأليفه ، وقافات البيت الثالث وثقل تركيبه ما يدل على أن البحتري لا يعنى بتهذيب شعره عناية كافية على الدوام. ولا يقل عن هذا غرابة شيوع الزحاف في شعره ، ولعل وجـوده في شعر النابغة وامريء القيس وبعض كبار شعراء الجاهلية الآخـرين حمله على عدم الاحتراس منه . ولكن تقدم صناعة الشعر ورقي الملكات الفنية على عهده لا يسمحان للناقد النزيه بالاغضاء عن وجود هـذا العيب في شعره لانه يدل على قلة الانتباه الى موسيقى الوزن وعلى عدم تذوقها تذوقا كافيا . ومن أمثلة الزحاف في شعر البحتري قوله في مطلع قصيدة : (كنت) الى وصل سعدى جد محتاج .

وقوله فى نفس القصيدة :

إن (أنا) شبهته بالغيث فيمدحي غضضتمنه فكنت المادح الهاجي

وقولـــــه :

وقلب هـــائم فيه احتراق يكاد لشدة (الهوى) يبيد

(٦٥) القلقل : المعوان السريع الحركة .

وأغرب من هذا كله اهماله بعض قواعد الاعراب فكثيرا ما رفع الفعل المضارع بعد فاء سببية مسبوقة بما يوجب النصب كما في قوله :

أعيى عليَّ فـلا هيـابة فرق يخشى الهجـاء ولا هش فيمتدح
يريغ كاتبـــه صلحي لينقصني ولم يكن بيننـا شـر فنصطلح

فمما لا شك فيه أن (يمتدح) و (نصطلح) فعلان منصوبان بحكم الفاء السببية المسبوقة بنفي ، ولكنهما في بيتي البحتري مرفوعان . وربما نصب صاحبنا الخبر في غير مبرر ولا سبيل للتأويل كما في قوله :

فهم قوم تبع خير قـوم لهم الله بالفخـار شهيدا

(فشهيد) خبر مرفوع لا سبيل الى نصبه ولكن البحتري نصبه نزولا عند ضرورة القافية . وفي الامكان احصاء هفوات أخرى للمترجم من هذا القبيل الا أن كثرة شعره الجيد المبرأ من كل عيب تحملنا على عدم التأثر بهذه الزلات في تحديد منزلته الشعرية . كما أننا لم نتأثر بأمثالها أو بما يقرب منها في تحديد منزلة أبي تمام .

أضف الى ذلك قدرته العجيبة على تركيب الصور الشعرية التي يؤلف أجزاءها تأليفا متقنا ويشيع فيها الحياة والانسجام حتى تجيء وكأنها صور ناطقة متحركة . وقد مرت بك طائفة حسنة من صوره الشعرية الرائعة من أهمها وصفه مقتل أسد على يد الفتح بن خاقان ، ومبارزته هو الآخر ذئبا وقتله اياه . ومر بك أيضا جانب من مرثيته لآل حميد والمتوكل على الله وهما من أجمل صوره وأجلها شأنا . هذا الى أنه مجيد كل الاجادة في ضرب الامثال التي يضربها من حين لآخر مضمّناً اياها حكمته ومؤيدا بها وجهة نظره ، فمن ذلك قوله :

وهل خلق الفتى الا ليهوى ويأنس بالدمـوع وبالدماء

وقولـــه :

اذا المرء لم تبدهك بالحزم والحجـــا
قريحتـــه لم تغـــن عنـــك تجـــاربه

وقولـــه :

اذا ما الجرح رمّ على فســـاد تبين فيـــه تفريـــط الطبيب

وقولـــه :

ليس يحلو وجودك الشيء تبغيه التماســاً حتى يعـــز طـــلابه

وقولـــه :

واليـــأس احـــدى الراحتين ولن ترى
تعبـــاً كظنّ الخائـــب المـــكدود

وقولـــه :

والأرض لولا العذاة واحـــدة والناس لولا الفعـــال أمثـــال

وقولـــه :

متى أحرجت ذا كـــرم تخطى اليـــك ببعض أخـــلاق اللئيم

وقولـــه :

والمرء لو كانت الشعرى له وطنا حطت عليه صروف الدهر من صبب

وقولـــه :

وماتنبت البطحاء من عير وابـل ولا يســتديم الشــكر غير جواد

وقولـــه :

وأحب آفاق البــلاد الى الفتى أرض ينـــال بها كريم المطلب

هـ ـ خاتمـــة :

اذا لم يخطيء ظني فان في أصالة صفحات كثيرة من شعر البحتري وفي أهمية صفحات أكثر من الوجهة التأريخية وفي ما لهذا الشعر على العموم من جمال اللفظ وصفاء الديباجة ، ما يحملنا على الاعجاب به وعلى دراسته بعناية واتقان .

الفصل الثالث

ابن الرومي

أ ــ حياته : اسمه ونسبه • كنيته • ولاؤه في بني العباس • مولده • نشأته • دراسته • ثروته • ضياعهـا • سبب ذلك • استسلامه للخيال • شرهه • انحلال جسمه وعقله • غلبة الطيرة عليه • بعض أخباره في هذا الشأن • من أشفق عليه من الطيرة ومن سخر منه • علاقته بآل العباس • تخلّيه عنها • هجاؤه اياهم • وفاته •

ب ــ اخلاقه •

جـ ــ شعره : نسجه على منوال من تقدمه من الشعراء • الزعم بأنـه كان يقول بوحدة الموضوع • تفنيده • هامش • غزله • غلبة التقليد عليه • أصالة جزء يسير منه • مثل من هذا الجزء • مديحه • كذبه • خيبة امله في بعض ممدوحيه • انتقامه منهم • موقف محمد بن عبيد الله بن طاهر منه • مالمديحه من القيمة الشعرية • ماله من القيمة التاريخية • مثل منه ، هجاؤه • صرامته • بذاءته • ميله الى الاعتداء عتابه • لينه وشدته • مثل منه • رثاؤه • غلبة الاخلاص عليه • مثل منه ، وصفه • تمثيله كل ناحية من نواحي حياته العقلية والنفسية ، مثل منه • لغته وأسلوبه •

اطالته • استهانته بسلامة الاداء • استقصاؤه الدقيق للمعاني والاغراض •

د ــ خاتمة : ابن الرومي من حيث هو رجل ومن حيث هو شاعر •

آ ــ حياتـــه :

حدثتك في الفصل الماضي عن شاعر من أسعد الشعراء حظـ وأعظمهم نجاحا في شعره ، ألا وهو ابو عبادة البحتري • وأحدثـك الآن عن شاعر من أســوأ الشعراء حظاً وأشــدهم اخفاقا ألا وهو علي ابن العباس بن جريج أو جريح المكنى بأبي الحسن والمعروف بابن الرومي وهو مولى عيسى بن عبد الله بن جعفر بن المنصور ثاني خلفاء بني العباس •

ولد في بغداد لليلتين خلتا من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين ونشأ في كنف الخلافة العباسية ودرس دراسة حسنة نلمس آثارها في أدبه الجم وشعره الجيد ولكننا نجهل تاريخ نشأته ودراسته • ويـدل شعره على أنه ورث ضيعة ولكنه أضاعها ، وداراً ولكنها غصبت منه وثروة ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها وذلك لانه لم يخلق لكسب المال وتدبيره والقيام عليه ، وانما خلق للكسل والاسترخاء والاستغراق في الخيال وقرض الشعر في ظلال الخمول والراحة وقد غلبت عليه هذه الناحية حتى اضطرب عقله وفسد تفكيره وساعد على محنته هذه شره شديد فيه ، خلق منه رجل معدة مسرفا في طعامه وشرابه الاسراف كله ومعنى ذلك أن عوامل أدبية ومادية قوية تضافرت عليه فأفقدته سلامة عقله كما أفقدته سلامة جسمه • وظهر أثر كل ذلك واضحا قويا في غلبة

الطيرة على عقله ، فقد كان يتطير بكل شيء حتى بما يتيمن به المتشائمون.

افتقده أحد عارفي فضله من الأمراء فقيل له انه سجين بيته منذ مدة من الزمن بسبب الطيرة فأرسل اليه غلاما اسمه (إقبال) ليتيمن به ويخرج من منزله فلما تهيأ لزيارة الأمير أدركه الالهام في آخر لحظة فقال للغلام « أذهب فأنت ناقص . ومعكوس اسمك لابقاء » ولبث معتكفاً في منزله . وطال اعتكافه فأضر هذا بأهله وتعذر عليهم الطعام والشراب .

حدث علي بن ابراهيم كاتب مسرور البلخي قال « كنت بداري جالساً فاذا حجارة سقطت بالقرب مني فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود الى السطح والنظر إلى كل ناحية من أين تأتي الحجارة فقال : إمرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت ، وقالت أتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا ، فتقدمت الى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد اليها وتخاطبها ففعلت وبادرت بالجرة وأتبعتها شيئاً من المأكول ثم عادت إلي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلاً بازائه وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه [1] فاذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب ، فعجبت لحديثها وبعثت بخادم كان لي يعرفه فأمرته

(١) انتقم ابن الرومي لنفسه من هذا الاحدب بقوله فيه و (هو من أحسن الهجاء) :

قصرت أخادعه وطال قذاله ... فكأنه متربص ان يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة ... واحس ثانية لها فتجمعا

بأن يجلس بازائه وكانت العين تميل إليه وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدعو الجار الأحدب فلما حضر عندي أرسلت وراء غلامي لينهض الى ابن الرومي ويستدعيه إلى الحضور فاني لجالس ومعي الأحدب اذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد ودخل ابن الرومي فلما تخطّي عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله فدخل مذعوراً وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغيرُه حال فدخل وهو لايرى جاره المتطير منه ، فقلت له يا أبا الحسن أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما رأيت من العثرة لأني فكرت أن به عاهة وهي قطع أنثييه : ــ

قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم فأقبل عليه وأنشده :

لما رأيت الدهر يؤذن صرفه ... بتفريق ما بيني وبين الحبائب
رجعت إلى نفسي فوطنتها على ... ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها ... فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم لقيته ... وكن حذراً من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفال والزجر واطّرح
تطير جار أو تفاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه فحلف ابن الرومي الا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره وأومأ الى جاره فقلت وهذا الفكر أيضاً من التطير فأمسك » (٢) .

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ١٧٧ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر .

على أنه إذا كان بين الناس من أسف لشذوذ الشاعر وعمل على تخفيف بلواه فقد كان بينهم من يتندر به ويسخر منه وأشهر من فعل هذا علي بن سليمان المعروف بالأخفش الصغير الذي كان يأتيه فيما يقول صاحب زهر الآداب سحراً ويدق عليه الباب فاذا قيل له من ؟ قال قولوا لأبي الحسن (أنا مرة بن حنظلة) أو (أنا الشؤم والبلاء) فيتطير الشاعر المسكين ويبقى في منزله أياما لا يأتي أي عمل . وانتقم ابن الرومي لنفسه من هذا الشاب النزق الذي لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً فهجاه وأقذع في هجائه . وأشفق النحوي في أول الأمر من الهجاء وتوسل إلى الشاعر أن يصفح عنه مستشفعا إليه ببعض أولي الفضل والادب فقبل الشفاعة وصفح عن النحوي وأمسك لسانه عنه ولكن يظهر أن هذا كان يجد في ايذاء ابن الرومي سروراً يهون عليه في سبيله احتمال الهجاء فعاد الى الشاعر بهزئه وسخريته وعاد هذا الى هجائه ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث بل إنه ذهب الى أبعد من ذلك فكان يحفظ هجاء ابن الرومي له ويمليه على أصحابه تفكهاً به وقلة اكتراث له فلما رأى الشاعر أن هجاءه لا يؤذيه صرف نظره عنه .

وتسألني عن علاقته بآل العباس وأثرها في تخفيف بلواه ، فأقول لك انه تخلى عن هذه العلاقة وطعن بامامة أسياده القدماء وقال انهم أئمة ظلمة غصبوا أبناء عمومتهم العلويين حقهم في الخلافة واستأثروا بما ليس لهم ، وتمنى زوال نعمتهم وانقراض دولتهم :

أجتثـــوا بني العبـــاس من شنآنكم
وأوكوا على ما في العياب وأشرجو (٣)

(٣) أوكو شدوا الوكاء وهو رباط القربة واشرجوا لفظ مرادف لأوكوا يقول اكتموا بغضاءكم لابناء عمومتكم وبالغوا فى الكتمان .

وخلّوا ولاة السوء منكم وغيهم فأحربهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع إلى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا

والقصيدة طويلة يرثي بها الشاعر يحيى بن عمرو العلوي الذي ثار على العباسيين بالكوفة سنة إحدى وخمسين ومئتين للهجرة فقمعوا فتنته وقتلوه .

تلك كانت أسباب فشل ابن الرومي بل أسباب نكبته الساحقة الماحقة التي رزح تحت أعبائها عشرات الاعوام حتى دسّ إليه القاسم ابن عبيد الله بن وهب الذي كان يخشى معرّة لسانه من أطعمه خشكنانجة مسمومة كان فيها حتفه وكان ذلك سنة ثلاث وثمانين أو أربع وثمانين ومائتين .

ب ـ أخلاقه :

أما أخلاقه فانها تتناقض تناقضاً يتناسب وشذوذه وفساد تفكيره فهو بشهادة شعره بخيل جواد ، جبان شجاع ، كذوب صدوق ، حقود متسامح وهكذا ... (٤)

ومصدر هذا كله اعتلال صحته واختلال أعصابه واسرافه على نفسه في كل شيء . فقد كان مسرفاً في طعامه مسرفاً في شرابه مسرفا في إرضاء شهواته ولذاته ما وجد الى ذلك سبيلاً . ورجل هذا شأنه وذاك ديدنه مقضي عليه حتماً بما قضي به على ابن الرومي ، من اعتلال الجسم واختلال العقل وانحلال الخلق .

(٤) راجع فى هذا « ابن الرومي حياته من شعره » للعقاد ص ١٠٢ الى ١٥٢ الطبعة الثانية .

حـ ـ شعره :

لابن الرومي شعر كثير لم يطبع الا أقله نسج فيه على منوال من تقدمه من الشعراء فمدح وهجا ، وشبب ورثى ، ووصف وضرب الأمثال وجمع الموضوعات المختلفة في القصيدة الواحدة (٥) .

وأرجو أن أحدثك فيما يلي عن مختلف ضروب شعره وأبوابه .

غزله : الواقع أن غزل ابن الرومي في جملته لا يحتوي على مقاصد وأغراض غرامية حقيقية . وأنه لا يعدو أن يكون رواية معانٍ مألوفة وأخيلة معروفة طالما رددها الشعراء من قبل ، فقدود الغيد الحسان أغصان ، وأردافهن كثبان ، وخدودهن تفاح ، ونهودهن رمان ،

(٥) يذهب الاستاذ العقاد الى ان قصائد ابن الرومي « موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها واطرافها ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة» ابن الرومي حياته من شعره ص ٣١٦ الطبعة الثانية .

ولكننا اذا رجعنا الى ديوان ابن الرومي راينا انه يحتوي على قصائد كثيرة تتعدد موضوعاتها وتتنوع اغراضها منها هذه النونية التي يمدح بها ابا الصقر اسماعيل بن بلبل والتي مطلعها :

اجنت لك الوجد اغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان

وهذه البائية التي يمدح بها عبد الله بن عبيد الله والتي مطلعها :

صبا من شاب مفرقه تصاب وان طلب الصبا والقلب صاب

وهذه البائية التي يهجو بها البحتري والتي مطلعها :

ما انس لا انس هندا آخر الحقب على اختلاف صروف الدهر والنوب

وقد اعتذر ابن الرومي الى احد ممدوحيه عما صدر به مديحه من التشبيب فقال مشيراً الى قصيدته :

لم يعبها سوى قواف تشاغلن عن المدح فيك بالتشبيب

ولا ادري كيف يوفق الاستاذ العقاد بين ما ذهب اليه وبين هذه الحقائق الناطقة التي لا تقبل الجدل .

وشعورهن أعناب مهدلة ، وأناملهن عناب ، واجفانهن نرجس ضربه سقيط الطل ، وثغورهن اقحوان ، والحبيب غزال يصيد الألباب بنظراته ، ومحبوه يجرحون خديه بالحاظهم ولكنه يقتص لنفسه فيجرح قلوبهم بتباريح الوجد ولواعج الحب وهكذا . على أنه من الحق أن نقرر أن ابن الرومي يعرض هذه المعاني المألوفة بلغة جذابة وأسلوب رائع يحببانها الى القلوب ويقربانها من النفوس . وأنا الذي لا أختلف كثيراً مع عبيد الله بن طاهر الذي أطلق أسم « دار البطيخ » [٦] على نونيته التي مطلعها « أجنت لك الوجد الخ .. » أشعر عند قراءة نسيب هذه القصيدة بشيء لا بأس به من اللذة الفنية . على أن هذه الملاحظات لا تتناول بالطبع دالّية المترجم في وحيد المغنية لأنها تحتوي على غزل إلا يعبر عن عاطفة غرامية صادقة فانه يمثل مهارة فائقة في وصف بدائع الجمال وروائع الغناء . استمع إلى قوله فيها :

وغرير [٧] بحسنها قال صفها ... قلت أمران هيّن و شديد
يسهل القول إنها أحسن الأشيـ ... ـاء طراً ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين إليها ... فشقيّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ... ها وقمريّة لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنّي ... من سكون الأوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين ... لك منها ولا يدرّ وريد
من هدوّ وليس فيه انقطاع ... وسجو وما به تبليد
مدّ في شأ وصوتها نفس كاف ... كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد

(٦) دار البطيخ : محل تباع فيه الخضر والفواكه ببغداد .
(٧) الغرير هنا : المخدوع .

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد (٨)
فيه وشي وفيه حلي من النغـ ـم مصوغ يختال فيه القصيد
في هوى مثلها يخف حليم راجح حلمه ويغوى رشيد
ما تعاطى القلوب إلا أصابت بهواها منهن حيث تريد
عيبها أنها إذا غنت الاحـ رار ظلوا وهم لديها عبيد

مديحه : ومديح ابن الرومي أكثر كذباً وأشد إيغالاً في التقليد من غزله فقد يقول عن ممدوحه انه كريم مع أنه من أشد الناس بخلا، وشجاع مع أنه من أشد الناس جبناً ، وذكي متوقد الذهن مع أنه من أشد الناس بلاهةً وبلادةً ، وهو لا ينكر شيوع الكذب في مديحه وغلبة الاسراف عليه بل إنه يعترف به ويؤكده ويعقب على قول القرآن عن الشعراء (انهم يقولون ما لا يفعلون) بأنهم لا يقولون ما لا يفعلون فحسب ولكن ما لا يفعل الامراء أيضاً :

يقولون ما لا يفعلون مسبةً من الله مسبوب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الامراء

وغني عن البيان أن ابن الرومي مضطر إلى مجاملة ممدوحيه وإطرائهم بما ليس فيهم من حميد الصفات وجميل الخلال طلباً لمعروفهم وعملاً على إحراز جوائزهم ، على أن هؤلاء لم يكونوا دائماً عند حسن ظنه بهم فقد رفض إسماعيل بن بلبل وزير المعتضد أن يجيزه على نونيته الطنانة لقوله فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري ولكن منه شيبان

(٨) هكذا في المراجع الموجودة بين يدي وربما كان الصحيح المديد بدلا من النشيد .

وسبب امتعاضه من هـذا البيت أن الناس كانوا يشكون في نسبته الى شيبان فرأى أو أراد ان يرى فيه تعريضاً بهذه الشكوك مع أن الشاعر وضح غرضه بقوله بعده مباشرة :

وكم أب قـد علا بابن ذرى شرف
كما عـلا برسـول الله عـدنان

ولكن ابن بلبل لم يشأ أن يلتفت الى هذا التوضيح وأصر على حرمان الشاعر وأحسب أنه كان يتلمس سببا لحرمانه فوجد ضالته في البيت الآنف ذكره وقد انتقم ابن الرومي منه أسوأ انتقام .

ومن غريب ما ابتلى به ابن الرومي في هذا الباب موقف محمد بن عبد الله بن طاهر منه فقد كان أديبا عارفاً بالشعر ناقدا له وكان يحسد ابن الرومي اذا أجاد في مدحه ويعيبه اذا أسّف ، ومعنى هذا أنه يحرمه أو يقرب به من الحرمان في كلتا الحالتين . وقد وصف ابن الرومي هذا الموقف الغريب الشاذ بقوله :

قد بلينـــا في دهرنا بملوك أدباء علمتهـــم شـــعراء
ان أجدنا في مدحهم حسدونا فحرمنـــا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا في مدحهـم أكنبونا وهجوا شـعرنا أشدّ هجـاء
قد أقاموا نفوسهم لذوي المد ح مقـام الأنداد والنظـراء

ولكن مهما يكن من مخالفة مديح ابن الرومي للحقيقة وامعانه في الكذب والمبالغة فانه من جيد الشعر ونفيسه لطافة معنى وطرافة مبنى وروعة خيال .

أضف الى ذلك أنه يعطينا فكرة واضحة كل الوضوح قوية كل القوة عن بعض شؤون معاصريه الاجتماعية وقد لا أغلو اذا قلت لك

انه خير من وصف المهرجان وما يسبغ عليه وزراء الدولة وأعيانها من أبهة وجلال وروعة وجمال في مآدب يقيمونها وحفلات طرب يحضرونها وزيارات يتبادلونها ونفائس يتهادونها ومدائح يستمعون اليها ويثيبون عليها ، استمع الى قوله من قصيدة طويلة يهنيء فيها أحد عظماء آل طاهر بالمهرجان :

زخرفت يوم نعمة حجرات ... جد موطوأة من الضيفان
حجرات ميّممات بناها ... من فضول المعروف أكرم بان
ثم قام الكماة صفّين من كـ ... ـل عظيم في قومه مرزبان
كلهم مطرق الى الارض مغض ... وعلى سيفه هنالك حان
وتجلى على السرير جبين ... ذو شعاع يحول دون العيان
يسكن العين لحظة ثم ينهى ... طرفها عن ادامة اللحظان
فله منه حاجب قد حماه ... كل عين ترومه بامتهان
فاستوى فوق عرشه بوقارٍ ... وبحلم من الحلوم الرزان
ثم قام المجدون مثولا ... ضاربين الصدور بالاذقان
فنثوا [٩] سؤدد الأمير وعدوا ... فيه آلاءه بكل لسان
حين لم يجشموا التزيد لا بل ... ما تعدوا ما حصل الكاتبان
فقضوا من مقالهم ما قضوه ... ثم آبو بالرفد والحملان [١٠]
بعدما أرتعوا الأنامل فيما ... لا تعداه شهوة الشهوان
من خوان كأنه قطع الروض ... وان كان في مثال خوان
فوقه الطير في الصحاف وحاشا ... ذلك الطير من جفاء الجفان

(٩) نثوه تحدثوا عنه .
(١٠) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة .

ثم سام الأمير سوم الملاهي وخلا بالمدام والندمان
وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثدّيا ناهدات كأحسن الرمّان
مفعمات كأنها حافلات وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر الا بالتزام من أمه واحتضان
أوتي الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذي الحنان
لو تسلى به حديثة رزء لشفى داء صدرها الحرّان
وتغنته بالمدائح فيه كل غيداء غادة مفتان
ذات صوت تهزّه كيف شاءت مثل ما هزّت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه في تثنيه مثل حب الجمان
جهوري ـ بلا جفاء على السمع ـ مشوب بغنة الغزلان

هجاؤه : وما أريد أن أطيل الوقوف عند هجاء ابن الرومي لانه يقطر سما ويتطاير شررا هذا الى بذاءة شديدة فيه وميل واضح الى الاعتداء .

أفهم أن شاعرا يهجو انسانا يعتدي عليه ، ويسيء اليه بالتنقص من قدره او الغض من شعره ولكني لا أفهم ان شاعرا يهجو انسانا لم يسيء اليه قط ولم يجتمع به قط ومع ذلك فهذا ماحدث لابن الرومي مع البحتري فانه هجاه في قصيدة تقع في أكثر من مئة بيت وصفه فيها ببلادة الذهن وجمود القريحة والسطو على القدماء وما الى ذلك . مع

أنه لم ينافسه ولم يزاحمه في يوم من الأيام . ماذا أقول ؟ بل لم يجتمع به مطلقا قبل هجائه اياه بل لقد سبق له أن أشار باكرامه والانعام عليه . واجمال الخبر أن أبا عيسى بن صاعد أقرأ البحتري قصيدة لابن الرومي في مدح أبيه وسأله عما ينبغي أن يجيزه به فقال له : أعطوه بكل بيت دينارا .

الواقع أن الذين وصفوا المترجم بسلاطة اللسان وبذاءة الهجاء كانوا على حق فيما ذهبوا اليه .

عتابه : ومع أن ابن الرومي يرفق في عتابه بعض الرفق ويلين لاصدقائه الذين يعاتبهم بعض اللين فانه لا يلبث أن يقسو عليهم قسوة شديدة ويحاسبهم على هفواتهم وزلاتهم سواء أكانت هذه حقيقية أم خيالية محاسبة عسيرة . مثال ذلك أن القاسم بن عبيد الله بن وهب كان يستدنيه ويستدعيه لزيارته ويحضره مجالس لهوه وطربه قبل أن يتقلد منصب الوزارة فلما تقلد هذا المنصب شغل عنه أو نسيه بعض الشيء فكتب اليه يسأله أن يجري على مألوف عادته في تقريبه والتمكين له في مجلسه والا فانه يمزق عرضه تمزيقا ويجعله أحدوثة الملأ بهجائه اياه:

أدن شخصي اذا شدت لك بستـ ـان وغنّت غناءها غناء
حسن علمي اذ ذاك بالحسن المو قع مما يروي القلوب الظماء
وارتفاعي عن الجفاة المسوين بشدو المجيدة الضوضاء
موجب أن أكون أدنى جليس لك أعلو بحقي الجلساء

* * *

قد بغى قبلك الدعيّ فلم أحفل بأن كان باغيا بغاء
فاعتبر بابن بلبل ان فيه عبرة لامرىء أعد وعاء (١١)

(١١) اعد وعاء : اي اعد قلباً يعتبر فيزدجر .

والعلاء بن صاعد قبل هـذا قد حمى دون رائدي الاحماء
فارم بالطرف شخصه هل تراه وادعه الدهر هـل يجيب دعاء
أنا عبد الانصاف قرن التعدي فاسلك القصد بي وعد العداء

***

ومن هذا القبيل ماحدث للمترجم مع أبي القاسم التوزي الشطرنجي فانه سأله قضاء حاجة لم يقضها له وربما كان معذورا في ذلك فما كان منه الا ان عاتبه عتابا مرا وصفه فيه بالرياء والتدليس وعدم الوفاء والمروأة . استمع الى قوله في هذا العتاب :

كشفت منك حاجتي هنوات غطّيت برهـة بحسن اللقـاء
تركتني ولـم أكـن سيء الظن أسيء الظنون بالأصـدقاء
قلت : لمـا بدت لعيني شنعا ربّ شوهاء في حشا حسنـاء
ليتني ما هتكت عنكنّ ستراً فشويتنّ تحت ذاك الغطـاء
قلن : لولا انكشافنا ماتجلت عنـك ظلمـاء شبهة قتمـاء
قلت :أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشي الظلمـاء
قد أفدتنني مع الخبر بالصا حب أن ربّ كاسف مستضاء
قلن : أعجب بمهتـد يتمنى أنه لـم يزل على عميـاء
كنـت في شبهة فزالت بنـا عنـك فاوسعتنـا من الازراء
وتمنيت ان تـكون على الحيرة تحت العمايـة الطخيـاء
قلت : تالله ليس مثـلي من ودّ ضـلالاً وحـيرة باهتداء
غير أني وددت ستر صديقي بـدلاً باستفـادة الانبـاء
ليس في الحق أن تودّ لخل أنـه الدهـر كامن الأدواء
قلن : هذا هوىً فعرّج على الحق وخـلّ الهوى لقلب هواء

بـــل من الحق أن تنفّـــر عنهن والا فأنت كالبعـــداء
إن بحث الطبيب عن داء ذي الداءلأس الشفـاء قبـل الشفـاء
دونك الكشف والعتاب فقوّم بهمـــا كـل خـلة عوجاء
واذا ما بدا لك العرء [١٢] يوما فتتبع نقابه [١٣] بالهنـاء [١٤]
قلت :في ذاك موتكن وما الموت بمستعذب ـ لدى الاحيـاء
قلن : ما الموت بالكريه إذا كا ن بحق فـــلا تزد في المـراء

أثبت هذا الحوار على طوله لأنه فريد في بابه ولكني مضطر مع ذلك إلى أن أشك في أن يكون ابن الرومي محقاً في توجيهه مثل هذا العتاب القارس إلى رجل يشهد هو فيما بقي من هذه القصيدة أنه من أفضل رجال عصره وأعزرهم علماً وأشرفهم خلقاً .

رثاؤه : ولكن اذا كان ابن الرومي مقلّداً في عامة غزله ، كاذباً متكلفاً في سائر مديحه ، مسرفاً شديد الأسراف في هجائه وعتابه ، فانه مخلص كل الأخلاص في رثائه ذلك لانه لا يرثي إلا من رسخ حبه في قلبه وعظم مكانه من نفسه ، وقد قلت لك عند الكلام على رثاء أبي تمام إن له رثاءً مطبوعا وآخر مصنوعا ولكني لا استطيع أن أقول لك مثل هذا بالنسبة الى رثاء ابن الرومي لانه لا يتّجر برثائه كما يتّجر بمديحه وانما يدّخره للاعراب عن عواطفـه والافصاح عن مشاعره ولذلك كان مجموعة عواطف صادقة وأحاسيس كريمة ومشاعر نبيلة ، فقد تطوع مثلاً برثاء البصرة عندما سطا عليها الزنج فقتلوا أهلها وسلبوا أموالها وهدموا دورها واستحلوا منها كل ما حرم الله والضمير

(١٢) العر : الجرب .
(١٣) النقاب : جمع نقب وهو القطع المتفرقة من الجرب .
(١٤) الهناء ككتاب : القطران وهو ما يداوى به الجرب .

والقانون ، وتطوع كذلك برثاء يحيى بن عمرو العلوي المتقدم ذكره ، بل إنه أقدم على تهلكة في رثائه ذلك العلوي المسكين لأنه استطرد إلى التنديد بآل العباس تنديداً سبق أن رويته لك والى التنديد بآل طاهر الذين تولوا قتل يحيى المذكور والقضاء على فتنته والذين وصفهم الشاعر بأنهم أعداء للنبي وآله ، خصوم للاسلام ، يدينون به في الظاهر، ويكيدون له في الباطن • وما دام الحديث قد انتهى بي إلى رثاء المترجم يحيى بن عمرو فلأرو لك مثلاً من هذا الرثاء فانه من خير ما رثى به شاعر مخلص فقيداً عزّ عليه فقده وبرّح به مصابه • قال المترجم :

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم
لبلواكم ـ عما قليل ـ مفرّج
أما فيهم راع لحق نبيه ولا خائف من ربه يتحرج

* * *

أبعد المكنى بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح السماء فتسرج
لنا وعلينا لا عليه ولا له تسحسح أسراب الدموع وتنسج
وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثالها تتبلّج

* * *

أيحيى العلى لهفي لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبرج
سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذي أنت جاره يرف عليه الأقحوان المفلّج
ويا أسفي ألا ترد تحية سوى أرج من طيب رمسك يأرج
ألا إنما ناح الحمائم بعدما ثويت وكانت قبل ذلك تهزج
عفاء على دار ظعنت لغيرها فليس بها للصالحين معرّج

وهي طويلة وكلها على هذا النحو من النفاسة والجودة .

وصفه : وماذا يقال عن وصف ابن الرومي ؟ .

الواقع أنه سجلّ حافل بكل ما يمثل رقة شعوره ودقة احساسه وحسن تقديره للغناء ، وكثرة اختلافه إلى مجالس اللهو والطرب وشدة نهمه وإيثاره الفقر مع الراحة على القيام بالاسفار وإن أدت هذه الى الغنى : فأنت تنتقل فيه من روضة غناء تترنح أشجارها وتترنم أطيارها وتتبسم أزهارها وتتدفق مياهها وتندى ظلالها ويهب عليها النسيم الطلق فيحمل أنفاسها العطرة ذات اليمين وذات الشمال إلى مجلس طرب تصلّ أقداحه وتعربد أباريقه وتتناجى قياثيره وتتناغى مزاميره الى مائدة قد صفّت جفانها ونظّمت صحافها واختلفت طعومها وانسجمت ألوانها فجاءت مثلاً حياً في سعة البذل وسلامة الذوق ، إلى مخبز تصنع فيه الرقاق بما لا مزيد عليه من اللباقة والسرعة ، الى معمل حلوى يشتغل فيه صانع الزلابية منذ السحر أو حتى السحر الى خان موحش تداعت أركانه وتزعزع بنيانه وأوشكت أن تنقضّ سقوفه ، يأوي اليه المسافرون التعساء في الليالي السود ، إلى نهر هائج مائج تعبث به زوبعة هوجاء تقذف الرعب في قلوب ركابه وتهددهم بأن تصنع منهم وليمة لاسماكه وهكذا . وما أعدك أن أروي لك مثلاً لكل ما تقدمت له الاشارة من وصف ابن الرومي فذلك مما يطول ويطول الى درجة الاملال ولكني أروي لك علاوة على ما سبق ذكره من وصف المترجم عند الكلام على غزله وعند الكلام على مديحه مثالاً واحداً يخيّل إليّ أنه من رائع وصفه وهو قوله في العنب الرازقي (١٥) .

---

(١٥) لا وجود لهذا النوع من العنب الآن فى العراق .

ورازقي مخطـــف الخصـــور
كـــأنه مخـازن البـــلور
لم يبق منه وهـــج الحـرور
إلا ضياءاً في ظـروف نـور
لو أنـــه يبقى عـلى الدهـور
قرط آذان الحســـان الحور
له مـذاق العسل المشـور (١٦)
ونكهـة المسك مـع الـكافور
وبرد مس الخصـر المقرور (١٧)
باكرتـه والطـير في الوكـور
وعـذر اللذات في البـكور (١٨)
بفتيـــة من ولـد المنصـور
أمـلاء للعـين من البـــدور
حتى أتينـا خيمـــة الناطور
قبل ارتفـاع الشمس للذرور
فأنقض كالطـاوي من الصقور
بطاعـــة الراغب لا المجبـور
ثـم جلسنـا مجلس المحبـور
على حفاف جـدول مسجور (١٩)

---

(١٦) المشور : المجني .
(١٧) الخصر : الشديد البرودة .
(٣٨) العذر هنا النجاح ولكنه بتسكين الذال وقد حركت للضرورة.
(١٩) مسجور : مملوء .

أبيض مثل المهرق المنشور [٢٠]
أو مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المذعور
بين سماطي شجر مسطور
فنيلت الأوطار في سرور
وكل ما نقضي من الأمور
تعلة عن يومنا المنظور
ومتعة من متع الغرور

لغته واسلوبه : وتسألني عن الطابع الذي يمتاز به ابن الرومي من حيث لغته وأسلوبه فأقول لك إنه يتألف من ثلاثة أشياء مختلفة هي الاطالة ، والاستهانة بسلامةالاداء ، والاستقصاء الدقيق الشامل للمعاني والاغراض : فقد أطال ابن الرومي إطالة لا عهد لنا بها من قبل فبلغ عدد أبيات همزيته التي يعاتب بها القاسم بن عبيد الله بن وهب والتي مطلعها :

أيها القاسم القسيم رواءا والذي ضم وده الاهواءا

ستة عشر ومئتي بيت (٢١٦) ، وبائيته التي يمدح بها أحمد بن ثوابة والتي مطلعها :

دع اللوم ان اللوم عون النوائب ولا تتجاوز فيه حدّ المعاتب

ثلاثة وثمانين ومئة بيت (١٨٣) . وبائيته التي يمدح بها أبا العباس بن ثوابة ويهجو الكوكبي والتي مطلعها :

أنى هجوت بني ثوابه ؟ يا صاحب العين المصابة

(٢٠) المهرق : ما يكتب فيه .

خمسة وسبعين ومئة بيت (١٧٥) . وقل مثل ذلك عن كثير من قصائده . وفي هذا إسراف غير قليل فان شاعراً متكسباً كابن الرومي يستطيع أن يلفق ما شاء من أكاذيب وأباطيل يرضي بها ممدوحه ويحصل على جائزته في خمسين أو أربعين بيتاً أو اقل من هذا المقدار وقد عرف أبو عبادة البحتري وهو معاصر لابن الرومي هذه الحقيقة وعمل بها فخف ظله على معاصريه ولطف موقعه من نفوسهم فقرؤوه وأحبوه وأعجبوا به وسموا قصاره (سلاسل الذهب) .

والغريب في أمر ابن الرومي أنه يطيل هذه الاطالة المملة مع أنه يوصي بالاختصار فهو يقول :

كل امريء مدح امرأ لنواله فأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

ولكنه يستثني نفسه من هذه الملاحظة المعقولة فيقول :

غيري فأني لا أطيل مدائحي إلا لأوفي من مدحت ثناءه
وأعد ظلماً أن أقل مديحه عمداً وأسخط إن أقل عطاءه

وأحسب أن ما يدعيه المترجم في البيتين الأخيرين غير صحيح فانه يدعي أنه يطيل مدائحه ليوفي ممدوحيه حقوقهم ولكنه ينسى أنه القائل:

«يقولون ما لايفعلون» مسبة من الله مسبوب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون ما لا يفعل الأمراء

وينسى كذلك أنه هجا أبا الصقر اسماعيل بن بلبل وغيره من ممدوحيه لأنهم لم يثيبوه على مديحه أشنع هجاء . والواقع أنه مجبول على الاطالة ، وما أريد أن أقول إنه ورثها عن أخواله الفرس الذين يذهب البعض إلى أنهم ميالون بفطرتهم الى الأفاضة المفرطة في الكلام

ويضرب لهذا مثلاً عبد الحميد بن يحيى الكاتب وعبد الله ابن المقفع . اللذين هما من أشد الكتّاب ميلاً الى الاطالة . أقول اني لا أرى هذا الرأي لأني لا أملك البرهان القاطع على صحته ، ولكني أزعم ان ابن الرومي مجبول على الاطالة غير قادر على التملص منها . وقد كلفته هذه غالياً اذ كانت احدى العوامل التي أبعدته عن قلوب ممدوحيه وقد أعتذر عنهامرارامديدة فمن ذلك قوله معتذراً الى صاعد عن طول قصيدة

لم أطلها كما أطال رشاءً ماتـــح ساء ظنه بقليب
حاش لله ليس مثلي تظنّى ظن سوء بمستقاك القريب
غير أني امرؤ وجدت مقالاً مستتباً في كل قرم نجيب
فأطلت المديح ما طال فيهم مع أني قصرت غير مصيب

وليس هذا كل ما جنت الاطالة على ابن الرومي بل إنها أدت الى استهانته بسلامة الاداء فضعف أسلوبه وتطرق الفساد الى لغته فجمع الألفاظ المتنافرة وصّرف الكلمات على وجه غير صحيح ، وعدّى الافعال بغير الطرق التي تعدى بها ، وخاطب الجمع مخاطبة المفرد .

فمن أمثلة كلامه الضعيف التأليف المتنافر الألفاظ قوله :

« لهف » نفسي عليك أيتها البصرة «لهفاً» كمثل « لهب » الضرام

وقولـــه :

« صبا » من شـاب مفرقه « تصاب »
وان طلب « الصبا » والقلب « صاب »

وقولـــه :

لم يقاسوا ولم يواسوا خليـلا « سـوأة سـوأة لهم سوءاءا »

وقوله من نفس القصيدة :

وانتفع بالعـــلا (بذهنك) (واذمـــم)
كل (ذهن) لا ينفـــع (الذهنـــاءا)

فأنت ترى أن لا مات البيت الاول وهاءاته وصادات البيت الثاني وباءاته وسينات البيت الثالث وواواته وهمزاته وذالات البيت الرابع وهاءاته مما لا يستسيغه انسان يمكن الاعتماد على ذوقه . هذا مـع العلم بأن ذهناء أي صاحب ذهن جمع لا وجود له في اللغة العربية . ومن أمثلة تصريفه الكلمات على وجه غير صحيح قوله :

يسمو به جـــده فيحظى وتارة مجـده « فيعلى »

فقوله يعلى خطأ والصواب يعلو .

ومن الأمثلة على تعديته الأفعال بصورة غير صحيحة قوله :

عجبا منه كيف يُســلي ويلهي مـع تهييجـه على الأشـجان

اذ الصواب مع تهييجه الاشجان .

ومن أمثلة مخاطبته الجمع مخاطبة المفرد قوله :

يا بني طاهر طهرتم وطبتـم وذكوتم في السر والاعـلان
هاكها لا أقول ذاك مـدلاً قول ذي نخـوة بها وامتنان

فقد كان عليه أن يقول هاكموها . وفي الامكان اعطاء أمثلة أخرى كثيرة لكل ما سبق ذكره من هنات الشاعر وهفواته كما أن له هنـات وهفوات عديدة من أنواع أخرى مختلفة رأيت أن أضرب عنها صفحا رغبة في الايجاز .

ولكن أليس لابن الرومي ما يكفّر عن اطالته واستهاتته بسلامة

الاداء أو يخفف من وطأتها على الاقل ؟ .

بلى ان لديه ما يخفف من وطأتها الى حدٍ بعيد وهو استقصاؤه الموضوعات التي يعالجها استقصاء دقيقا يأتي معه على كل كبيرة وصغيرة ويتغلغل الى كل جزء من أجزاء الموضوع حتى يستوفيه ويستوعبه ويخرجه تام الهيئة كامل التركيب. وفيما تقدم من غزلهومديحه ووصفه ما يؤيد هذا تأييـــدا كافيا فانه لم يبق في موضوع كل من الامثلة المتقدم ذكرها بقية يمكن أن يطمع بها طامع وقد عرف له القدماء هذا فقال عنه ابن خلكان انه « صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة ، فيخرجها من مكامنها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولايترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ولايبقي فيه بقية»(٢١) وقال ابن رشيق « وكان ابن الرومي ضنينا بالمعاني ، حريصا عليهـــا يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، والى كل ناحية حتىيميته ويعلم أنهلا مطمع فيه لأحد»(٢٢).

هذه هي حسنة ابن الرومي الكبرى من حيث اللغة والأسلوب وتلك مساوؤه ، ولو أنه أعاد النظر في شعره فهذبه ونقحه لاجتمع له من نفاسة المعنى وطرافتـــه وسلامـــة الأداء ولطافته ما يجعله فذاً بين الشعراء .

د ـ خاتمـــة :

ابن الرومي نسيج وحده من حيث هو رجل، ومن حيث هو شاعر.

(٢١) وفيات الاعيان الجزء الأول ص ٣٥١ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢٢) العمدة الجزء الثاني ص ١٨٥ طبعة مطبعة السعادة بمصر .

فأما من حيث هو رجل فقد اضطربت أعصابه ، واختلط عقله ، وتناقضت أقواله واعماله ، وتملكته الشهوة ، واستولت عليه اللذة ، فذهبت رجوليته ، وماتت ارادته ، وهانت عليه نفسه فاستخف به معاصروه ، وسخروا منه ، وتنادروا عليه • وأما من حيث هو شاعر فقد طال نفسه، ورق احساسه ، واتسع خياله فشمل وصفه كل ما وقع تحت سمعه وبصره أو كاد • وكان من نتائج طول نفسه الى درجة الافراط أن ركت لغته ، ووهن أسلوبه في كثير من الاحيان ، وكثرت أخطاؤه ، ولكن مهما يكن من شيء فانه من فحول شعراء اللغة العربيةوما أظن أنه منالصواب في شيء أن نفضله عليهم قاطبة كما يرى فريق من النقاد •

نعم انه ربما كان أكثر شعراء اللغة العربية انتاجا ولكنه لم يكن أكثرهم غررا ومحاسن ، وقد لا أكون مسعنا في الخطأ اذا زعمت أن أكثر شعراء اللغة العربية غررا ومحاسن انما هو « أبو الطيب المتنبي » لاسلفه ابن الرومي ولا غيره •

* * *

الفصل الرابع

ابن المعتز

أ ــ حياته : اسمه وكنيته ونسبه • مولده • نشأته وتعليمه • ابتعاده عن السياسة • سببه • انصرافه الى البحث والدرس من جهة والى النديم والكأس من جهة أخرى • ما يدل على هذا من شعره • معاتبته في أمر عبثه ومجونه • توبته • تحلله منها • تذبذبه بين الغواية والتوبة ، عــذره عن ذلك• امتناعه عن اللهو فيشهر رمضان • صلاته الغرامية والفنية • ما لحق به من شر السياسة رغم ابتعاده عنها • حبسه إثر وفاة المعتضد • اطلاقه • عودته الى لهــوه ومرحه • مبايعته بالخلافة واقصاء المقتدر عنها • فشله في السيطرة على الموقف • غلبة رجال المقتدر على أنصاره• اختفاؤه • قتله •

ب ــ صفاته : جماله • ظرفه • رغبته في المسالمة • حبه الشديد للعلم• سرعة خاطره •

جـ ــ آثاره عامة : ثبت كتبه في فهرس ابن النديم • ما يضاف الى هذا الثبت •كتابا (البديع) وطبقات الشعراء فيمديح الخلفاء والوزراء) • شــعره • أبوابه • ماذا ندرس منــه • غزله • مكان ملهمته « شرة » منه • مثل من غزله فيها•

وصفه • ما له من القيمة الاجتماعية • ماله من القيمة التاريخية • مدى تصويره الطبيعة • مثل منوعة منه• شعره انسياسي •موقفه من أبناء عمه العلويين• مساجلته لهم • تقربه منهم • تنصله مما يرمى به من بغض الامام علي (ع س) • مثل من شعره في هذا الباب • موقفه من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم • أرجوزته في المعتضد • كلمة فيها • مثل منها • قصر الرباب وعجائبه• غفلة كتب التاريخ والجغرافيا عنه • مقارنة بين أرجوزة المترجم وأرجوزة ابن عبد ربه في الناصر • مطلع هذه الارجوزة • حكمه وخواطره (في الزهد والآداب والشيب) • أهميتها • مثل منها • لغته وأسلوبه •مكان الزخرفة والبساطة من فنه • متى يؤثر الاولى ومتى يجنح الى الثانية • خصائص لغته •

د ـ خاتمة : منزلته بين الشعراء •

أ ـ حيانـــه :

حدثتك فيما سبق عن مولى من موالى بني العباس رفعه الشعر الى منزلة أمير كبير من أمراء الكلام • وأحدثك الآن عن أمير عباسي لم يتهيأ له الظفر بتاج الملك وصولجان الخلافة فاعتاض عنهما بتاج العلم وصولجان الأدب • هذا الامير هو ابو العباس عبد الله بن المعتز بالله ابن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وقد ولد ببغداد لسبع بقين من شعبان

سنة ٢٤٧ للهجرة على رواية الخطيب البغدادي [١] وقيل سنة ٤٦ وقيل ٤٩ ولكن ربما كانت رواية الخطيب البغدادي أقرب من غيرها الى الصواب لقرب ما بين الرجلين . ونشأ في دار الخلافة ودرس علوم اللغة والدين على مؤدبه الخاص أحمد بن سعيد الدمشقي الذي صار فيما بعد أحد رواة شعره . واتصل بأبي العباس المبرّد وثعلب وابي علي العنزي والبلاذري المؤرخ وأخذ عنهم جميعا ، وشافه فصحاء الاعراب الذين كانوا يترددون الى سرّ من رأى في أيامه وروي عنهم . وكان مجلسه ملتقى العلماء والشعراء والكتاب ، تكثر فيه الرواية وتدور المناقشات العلمية والادبية المفيدة .

وما كان أدب عبد الله ليتناقض واشتغاله بالسياسة لولا أن الحوادث المؤلمة التي تتابعت على بيته بعد قتل جده المتوكل على الله فسلبته قوته وأفقدته سلطانه الفعلي والتي طالما تحدّث عنها في شعره ، حملته على أن ينبذ السياسة نبذا تاما فزهد بالملك ونفض يديه من الخلافة «نفض الانامل من تراب الميت» وقصر جهوده على أرضاء عقله وجسمه فأدرك من لذة العقل ولذة الجسم ما أراد . ومن يمعن النظر في أخباره وشعره يستخلص منهما انه رجل بحث ودرس ورجل نديم وكأس يقضي جزءا غير يسير من وقته في الدرس والتفكير والتأليف وقرض الشعر ، ويقضي جزءاً غير يسير منه كذلك في مغازلة الحسان ومعاقرة الندمان والخلو الى الطبيعة والاستمتاع بجمالها الساحر وبسماع الموسيقى والخروج الى الصيد وغير ذلك من ضروب اللهو والتسلية . وقد وصف جده واقباله على البحث والدرس بقوله :

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٩٥ الطبعة الاولى .

شغلي اذا ما كان للناس شـغل دفتر فقـه أو حديث أو غـزل

وعبر عن رغبته الصادقة في الاستمتاع بمباهج العيش ولذات الحياة بقوله :

قم نصطبح فليالي الوصل مقمرة كأنها باجتماع الشمل أسـحار
والدهر في غفلة نامت حوادثـه ونبهتنـا الى اللـذات اوتار
أما ترى أربعا للهو قـد جمعت جنك وعـود وقانون ومزمـار
فخذ بحظ من الدنيـا فلذتهـا تفنى وتبقى روايات وأخبـار

ولم يكن ابن المعتز على جلالة قدره وعظم منزلته بنجـوة من التأنيب والتقريع في أمر خلاعته واستهتاره فقد حدث أن بعض الخلفاء لامه على ذلك ورغب اليه أن يكبح من جماح شهواته ، وقد عمل بهذه الرغبة فهجر ندمانه واطرح كأسـه :

ونهاني الامـام عن سـفه الكأ س فردت على السقاة المـدام

الا أنه لم يلبث ان تحلل من هذه التوبة وعاد سيرته الاولى غير حافل بما يوجه اليه من تقريع وتأنيب :

خليلي قد طاب الشراب المبرّد وقد عدت بعد النسك والعود أحمد

واذا صدقناه ، ولا مانع لدينا من تصديقه في هذا على الاقل ، فانه يؤكد لنا أنه تاب ثم ترامى في أحضان غوايته مرارا عديدة :

كم توبة قـد فضضت خاتمهـا عني وللتـائبين رجعـات

وهو يلقي التبعة في ذلك على قلبه الذي يقول عنه « انه مطواع في الغي مكره في الرشد » (اذا شاوره في توبة ـ قال : لا ـ واذا قال هذه فتنة قال : أين هي ؟) وقد اعتذر عن ذلك بصراحة بل بسذاجة تامة فقال :

سحرتني الدنيا وعادات لـذا تي فجسمي كهل وقلبي صبي

على أنه مما لاشك فيه أن ابن المعتز كان ينقطع عن لذاته ويهجر مجالس لهوه وطربه في أيام شهر رمضان . الا انه لا يكاد يلمح هلال العيد حتى يستأنف حياته المرحلة الماجنة :

أهلا وسهلا بالناي والعـود وكأس سـاق كالغصن مقـدود
قـد انقضت دولة الصيام وقد بشر سـقم الهـلال بالعيـد
يتـلو الثريا كفـاغر شـره يفتـح فاه لاكـل عنقـود

وقد أحب المترجم جـارية اسـمها (شرة) (٢) سأعرض لمكانها من نفسه وشعره عند الكلام على غزله وكان له غلام اسمه « نشوان » ومغنية اسمها « زرياب » وكان يحبها حبا جما معهما قصص ونوادر عـديدة .

ومع ابتعاد عبد الله الشديد عن السياسة فقد نزل به أذاها مرة بعد أخرى حتى كان فيها حتفه . فمن ذلك أنه لما توفي المعتضد سنة ٢٨٩ للهجرة وكان ابنه وخليفته المكتفي غائبا بالرقة ، اعتقـل ثلاثة أمراء عباسيين خيف تطلعهم الى العرش بينهم صاحب الترجمة . وقلق هذا في الليلة التي دخل المكتفي في صبيحتها بغداد قلقا شديدا وخاف أن تضرب عنقه . وسمع في آخر هذه الليلة حمامة تغني بالقرب منه فقال :

يا نفس صبرا لعل الخير عقبـاك خاتتك من بعد طول الامن دنياك
مرت بنـا سحرا طير فقلت لها طوباك يا ليتني اياك طـوباك
لكن هو الدهر فالقيه على حذر فرب مثلك تنـزو بين أشراك (٣)

(٢) هكذا يسميها هو فى شعره المروي فى ديوانه وفى غيره اما صاحب الأغاني فيسميها نشر .

(٣) يقال ان ابن المعتز ذكر هذه الأبيات فى الليلة التي قتل فى

ولكن الحادث انتهى بسلام ، فان الخليفة الجديد أمر بالأفراج عن الامراء المعتقلين واعطاء كل واحد منهم ألف دينار اثر استتباب الامر له ببغداد ، وعاد عبد الله الى مرحه ومجونه • ودار الزمان دورته فأجمع رجال الحل والعقد ببغداد عام « ٢٩٦ » للهجرة على خلع المقتدر لحداثة سنه ونقص كفايته وقلبوا نظرهم في آل العباس فلم يجدوا فيهم أكفأ للخلافة من عبد الله • فعرضوها عليه ، فقبلها ولكن على ألا يراق في سبيله دم فأجابوه الى ذلك وعقدوا له البيعة ولقبوه (المرتضى) أو (الراضي) أو (المنصف) أو (الغالب بالله) ولم يخالف عليه سوى غلمان المقتدر الذين عزّ عليهم خروج الامر من أيديهم ، فأجمعوا على المقاومة • ومع أن الوزراء والقادة والقضاة كانوا جميعا في جانب عبدالله فقد خسر الموقف وغلب أشياع المقتدر على أعوانه فشتتوهم ومزّقوهم كل ممزّق • وعندما رأى انفضاض الناس من حوله لجأ الى دار أبي عبد الله الحسين بن عبد الله التاجر الجوهري الكبير المعروف « بابن الجصاص » فأختبأ فيها ولكن خادما لابن الجصاص وشى به الى المقتدر فأمر باخراجه وتسليمه لمؤنس الخادم فخنقه هذا وسلمه الى أهله فدفن في خربة بجوار داره في اليوم الثاني من ربيع الآخر عام (٢٩٦) للهجرة وبهذه الطريقة المحزنة انتهت حياة عبد الله التي طالما كانت حياة لهو ومرح وسرور •

ب ـ صفاتـه :

واذا تركنا مجون عبد الله وبحثنا عن صفاته الاخرى فان أهم ما

صبيحتها فاضاف اليها أبياتاً اشك فى نسبتها اليه لركاكتها .

يتكشف عنه البحث هو جمال الصورة وخفة الروح وحب العلم والرغبة في المسالمة وسرعة الخاطر .

وقد غفل مؤرخو عبد الله عن أن يقولوا لنا انه كان وسيم الطلعة صبيح الوجه بديع التسمات فتدارك هو هذا النقص بقوله في معرض الكلام على شيخوخته :

من بعد ما قد كنت أني فتى كقضيب بان ناعم رطب
فاذا رأتني عين غانية قالت لرائد لحظها حسبي

وقوله :

اذا ما تمشت في عين خريدة فليست تخطاني الى من وراءيا

وقوله :

أغدو وجنيء الصبا أميري ملء عيون الغانيات الحور

وغفل مؤرخوه كذلك عن أن يقولوا لنا انه كان على جانب كبير من رقة الطبع ولطف الشمائل وخفة الروح فتبينا ذلك في شعره واخباره

روى جعفر بن قدامة أنه كان ذات يوم عند ابن المعتز وبين يديه جارية محسنة تغنيه ولكنها قبيحة الوجه فكان يتعاشق ويتظاهر بالهيام بها فلما قامت قال له أحد جلاسه « أيها الامير سألتك بالله أتعشق هذه التي ما رأيت قط أقبح منها » فقال وهو يضحك :

قلبي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه (٤)

(٤) الاغاني ج ٩ ص ١٣٧ طبع مطبعة التقدم بمصر .

وحدث عبد الله بن موسى الكاتب أنه دخل على ابن المعتز وهو يشرف على جماعة من البنائين يعملون في داره فانشده :

ألا من لنفس وأحزانها ودار تداعى بحيطانها
أظل نهاري في شمسها شقيا معنى ببنيانها
أسوّد وجهي بتبييضها وأهدم كيسي بعمرانها (٥)

ومن شعره الدال على فكاهته وخفة روحه هذان البيتان :

طوّل في أيلول شهر الصيام وما قضينا فيه حق المدام
والله لا أرض عن الدهر أو يسرق شهر الصوم من كل عام

وهناك مثل أخرى كثيرة من هذا القبيل مر بك بعضها في أثناء الكلام على حياته وسيمر بك جانب منها في مراحل مختلفة من هذا الحديث .

أما حبه الشديد للعلم فتدلنا عليه آثاره الكثيرة التي سأذكر بعضها لك عما قريب ، وقد وصفه لنا هو بقوله :

شغلي اذا ما كان للناس شغل دفتر فقه أو حديث أو غزل

ومما يجري هذا المجرى في الدلالة على حبه الشديد للعلم وأهله هذه الابيات التي كتب بها الى ابي العباس أحمد بن يحيى احد علماء بغداد يستزيره ويتشوق اليه :

ما وجد صاد في الحبال موثق بماء مزن بارد مصفّق
بالريح لم يطرق ولم يرنق جادت به أخلاف دجن مطبق (٦)
بصخرة ان تر شمسا تبرق فهو عليها كالزجاج الأزرق

---

(٥) المصدر نفسه ص ١٣٧ .
(٦) الاخلاف : الضروع ، والدجن : السحاب .

صريح غيث خالص لم يمذق الا كوجدي بك لكن أتقي
يا فاتحا لكل علم مغلق وصيرفيا ناقدا للمنطق
ان قال هذا بهرج لم ينفق انا على البعاد والتفرق
لنلتقي بالذكر ان لم نلتق(٧)

وتسألني البرهان على حب صاحبنا للخير ورغبته الصادقة في المسالمة فاكتفي بأن أذكر ما اشترط على قادة الرأي ببغداد من تحاشي اراقة الدماء في سبيل بيعته وأن أسترعي انتباهك الى خبر سأذكره في أثناء الكلام على شعره السياسي ينبؤنا أنه عدل من مساجلة أبناء عمه الطالبيين وأخذ يتودد اليهم على أثر اعتذار جماعة منهم اليه وتنصلهم مما نسب الى بعض شعرائهم من ملاحاة بني العباس والطعن على خلافتهم.

وقد مر بك في حديث الجارية الحسنة الغناء القبيحة الوجه ما يدل على سرعة خاطر عبد الله فأضف الآن الى هذا ما رواه جعفر بن قدامة من أنه كان عند المترجم في يوم من أيام الربيع فخرجت عليهم جارية له كان يحبها ويهيم بها وعليها غلالة معصفرة وبيدها جنابى من باكورة باقلاء (والجنابى لعبة للصبيان) فقالت له يا سيدي تلعب معي جنابى فالتفت اليهم وقال على بديهته :

فديت من مر يمشي في معصفرة عشية فسقاني ثم حياني
وقال : تلعب جنابى فقلت له من جدّ بالوصل لم يلعب بهجراني(٨)

ومن هذا القبيل ما رواه جعفر بن قدامة أيضا من أنه كان « عند

---

(٧) فى رواية هذه الأبيات شيء من الخلاف بين الديوان وكتابي الأوراق وتاريخ بغداد . ولكني آثرت رواية ابي بكر الصولي لأنه من رواة ابن المعتز الذين عرفوه معرفة كافية واتصلوا به اتصالا مباشرا .
(٨) الاغاني ج ٩ ص ١٣٦ .

عبد الله بن المعتز ومعهم النميري فحضرت الصلاة فقام النميري فصلى صلاة خفيفة جدا ثم دعا بعد انقضاء صلاته وسجد سجدة طويلة حتى استثقله جميع من حضر بسببها وعبد الله ينظر متعجبا ثم قال :

صلاتك بين الملا نقرة كما اختلس الجرعة الوالغ
وتسجد من بعدها سجدة كما ختم المزود الفارغ [٩]

حـ ـ آثاره :

أسلفت أن عبد الله رجل بحث ودرس (يقضي جزءا غير يسير من وقته في الدرس والتفكير والتأليف وقرض الشعر) وأضيف الآن الى هذا أن ابن النديم ذكر له في فهرسه أحد عشر كتاباً وهي الزهر والرياض، البديع ، مكاتبات الاخوان بالشعر ، الجوارح والصيد ، السرقات . أشعار الملوك ، الآداب ، حلي الأخبار ، طبقات الشعراء ، الجامع في الغناء ، ارجوزته في ذم الصبوح . وأنا أضيف الى هذا الثبت • فصول التماثيل في تباشير السرور) المنشور بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م وديوانه القادم ذكره والذي يحتوي على أرجوزته في ذم الصبوح وعلى أرجوزة له أخرى أهم منها بكثير في المعتضد أسماها كتاباً وأهم كتبه التي نشرت الى الآن البديع) [١٠] (وطبقات الشعراء في مدح الخلفاء

(٩) الاغاني ج ٩ ص ١٣٧ .

(١٠) نشر المستشرق الروسي (اغناطيوس كراتشقوفسكي) هذا الكتاب سنة ١٩٣٥ مصدرا اياه بدراسة مفيدة لابن المعتز في الانكليزية ونشره محمد عبد المنعم خفاجي بمصر عام ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م مصدرا اياه بدراسة حسنة كذلك لنشأة البديع وتطوره .

والوزراء) [11] فأما الاول فهو رسالة تحتوي على ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع منها الاستعارة والتجنيس والمطابقة .اخترع ابن المعتز اسماءها وأورد لها شواهد كثيرة من القرآن والحديث وكلام العرب المنظوم والمنثور في الجاهلية والاسلام . ومما يجب التنويه به أن ابن المعتز أول من ألف في البديع ثم حذا حذوه العلماء والأدباء والنقاد فكتبوا فيه كتباً كثيرة . وأما الثاني فهو كتاب تراجم تختلف إيجازاً واطناباً باختلاف الاحوال التي تحيط بالمؤلف على أني لا أضمن حياده حيال الشعراء المشكوك في ولائهم لآل العباس .

شعره :

بيد أن الذي يعنيني من ابن المعتز قبل كل شيء شعره الذي يعتبر بحق صفوة انتاجه . وهو كثير الابواب مختلف الانواع قيل بعضه رغبة في محاكاة القدماء وعملاً على إظهار المقدرة البيانية ، فغلب عليه التقليد وشاع فيه التكرار [12] وفقد منه الترتيب . وهذا النوع من

(١١) طبع هذا الكتاب فى مطبعة جامعة كامبرج سنة ١٩٣٩ م .

(١٢) يكرر ابن المعتز اكثر ما يكرر وصف حياته فيحدثنا انه شرب الخمر وسمع الغناء وظفر بوصل الغيد الحسان وخاض الحروب وترى الضيفان وقطع البيد القفار تحت دياجير الليل ، مرة على متن ناقة كوماء وتارة على صهوة فرس نجيب . مضيفاً الى ذلك احياناً وصف البروق والرعود والامطار والرياض وهو يتشبه فى هذا بامرىء القيس وطرفة والأعشى وغيرهم من فحول الجاهلية ويقلد مطولاتهم . وليس من شك فى انه شرب ولعب وسمع الغناء ونعم بوصل الغيد الملاح ، كما انه من غير شك أهل لقرى الضيفان وايواء العفاة الضاربين فى البيداء وغيرهم ولكن من المشكوك فيه جداً ان يكون رجل حرب وضرب ورحلة دائمة فى الصحراء . وترى قصائده التي يشيع فيها هذا التكرار العجيب فى باب الفخر من ديوانه .

شعره يكثر في بابي (المديح والفخر) . وقيل بعضه الآخر إرضاءاً لحاجات العقل والنفس وعملاً على خدمة الادب والفن فغلب عليه الصدق وشاع فيه الابتكار وعدم التكلف وهذا النوع من شعره يؤلف على وجه التقريب بابي (الملح والاوصاف) و (الزهد والآداب والشيب) . على أن الأبواب الاخرى من ديوانه تحتوي على شيء منه غير قليل . ولم يجمع شعر عبد الله حتى الآن جمعاً كاملاً . ففي الجزء الثالث من كتاب « الأوراق » « للصولي » قصائد ومقطوعات كثيرة غير موجودة في ديوانه المطبوع بمصر عام (١٨٩١) م وبيروت عام ١٩١٣ م (وفي ديوان المعاني) (ومعاهد التنصيص) قطع عديدة غفل عنها ناشر الديوان (١٣) . وقد عالج صاحبنا كل نوع من أنواع القريض فقال المديح والهجاء والرثاء والفخر ووصف الطبيعة والسياسة والاجتماع وأجاد في كثير من هذه الأبواب إجادة تستحق التقدير وتبعث على الأعجاب .

وسأقتصر فيما يلي على دراسة غزله ووصفه وشعره السياسي ، المفرّق في بابي المديح والفخر ، وحكمه وخواطره التي أطلق عليها جامع الديوان « باب الزهد والآداب والشيب » لأن هذه الأبواب من شعره تحتوي على خير ما قال وأحقه بالتمحيص والدرس .

غزله : لعبد الله غزل كثير . نظم بعضه للغزل ذاته وللتعبير عن مقاصد الشاعر وأغراضه الغرامية . ونظم البعض الآخر منه تمهيداً للمديح أو الفخر ، على أن هذا الغزل التمهيدي ــ إن صحت هذه

---

(١٣) في طبعتي مصر وبيروت لديوان ابن المعتز من النقص والزيادة والمسخ والتشويه لهذا الديوان ما يجعل فائدته محدودة الى الغاية .

التسمية ــ لم يخل في كثير من الأحيان من الاشارة الى غرام حقيقي . فكل غزل ورد فيه ذكر (شرة) التي تقدمت لها الاشارة في ترجمته غزل معبر عن صبابة حقيقية وحب صادق وتتخلل غزل عبد الله اسماء كثيرة أكثرها دوراناً بالطبع وأدلها على حبه اسم شرة التي يظهر أنها شغلت مكاناً سامياً في قلبه واستأثرت بنصيب كبير من حبه ، ومن الغريب أن كتب التراجم التي عنيت بعبد الله وذكرت أخباره ومثلاً من أشعاره لم تشر إلى حبيبته هذه سوى اشارة غامضة مقتضبة . لكننا اذا درسنا علاقته بها في غزله تبين لنا انه ظفر بعطفها في فجر غرامه بها ونعم بوصلها مدة من الزمن بعيداً عن أعين الوشاة والرقباء :

ألا أيها القلب الذي هام هيمة ... بشرة حتى الآن هل أنت راجع
إذ الناس عن أخبارنا تحت غفلة ... وفي الحب اسعاف وللشمل جامع
واذ هي مثل البدر يفضح ليله ... وإذ أنا مسود المفارق يافع

إلا أنها لم تلبث أن احتجبت عنه فتعذر لقاؤها عليه واستحال وصلها قطيعة . وبذلها حرماناً . وأكبر الظن أن زواجها كان السبب في احتجابها عنه ــ وقد تزوجت شرة هذه بقالاً آثرت أن تكون حليلة له على أن تكون خليلة لابن المعتز . وقد أحفظ عملها هذا سيدها القديم فهجا زوجها وتمنى طلاقها بقوله :

أقول وقد ضاقت بأحزانها نفسي ... الا رب تطليق قريب من العرس
لئن صرت للبقال يا شر زوجة ... فلاعجب قد يرفض الكلب في الشمس

بيد أن الهجاء لم يشف غلة الشاعر فأخذ يحنّ الى صاحبته حنين المحب المهجور الى الحبيب النافر الهاجر يستعطفها حيناً ويعاتبها مرة ويداعبها تارة . ولك أن تتصفح باب الغزل في ديوانه لتتبين المكان

الواسع الذي تحتله منه هذه النثرات التي أروي لك منها قوله : ـ

شفعيني ياشر في رد نفسي فلقد طال حبس قلبي لديك
واذني بالرقاد لي إن عيني تستعير الرقاد من عينيك
أوهبي لي صبراً أرد به الدمع فاني أخاف دمعي عليك

وقوله :

وصل الخيال وصد صاحبه والحب لا تفنى عجائبه
يا شر إن انكرتني فلكم ليل رأتك معي كواكبه (١٤)

وقوله :

قد جاءنا العيد يا معذبتي لا تجعليه هماً وأحزانا
قومي فضحي بالهجر فيه لنا وصيريه يا شر قربانا

ولسنا نعلم أترملت شرة أم طلقت ؟ ولكننا نعلم بالتأكيد أنها استأنفت علاقتها بابن المعتز وقضت حياتها الى جانبه بدليل أنه طالما تحدث عنها في أيام ضعفه وشيخوخته إن جازت تسميته شيخاً . فمن ذلك قوله :

ضحكت شر إذ رأتني قد شبت وقالت قد فضض الأبنوس
قلت ان الشباب فيّ لباق بعد ، قالت هذا شباب لبيس

وقوله :

صدت شر وأزمعت هجري وصغت ضمائرها إلى الغدر

(١٤) بين الديوان والأوراق خلاف فى رواية هذين البيتين وقد آثرت رواية الأوراق .

قالت كبرت وشبت قلت لها هـــذا غبار وقائع الدهر

قد يقال : ولكن أليس من المحتمل أن يكون زواج شرة قد وقع بعد أن شاب سيدها وأنها لم تستأنف علاقتها به بعد مفارقتها إياه ؟ والجواب عن ذلك لا ! ! لأن ابن المعتز يخبرنا في أبيات سبق إيرادها (ألا أيها القلب .. الخ) أنه أحب شرة وظفر بوصلها وهو شاب في ميعة الصبا وليس من المرجح أن تقضي شرة أيام شبابها وكهولتها مع ابن المعتز ثم تبحث عن الزواج وتظفر به وهي في سن الشيخوخة . وليس من المرجح كذلك أن يحفل ابن المعتز بزواجها ومفارقتها اياه إذا كانت قد فعلت ذلك بعد أن ذوى شبابها وزالت نضرتها أو أشرفت على الزوال . ومهما يكن من شيء فان بعض غزل عبد الله ولا سيما غزله بشرة غزل صادق يرمز الى عواطف حقيقية ويعبر عن أحاسيس غير مكذوبة .

وصفه : أدل من غزل عبد الله على خطرات نفسه وخلجات قلبه وهمسات شعوره وصفه الذي لـم يغادر صغيرة ولا كبيرة تستحق التدوين في سجل الأدب الخالد الا أحصاها . فنحن نستطيع بفضل هذا الجزء من شعره أن نتبين حياة المرح والترف التي كان يحياهـا متنقلاً من قصر الى قصر ومن ضيعة الى ضيعة ، ومن مجلس طرب حافل بالمسرات الى آخر احفل بها منه . ونستطيع أيضاً بواسطة هذا الوصف أن نعرف شيئا غير قليل عن الطبيعة التي كان يغازلها ويناجيها ونستطيع كذلك أن نظفر في هذا الوصف بمعلومات اجتماعية وتاريخية تجمع بين الفائدة والطرافة الى حد بعيد . والآن لنطف في هذا الحقل الفسيح الغني كل الغنى بصنوف الزهر المتعدد الاشكال المتنوع العطور

والألوان ولنقف عند بعض أزهاره ورياحينه وقفات قصيرة فهذه قطعة يخبرنا فيها الشاعر أنه قضى بنهر فروخ يوما (طيبا سارا) شهد فيه حفلة سباق ضمت أنجب الخيل وأكرم الفتيان وأحرصهم على الاستمتاع بلذات الحياة .. وهذه ثانية تروي لنا أن المترجم كان كثير الاختلاف الى قرية عامرة تغطيها غابات الكرم بقرب سامراء اسمها « القادسية » يظهر من وصف الشاعر لها أنها كانت مصيفاً له ولأضرابه من الأمراء والكبراء . ولا تعرف كتب الجغرافية القديمة منها سوى الاسم .. وهذه ثالثة يصف فيها الشاعر أو طارا قضاها بين سمر الندمان ونقر العيدان في قصر اسمه «قصر بسطام» لا تعرف كتب التاريخ والجغرافية القديمة عنه شيئاً كذلك .. وهذه رابعة يحدثنا فيها عبد الله حديثاً طريفاً . عن عهد سعيد قضاه في « المطيرة » بقرب « دير عبدون » .. وهذه خامسة تخبرنا بجولة بديعة في قرية يعدها الشاعر « موسم العشاق » تدعى « الياسرية » ! ! . . وأمثال هذه القطع في شعر ابن المعتز كثيرة جداً تجدها مبعثرة في أبواب ديوانه المختلفة ، وكلها من الأهمية والنفاسة بحيث تستحق أن تدرس . أما ما يتصل من وصفه بالطبيعة فإنه كثير ومتنوع أنواعا مختلفة لأنه وصف منها كل ماشعر أنه جدير بالوصف ،ولذلك كان شعره فيها أشبه بمجموعة صور شمسية تمثل الصامت والناطق ، والجامد والمتحرك ، والحسن والقبيح أحياناً، مثال ذلك أنه بينا يصف مزنة « يلطم وابلها خد الارض » الى أن تنقيها هذه « بالغدران والخضر » اذا هو يصف طوفاناً مخرباً حصل في دجلة فاجتاح الدور والقصور والبساتين ومن بينها قصره وبستانه !. وبينا هو يصف حمامة يشرب على غنائها الكأس تلو الكأس اذا هو

« ينعت » حية « رقشاء » كأن جلدها « كمُّ درع قده بطل » وبينا هو يصف « نسيماً يبثر الارض بالغيث كذيل الغلالة المبلول » اذا هو يصف « هاجرة يأكل حرها صبر الركائب » وهكذا .

ولكي أعطيك فكرة صحيحة عن وصف ابن المعتز أروي لك مثلا مختلفة منه يمثل كل منها لوناً من ألوان الحياة التي تجذب انتباهه وتوقظ خياله وتغذي شعوره. ها هو ذا يصف الزهر فيقول في البنفسج:

بنفسج جمعت أوراقه فحكت كحلاء تشرب دمعاً يوم تشتيت
كأنه وحقاق القضب تجمعه أوائل النار في أطراف كبريت

ويقول في الآذريون :

كأن آذريونها والشمس فيه بادية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية (١٥)

ويقول في نيلوفر على بركة :

وبركة تزهو بنيلوفر ألوانه بالحسن منعوته
نهاره ينظر من مقلة شاخصة الأجفان مبهوتة
كأنما كل قضيب له يحمل في أعلاه ياقوتة

وها هو ذا يصف الفواكه فيقول فى التفاح :

كأنما التفاح لما بدا يرفل في أثوابه الحمر
شهد بماء الورد مستودع في أكر من جامد الخمر

(١٥) الغالية : طيب .

كأننـــا حـين نحيّى به نستنشق النـد من الجمر

ويقول في ليمونة :

يا حبـــذا ليمونـــة تحـدث للنفس الطـرب
كأ نهـــا كافـــورة لهـــا غشاء من ذهـب

ويقول في النارنج :

وأشجار نارنج كأن ثمارهـا حقـاق عقيق قد ملئن من الدر
مطالعها بين الغصون كأنهـا خدود عذارى في ملاحفها الخضر
أتت كـل مشتاق بريا حبيبه فهاجت له الأحزان من حيث لا يدري

ويقول فيه أيضاً :

كأنمـا النارنـج لمـا بدت صفرتـــه في حمرة كاللهيب
وجنـة معشوق رأى عاشقاً فاصفر ثم أحمر خوف الرقيب

وها هو ذا يصف الخمر وزجاجتها فيقول :

وندمان سقيت الراح صرفاً وأفق الصبح مرتفع المجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دق في ذهـــن لطيف

ثم ها هو ذا يصف فتيانا خرجوا الى الصيد في آخر ليل ومعهم بزاتهم فيقول :

وفتيان سروا والليل داج وضوء الصبح متهم الطلوع

كـأن بزاتهم أمراء جيش على أكتافهم صدأ الدروع[١٦]

وها هو ذا يصف ليلا رقيق الهواء رائع الاضواء فيقول :

يارب ليـــل سحر كـله مفتضح البدر عليل النسيم
تلتقط الانفاس برد الندى فيه فتهديـه لنـار الهموم

ثم ها هو ذا يصف ليلة من ليالي صيف بغداد مغايرة تماماً لذلك الليل الجميل فيقول :

بت بجهـد لاأذوق غمضا مسهداً يضرب بعضي بعضا
قدقطع الجرجس جلدي عضاً مصاعداً يلدغ أو منقضا[١٧]
كشرر القدح إذا ما ارفضا يدمن اسخاطك حتى ترضى

اذا لم يخطيء ظني فان وصف ابن المعتز الذي لم أرو لك منه سوى مثل قليله جداً دليل فذ على ما عنده من يقظة الخاطر وقوة الملاحظة ودقة التصوير .

شعره السياسي : وقد قلت لك في ترجمة عبد الله ان الحوادث المؤلمة التي تتابعت على بيته بعد مقتل جده المتوكل على الله حملته على أن ينبذ السياسة نبذاً تاماً فزهد بالملك ونفض يديه من الخلافة . . وأقول لك الآن ان هذا لا يعني أنه هجر التفكير في السياسة وإنما

(١٦) هكذا فى ديوان المعاني اما فى الديوان فتحل كلمتا (ورود) و (حديد) محل كلمتي (طلوع) و (دروع) . هذا الى اني احب ان اسجل هنا ان لعبد الله شعراً كثيراً فى الصيد كما ان له شعراً كثيرا فى الخمر . وقد اقتصرت على مثال واحد فقط من كل من هذين البابين رغبة فى الايجاز وقد لا يخلو من فائدة ان نلاحظ ان التقليد والتكرار غالبان على هذين البابين من ديوان ابن المعتز .

(١٧) هكذا فى الأوراق وفى الديوان مكان هذا الشطر « منتهشاً بقرصه منقضاً » ورواية الأوراق اصح .

يعني انه هجر العمل لحسابها . ورجل كعبد الله لا يمكن أن يطرح الشؤون العامة وأن ينسى أو يتناسى ما يجري حوله من الحوادث التي تتعلق بحياة أمته وكيان أسرته . إذن فقد كان يفكر في السياسة ويقول فيها الشعر والشعر الجيد الكثير [١٨] ولكي نفهم حقيقة تفكيره في السياسة فهماً صحيحا يجب أن نلاحظ أن له فيها موقفين مختلفين هما موقفه من أبناء عمه العلويين وموقفه من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم . وقد غلبت الخصومة على موقفه من أبناء عمه حيناً من الزمن فعاتبهم أمَضّ عتب ونقدهم أشد نقد وأعنفه . ومعلوم أن الامامة كانت موضوع هذا النزاع وكان دفاعه عن حقوق بيته فيها قائماً على أمرين ، أحدهما : أن العباسيين هم ابناء عم رسول الله (ص ع) . وأن الفاطميين ابناء بنته وبنو العم أمس رحماً وأولى بالارث من بني البنت :

لكم رحم يا بني بنتـــه ولكن بنو العم أولى بها [١٩]

---

(١٨) يقع شعر عبد الله السياسي على الأكثر فى بابي (المديح) و (الفخر) من ديوانه ، على ان فى بابي (المعاتبات) و (الزهد) مثلا قليلة منه .

(١٩) اقدم من عبر عن هذه الفكرة بكلام منظوم . مولى لتمام بن العباس بن عبد المطلب هجا عبيد الله بن ابي رافع كاتب رسول الله (ص ع) لعلويته بقوله :

جحدت بني العباس حـق ابيهم فما كنت فى الدعوى كريم العواقب
متى كان اولاد البنـــات كوارث يجوز ويدعى والـدافي المناسب

وقد تسابق الشعراء الى انتحال هذا المعنى بين مقصر ومجيد فى صدر الدولة العباسية ولكن احدا منهم لم يبلغ مبلغ مروان بن ابي حفصة فى قوله :

انى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنـات وراثـة الاعمام

وثانيهما هو أن آل العباس نزعوا مقاليد الملك والخلافة من أيدي بني أمية بحد السيف • ولذلك فانهم أحق بزعامة المملكة الاسلامية من غيرهم • وقد ضرب عبد الله على هذا الوتر مراراً عديدة :

قتلنا أمية في دارها فنحن أحق باسلابها

وكانت هذه الخصومة المرةناشئة عن سعاية أشخاص كانوا يلفقون الشعر في الطعن ببني العباس وينسبونه لبعض شعراء الطالبيين ويروونه لابن المعتز فيجيب عليه بما تقدمت له الاشارة • وقد ألهم الله جماعة من الطالبيين بينهم أبو الحسين محمد بن الحسن المعروف بابن البصري ، والقاسم بن اسماعيل وهما من شعراء الطالبيين المتهمين بملاحاة بني العباس أن يجتمعوا بابن المعتز ويحلفوا له أنهم ما قالوا شيئاً مما نسب إليهم ، فقبل هذا منهم واعتذر اليهم • وكف عن هذه المساجلة البغيضة وقال أشعاراً تودد فيها الى آل ابي طالب وتمنى ان يكونوا وآله يداً واحدة :

بني عمنا عودوا نعد لمودة فانا الى الحسنى سراع التعطف
وإلا فاني لا أزال عليكم محالف أحزان كثير التلهف
لقدبلغ الشيطانمن آل هاشم مبالغه من قبل في آل يوسف

واخيراً جاء عبد الله فقال بيته هذا . وقد نقض جعفر بن عفان الطائي وصفي الدين الحليهذه الحجة التقليدية فقال الاول رادا علىمروان ابن ابي حفصة .

لم لا يكون وان ذاك لكائن لبني البنات وراثة الاعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

وقال الثاني رادا على ابن المعتز بقصيدة يعارض بها بائيته التي يقول فيها : « لكم رحم » البيت :

بنو البنت ايضا بنو عمه وذلك ادنى لانسابها

فغفر الله لهم جميعاً .

وقد بلغ من رغبته بقطع دابر الشحناء بين آل العباس وآل أبي طالب واحلال الوفاق محلها أن قال لابى الحسين العلوي المتقدم ذكره: « لئن ملكت من هذا الأمر شيئا ــ يعني الخلافة ــ لاجعلن البطنين بطناً واحداً ولأزوجن هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء ولا أدع طالبياً يتزوج بغير عباسية ولاعباسياً بغير طالبية حتى يصيروا شيئا واحداً وأجري على كل رجل منهم عشرة دنانير في الشهر ، وعلى كل امرأة خمسة دنانير ، وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك » (٢٠) .

ولعبد الله في التنصل مما نسب إليه من بغض علي وأبنائه شعر كثير يروي الصولي خاصة منه في الجزء الثالث من « أوراقه » شيئاً غير قليل . ومن نفائس شعره في هذا الباب قوله :

رثيت الحجيج فقال العدا ... ة سب عليـاً وبنت النبي
أ آكل لحمي وأحسو دمي ؟ ... فيا قوم للعجب الأعجب ! !
علي" يظنون بي بغضه ... فهلا سوى الكفر ظنوه بي
إذن لاسقتني غداً كفه ... من الحوض والمشرب الأعذب
بلى قرمطيين متوا اليه ... بالنسب الأفجر الاكذب
سببت فمن لامني فيهم ... فلست بموصىً ولا معتب
مجلي الكروب وليث الحرو ... ب في الرهج الساطع الأصهب
وبحر العلوم وغيض الخصوم ... متى يصطرع وهم يغلب
يقلّب في فمه مقولاً ... كشقشقة الجمل المصعب

والقصيدة طويلة معظمها مثبت في الديوان وكلها من الشعر المختار نكتفي منها بما تقدم رعبة في الاختصار .

---

(٢٠) الاوراق للصولي الطبعة المصرية ج ٣ ص ١٠٩ .

أما موقفه من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم فهو موقف الحاكم الشرعي من مختلسي ملكه وغاصبي سلطانه ، فآل الصفار لصوص محتالون ، وآل طولون فراعنة مصر على عهد الشاعر ، وصاحب الزنج « شيخ ضلال شر من فرعون » وإسحق البيطار « أعلم خلق الله بالماخور » ورأيه في ملوك الطوائف جميعاً وفي رجال الفتن والاضطرابات في كل مكان مدون بتفصيل ومهارة في كتابه النفيس الذي وضعه في سيرة المعتضد والمثبت في فصل النون من باب المديح من ديوانه ، وهو عبارة عن أرجوزة تقع في تسعة عشر وأربعمائة بيت أدى فيها التاريخ والأدب خدمة كبرى مزدوجة .

عرض ابن المعتز في هذه الأرجوزة لشؤون الدولة العباسية التي بلغت أقصى دركات الفوضى والانحلال في الفترة التي تقع بين مقتل المتوكل على الله عام (٢٤٧) للهجرة وتبوء المعتضد دست الحكم عام (٢٧٩) للهجرة والى الاصلاحات التي قام بها هذا الخليفة فشرحها باسهاب وعقب عليها بما يتفق ورأيه في السياسة . إلا أن هذا لا يمنعنا من القول بأنه مخلص كل الأخلاص في تعقيبه على هذه الحوادث وأن الأعمال التي بسطها ونقدها وأنحى على القائمين بها باللوم الشديد والتقريع الممض لم تكن في الحقيقة سوى جرائم فظيعة ارتكبت في سبيل تحقيق مطامع أثيمة وأغراض شخصية غير مشروعة . ومع أن الارجوزة ــ كما يروبها الديوان ــ مسوخة مسخاً قبيحاً من عدة وجوه ولا سيما من حيث الترتيب فانها تحتوي على صور صادقة لأهم الحوادث التي جرت في الفترة التي أشرت إليها آنفاً . ومما ينبغي التنويه به أن عبد الله استطاع أن يخلع مسحة شعرية جميلة على حقائق

التاريخ المرة القاسية في كثير من أقسام هذه الأرجوزة . إسمع قوله في وصف سطوة رؤساء الجند وقوتهم وسوء تصرفهم في شؤون الناس وانهماكهم في لذاتهم وعكوفهم على إرضاء شهواتهم وأهوائهم وأخيراً ما آل اليه أمرهم على يد المعتضد .

بالتل والجوسق والقطائع ... كم ثمّ من دار لهم بلاقع
كانت تزار زمناً وتعمر ... ويتقى أميرها المؤمر
وتصهل الخيل على أبوابها ... ويكثر الناس على حجابها
فكم هناك والجاً كريما ... وراجعاً مدفعا مظلوما
وواقفا ينظر من بعيد ... مخافة العقاب والتهديد
حتى إذا ما ارتفع النهار ... ضجت بها الأصوات والأوتار
ودارت السقاة بالمدام ... وارتكبت عظائم الآثام
ثم انقضى ذاك كأن لم يفعل ... والدهر بالأنسان ذو تنقل
فما بكت عليهم السماء ... لمّا أتيح لهم القضاء

ولم يقتصر ابن المعتز في أرجوزته هذه على ذكر الحوادث السياسية والحربية التي جرت في أيام المعتضد أميراً كان أم خليفة ، بل إنه وصف آثاره الأخرى ولا سيما قصر (الرباب) الذي كان يحتوي على عجائب وغرائب يدهش لها العقل والذي غفل التاريخ عن ذكره رغم جلالة قدره وخطورة شأنه فلم يرو الطبري ولا ابن الأثير ولا ياقوت ولا ابن خرداذبة عن انشائه وعجائبه الآتي ذكرها شيئاً . قال ابن المعتز :

وما بنى بان من الخلائف ... ولا ملوك الروم والطوائف
كما بنى من أعجب البناء ... لا زال فينا دائم البقاء

* * *

فمن رأى مثل الرباب قصرا كم حكمة فيه تخال سحرا
والنهر والبستان والبحيرة قد جمع الماء اليها طيره
وللبزاة معها وفائع فغائص في جوفها وواقع
وبعضها يذبح بالأكف مأسورة قد رميت بحتف
وما رأى الراؤون مثل الشجرة ذات غصون مورقات مثمرة
ولم تكن غرساً ترابه الثرى ولم تكن من شجر يسقى بما
لكنها تخبر عن حكيم موفّق مجرب عليم
مفكر من قبل أن يقولا ويحسن التفهيم والتمثيلا
كأنها من شجرات الجنة أنزلها إلهنا ذو المنه
والقبة العلياء والأترجه ملك فيها أربعين حجه

هذه المناظر البديعة التي تزين قصر الرباب ولا سيما الشجرة التي لم تغرس في أرض ولم تسق بماء ، وهذه القبة العلياء وتلك الأترجة مما جهله التاريخ وجهلناه نحن تبعاً له ، إلا أن ابن المعتز أحاطنا بكل ذلك علماً ، فلنسجل له هذه اليد المشكورة (٢١) .

وقد جاراه أحمد بن عبد ربه بنظم مزدوجة دون فيها تاريخ عبد الرحمن الناصر خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، تبتديء بمفتتح القرن الرابع للهجرة وصف حوادثها بالترتيب سنةً بعد سنة . وليس من شك في أنه قد استطاع أن يؤرخ الناصر كما أرخ عبد الله المعتضد ، وفي أنه وفق أيضاً الى ما وفق إليه سلفه من الناحية الفنية . وأول

---

(٢١) مما يحسن ذكره بهذا الصدد ان المعتضد بنى قصراً عظيماً آخر سماه (قصر الثريا) هناه ببنيانه ابن المعتز فقال من قصيدة :
سلمت امير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معمورا وبورك من قصر

أرجوزته قوله :

سبحان من لم تحوه أقطار ولم تكن تدركه الأبصـار

وأنت تجد هذه الأرجوزة اللطيفة في الجزء الثالث من العقـد الفريد .

حكمه وخواطره : وأخيراً التئم بحكم عبدالله وخواطره في (الزهد والآداب والشيب) إلمامة وجيزة لأنها مظهر لامع من مظاهر ظرفـه الأخاذ وعقله الراجح وأدبه الجم ولانها تطلعنا على نواحي عديدة من حياته الخاصة ، ونواحي عديدة كذلك من الحياة العامة على عهده . فهو يحدثنا مرة بأنه قد شاب وأنه (أبغض نفسه في شيبه) فكيف يطمع بأن (تحبه الخود الكعاب) ويقول لنا تارة : إن الجهل قد استحكم في بيئته واستحوذ على أهل زمانه وان الفضل واقف منه موقف البائس المحروم من الغني المجدود المستمتع بكل حول وسلطان ، ويؤكد لنا طوراً أن الذين يحسدونه وأهل بيته لو عرفوا حقيقة حالهم لعلموا أنهم يحسدونهم على مالا يحسد عليه انسان . أتحب أن أروي لك مثلاً قليلة من هذه الخطرات الشيقة القيمة ؟ اسمع قول عبد الله معاتباً نفسه على استمراره في غوايته وقد بلغ الأربعين :

فتنت قلبك العيون المـلاح واغتبـاق بقهوة واصطبـاح

وقـدود كـأنهن غصـون وخـدود كأنهـا التفـاح

أنت في الأربعين مثلك في العشرين قل لي متى يكون الفلاح ؟

وقوله في وصف المخاوف التي كانت تساوره بسبب المصائب الفادحة التي نزلت بآله تباعاً سراعاً بعد مقتل جده المتوكل على الله :

من يشتري حسبي بأمن خمول من يشتري أدبي بحظ جهـول

ساء الزمان وأوجعتك صروفه فعسى الزمان يسر بعد قليل

وقوله موصياً بالصبر على حسد الحاسد :

اصبر على حسد الحسو د فان صبرك قاتله

والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

لغته وأسلوبه : والمعروف أن ابن المعتز رجل زخرفة يتعشقها ويتذوقها ويتميز بها .

ولكنك إذا رجعت الى شعره وتأملته رأيت انه يمثل أسلوبين مختلفين كل الاختلاف يصطنع الشاعر أحدهما اذا تحدث عن الشراب والغناء والأزهار والفواكه والرياحين وما الى ذلك . ويصطنع الآخر اذا تحدث عن السياسة والاجتماع وما يمت اليهما بصلة .

فأما الأول فشعاره الزخرفة وخاصته براعة التشبيه التي عرف بها فهو القائل « اذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فاي » . وقد مر بك من تشبيهات الرجل ما يمثل نفاذ حسه وسعة خياله ودقة تفكيره تمثيلاً تاماً . وأما الثاني فشعاره البساطة وخاصته حسن التأليف وسلامة الأداء . ولك أن ترجع الى ما رويت لك من قصيدة عبد الله التي يبرأ بها من خصومة علي بن أبي طالب (ع س) ومن أرجوزته التي يؤرخ بها خلافة المعتضد وما ألم ببيته ومملكته من الحوادث الجسام منذ مصرع جده المتوكل على الله لتتبين كيف يتخلى عن الزخرفة ويقتصر على سلامة الأداء اذا أراد الدفاع عن رأي أو حاول سرد حادثة تاريخية . وليس من شك في أن المترجم خفيف الظل لطيف الجرس حبيب الى النفس في كل من أسلوبيه المختلفين هذين . أما لغته فانها لا تخلو من الركاكة أحياناً ، ولكنها في جملتها صحيحة

التأليف جميلة التركيب تكثر فيها أدوات التشبيه ويغلب عليها الجلاء ويشيع فيها الانسجام وتبرأ من وحشي اللفظ وحوشيه براءة تامة . على انها إن امتازت بشيء فانما تمتاز بالعذوبة والرقة (٢٢) .

د ـ خاتمـــة :

يقول محمد بن يحيى الصولي وهو من أقرب الرواة والنقـاد القدماء الى المترجم وأعرفهم به في تحديد منزلته الشعرية ما نصه « ومنزلة عبد الله في الشعر منزلة شريفة وقع من قوم افراط في أمره وتقديمه » ويمضي في حديثه فيقول لنا ان أبا العباس أحمد بن يحيى يقول « هو أشعر أهل زمانه » وان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يقول « هو أشعر قريش لانه ليس فيهم من له مثل فنونه لأنه قال في الخمر ، والطرد ، والغزل ، والمديح ، والهجاء ، والمذكر والمؤنث ... فأحسن في جميعها ، وهو حسن التشبيه ، مليح الألفاظ ، واسع الفكر » وهنا يستطرد الصولي فيقول « وهو يأخذ كثيرا من الناس ويستعين فيحسن، وكثيرا ما يتكيء على نفسه ، وهو يفضل أشباهه بألفاظ له ملوكية ».

ويعود الصولي الى النقل فيقول لنا « وسمعت بعض العلماء يقول ـ أول الشعراء المتقدمين في صفة الخمر الأعشى ثم الاخطل ثم ثم أبو نواس ثم الحسين بن الضحاك ثم عبد الله بن المعتز » .

« فقلت أنا هو أيضاً عندي متقدم في الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم معروفة

(٢٢) احب ان اسجل هنا اني درست لغة عبد الله واسلوبه دراسة اجمالية لان كتب الادب تختلف فى رواية شعره اختلافا كبيرا . اما ديوانه فانه مغلوط ومشوه الى درجة لا يصح معها الاعتماد عليه .

قليلون وخاصة من عمل في المذكر والمؤنث .

وهو أول من حصل هذا ، وجعله فنين وأضاف إليه فناً ثالثاً سماه مجوناً حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس » (٢٣) .

ويذهب صاحب معاهد التنصيص الى أنه « أشعر بني هاشم على الاطلاق وأشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات » (٢٤) .

أما أنا فأزعم انه رابع اربعة في عصره هم ــ أبو تمام ، والبحتري، وابن الرومي ، وهو . يفضله زملاؤه الآنفو الذكر من حيث فصاحة اللفظ ، ومتانة السبك ، ونقاء الديباجة ، وطول النفس ، ويفضلهم هو من حيث خفة الروح وجمال التشبيه . أما من حيث هو شاعر قرشي أو هاشمي . فأحسب أنه أكبر شعراء بني هاشم الى عهده . هذا مع العلم بأنه بلا نزاع خير من مثل حياه القصور وما فيها من تفكير وأدب ولهو وعبث من الشعراء .

---

(٢٣) الاوراق للصولي ج ٣ ص ١١٣ ــ ١١٤ .
(٢٤) معاهد التنصيص ج ١ ص ١٤٦ .

الباب الخامس

في شعراء القرن الرابع للهجرة

الفصل الأول

أبو الطيب المتنبي

أ ــ حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه • سببه (حاشية) مولده نشأته وتعليمه • خروجه الى بادية الكوفة • أثرها في نفسه • زيارته بغداد ، سببها • سفره الى الشام • تطوافه في انحاء هذا القطر • تنبؤه • سجنه : حاله في السجن • استتابته واطلاقه • استئنافه حيـاة التشرد في الشام • تكسبه بالمديح • اصراره على التفكير في الثورة • اتصاله ببدر ابن عمار • مدائحه له • مفارقته اياه • اتصاله بالحسن ابن عبيد الله بن طغج • مديحه له • توسل أحد العلويين له في أن يمدحه • استجابته • ما جرى له من التكريم بهذه المناسبة • اتصاله بآل حمدان : عند أبي العشائر • عند سيف الدولة • كيف تكونت صلته به • حظوته عنده كيد الحساد له • توتر علاقته بالأمير الحمداني • معاتبته اياه • ما نشأ عن هذه المعاتبة • عودة المياه الى مجاريها بين الرجلين • حادث مؤسف آخر بينه وبين سيف الدولة• ما قال من الشعر في هذا الحادث • صلته بسيف الدولة على العموم : كيف افترقا • سفره الى الشام ، الى الرملة الى الفسطاط • ما وعـــده كافور نظير زيارتـــــه

اياه • اخلافه هذا الوعد • اقامته في العاصمة المصرية • فراره الى الكوفة • اقامته فيها • مساهمته في حياتها العامة • استئناف سيف الدولة صلته به في الكوفة • هدايا وشعر • زيارته بغداد • امتناعه عن مدح المهلبي • تألب شعراء بغداد عليه • ترفعه عنهم • دعوة ابن العميد اياه • قبولها • مدائحه لابن العميد • دعوة عضد الدولة البويهي اياه • استجابته • ما قال من الشعر في عضد الدولة • عودته الى الكوفة ، مقتله •

ب ــ صفاته : بخله ، تيهه ، سذاجته ، اقدامه ، اباؤه • وفاؤه ، عفته، سرعة خاطره • غزارة حفظه ، تشاؤمه •

جـ ــ ديوانه : شروحه وطبعاته ، غزله : عناصره • مثل من جيده • فخره : أنواعه • مثل منه • وصفه : براعته في كل فن من فنون الوصف • تصويره عتاق الخيل • وصفه محاسن الطبيعة • شذرات مختلفة من بدائع وصفه • مديحه : مساوئه ومحاسنه • ماله من القيمة الادبية والتاريخية • سيفياته • مكانتها الممتازة • تصويره هزائم الروم بلا قتال مرارا عديدة • مثل من شعره في هذا الباب • هجاؤه : صرامته وبذاءته ، أغرب ما فيه • عتابه • ميزته• رثاؤه • اتهامه ببرودة العاطفة • تفنيده • مثل من جيد رثائه • فلسفته • مادتها • تناقضها •

لغته وأسلوبه : غلو القدماء في احصاء عيوبهما • خصائصهما • بعض ما يشلهما من شعره •

د ــ خاتمة : الفصل بينه وبين أبي تمام والبحتري •

أ ـ حيانـــه :

لم يشهد القرن الرابع للهجرة نشأة أغراض جديدة للقريض العربي ولكنه شهد تفوقا عظيما في معالجة الاغراض القديمة . شهد تفوق المتنبي في وصف الحرب والسياسة وضرب الامثال ، وشهد تفـوق الشريف الرضي في الرثاء والغزل والفخر والاخوانيات . ومعلوم أن الاول كان زعيم الحركة الادبية في النصف الاول من هذا القرن وأن الثاني كان زعيم الحركة الادبية في النصف الثاني منه وعلى هذا أبـدأ بالاول فأقول هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي [1] المكنى بأبي الطيب والملقب بالمتنبي [2] .

(١) ذكر الرواة بعض اجداد المترجم بشيء من الاختلاف واكبر الظن انهم صنعوا له هذا النسب بعد وفاته لانه لم يكن يتحدث عن نسبه بشيء وانما كان يكتفي بالقول ان آباءه كرام واجداده امجاد ولكنه يفضل ان يشرفوا به بدلا من أن يشرف هو بهم :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجـدودي

بيد اننا اذا استعنا بسيرته فى صدر حياته على معرفة نسبه امكننا ان نتبين ان نسبه لم يكن من الرفعة بحيث يحب . وان والده ربما كان ـ فى الحقيقة ـ سقاءا كما يقول خصومه . وغني عن البيان ان هـذا لا يغض من شانه بحال من الاحوال بل انه يدعو الى اكباره والاعجاب به لانه استطاع ان يرتفع بفضل قوة عزيمته وعلو همته من بيئة فقيرة خاملة الى منزلة رجل من اعظم رجال الادب العربي ومهما يكن من اختلاف الرواة فى اسماء آبائه واجداده فانهم مجمعون على انه عربي جعفي ، وجعف هذه قبيلة قحطانية يمنية تقطن الكوفة ككثير من القبائل اليمنية .

(٢) لقب بالمتنبي لا دعائه النبوة كما سيجيء . او لقوله :

انا فى امـة تداركهـا ... الله غريب كصالح فى ثمود

مامقامي بأرض نخلة الا ... كمقام المسيح بين اليهود

ومصدر القول الثاني هو . وعندي ان الاول اصح .

وقد ولد سنة ٣٠٣ هـ في محلة كندة بالكوفة ونشأ حيث ولد وتلقى علومه الاولى في مدرسة خاصة بالعلويين يظهر أنها ذات صبغة ممتازة. ولكن هذا لا يعني أنه ينتمي الى أسرة عريقة في المجد والغنى لان كل ما في حياته وآثاره يجعل هذا أمرا مستبعداً وقد قيل انه تلقى علومه الأولى في الشام ولكن الصواب ما قدمناه . وخرج مع أبيه الى البادية وهو غلام في وقت غير معروف بالضبط ولبث بها مدة من الزمن ويغلب على الظن أنهما خرجا اليها فرارا من القلاقل والاضطرابات التي التي كانت تجري في الكوفة على أيدي القرامطة . ولا نزاع في أنه أفاد الشيء الكثير من هذه الاقامة في البادية فصح جسمه وفصح لسانه وخلص طبعه وقد أشار الى هذا محمد بن يحيى العلوي الزيدي الذي عرفه صغيرا وروى بعض أخباره فقال انه رجع من البادية وقد استحال بدويا قحا [٣] ولم ينس المتنبي أيامه الجميلة التي قضاها في بادية الكوفة بل انه تغناها وحنّ اليها في صدر قصيدة مدح بها سيف الدولة سنة ٣٤٤ هـ قال فيها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق [٤] مجرّ عوالينا ومجرى السوابق
وليلاً توسدنا الثوية تحته [٥] كأن ثراها عنبر في المرافق
وصحبة قوم يقتلون قنيصهم بفضلات ما قد كسروا في المفارق

وزار صاحبنا بغداد في شرخ صباه ولكن ليس من اليسير تعيين الوقت الذي زارها فيه والغرض الذي زارها من أجله بيد أنه من المحتمل

(٣) تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٠٣ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩ هـ .
(٤) موضعان بظاهر الكوفة .
(٥) الثوية موضع بقرب الكوفة .

أن يكون قد لجأ اليها في جملة من لجأ اليها من سكان الكوفة عندما أغار القرامطة على مدينتهم سنة ٣١٩ هـ .

والظاهر أنه لم يجد في عاصمة الخلافة العباسية من يحفل بشعره أو يعتد بأدبه لانه لو وجد فيها شيئا من هذا القبيل لآثر الاقامة فيها على الرحيل الى الشام ، ولكنه لم يجد في بغداد ولا في الكوفة شيئا مما يصبو اليه من مال وجاه وشهرة ولذلك عول على أن ينشد هذا كله أو بعضه في بلد آخر فرحل الى الشام سنة ٣٢١ هـ كما يرجح أبو العلاء فأكثر من التجوال فيها وجاب حاضرتها وباديتها وعرف كثيرا من أهلها ومدح عددا كبيرا من عظمائها ونبلائها وأوساطها أيضاً واستعان بجوائزهم التي كانت تكبر حينا وتصغر حينا حتى تبلغ الدينارالواحد(٦) أو بعضه على ما يكابد من شظف العيش ورقة الحال .

على أنه كان يرمي في تطوافه الى غرض أكبر من هذا بكثير فقد كان يبحث فيبوادي هذا القطر عن قوم يبلغ من سذاجتهم ان يصدقوه ويؤمنوا به اذا دعاهم الى القول بأنه نبي او اله ، من يدري ؟ .

وقد ظفر بهؤلاء القوم في بادية حمص فدعاهم الى أمر بالغ في كتمانه بعد فشله فيه .

ولكني لا أكاد أشك في أنه دعاهم الى الايمان به على أنه نبيان لم يكن لعبادته على أنه اله وما أظنك تستكثر هذا على من يقول :

أي محـــل أرتقي أي عظيـم أتقـي

---

(٦) مدح المتنبي علي بن منصور الحاجب بقصيدة عصماء مطلعها :
بابي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيبا
فأجازه عليها بدينار واحد فسميت القصيدة من اجل ذلك (بالدينارية) .

وكـل ما قـــد خـلق الله وما لم يخـــلق
محتقـر في همتـي كشـعرة في مفرقي

ويقـــول :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فماأحد فوقي ولا أحد مثلي

وسواء أدعا المتنبي أعرابه الى عبادته على أنه اله أم الى الايمان به على أنه نبي ، فانه ما كاد يتصل خبره بلؤلؤ نائب الاخشيديين في حمص حتى أسرع الى اخماد فتنته والقاء القبض عليه فاذا هو سجين يئن في الأغلال ، وليس من العسير أن تتصور حال ذلك البائس الشقي الذي تضافر عليه السجن والفقر والغربة فقد ألحت عليه الحاجة ونال منه الضيق حتى قبل معونة رجل ألب عليه ودعا السلطان الى الوقيعة به يعرف بأبي دلف ، رأى في معونته وهو في مثل تلك الحالة شماتة ما بعدها شماتة وفي هذا يقول صاحبنا من أبيات :

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيـــار قبلت برّك بي
والجـوع يرضي الأسود بالجيف

ومرت الايام بعد الايام وشاعرنا يكابـد آلام السجن ومرارة الفاقة . وتولى امارة حمص بالنيابة عن الاخشيديين اسحق بن كيغلغ فرأى الشاعر أن ينتهز هذه الفرصة وبعث اليه قصيدته المعروفة التي مطلعهـــا :

الا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان القدود

يستعطفه فيها ويسأله الافراج عنه . وقد بنى رجاءه على أمرين:

أحدهما أنه صبي لا تقام عليه الحدود الشرعية :

تعجل فيّ وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود[٧]

وثانيهما أنه أراد ولم يفعل وفرق أي فرق بين الفعل والارادة :

وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

ورأى اسحق أن يضع حدا لآلام الشاعر فاستتابه وخلى سبيله. وعاد هذا الى سابق عهده يمدح الناس ويستدر مسكة رمقه من هذا المديح . بيد أنه مما يبعث على الاستغراب حقا أنه وهو في تلك الحالة المحزنة لم ينزل عن مطية غروره ولم يمسك عن التعريض بل عن التصريح برغبته في الخروج على السلطان وهدم النظام القائم واقامة آخر مقامه بحد السيف وهو يقول هذا لممدوحيه في صدور مدائحه في غير غموض ولا ابهام . فمن أغرب ما وقع له في هذا الباب قولهفي قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله الخصيبي قاضي أنطاكية :

لله حال أريجها وتخلفني وأقتضي كونها دهري ويمطلني

مدحت قوما وان عشنا نظمت لهم قصائدا من اناث الخيل والحصن

تحت العجاج قوافيها مضمرة اذا تنوشدن لم يدخلن في أذن

فلا أحارب مدفوعا الى جدر ولا أصالح مغرورا على دخن[٨]

مخيم الجمع بالبيداء يصهره حر الهواجر في صم من الفتن

فواضح أنه يريد اعلان حرب شعواء على الدولة لا يقنع منها بدون استيلائه على الحكم واستئثاره بالسلطان ، وهو يقول هذا لاحد ممثلي الدولة في غير خوف ولا وجل ، وهذا لا يزجره ولا ينهاه ولا

---

(٧) جلي ان المتنبي ادعى صغر السن ليكون بمامن من العقوبة .

(٨) الدخن : الفساد .

ينصحه بالعدول عن هذا التفكير الخاطيء بل انه بدلا من هذا كله يقبل مدحته ويجيزه عليها . أفعل به ذلك استخفافا بقدرته على تحقيق مقاصده وأغراضه أم خوفا من معرة لسانه أم مشاركة له في ميوله وأهوائه ؟ كل هذا ممكن ولكن لا سبيل الى الجزم بشيء منه . وما أريد أن أمعن في الكلام على هذه الناحية من أحوال المتنبي فأنا عائد اليها في مكان آخر من هذا الفصل والذي اريد أن أقوله الآن انه لبث متجولا في أنحاء سورية ناقلا بضاعته الكاسدة أحيانا ، الرائجة بعض الرواج حينا من واد الى واد ومن ناد الى آخر حتى انتهى به المطاف الى بدر بن عمار الاسدي الذي عين حاكما لطبرية سنة ٣٢٩ فتقدم اليه بمدحة مطلعها :

أحلما نرى أم زمانا جديدا أم الخلق في شخص حي أعيدا

وقبل بدر مدحة الشاعر وأحسن جائزته وضمه الى حاشيته فمدحه هذا في أثناء اقامته عنده بعدة قصائد أفضلها فيما أظن لاميته التي يصف فيها قتله أسدا بضربة سوط واضطراره آخر الى الفرار والتي يقول فيها منوهاً بهذه الحادثة :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

والتي سأذكر بعض عيونها في مكان آخر من هذا الحديث .

ولكن ابن كرّوس نديم بدر بن عمار ساءه أن يستأثر هذا الشاعر الطاريء بعطف الأمير ويستولي على قلبه فأخذ يكيد له وينال منه ويعمل على ابعاده عن قلب الامير وساعده على ذلك جهل المتنبي آداب معاشرة الأمراء وطرق التزلف اليهم فلم يكن مثلا يرافق الأمير فيما يعرض له من أسفار ولم يكن يشرب الخمر معه الا بمشقة . وأحس

الشاعر أنه فقد عطف الأمير فتركه واستأنف تطوافه الذي انتهى بـه الى الحسن بن عبيد الله بن طغج حاكم الرملة وأحد أمراء البيت المالك في الفسطاط ومدحه بميميته التي يقول في مطلعها :

أنا لائمي ان كنت وقت اللوائم علمت بمـا بي بين تلك المعـالم

فوقعت القصيدة من نفسه أحسن وقع وأجازه عليها جائزة سنية واستبقاه مدة من الزمن استحكمت فيها صلات المودة بين الرجلين . وحدث للمتنبي في أثناء اقامته بالرملة حادث لا بد لنا من الوقوف عنده لعظم دلالته على علو منزلة الشاعر واتساع شهرته واعتداله في استغلال تلك المنزلة وهذه الشهرة ذلك أن أبا القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العـلوي رغب أن يمدحه المتنبي بشيء من شعره ورجا الأمير الحسن ابن عبيد الله أن يتوسط في تحقيق هذه الرغبة وبذل الأمير وساطته في الموضوع ولكن المتنبي لم ينزل على رغبة العلوي والامير الا بشـق النفس . ولما نزل على رغبتهما ونظم في العـلوي المذكور بائيته التي يقول فيها :

اذا علوي لم يكن مثـل طاهر فما هـو الا حجـة للنواصب

وذهب اليه لينشده اياها نزل له هذا عن سريره وأجلسه بمكانه وجلس بين يديه ، فكان بهذا أول ممدوح يجلس بين يدي مادحه وكان أبو الطيب اول شاعر قدر له أن ينال مثل هذا الشرف .

ولم يطل الوقت حتى سطع نجم الحمدانيين بحلب وقامت دولتهم في شمالي سورية فعقد المتنبي النية على أن يكون شاعرهم إذا تسنى له ذلك وقصد منهم أبا العشائر نائب سيف الدولة في أنطاكية ومدحه بعدة قصائد أجودها ـ فيما أحسب ـ قافيته التي مطلعها :

أتراهـــا لـكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

وان لم يكن مطلعها هذا من حسان مطالعه .

ولكنه لم يرد أن يكون شاعر أبي العشائر وانما كان يريد أن يتخذه وسيلة الى ابن عمه سيف الدولة الذي سبق له أن أحبه ومدحه عندما أدب جماعة من الثائرين على السلطان سنة ٣٢١ هـ (فيما يقول الديوان) بقصيدة مطلعها :

ذكر الصبا ومراتـــع الآرام جلبا حمامي قبل وقت حمامي

ولم ينشدها إياه لأنه لم يكن قـد أتصـل به بعد . وكان أبو العشائر عند حسن ظن الشاعر به فقد قدمه الى ابن عمه الأمير عندما زاره سنة ٣٣٧ هـ وأثنى عليه ثناءً عاطراً . ولست أشك في أن شهرة المتنبي كانت قد سبقته الى سيف الدولة وأن هذا كان يعرفه ويقدر نبوغه وعبقريته ولكن هذه هي الطريق التي اختارها المتنبي الى سيف الدولة لسبب لا نعلمه . ومهما يكن من شيء ، فقد أعرب الامير للشاعر عن استحسانه له واعجابه به ودعاه الى أن يكون شاعره الرسمي ووعده مرتباً سنوياً قدره (٣٠٠٠ دينار) نظير ثلاث قصائد فقط في كل سنة .

وما أريد أن أترك هذه المرحلة من الحديث دون أن اسجل ان حظوة المتنبي لدى سيف الدولة هي الغاية التي كان يتوخاها من امتناعه على صغار الأمراء الذين كانوا يرغبون بمديحه من أمثال الحسن بن عبيد الله بن طغج وطاهر بن الحسن العلوي فقد كان يبالغ في تقليل العرض ــ كما يقول أصحاب الاقتصاد ــ ليشتد الالحاح في الطلب وليبلغ الثمن أعلى حد ممكن من الارتفاع . ولم يسرع المتنبي الى تلبية طلب سيف الدولة بل اشترط عليه زيادة على ما تقدم اعفاءه من

تقبيل الأرض بين يديه والانشاد واقفاً بحضرته .

فقبل سيف الدولة هذا الشرط وانتظم الشاعر في حاشية الأمير مستقبلاً عصره الذهبي ومجده الخالد وسلمه سيف الدولة الى (الرواض) « ليعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة » وهذا ما يقوله الرواة أو ليتبينوا مبلغ مهارته في هذا كله وهذا ما أذهب إليه ، فلما استوثق من كفايته بوأه مقامه الرفيع في حاشيته فصار ينادمه ويسامره ويحضر مجالسه الخاصة والعامة ويطلع على خفايا أحواله ويرافقه في غزواته ويساهم في حروبه مبلياً بين يديه أحسن البلاء وهو يشير الى هذا بقوله :

واني لتعدو بي عطاياك في الوغى فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

وعلى هذا كان المتنبي أول شاعر يساهم في بناء المفاخر التي يؤرخها ويصورها في شعره ، وعرف الأمير قدر شاعره وخطورة المقام الذي سيحفظه له في القريض العربي وأدرك أن الأجيال ستتغنى بما يقول فيه من بدائع الشعر وروائعه على مر الدهور . فأقبل عليه اقبالاً شديداً وأحبه حباً جما وتفنن في تشجيعه وإثارة مواهبه فكان يفيض عليه الهبات تلو الهبات ويوليه من الحفاوة مالا يولي أحداً فشق هذا على من بحضرته من العلماء والأدباء والشعراء وصاروا يحسدون الشاعر على مكانه من الأمير ويكيدون له ويثلبونه ويحطون من قدره ، وتزعم أبو فراس وهو ابن عم سيف الدولة وأخو قرينته وتلميذه هذه الحركة لأن المتنبي كان يضن عليه بمديحه ولأنه في أغلب الظن كان موقناً أن المتنبي لا يعتد بأدبه ولا يحفل بشاعريته فيروى أنه قال لابن عمه ذات يوم : « إن هذا المتشدق كثير الادلال عليك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة

آلاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » (٩) .

وما أظن أن أبا فراس يجرؤ على مواجهة ابن عمه بمثل هـذا الكلام السخيف وهو النصح له بتفريق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بخير من مديح المتنبي فليس هذا مما يواجه به رجل كسيف الدولة وليس هو أيضاً مما يقوله رجل كأبي فراس ولكن إلا يكن أبو فراس قد قال هذا لأبن عمه في المتنبي فانه قد قال له الشيء الكثير فيه مما حمل الرواة على تلفيق هذه الرواية أو التزيد فيها ، ومع ذلك فقد كان مديحه يبطيء أحياناً على سيف الدولة وكان هذا يؤذي الأمير إيذاءً شديداً فكان ينتقم لنفسه بالايعاز الى من بحضرته من صغار الشعراء بأن يمدحوه ، وبالمبالغة في اكرامهم على مدائحهم هذه ، على أنه من الجائز أن يكون تصرف سيف الدولة هذا محض مداعبة غايتها تحريض الشاعر على نظم روائع المديح التي يبذ بها هؤلاء وغيرهم من الشعراء ولكن المتنبي كان يفهم هذا التصرف على أنه مكايدة ومغايضة ويتحمله على مضض فلما تكرر هذا من سيف الدولة لم يجد بداً من أن يعاتبه بميميته الخالدة التي مطلعها :

واحرّ قلبـاه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وقد تلطف في صدر هذه القصيدة فمدح سيف الدولة مدحاً رائعاً نفيساً ، ولكنه عاد فعاتبه عتابا مراً شفعه بفخر لا يخلو من كبرياء وصلف وان كان صحيحا صادقا في جملته . وليس من المستبعد أن يكون أبو فراس حاضراً إنشاد هذه القصيدة ولكن من المستبعد أن

(٩) الصبح المنبي للبديعي ص ٤٥ طبعة مطبعة الاعتدال بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ .

يعترض عليها كل هذه الاعتراضات التي يبين فيها مآخذها ويرد أكثر عيونها الى أصول جاهلية واسلامية وأكبر الظن عندي أن خصماً من خصوم المتنبي صنع هذه الاعتراضات في وقت متأخر ونحلها أبا فراس كما أنه من المستبعد أيضاً أن يتغير موقف سيف الدولة من الشاعر بهذه السرعة الغريبة فيضرب وجهه بدواة بين يديه ثم يقبل رأسه ويجلسه الى جنبه ويجيزه بألف دينار ثم بألف دينار أخرى لارتجاله هذا البيت :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكم ألم

على أني لا أرتاب من ناحية أخرى في أن هذه القصيدة أحدثت استياءاً شديداً في مجلس سيف الدولة ولا أستبعد ان كاتباً من كتابه يعرف (بالسامري) خرج في أثر الشاعر ليقتله ــ كما يزعم ــ تزلفاً الى الأمير فكر عليه الشاعر وهزمه . ولست أستبعد كذلك أن يكون أمراء البيت الحمداني وبينهم أبو العشائر نفسه قد ائتمروا بالشاعر ليقتلوه لتطاوله على زعيمهم وعميدهم وتهديده بالانتقال الى خصومه الاخشيديين :

لئن تركن ضميراً [١٠] عن ميامننا ليحدثن لمن ودّعتهم ندم

وأن جماعة من غلمان أبي العشائر كمنوا للشاعر في مكانٍ ما ، وأن أحدهم رماه بسهم فوقع في نحر فرسه وأنه حمل عليهم وجرح واحداً منهم فأنهزموا وقد حملوا جريحهم ، وأنه اختفى على أثر هذه الحادثة في بيت صديق له ولسيف الدولة ، وأن هذا الصديق أحسن الوساطة بينه وبين الأمير فرضي هذا عنه وأدخل عليه بعد أن هيّىء لهذا الدخول تهيئة حسنة فأنشده أبياتاً يعتذر بها اليه هذه هي :

---

(١٠) ضمير (بضم الضاد) : جبل عن يمين الراحل من الشام الى مصر .

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا فداه الورى أمضى السيوف مضاربا
ومالي إذا ما اشتقت أبصرت دونه تنائف لا أشتاقها وسباسبا ؟
وقد كان يدني مجلسي من سمائه أحادث فيها بدرها والكواكبا
حنانيك مسؤولاً ولبيك داعياً وحسبي موهوباً وحسبك واهبا

أهذا جزاء الصدق إذ كنت صادقاً ؟

أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا

وان كان ذنبي كل ذنب فانه محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

وبهذا ختمت تلك الحادثة المؤسفة التي كادت تتحول الى كارثة ، على أن بقاء السبب يقتضي بقاء المسبب فقد أبطأ مديح المتنبي على سيف الدولة مرة أخرى وشق هذا الابطاء على الأمير فتنكر للشاعر واستقبله ذات يوم في ميدان حلب استقبالاً فاتراً كان له أسوء الأثر في نفسه . فكتب اليه أبياتاً يستنكر فيها ذلك الاستقبال ويعتذر عن ابطائه في تقديم المديح وينوه بأهمية مديحه له ، هذه هي :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلةٍ أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحيياً وأزجر في الخيل مهري سرارا
وأعلم اني اذا ما اعتذرت إليك أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا ت إن كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر إلا القلي ل هَمَّ حمى النوم الا غرارا
وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا
فلا تلزمني ذنوب الزما ن اليّ أساء وإياي صارا
وعندي لك الشرد السائرا ت لا يختصصن من الأرض دارا

فاني إذا سرن من مقولي وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك مالم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا
فلو خلق الناس من دهرهم لكانوا الظلام وكنت النهارا
أشدهم في ندىً هزة وأبعدهم في عدوٍ مغارا
سما بك همي فوق الهموم فلست أعدّ يساراً يسارا
ومن كنت بحراً له يا عليّ لم يقبل الدر إلا كبارا

ولكننا اذا استعرضنا تاريخ الرجلين خلال الأعوام التسعة التي اصطحبا فيها رأينا أنهما كانا في الغالب متقاربين متحابين يؤثر كل منهما صاحبه بأفضل ما عنده من حب وإعجاب ومودة واكبار حتى كانت حادثة اعتداء ابن خالويه على الشاعر فأسفرت عن افتراقهما الى غير تلاق . وبيان الحادثة أن نقاشاً جرى في مجلس سيف الدولة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه النحوي في مسألة من المسائل لم يشترك المتنبي فيه فدعاه سيف الدولة الى المساهمة في الحديث فساهم بما قوى رأي أبي الطيب وضعف رأي ابن خالويه ، وغضب الأخير فأخرج مفتاحاً في كمه ضرب به وجه الشاعر فأسال دمه ولم يتدخل سيف الدولة في الحادث بقول ولا عمل فثقل هذا كثيرا على شاعره أو قل آلامه إيلاماً شديداً فخرج من المجلس وقد أستقر رأيه على الرحيل من حلب ولبث أياماً قليلة استأذن بعدها الأمير بالخروج الى ضيعة له بقرب معرّة النعمان فأذن له ولكنه عدل الى دمشق عن الضيعة المشار اليها وبهذا ختم ذلك الدور الخطير من حياة المترجم ، وكان ذلك سنة ٣٤٦ هـ .

ووصل أبو الطيب دمشق فكتب عاملها وهو يهودي يعرف بابن مالك (أو ابن ملك) الى سيده كافور يعلمه وصول الشاعر الى مدينته

فأمره هذا بايفاده اليه ولكن العامل طلب في أثناء ذلك الى المتنبي أن يمدحه فرفض ودفعه هذا الى الانتقام فكتب الى كافور بما يدل على أن الشاعر كاره له منحرف عنه وضاقت دمشق بأبي الطيب فتركها الى الرملة حيث الحسن بن عبيد الله بن طغج صديقه القديم فاستقبله هذا استقبالاً رائعاً وأكرمه وخلع عليه وسأله أن يمدحه فاعتذر اليه بهذه الأبيات :

ترك مدحيك كالهجاء لنفسي وقليل لـك المديـح الكثير
غير أني تركت مقتضب الشعـ ـر لأمر مثلي بـه معذور
وسجاياك مادحاتـك لا لفظي وجـود عـلى كـلامي يغـير
فسقى الله من أحـب بكفيـ ـك وأسقاك أيهـذا الأمـير

وتبودلت الرسائل بين الرملة والفسطاط بشأن زيارة الشاعر للعاصمة المصرية فأسفرت عن موافقته عليها ولكن يظهر أنه لم يوافق على هذه الزيارة الا بعد أن حصل على وعد بتقليده منصبا ذا شأن والا فما معنى قوله في اول قصيدة يمدح بها كافور :

اذا كسب الناس المعالي بالندى فانك تعطي في نداك المعاليـا
وغـير كثـير أن يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليـا
فقدتهب الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفرد الذي جاء عافيـا

إن هذا يعني بالطبع أن الأسود كان قد قطع على نفسه عهداً بتقليد الشاعر منصباً ذا شأن ولكنه عدل عن هذا عندما رأى بعد مطامعه وسعة مطامحه واكتفى باعطائه الدراهم والدنانير واثقاً أن هذا هو كل ما يجب أن يفعله به . وقد ذكره المترجم وعده هذا وطالبه بانجازه في قصائد عديدة ثم كف عن ذلك عندما ظهر له أن الأسود عبث به وسخر منه

وهو لا يريد أن يعطيه شيئاً أكثر من المال . وقبل أن أتحدث اليك عما أزمع المتنبي عمله بعد خيانة كافور له أحب أن ألاحظ أنه (اي المتنبي) غلا في طلب الولاية وتهالك كثيراً على الجاه والسلطان وكان ينبغي له قبل كل شيء أن يترفع عن العبد وما في يده من أمور الدنيا وإذا كان هذا قد غاب عن ذهنه باديء بدء فلا أقل من أن يتلافى خطأه بعدم الالحاح على الأسود في استنجازه وعده . قد تقول إنه يريد أن يكبت خصومه ويغيظ حساده وأن يبرهن لسيف الدولة نفسه أنه يجد عند غيره أكثر مما يجد عنده . وأجيب بأن هذا في حد ذاته عمل تافه لاينبغي أن يطيل التفكير فيه شاعر عظيم له مثل عبقرية المتنبي وشهرته ومكانته. ولو سلمنا جدلاً أن هذا عمل مقبول فانه لا ينجي الشاعر من نقد التاريخ ومؤاخذته إياه على الحاحه في مطالبة كافور بتوليته بعد أن تبين له أن تحقيق هذه المحاولة على جانب كبير من الصعوبة ، وأعود الى ما أزمع المتنبي عمله بعد أن تحققت خيانة كافور له فأقول : إنه عمل على الخروج من مصر فاستأذن الأسود في السفر الى الرملة لاستحصال مال له هناك فأبى أن يأذن له ووعده أن يبعث الى الرملة من يأتيه بالمال على جناح السرعة . وهنا أدرك صاحبنا أنه سجين لا يملك من أمره شيئاً فعوّل على الفرار من مصر وأعد لهذا الأمر الخطير عدته متكتماً في ذلك أشد التكتم وانتهز فرصة انشغال الناس بعيد الأضحى من سنة ٣٥٠ هـ فخرج ومعه غلمانه وأمواله وتجنب الطريق المعروفة وركب المجاهل وأعانه بعض أصدقائه من زعماء القبائل على تذليل ما يلقى من الصعاب فقطع المسافة بين الفسطاط والكوفة في نحو من ثلاثة أشهر قضى منها شهراً في موضع كثير الماء والكلأ اسمه

« حسمى » والرحلة ـ كما ترى ـ في منتهى الأهمية والخطورة ، ولكنه خرج منها ظافراً منتصرا وعندي أن فوزه فيها وحده يكفي للدلالة على أنه مثل أعلى في الاقدام والجرأة والصبر وشدة البأس والعلم بأحوال البادية ومجاهلها ومناهلها . وقد وصل الكوفة في ربيع الأول من سنة ٣٥١ هـ فقضى فيها معظم بقية أيام حياته . ولم تكن حياته فيها حياة خمول ودعة وإنما كانت حياة جد ونشاط ومساهمة في الامور العامة ومن الأدلة على ذلك أن قرمطياً من بني كلاب ظهر في سواد الكوفة سنة ٣٥٢ هـ وأراد الاستيلاء عليها فقاتله أهلها دفاعاً عن أنفسهم ، وكان المتنبي في مقدمتهم وقد قتل أحد غلمانه في المعركة ولم يغب عن بال « دلير بن لشكر وزر » وهو القائد الذي ندبته حكومة بغداد لقمع هذه الفتنة أن يقدر موقف أبي الطيب حق قدره فبعث اليه خلعاً نفيسة وفرسا نجيبا عليه حلية ثقيلة وقد شكر أبو الطيب لهذا القائد أريحيته بقصيدة عصماء مطلعها :

كدعواك كل يدعي صحة العقل ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

ولا أريد أن أترك هذه الحادثة دون أن الاحظ انها تدل دلالة قاطعة على براءة الشاعر مما يتهمه به بعض المستشرقين ويشايعهم فيه بعض النقاد المصريين من أنه داعية من دعاة القرامطة لأنه لو كان كذلك لما حارب هذا القرمطي وساهم في القضاء على فتنته مساهمة فعالة .

وعندما عاد أبو الطيب الى الكوفة رأى سيف الدولة ان يبرهن له أن صداقته له باقية كما كانت لم تتغير ولم تتبدل فبعث إليه سنة ٣٥٢ هـ بهدية نفيسة أجاب عليها بقصيدة كلها شوق وحنين وولاء وإكبار مطلعها :

مالنا كلنا جوٍ [11] يا رسول أنا اهـوى وقلبـك المتبول

وفي غضون هذه السنة توفيت خولة أخت سيف الدولة الكبرى فرثاها رثاءاً بليغاً وعزّى أخاها تعزية حارة . وفي سنة ٣٥٣ هـ كتب إليه سيف الدولة بخط يده كتاباً يدعوه فيه للعودة الى حلب فرد عليه بقصيدة تدل على أنه قبل الدعوة :

فهمت الكتاب أبرّ الكتب فسمعاً لأمر أمـير العرب
وطوعاً له وابتهاجاً بـه وإن قصر الفعل عما وجب

ولكنه آثر أن يلبي دعوة ابن العميد الذي استزاره في تلك الآونة فرحل في ١١ صفر من سنة ٣٥٤ هـ الى أرجان بدلاً من حلب .

ومعنى هذا أنه لم يكن ينوي اجابة سيف الدولة الى ملتمسه رغم تظاهره بالموافقة عليه .

ونعود قليلاً الى الوراء فأقول لك ان أبا الطيب صعد بغداد سنة ٣٥٢ فقضى فيها تسعة أشهر كان في أثنائها ضيف علي بن حمزة اللغوي أحد رواة ديوانه واتصل بأبي الحسن محمد وزير معز الدولة المعروف بالمهلبي وزاره أكثر من مرة ولكنه لم يمدحه كما أنه لم يمدح الخليفة العباسي وهو المطيع لله اذ ذاك . والمعروف أنه لم يمدح المهلبي لأنه لم يستحسن سلوكه فقد كان الرجل لاهياً مستهتراً كثير العبث والمجون ولكني أرجح أنه أتى بغداد لغرض غير مديح أولى الأمر فيها فقد خاصمهم يوم كان في صحبة سيف الدولة مخاصمةً شديدة وهجاهم تبعاً لرغبة الأمير الحمداني تعريضاً وتصريحا ، فمن هجائه الصريح للخليفة العباسي قوله :

---

(١١) جو : حزين حزناً شديداً .

فوا عجبا من دائل أنت سيفه أما يتوقى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا
رأيتك محض الحلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك مهندا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى
ولكن تفوق الناس رأيا وحكمة
كما فقتهم حالا ونفسا ومحتدا
يدق على الافكار ما أنت فاعل فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

ومن تعريضه الشديد بمعز الدولة قوله :

فدتك ملوك لم تسم مواضيا فانك ماضي الشفرتين صقيل
اذا كان بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

بل لقد هجا العباسيين والبويهيين والاخشديين جميعا في لاميته التي بعث بها الى سيف الدولة من الكوفة فقال مادحا سيف الدولة وهاجيا لهم :

ليس الاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر وسرايك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الأعادي ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما أنه الحقير الذليل

أنت طول الحيـــاة للروم غاز فمتى الوعـد أن يكون القفول
وسـوى الروم خلف ظهرك روم فعـلى أي جانبيـك تميـل
قعـد الناس كلهم عن مساعيـ ـك وقامت بها القنـا والنصول
ما الذي عنـده تدار المنـايـا كالذي عنـده تـدار الشـمول

فلهذا السبب يخيل الي أن المتنبي لم يقصد بغداد لمديح ولاة الامور فيها وانما قصدها لغرض آخر • وقد شق على المهلبي عدم مديح المتنبي اياه فانتقم لنفسه باغراء من حوله من الشعراء بالرجل فهجوه وأكثروا من الوقيعة فيه والتندر عليه ولكنه لم يجبهم • وقد قيل لـه في ذلك فقال فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم :

أرى المتشـاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الـداء العضـالا
ومن يك ذا فـم مـر مـريض يجـد مرا به المـاء الزلالا

وذكر أمثلة أخرى من شـعره في هذا الباب أهمها قوله :

واذا أتتـك مذمتي من ناقص فهي الشـهادة لي بأني كامـل

ومع أن أبا الفضل بن العميد وزير آل بويه الكبير لم يكن من محبي أبي الطيب وعشاق فضله وأدبه فقد رأى أنه من الحق عليه أن يستزيره ويتعرض لمديحه ويكرمه وقد فعل ذلك فزاره المتنبي في أرجان واستقبله استقبالا حارا دالا على التكريم والحفاوة ومدحه الشاعر بثلاث قصائد ومقطوعات قليلة كلها من متوسط شعره أو هي دون ذلك فأجازه عليها جوائز نفيسة وخلع عليه خلعا كثيرة •

وفي أثناء زيارة المتنبي لابن العميد ورد كتاب من عضد الدولة أمير شيراز يستدعيه فيه لزيارته فلبى الشاعر الدعوة بعد تلكؤ ، وقصد شيراز حاضرة الامير فبالغ هذا في اكرامه والاحتفاء به والانعام

عليه ومدحه هو بخمس قصائد وطردية وصف فيها غابة « دشت الأرزن» ورثى عمته التي توفيت في اثناء اقامته بشيراز بمنظومة سابعة .

واحسن ماقال في عضد الدولة نونيته التي وصف بها «شعب بوان» والتي قد لا أغلو اذا قلت لك انها أحسن ما نظم في فارس على الاطلاق.

وفي شعبان من سنة ٣٥٤ هـ استأذن أبو الطيب عضد الدولة بالعودة الى الكوفة في قصيدته التي مطلعها :

فدىً لك من يقصر عن مداكا فلا ملك اذا الا فداكا

فاذن له الامير وخلع عليه وسائر من شيراز يريد الكوفة فلما قارب بغداد خرج عليه فاتك الأسدي خال « ضبّة » الذي هجاه المتنبي وأمه هجاءاً قبيحاً في قصيدته التي مطلعها :

ما أنصف القوم ضبة ... الخ .

وكان يتربص به الدوائر ، فقاتله بين النعمانية والصافية وهما موضعان يقربان مما كنا نسيمه قبل زمن قصير « البغيلة » ونسميه اليوم النعمانية فدافع الشاعر عن نفسه دفاعاً صادقا الا أن فرسه كبابه فأحاط به خصومه وقتلوه وقتل معه ابنه محسد وغلامه مفلح وثلاثة أشخاص آخرين . وللرواة في قتله أقوال أخرى مختلفة ولكن الاشهر ما ذكرناه وكان مقتله في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ وقد تحاشيت ذكر اليوم الذي قتل فيه لأن الرواة يختلفون فيه وأحسب أنه من العسير تعيينه بالضبط .

ب ـ صفاتـــه :

وحديث صفات المتنبي طويل معقد لان صفاته نفسها متشعبة

معقدة متناقضة ، وقد عالجه (أي الحديث) نقاد كثيرون قدماء ومحدثون وكتبوا فيه الفصول الطوال والقصار ولكن يخيل الي أنه لا تزال فيه بقية تقتضي الوقوف عنده والتأمل فيه. والرجل كثير الطمع شديد الجشع بخيل الى أبعد حدود البخل تياه مسرف في التيه ساذج عظيم الحظ من السذاجة ولكنه شجاع مقدام أبيّ وفي عفيف الذيل طاهر الجيب سريع الخاطر سرعة لا تعدلها الا سرعة حفظه . وخصلة أخرى لا أدري أأعدها من حسناته أم من سيئاته ؟ ولكن ربما كان الافضل أن أعدها من حسناته ألا وهي التشاؤم فانه من أشد شعراء العربية تشاؤما وأكثرهم برما بالحياة والناس .

وما أريد أن أحدثك عن طمع الشاعر وبخله فأنت تعرف هذا من أخباره وتعرفه من شعره وتعرفه أيضا من أقوال النقاد الذين أرخوا حياته ودرسوا أخلاقه ولكني أحب أن أسأل : ما مصدر طمعه وبخله ؟ ما سر تغلغلهما فيه وتمكنهما منه ؟

مصدرهما من غير شك ما عرف في شطر حياته الاول من فقر مدقع وفاقة ملحة وحاجة شديدة الى المال ، يضاف الى ذلك ما يعتلج في صدره ويدور برأسه من مطامع واسعة ومطامح بعيدة المدى يقوم المال منها مقام الروح من الجسد . وشيء ثالث له أثره فيما نعرف من طمع الرجل وبخله وهو معرفته بالاختبار حرص الناس على المال وشحهم به وتهالكهم على جمعه وتكديسه لمبرر ولغير مبرر . هذه هي أسباب طمع الشاعر وبخله وما أحسبه مسؤولا عنها في كثير ولا قليل .

أما كبرياؤه فمنشؤهما فيما يبدو لي رد فعل نفسي شديد ذلك أنه خلق ذكيا جريئا شجاعا فصيحا عظيم الحفظ ولكن قليل جدا هم الذين

كانوا يكترثون لفضائله ويحفلون بمواهبه فكان هـذا يحز في نفسه ويبعث فيها الالم ولا يلبث هـذا الالم ان يستحيل اعجابا بالذات واحتقارا للآخرين وقد تعاظم على مر الايام حتى أصبح علة نفسية مزمنة أو جنة لا يرجى منها الشفاء ولكن الذي يعجزني فهمه وتعليله تعليلا منطقيا صحيحا هو هذه السذاجة التي تدفعه الى أن يقول كل ما يخطر بباله ويدور بخلده في غير تحفظ ولا احتياط .

هو يمدح أكابر الناس وأواسطهم وأصاغرهم أيضا ليحصل على ما يحفظ به رمقه ويمسك عليه حياته فما معنى تحدثه اليهم في صدور مدائحه عما يحلم به من حروب طاحنة يثيرها وغارات ماحقة يشنها ودول يقوض أركانها وسلطان يشيد بنيانه ويقيم دعائمه على أسس من الحديد والدم ، أترى أنه من المعقول أن يمدح المغيث بن علي العجلي فيقول له في ختام قصيدته وبعد أن يشكو له الزمان شكوى مرة :

وان عمرت جعلت الحرب والدة ... والسمهري أخا والمشرفي أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسما ... حتى كأن له في قتله أربا
قح يكاد صهيل الجرد يقذفه ... من سرجه مرحا بالعز أو طربا
الموت أعذرلي والصبر أجملبي ... والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

أم ترى أنه من المعقول أن يمدح علي بن ابراهيم التنوخي فيقدم بين يدي مديحه هذه الابيات :

أحاد أم سداس في أحاد ... لبيلتا المنوطة بالتنادي
كأن بنات نعش في دجاها ... خرائد سافرات في حداد
أفكر في معاقرة المنايا ... وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطي عزمي ... بسفك دم الحواضر والبوادي

الى كم ذا التخلف والتواني ؟ وكم هذا التمادي في التمادي ؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد

أم ترى أنه من المعقول أن يقول في مقدمة احدى مدائحه لسيف الدولة :

أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة اذا عظم المطلوب قل المساعد

ما هذا الشيء الذي يهم به أهو المال ؟ ان سيف الدولة أغدق عليه العطاء حتى تركه يقول :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله
وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

أم هو الجاه ؟ فقد أوتي منه مالا يكاد يحلم به شاعر . وقد قلت لك انه لما دخل على طاهر بن الحسين لينشده مدحته اياه نزل هذا عن سريره وأجلسه بمكانه وجلس هو بين يديه . أترى أن رجلا يتمتع بمثل هذه المنزلة يمكن أن يعد نفسه محروما من الجاه ؟ اذن ما هذا الشيء الذي يهم به ؟ هو الملك ، هو السلطان من غير شك . وللمتنبي أن يهم بالوصول الى الملك ، والاستيلاء على السلطان اذا كان يجد في نفسه استعدادا لتحقيق مثل هذه الآمال العالية ولكن ليس له أن يشير الى هذا أو يعرض به في صدر قصيدة يمدح بها ولي نعمته . ومما يجري هذا المجرى في السذاجة وقلة الانتباه والتدبر حنينه الى سيف الدولة وتفضيله اياه على كافور في قصائد يمدح بها كافورا ويسأله أن يقلده (ضيعة أو ولاية) أترى أن كافورا لا يفهم قوله :

فلو كان ما بي من حبيب مقنـع عذرت ولكـن من حبيب معمم
رمى واتقى رميي ومـن دون ما اتقى
هـوى كاسر كفي وقـوسي وأسهمي

أم أنه لا يفهم قوله :

أما تغلـط الايام فيّ بأن أرى بغيضـا تنائي أو حبيبا تقرب
ولله سـيري ما أقـل تئيـة عشية شرقي الحدالى وغرب (١٢)
عشيه أخفى الناس بيمن جفوته وأهدى الطريقين الذي أتجنب

انني على يقين من أن كافوراً يفهم هذا كل الفهم ويدرك مغزاه كل الادراك وأن المتنبي يعلم هذا حق العلم ولكنه يؤثر الاستسلام لرغائبه والاندفاع في تيار عواطفه .

بيد أن له حسنات كثيرة تشفع له عند المؤرخ الناقد وتحمله على الأقلال من معاتبته ومحاسبته ، ذلك أنه جريء أبي وفي عفيف ، وقف الى جانب سيف الدولة في احرج مواقفه وأخطر معاركه وتعرض معه للموت مراراً عديدة وأفلت من يد كافور على شدة كيده وعظم بطشه وسعة سلطانه وأبى على سيف الدولة أن يقبل الأرض بين يديه وأن ينشده واقفاً ، وثار عليه ثورة عنيفة عندما شعر أنه يستخف بمقامه ويستهين بمكانته وخرج من مملكته مغاضباً عندما وقف من اعتداء ابن خالويه عليه موقف المتفرج . ولكنه وفى له مع ذلك فحفظ عهده وأقام على وده وحن اليه بعدما سكن غضبه وثاب اليه رشده حنين الصديق

(١٢) تئية : اناة وتريثا . الحدالى : موضع بالشام ، وغرب جبل هناك .

الوفي الى صديقه الحميم بل حنين المحب المتيم الى حبيبه الذي لا يريد به بدلاً ولا يبغي عنه حولاً .

ورثى أبا شجاع فاتكاً أحر رثاء وأصدقه دون أن يرجو مثوبة او ينتظر شكراً .

وشاعرنا الى هذا كله عفيف الذيل طاهر الجيب لا تستهويه لذة ولا تستعبده شهوة ولذلك كانت القراءة وركوب الخيل أحب الاشياء الى نفسه :

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وقد حدثتك حتى الآن عما يمتاز به من الناحية الخلقية اسرف فلأحدثك بشيء مما يمتاز به من الناحية الأدبية . وأبرز ما يمتاز به من هذه الناحية سرعة خاطره التي لا يكاد يصدقها العقل فقد كان يقول الشعر متى شاء وفي أي موضوع شاء ويجيد فيه ما شاء ، حتى لقد اتهمه ابن كَرَّوس نديم بدر بن عمار باعداد ما يقول في شتى المناسبات كأنه كان ينظر من وراء حجب الغيب الى ما يحدث في مجلس بدر بن عمار وغيره ويهيء ما ينبغي ان يقال فيه من الشعر ليخدع سامعيه ويحملهم على الظن بانه يقوله ارتجالاً : وقد دافع ابن عمار فيما يقوله الديوان عن الشاعر . فقال : « مثل هذا لا يجوز ان يكون . وانا امتحنه بشيء احضره للوقت . فلما كمل المجلس . ودارت الكؤوس اخرج لعبة قد أعدها : لها شعر في طولها . تدور على لولب . واحدى رجليها مرفوعة . وفي يدها باقة ريحان . وهي تدار على الجلاس . فاذا وقفت حذاء الانسان نقرها فدارت » .

فقال ابو الطيب :

وجارية شعرها شطرها محكمة نافذ أمرها
تدور وفي يدها طاقة تضمنها مكرها شبرها
فان أسكرتنا ففي جهلها بما فعلته بنا عذرها

واديرت فوقفت حذاء ابي الطيب فقال :

جارية ما لجسمها روح بالقلب من حبها تباريح
في يدها طاقة تشير بها لكل طيب من طيبها ريح
سأشرب الكأس من اشارتها ودمع عيني في الخد مسفوح

وادارها فوقفت حذاء بدر فقال :

ياذا المعالي ومعدن الأدب سيدنا وابن سيد العرب
أنت عليم بكل معجزة ولو سألنا سواك لم يجب
أهذه قابلتك راقصةً أم رفعت رجلها من التعب

وقال ايضاً :

ان الأمير أدام الله دولته لفاخر كسبت فخراً به مضر
في الشرب جارية من تحتها خشب ماكان والدها جنّ ولا بشر
قامت على فرد رجل من مهابته وليس تعقل ما تأتي وما تذر

واديرت فسقطت فقال :

ما نقلت في مشيئة قدماً ولا أشتكت من دوارها ألما

لم أر شخصاً من قبل رؤيتها يفعل أفعالها وما عزما
فلا تلمها على تواقعها أطربها أن رأتك مبتسما

ونظم فيها عدة مقطعات أخرى حفظ بعضها في الديوان ولم يحفظ بعضها الآخر ولكننا نكتفي من وصفه لها بما تقدم .

ومع أنه قال الشعر ارتجالاً في حضرة سيف الدولة مراراً عديدة فقد رأى هذا أن يمتحنه ويتبين بصورة لا تقبل الشك مبلغ قدرته على الارتجال فأرسل اليه ذات يوم بيتين في كتمان السر سأله ان يجيزهما في الحال فأجازهما فوراً بعشرة أبيات من جيد الشعر . وهذان هما البيتان اللذان أرسلهما سيف الدولة :

امنّي تخاف انتشار الحديث وحظي في ستره اوفر
فان لم أصنه لبقيا عليك نظرت لنفسي كما تنظر

اما ما اجازهما به المتنبي فهو قوله :

رضاك رضاي الذي أوثر وسرك سرى فما أظهر
كفتك المروءة ما تتقي وآمنك الود ما تحذر
وسركم في الحشا ميت اذا أنشر السر لا ينشر
كأني عصت مقلتي فيكم وكاتمت القلب ما تبصر
اذا ما قدرت على نطقه فاني على تركه أقدر
أصرف نفسي كما أشتهي وأملكها والقنا أحمر
دواليك يا سيفها دولة وأمرك يا خير من يأمر
أتاني رسولك مستعجلاً فلبّاه شعري الذي أذخر
ولو كان يوم وغى قاتماً للبّاه سيفي والأشقر

فـلا غفل الدهر عن أهـله فانـك عـين بهـا ينظر

وهناك نوادر أخرى عجيبة من هذا القبيل رأيت ان أضرب عنها صفحاً رغبة في الايجاز .

وحافظة أبي الطيب أشبه بقدرته على الارتجال قوةً وعمقا وسعة وما أظنك بحاجة الى أن أروي لك قصة الرجل الذي نزل لأبي الطيب عن « كتابه » لأنه حفظه في دقائق معدودة مع أنه يتألف من نحو ثلاثين ورقـة .

ولا أدل على سعة هذه الحافظة مما جرى لصاحبها مع أبي علي الفارسي فقد قال له هذا ذات يوم « كم جاء من الجمع على وزن فعلى فقال حجلى وضربى جمع حجل وظربان » [١٣] . قال أبو علي فسهرت تلك الليلة التمس لهما ثالثاً فلم أجد . وقال في حقه ما رأيت رجلاً في معناه مثله » وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان وقال « ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاه . لأن أبا علي ، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله ، لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده » [١٤] وما كان لرجل له ذكاء أبي الطيب الخارق وفكره الثاقب وعلمه الواسع أن ينخدع بالحياة والناس من حيث هو شاعر إن لم يكن من حيث هو رجل فقد وقف منهما موقف المتشائم الذي لا يحفل بظواهر الأمور ولا يقف عند توافه الأشياء ونقدهما أصرم نقد وبرم بهما أشد البرم وأظهر عيوبهما وعدّد مساوئهما في

(١٣) الحجل ذكر القبج . الظربان دويبة منتنة كالهرة .

(١٤) ذكرى ابي الطيب بعد الف عام لعبد الوهاب عزام ط مطبعة (الجزيرة ـ بغداد) سنة ٩٣٦ ص ٣٠٠ .

مدائحه وأهاجيه وغيرها من صنوف شعره وأشهد أنه كان على حق عندما قال :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة فـــلا أشتكي فيهـا ولا أتعتب

حـ ـ آثاره :

لأبي الطيب ديوان ضخم آتاه الله من الذيوع والانتشار ما لم يؤت أي ديوان آخر فقد تداوله الناس وتدارسوه واختلفوا فيه فأعجب به قوم وعابه آخرون في حياة صاحبه وفعلوا به مثل ذلك طوال هذه المدة التي تقع بين مقتل صاحبه وبين يومنا هذا وسيفعلون به مثل ذلك الى ما شاء الله .

وقد شرح أكثر من أربعين شرحاً في مقدمتهـا شروح المعري والعكبري الواحدي وطبـع طبعات كثيرة أقربها الى الكمال طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام التي لو احتوت على بعض الشروح الضرورية وسلمت مما فيها من أخطاء مطبعية قليلة لكانت خير طبعات هذا الديوان .

غزله : وأول باب أتناوله بالحديث من أبواب هذا الديوان غزله . وهو كثير نظم معظمه تمهيداً للمديح وقليل منه تمهيداً للفخر وهناك نتف أقل من هذا القليل مستقلة ، على أن استقلال هذه النتف لا يعني أنها تمتاز بتصوير ما تنطوي عليه من عواطف وتشف عنه من أحاسيس ومشاعر . كلا فانها تقليدية ككل غزل الشاعر . وما أريد أن أطيل الوقوف عند هذا الغزل الذي يتفق الجميع على أنه متكلف مصطنع ولكني أحب أن اصفه لك وصفاً مجملاً لأنه يؤلف جزءاً ضخما من انتاج الرجل ولأنه لا يخلو من جمال فني ذي بال .

وأنا إذ أصف لك هذا الغزل مضطر الى أن ألاحظ أنه يحتوي احياناً على معان مألوفة أو قل مبتذلة كتشبيه وجه الحبيب بالشمس وشعره بالليل وثغره بالبرق وريقه بماء الغمام والخمر وما الى ذلك . وينطوي أحياناً على غلو عجيب لا عهد لنا به من قبل فدموع الشاعر تروي (عيس حبيبته) و (تكفي مزادها) عند الرحيل وجسمه من فرط السقام بحيث لو ألقي في شق قلم (لما غير من خط كاتب) وهكذا، ولكنه يشتمل أحياناً على معان طريفة فيها شيء غير قليل من الجمال واللطف وفيها شيء غير قليل كذلك من الجدة والابتكار ولكن ليس فيها شيء يمكن أن يسمى شعوراً أو عاطفة ، وأمثلة ذلك كثيرة منها هذان البيتان :

وما شرقي بالمـــاء إلا تذكراً لمـاء به أهـل الحبيب نزول
يحرمـه لمـع الأسنة فوقه فليس لظمآن اليـــه وصول

وهذان البيتان :

مثّلت عينك في حشاي جراحة فتشابها كلتاهمـا نجلاء (١٥)
نفذت علي السابري (١٦) وربما تنـدق فيه الصعـدة السمراء

وهذان البيتان :

لبسن الوشى لامتجمـلات ولكن كي يصن به الجمالا (١٧)

(١٥) نجلاء : واسعة .
(١٦) السابري : درع دقيقة النسج فى الحكام .
(١٧) كلف الصاحب بن عباد على شدة عدائه للمتنبي بمعنى هذا البيت ، فلم يجد بداً من أن يسرقه فسرقه سرقة قبيحة فى قوله :
لبسن برود الوشي لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

وضفرن الغـدائر لا لحسن ولـكن خفن في الشعر الضلالا

وهذان البيتان أيضاً :

حسان التثني ينقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم
ويبسمن عن در تقـلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

فأنت ترى أن هذه الأمثلة جميلة حقاً ولكن مصدر جمالها ما فيها من معنى دقيق ولفظ قوي سهل ولا شيء غير ذلك .

ومما يحبب غزل شاعرنا علاوة على ما تقدم خطرات لطيفة يتحدث فيها عن طهارة حبه ونزاهة غرامه ويحاول أن يرفع نفسه أو هو يرفعها تماماً الى مصاف العذريين الذين يعشقون الجمال للجمال ويشقون بالحب للحب استمع الى قوله :

عواذل ذات الخال في حواسد وإن ضجيع الخود مني لما جد
يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد
متى يشتفي من لاعج الشوق في الحشا
محب لهـا في قربـه متباعـد
اذا كنت تخشى العار في كـل خلوة
فـلم تتصبك الحسان الخرائد

وقوله في قصيدة :

وقد استقدت من الهوى فأذقته من عفتي ما ذقت من بلبـاله

فليس من شك في أنه يلذ لدارس الأدب العربي أن يسمع هذه النغمة الرفيعة الحلوة التي انقطعت عن سمعه منذ جميل بثينة وقيس

لبني وحلت محلها صيحات المتشدقين باتيان المآثم والمنكرات من امثال بشار وأبي نواس ، وهمسات أولي الريب من امثال البحتري وابن المعتز • على اني أحب ان ألفتك بصورة خاصة الى هذا البيت الذي اعجب به القدماء اعجاباً شديداً أشاركهم فيه وهو :

يرد يداً عن ثوبهـــا وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

فان شاعرنا لم يقنع من نفسه أن يكون عفيفاً في يقظته اذا خلا بحبيبته حتى كان عفيفاً في رقاده أيضاً حيث يأبى عليه عقله الباطن أن يستجيب لدواعي اللذات ونوازع الشهوات • والبيت بعد كل هذا مبتكر كل الابتكار علاوة على أنه في منتهى الكرم والنبل ولك أن تقول مثل هذا في قوله :

وقد استقدت •• البيت •

فخره : أصدق من غزل المتنبي فخره الذي ملأ نفسه وفاض على لسانه فنطق به صبياً وما انفك يردده ويتغناه حتى آخر أيام حياته وليس من شك في أنه على جانب كبير من الفصاحة والشجاعة والاباء والوفاء والعفة وحدة الذهن وغزارة الحفظ ولكنه لو أضاف الى هذه المزايا السامية الكثيرة مزية أخرى واحدة وهي التواضع لكان ذلك في مصلحته ومصلحة الأدب ولـــكن العناية الآلهية لم ترد له ذلـــك فكثر زهوه واشتد غروره وأسرف في التحدث عن نفسه حتى أنه قسم عدداً غيرقليل من مدائحه بينه وبين ممدوحيه واستأثر بأفضل القسمين فليس في مديح ميميته التي مطلعها :

ملامي النوى فيظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من السقم

ما يرتفع الى مثل قوله :

يحاذرني حتفي كـــأني حتفه وتنكزني[١٨] الأفعى فيقتلها سمي
طوال الرديني ـات يقصفها دمي وبيض السريجيات يقطعها لحمي

* * *

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها
كأني بنى الاسكندر السدمن عزمي

وليس في مديح ميميته التي مطلعها :

لا افتخار الا لمـــن لا يضـــام مدرك أو محارب لا ينـــــام

ما يرتفع الى مثل قوله في نفسه :

ضاق ذرعاً بأن أضيق بـــه ذر عا زماني واستكرمتني الـكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفـــاً تحت أخمصي الأنام

ولكنه كان يتواضع بعض الشيء لسيف الدولة فاذا فخر في أثناء مديحه له قنع أن يكون موضع اعجابه ومحل تقديره :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبـاري ثم قال له الحق

أو عمد الى مصارحته بأنه (مدينة الشعر) على حد قول جرير « منها يخرج واليها يعود » وأن عليه أن لا يشرك شاعراً معه في جوائزه:

أجزني إذا أنشدت شعراً فانمـا بشعري أتـاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فانني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

(١٨) تنكزني : تعظني بانفها .

او ختم به الكرماء على أن يكون هو خاتمة الشعراء :

لا تطلبن كريماً بعـد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعـد شاعره قدأفسدالقولحتى أحمدالصمم

وصفه : وما أحدثك بشيء جديد إذا قلت لك انه أبرع من وصف الحرب من شعراء اللغة العربية فان النقاد القدماء والمحدثين مجمعون على هذا . ولكني أحب أن أزعم أنه من ابرع وصاف الطبيعة والحياة والاجتماع عندنا وتفوقه في فن من فنون الوصف لا ينبغي أن ينسينا براعته في فنونه الأخرى وما أريد أن انكر أنه لم يكثر من وصف الرياض والحياض والجبال الشم والبطاح الخضر والجنان الفيح ولكنه وصف الخيل مراراً عديدة وصفاً منقطع النظير ووصف (شعب بوان) و (بحيرة طبرية) و (غابة دشت الأرزن) وخروج عضد الدولة للصيد فيها ، وقتل بدر بن عمار أسداً بالسوط وارغامه آخر على الفرار وأشياء أخرى كثيرة وصفاً كله قوة وبراعة . إستمع الى وصفه الخيل في يائيته التي مدح بها كافور :

وجرداً [١٩] مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافاً يتبعن العواليـــا
تماشى بأيدٍ كلمـا وافت الصفا تقشن بها صدر البزاة حوافيـا
وتنظرمن سودصوادقفي الدجى يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجرس الخفي سوامعاً يخلن مناجاة الضمير تنـــاديا
تجاذب فرسان الصباح أعنـــة كأن على الأعناق منهـا أفاعيـا

(١٩) تعرب جرد منصوبة على المفعولية لأنها معطوفة على عدة مفاعيل فى البيت السابق وهو :

ولكن بالفسطاط بحرا ازرتـه حياتيونصحيوالهوى والقوافيا

بعزم يسير الجسم في السرج راكباً به ويسير القلب في الجسم ماشيا

ووصفه فرسه في بائية يمدح بها كافور أيضاً :

ويوم كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذني أغر كأنه من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء أدني عنانه فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب
وأصرع أي الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب (٢٠)

ووصفه الخيل في نونية مدح بها سيف الدولة :

قاد الجياد الى الطعان ولم يقد الا إلى العادات والاوطان
كلُّ ابن سابقة يغير بحسنه في قلب صاحبه على الأحزان
إن خليت ربطت بآداب الوغى فدعاؤها يغني عن الارسان (٢١)

فأنت ترى أنه تحدث في المثال الأول عن حوافر خيله فقال انها تنقش أمثال صدور البزاة في الصحور وناهيك بما في ذلك من الدلالة على الصلابة والقوة ، وعن أبصارها فقال إنها ترى الاشياء البعيدة في غسق الليل كما هي . وعن أسماعها فقال انها تنفذ الى همسات الضمائر والأرواح ، وعن قوة عزمها فقال انها تسيّر الجسوم في السروج والقلوب في الأجسام . وفي المثال الثاني عن غرة فرسه فقال انها تتألق

(٢٠) درس ناقد معاصر هاتين القصيدتين فقسمهما بين المتنبي وسيف الدولة وكافور واهمل وصف الخيل فيهما على طرافته اهمالا تاماً ولا ادري لماذا فعل ذلك .

(٢١) للمتنبي شذرات اخرى عديدة في وصف الخيل ولكن اظن اني رويت احسن ما له في هذا الباب :

تألق الكوكب الوقاد ، وعن إهابه فقال ان له فضلة تجيء وتذهب على صدره ، وعما يعتريه من أحوال نفسية اذا أدنى عنانه اليه واذا أرخاه . وعن شدة عدوه فقال انها لا تتيح لأي الاوابد الافلات منه وعن وفرة نشاطه فقال انها لا تقل عند النزول عنه عما كانت عليه قبل الركوب . وفي المثال الثالث عن جمال خيل الممدوح فقال انه ينسي أصحابها همومهم وأحزانهم ، وعما دربت عليه من آداب القتال فقال انها تستغني معه عن الأرسان .

وما أظنك تعاتبه بعد هذا كله على أنه نسي أو أهمل صفة من صفات الخيل الأدبية او المادية .

أما وصفه شعب بوان فانه حديث مستفيض يصف فيه تعدد أجناسه واختلاف لغاته ولهجاته وكثرة أشجاره وطيب ثماره وجميل أثره لا في نفسه ونفوس أصحابه فحسب بل وفي نفوس خيلهم أيضاً فهو يجري على لسان جواده ذلك الحوار الرائع الذي لا أظن ان شاعراً سبقه اليه ، ودونك الآن هذا الوصف لتشاركني في تذوق جماله وتقدير ماله من القيمة الفنية الممتازة :

مغاني الشعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان
طبت [٢٢] فرساننا والخيل حتى ... خشيت وإن كرمن من الحران
غدونا تنفض الأغصان فيها ... على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عني ... وجئن من الضياء بما كفاني

(٢٢) طبت : دعت .

وألقى الشرق منها في ثيابي ... دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشير إليك منه ... بأشربة وقفن بلا أوان
وأمواه تصلّ بها حصاها ... صليل الحلى في أيدي الغواني
ولو كانت دمشق ثنى عناني ... لبيق الزرد صينيّ الجفان (٢٣)
يلنجوجي (٢٤) ما رفعت لضيف ... به النيران ندىّ الدخان
تحل به على قلب شجاع ... وترحل منه عن قلب جبان
منازل لم يزل منها خيال ... يشيعني إلى النوبنذجان
يقول بشعب بوّان حصاني ... أعن هذا يسار الى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت ، إذا رأيت أبا شجاع ... سلوت عن العباد وذا المكان

واخيراً ما رايك فى هذا البيت الذي يصف المتنبي به سيفاً :

رقّت مضاربه فهن كأنما ... يبدين من عشق الرقاب نحولا

وفي هذا البيت الذي يصف به أسداً :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ... فكأنه آس يجس عليلا

وفى هذين البيتين اللذين يصف بهما بحيرة طبرية :

كأنها والرياح تضربها ... جيشا وغىً هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قمر ... حفّ به من جنانها ظلم

---

(٢٣) لبيق : حاذق .
(٢٤) يلنجوجي : نسبة الى يلنجوج وهو البخور .

الواقع أن المتنبي شاعر مبدع في كل فن من فنون الوصف لا في وصف الحرب فقط كما ترى جمهرة النقاد .

مديحه : ومديح المتنبي كثير ، وهو كثير الهنات والهفوات أيضاً ، وهي هنات وهفوات تتعلق بالأخيلة والمعاني مرة والألفاظ والتعابير تارة . فما أظن أن أبا الطيب يفخر كثيراً بمعنى هذا البيت :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبد الله بعرانا

أو بمعنى هذين البيتين :

علّ الأمير يرى ذلي فيشفع لي الى التي تركتني في الهوى مثلا
ايقنت أن سعيدا آخذ بدمي لما بصرت به بالرمح معتقلا

وما اظن كذلك انه يفخر كثيراً بتركيب هذا البيت :

جفخت[٢٤] وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل

أو بتركيب هذا البيت :

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

ولكن مهما يكن من أمر هذه الهنات وتلكم الهفوات فاننا نستطيع — أستغفر الله — بل إننا مضطرون الى أن نقرر أن مديح الرجل في جملته رائع فخم كثير الحسنات جم الفوائد عالي الطبقة يتحدث عن السياسة فيجيد الحديث ويصوّر الوقائع الحربية الفاصلة فيبدع في التصوير ، ويصف أخلاق الرجال وفضائلهم الحقيقية فلا يقصر في

(٢٥) جفخت : فخرت .

الوصف . وما أعني باجادته حديث السياسة والحرب مدائحه سيف الدولة دون غيرها وانما أعني مديحه كله سواء في ذلك مديح بدر بن عمار وآل حمدان وكافور وابن العميد وعضد الدولة وغيرهم . على أنه مما لاشك فيه أنه يبلغ اوج شاعريته في تصوير حروب سيف الدولة المتوالية الطاحنة ولم لا يفعل ذلك وهو يتقاضى نظيره ثلاثة آلاف دينار في السنة عدا الاقطاعات والهدايا والخلع ؟ أضف الى ذلك أنه كان يجد في سيف الدولة مثله الأعلى في الرجولية وشدة البأس وقلة المبالاة بالأخطار وكرم الطباع وتقدير العلم والأدب وتشجيع الملكات الراقية والمواهب الممتازة [٢٦] .

أحبك يا شمس الزمان وبدره وان لامني فيك السهى والفراقد
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد

أما مدائح المتنبي لسيف الدولة فانها تتألف من ٢٨ قصيدة و ٣١ مقطوعة تتضمن « ١٥١٢ » بيتاً لم تتفتق عن مثلها قريحة شاعر في الجاهلية ولا في الاسلام . وانك لتستعرض هذه المجموعة فلا تدري اتدهش لخطورة مالها من الأهمية التاريخية أم لعظم مالها من القيمة الفنية وما أعدك أن استعرض هنا ما سجل أبو الطيب من حروب سيف الدولة واعماله المجيدة في الداخل والخارج على شدة رغبتي في ذلك لأن هذا الفصل أضيق بكثير من أن يتسع لمثل هذه المحاولة ولكني أكتفي بأن أروي لك ما سجل أبو الطيب من هزائم الروم المنكرة لمجرد سماعهم بأن سيف الدولة خرج لحربهم فقد وقع لهم ذلك مراراً عديدة،

(٢٦) يختلف النقاد المحدثون فى تقدير اثر سيف الدولة فى المتنبي وبالعكس وعندي ان سيف الدولة كان متمماً للمتنبي فلولاه لما وجد ابو الطيب الرجل الذي يملأنفسه ويستثير اعجابه ويستنزل آيات شاعريته.

وقع لهم ذلك في أواسط سنة ٣٤١ هـ ولم تشر كتب التاريخ الى هذه الهزيمة ولا ديوان المتنبي أيضاً ، وانما استدللنا عليها بقول المتنبي في أثناء قصيدته التي مطلعها :

واحر قلباه .. البيت :

والتي يعاتب بها سيف الدولة :

فوت العدو الـذي يممته ظفر في طيـه أسف في طيـه نعم (٢٧)
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت
لـك المهابـة مالا تصنع البهم (٢٨)
ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها أن لا يواريهم أرض ولا عـلم
أكلمـا رمت جيشاً فانثنى هربا تصرفت بـك في آثاره الهمـم
عليك هزمهم في كـل معترك وما عليـك بهم عار اذا انهزموا
أما ترى ظفراً حـلواً سوى ظفر تصافحت فيه بيض الهند واللمم (٢٩)

فواضح أن هناك عدواً منهزماً وأن هزيمته لم تكن نتيجة قتال وانما كانت نتيجة خوف ورعب وأن هناك معقباً لهذا العدو أحزنه فوته وان كان هذا الفوت في حد ذاته ظفراً لامعاً . وقد انهزم الروم دون قتال في سنة ٣٤٤ هـ هزيمة أخرى أشنع من هذه غفلت عنها كتب التاريخ ولكن الديوان يروي لنا خبرها في شيء غير قليل من الدقة والتفصيل ، وإجمال الحادثة أن سيف الدولة كان قد بنى سنة ٣٤٣ هـ على الحدود

(٢٧) يقول : اسفت لفرار العدو الذي فاتك على ان فراره ظفر لك ونعمة على جيشك لأنه انتصر دون ان يتكبد خسارة ما .
(٢٨) البهم : كصرد : جمع بهمة وهو الرجل الشجاع .
(٢٩) اللمم : جمع لمة وهو ما جاوز شحمة الأذن من الشعر .

الرومية الاسلامية قلعة تعرف بقلعة الحدث [٣٠] كانت قذىً في عيون الروم وشجى في حلوقهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يهدموها ويطردوا المسلمين من الموضع الذي تقوم عليه وأعدوا لهذا الأمر عدته فأرسلوا في السنة التالية جيشاً يتألف من ٤٠٫٠٠٠ رجل أو أكثر وأحاطوا بالقلعة واتخذوا ما يمكن اتخاذه من التدابير للحيلولة دون وصول الخبر الى سيف الدولة ولكن كتمان خبر كهذا شيء مستحيل فما عتم الخبر أن بلغ مسامع سيف الدولة وخف هذا في الحال لنجدة القلعة وحاميتها المحصورة فما كاد يشرف على معسكر الروم حتى شملهم الذعر واستولى على قلوبهم الفزع ، وانهزموا لا يلوون على شيء كأنهم أمام بطل من أبطال الأساطير وكان هذا نصراً مؤزراً آخر لم ينشأ عن قتال وانما نشأ عن مهابة تغلغلت في أعماق النفوس وخوف نفذ الى قرارات القلوب والأرواح . وفي هذا يقول المتنبي هذه القصيدة الفذة التي لو لم يقل غيرها في سيف الدولة لكانت كافية لتخليدهما معاً ، وهي:

ذي المعالي فليعلون من تعالى ... هكذا هكذا ، وإلا فلا لا
شرف ينطح النجوم بروقيه [٣١] ... ه وعز يقلقل الأجبالا
حال أعدائنا عظيم وسيف الد ... ولة ابن السيوف أعظم حالا
كلما أعجلوا النذير مسيراً ... أعجلتهم جياده الاعجالا
فأتتهم خوارق الأرض ما تح ... مل إلا الحديد والأبطالا
خافيات الألوان قد نسج النقع عليها براقعاً وجلالا

(٣٠) خلد المتنبي بناء هذه القلعة فى حينه ووصفه اروع وصف فى ميميته التي مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتي على قدر الكارم المكارم

(٣١) الروق : القرن .

حالفتـــه صدورها والعوالي لتخوضنّ دونـــه الأهـــوالا
وليمضنّ حيث لا يجـــد الرمـــح مداراً ولا الحصان مجالا
لا ألوم ابن لاونٍ ملك الرو م وإن كان ما تمنى محـــالا
أقلقتـــه بنيّـــة بـــين أذنيـ ـــه وبان بغى السماء فنـــالا
كلمـــا رام حطهـــا اتسع البني فغطى جبينه والقـــــذالا
يجمع الروم والصقالب والبلـ ـــغر فيهـــا وتجمـــع الآجالا
وتوافيهم بهـــا في القنا السمر كما وافت العطاش الصلالا (٣٢)
قصدوا هـــدم سورها فبنوه وأتوا كي يقصروه فطـــالا
واستجرّوا مكايد الحرب حتى تركوهـــا لهـــا عليهم وبالا
رب أمر أتاك لا تحمـــد الفـ ـــعّـــال فيه وتحمد الأفعـــالا
وقسيٍ رميت عنهـــا فردت في قلوب الرماة عنك النصالا
أخـــذوا الطرق يقطعون بهـــا الرسل فـــكان انقطاعها إرسالا
وهم البحر ذو الغوارب إلا أنـــه صار عنـــد بحرك آلا
ما مضوا لم يقاتلوك ولـــكـ ـــنّ القتال الذي كفـــاك القتالا
والذي قطع الرقاب من الضر ب بكفيـــك قطـــــّع الآمالا
والثبـــات الذي أجادوا قديماً عـــلّم الثابتـــين ذا الاجفالا
نزلوا في مصارع عرفوهـــا يندبون الأعمـــام والأخوالا
تحمل الريح بينهم شعر الهـــا م وتـــذري عليهـــم الاوصالا
تنـــذر الجسم أن يقيم لديها وتريه لـــكل عضو مثـــالا
أبصروا الطعن في القلوب دراكا قبل أن يبصروا الرماح خيـــالا
وإذا حاولت طعانـــك خيـــل أبصرت أذرع القنـــا أميـــالا

(٣٢) الصلال : جمع صلة وهي ارض ممطورة بين ارضين لـم يصبهما مطر .

بسط الرعب في اليمين يميناً فتولوا وفي الشمال شمالا
ينفض الروع أيدياً ليس تدري أسيوفاً حملن أم أغلالا
ووجوهاً أخافها منك وجه تركت حسنها له والجمالا
والعيان الجليّ يحدث للظن زوالا وللمراد انتقالا
وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا
أقسموا لا رأوك الا بقلب طالما غرّت العيون الرجالا
أي عين تأملتك فلا قتـ ـك وطرف رنا إليك فآلا ؟
ما يشك اللعين في أخذك الجيش فهل يبعث الجيوش نوالا
ما لمن ينصب الحبائل في الار ض ومرجاه أن يصيد الهلالا ؟
إن دون التي على الدرب والأحـ ـدب والنهر مخلطاً مزيالا [٣٣]
غصب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الارض خالا
وحماها بكل مطرد الأكعب جور الزمان والأوجالا
فهي تمشي مشي العروس اختيالا وتثنى على الزمان دلالا
في خميس من الاسود بئيس [٣٤] يفترسن النفوس والأموالا
وظبى تعرف الحرام من الحل فقد أفنت الدماء حلالا
إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنّى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وانهزم الروم سنة ٣٥٢ للهجرة هزيمة منكرة ثالثة دون قتال ، لا تقل شناعة وبشاعة عن الهزيمتين السالفتين واجمال ذلك كما يقول

---

(٣٣) المخلط المزيال : الرجل الكثير المخالطة والمزايلة للامور والمراد به هنا سيف الدولة .
(٣٤) البئيس الشديد الباس .

الديوان لا كما تقول كتب التاريخ التي تسكت عن هذه الحادثة أيضاً كل السكوت أن سيف الدولة مرض في هذه السنة فانتهز الروم هذه الفرصة وجاءوا بجيش جرّار نزل على طرسوس وحاصرها فارسل أهلها إلى سيف الدولة يستغيثونه ويستنجدونه ويهددونه بالاستسلام اذا هم لم ينجدوا فخف الامير الحمداني لنجدتهم رغم اعتلال صحته ، فلما اتصل خبره بالدمستق أفرج عن طرسوس وولى على عقبه قافلاً الى بلاده دون أن يصنع شيئاً . وكان هذا نصراً مؤزّراً ثالثاً لسيف الدولة لم ينشأ عن قتال وانما نشأ عن مخافة مستحكمة الحلقات ومهابة تفعل فعل الجيوش في نفوس الأعداء . وكان أبو الطيب يومئذ بالكوفة عائداً من الفسطاط وسيف الدولة يراسله ويبعث له الهدايا من حين لآخر كما مرّ . فكتب اليه بهذه المناسبة يستدعيه الى حلب ويؤمنه على نفسه فأجابه بقصيدة وصف فيها هذا النصر المؤزّر وصفاً بليغاً أقتطف لك منه هذه الأبيات :

وغرّ الدمستق قول العداة ... إن عليـــاً ثقيل وصب
وقد علمت خيله أنه ... إذا همّ وهو عليل ركب
أتاهم بأوسع من أرضهم ... طوال السبيب قصار العسب (٣٥)
تغيب الشواهق في جيشه ... وتبدو صغاراً إذا لم تغب
ولا تعبر الريح في جوه ... إذا لم تخط القنا أو تثب
فغرّق مدنهم بالجيوش ... وأخفت أصواتهم باللجب

(٣٥) الضمير فى قوله (أتاهم) عائد الى (اهل الثغور) المذكورين فى بيت سابق . والسبيب : شعر الناصية والعرف والذنب . والعسب : جمع عسيب وهو عظم الذنب والمراد بهذا خيل العدو يقول : أتاهم بخيل لا تتسع لها ارضهم .

فأخبث بـه طالبـاً قتلهم وأحبب بـه تاركا ما طلـب
نأيت فقاتـلهم باللقـاء وجئـت فقاتلهـم بالهرب
وكانوا له الفخر لمـا أتى وكنت له العـذر لمـا ذهـب
سبقت إليهـم منـاياهـم ومنفعة الغـوث قبـل العطب
فخرّوا لخالقهـم سجداً ولو لـم تغث سجدوا للصلب

إن الذي نعرفه من أمر كبار القادة وكبار الشعراء هو أن الأولين يخوضون المعارك ويفتحون الممالك أو يقتحمونها الى حـين • وأن الآخرين يمجدون ظفرهم ويشيدون بشجاعتهم ومهارتهم ويهنئونهم بالفوز المبين فأما أن ينتصر القائد بمجرد سمعته مراراً عديدة على عدوه التام الأهبة الكامل العـدة فهذا ما لم يحدث ــ فيما أعلم ــ لأحد سوى سيف الدولة من القواد ولم يسجله أحد سوى أبي الطيب من الشعراء•

هجاؤه : وكما نظم أبو الطيب أجمل المديح وأروعه ، نظم كذلك أقبح الهجاء وأوجعه وأشنعه • وهجاؤه يمتاز بالصرامة والبذاءة وليس في صرامته ما يبعث على الاستغراب ، فان المتنبي رجل فتك وبطش يقسو على خصومه قسوة هائلة ولا يحجم عن أن ينزل بهم الضربات القاصمة والنكبات الماحقة اذا تسنى له ذلك ولكن الجدير بالاستغراب حقا هو هذه البذاءة التي كان على الشاعر أن يعصم منها أدبه وينزه عنها لسانه وقلمه • ومن غريب أمره في الهجاء أنه ربما جمع بين أجمل فرائد الحكم وأقبح أنواع السباب في القصيدة الواحدة فليس طبيعيا أن يكون قائل :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبـه الـدم

وقائـل :

والظلم من شيم النفوس فانتجد ذا عفـة فلعـلة لا يظـلم

وقائل: ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

هو قائل ما في نفس القصيدة التي تنتظم هذه الابيات من كلام بذيء لا تستحي من قراءته وسماعه العذراء فحسب بل الرجل الكريم الذي تعصمه مروءته أن يقرأ أو يسمع ما يأباه له كرمه ولا يسمح به أدبه . وقد رويت لك مثلا من أخف هجاء المترجم وأقله صرامة عند الكلام على زيارته بغداد فلا حاجة الى المزيد منه .

عتابه : أما عتابه فانه نسيج وحده ، ذلك أنه يكشف النقاب عما يكن صدره من حب خالص وولاء صادق حتى يخيل لك أنه سيترامى على أقدام صاحبه ليستندي قلبه ويحصل على رضاه مهما كان الثمن :

مالي أكتم حباً قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

ولكنه لا يلبث أن ينتفض للدفاع عن عاطفته المجروحة وكرامته المهانة انتفاض الأسد الجريح فيبرق ويرعد ويرغي ويزبد ويتوعد بكل ما تصل اليه يده من شر وأذى ان لم يقض حقه وترع حرمته وتحفظ كرامته :

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهن الى من عنده الديم
أرى النوى تقتضيني كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الانسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
هذا عتابك الا أنه مقة قد ضمن الدر الا أنه كلم
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم

ولك أن تقارن بين عتاب المتنبي هذا وبين ما قدمت من عتاب البحتري في موضعه لتتبين مبلغ حرص الاول على مكانته وكرامته وحرص الثاني على رضى الممدوح وجائزته كائنا ثمنهما ما كان .

رثاؤه : وقد اتهم بعض النقاد أبا الطيب بالعجز عن الرثاء الرقيق الفياض بالمشاعر والانفعالات ، وعزا ذلك الى نضوب معين العاطفة في قلبه ، ولكنها تهمة باطلة فأبو الطيب رقيق العاطفة جياش الشعور مرهف الاحساس ولكن هذا لا يعني أن يصطنع النفاق ويعمد الى الكذب فيزعم أنه حزين شديد الحزن وما هو من الحزن في شيء وأنه متفجع ملتاع وما هو من التفجع والالتياع في كثير ولا قليل .

للمتنبي رثاء كثير ولكن الذين آلمه فقدهم حقيقة ممن رثى قليلون جدا . هو شاعر سيف الدولة وصديقه ، هذا صحيح ، ولكنه لا يعني أنه لابد له من أن يجزع لفقد والدته وان يحزن أشد الحزن لوفاة ابنه الرضيع أبي الهيجاء ومملوكه يماك . أما عضد الدولة فانه ضيف طاريء عليه وهو لا يعرف عن عمته المتوفاة ببغداد أكثر مما يعرف عن أية أمرأة غريبة لا تجمع بينها وبينه جامعة ولا تربطه بها رابطة . ولسنا نعرف شيئا عن صلته بمحمد بن اسحاق التنوخي الذي رثاه بعدة مراث قصيرة فيها شيء لا بأس به من التفجع المصطنع وليس فيها شيء

من اللوعة الصادقة والعاطفة الحقيقية .

هو اذن معذور اذا لجأ لسرد الآراء الفلسفية المتعلقة بالحياة والموت والى تعداد فضائل المرثي لأنه لاشيء لديه غير هذا . على أنك اذا أردت أن تعرف قدرة أبي الطيب على الرثاء الرقيق المؤثر فما عليك الا أن تقرأ قوله في رثاء جدته :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن الى الكأس التي شربت بها وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيت عليها خيفة في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
ولو قتل الهجر المحبين كلهم مضى بلد باق أجدت له صرما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سرورا بي فمت بها غما
رقا دمعها الجاري وجفت جفونها وفارق حبي قلبها بعد ما أدمى
ولم يسلها الا المنايا وانما أشد من السقم الذي أذهب السقما

وقوله فى رثاء صديقه أبي شجاع فاتك الرومي :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصي طيع
يتنازعان دموع عين مسهد هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر والليل معي والكواكب ظلع

* * *

برد حشاي ان استطعت بلفظة فلقد تضر اذا تشاء وتنفع

أترى أن هذه الابيات كلام جاف لا عاطفة فيه ولا شعور أم ترى أنها حسرات تجيش ودموع تترقرق وتنهدات كلها أحزان وآلام ؟ .

فلسفته : وتسألني رأيي فيما يزعمه ويحاول أن يقيم عليه الدليل

بعض النقاد المعاصرين من أن المتنبي فيلسوف وأجيب بأن هذا زعم غير صحيح بل انه اقحام للرجل على الفلسفة ولها عليه والواقع أنه شاعر عظيم كثير التجربة واسع الخبرة بالحياة والناس جم الاطلاع قرأ القرآن والحديث وخطب الراشدين وما نقل الى العربية من أقوال فلاسفة اليونان والهنود والفرس وحكم عقلاء الشعراء كزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني والأفوه الاودي وغيرهم • ووعى منها الشيء الكثير ان لم يكن وعاها كلها فكان له من هذا ثروة فكرية ضخمة تمده بروائع الحكم وشوارد الامثال كلما احتاج الى شيء من هذا • على أنه من المهم أن نعرف السبب الذي يدفعه الى تسجيل خطراته الفلسفية في كثير من قصائده ومقطوعاته ، أهو الرغبة في تقرير مذهب فلسفي أم هو الرغبة في تأييد وجهة نظر يقتضيها مديح ممدوح او الترفيه عن خاطر صديق مكدود أو التعبير عن عاطفة مكبوتة وشعور مكظوم ؟

انك اذا رجعت الى ديوانه وتدبرت حكمه وأمثاله وتأملتها طويلا رأيت أن السبب الثاني هو الذي يمليها عليه ، ثم هو بعد هذا وذاك متناقض يقول الشيء وضده فهو يقول في مكان :

الف هذا الهواء أوقع في الانفـ ـس أن الحمام مر المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

ومعنى هذا أنه ليس في قرارة هذا الانسان أو في غرائزه ما يحبب اليه الحياة ، ويرغبه فيها ، ولكن الفة هذا الهواء هي التي تخدعه عن حقيقتها وتحمله على الركون اليها والتمسك بها في غير ما تعقل ولاتدبر ولكنه يقول في مكان آخر :

ولذيذ الحياة أنفس في النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى

واذا الشيخ قال أف فما مل حياة وانما الضعف ملا

ومعنى هذا أن حب الحياة أمر غريزي فطري يسيرنا ويسيطر على حركاتنا وسكناتنا وليس في وسعنا أن تتخلص منه أو تتمرد عليه . ويقول في مكان :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومعنى هذا أنه زاهد بالحياة معرض عنها لا يجمع منها حطاما ولا يدخر فيها مالا ولكنه يقول في مكان آخر :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه [٣٦] والثوب جلده

ولكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده

ومعنى هذا أنه مفتون بالدنيا فتنة شديدة محب لها حبا لاينتهي الى عزاء أو سلوان . ويقول :

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى

ومعنى هذا أنه يدعو للرفق والتسامح والمسالمة ، ولكنه لا يكاد يلفظ هذا البيت حتى ينقضه نقضا بما يدعو للكفاح والنضال والتطاحن في الابيات التالية :

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا

واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

الواقع أن المتنبي شاعر قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، ولكنه يعرف الأدب والتاريخ والفلسفة والحياة والناس معرفة تلهمه خطرات

(٣٦) هكذا فى الديوان وربما كان الصواب فمركوبه .

فلسفية كثيرة تستقيم مرة وتتناقض تارة وتصيب حيناً وتخطيء حيناً آخر .

لغته وأسلوبه : وقد أحصى القدماء كل كبيرة وصغيرة من سقطات المتنبي التي تتعلق بلغته وأسلوبه ونسوا أن يحسبوا حساباً للزمن الذي حصل فيه معظم هذه السقطات ، فقد حصل معظمها يوم كان الشاعر يجوب القفار ويتنقل بين الأمصار ماشيا على قدميه لأنه لايملك راحلة يستخدمها في أسفاره :

ومهمه جبته على قـدمي تعجز عنه العرامس الذلـل

ويوم كان الشاعر من نحافة البنية بحيث يقول عن نفسه :

برتنى السرى بري المدى فرددنني أخف على المركوب من نفسي جرمي

ويوم كان الشاعر لا يرتدي سوى الغليظ الخشن من الثياب :

لـري لباسه خشن القطـ ـن ومروي مرو لبس القـرود

وما أظن أنه من العدل أن تطلب الى الشاعر الذي لا يملك ما يسد به رمقه أن يقدم لنا إنتاجاً راقيا سليما لا يتطرق اليه الضعف في ناحية من نواحيه فلا كلمة نابية ولا تعبير ركيك ولا تشبيه مبتذل ولا خيال غير مستحسن .

إن الظروف التي تكتنف حياة الشاعر فتؤثر في جسمه وعقله وتسيطر على تفكيره لا ينبغي أن تهمل في حساب الناقد النزيه . ونحن نستطيع أن نقسم حياة أبي الطيب الى دورين مختلفين كل الاختلاف :

أحدهما ـ دور شقاء وبؤس وفقر وتشرد يبتديء بطفولتـه وينتهي بدخوله بلاط سيف الدولة .

وثانيهما ـ دور رخاء ويسر واستقرار نسبي يبتديء باتتظام

الشاعر في حاشية الأمير الحمداني وينتهي بمقتله . ف

وقد قلت لك ان معظم هفواته التي يحاسبه عليها القدماء حساباً لا رحمة فيه ولا شفقة حصل في الدور الأول من حياته . ومع ذلك فاننا اذا قسنا سيئاته من حيث اللغة والأسلوب الى حسناته في هذا الدور نفسه . رجحت الثانية على الاولى رجحانا ظاهرا ودفعتنا دفعا الى عده في طليعة شعراء اللغة العربية فصاحة لفظ ومتانة تعبير وبراعة مثل وجمال حلية بيانية . استمع الى قوله في صدر قصيدة يمدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي .

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتّحة عيونهم نيام
بأجسام يحر القتل فيها وما أقرانها الا الطعام (٣٧)
وخيل ما يخر لها طعين كأن قنا فوارسها ثمام (٣٨)
خليلك أنت لا من قلت خلّي وان كثر التجمل والكلام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل تجنب عنق صيقله الحسام
وشبه الشيء منجذب اليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام

* * *

ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام

* * *

(٣٧) يقول : يكثر فيهم الموت ولكنهم لا يموتون الا بالتخمة .
(٣٨) الثمام : نبات ضعيف .

وما كـــل بمعذور ببخـل ولا كـل على بخل يـــلام

.وقوله فى مديحها :

يروع ركانـة ويذوب ظرفاً فمـا يدرى أشيخ أم غـلام

* * *

أقامت في الرقاب لـه أيـاد هي الأطواق والناس الحمـام

وقوله في رهط الممدوح :

نصرّعهـم بأعيننـا حيـاء وتنبو عن وجوههم السهـام

وقوله من أخرى :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت الا وفي نفسهـا أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
وأقدمت إقدام الأتيّ (٣٩) كأن لي
سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهمـا العمر
ولا تحسبنّ المجـد زقا وقينة فما المجد الاالسيف والفتكةالبكر

(٣٩) الأتي : السيل .

وتضريب أعناق المسلوك وأن ترى
لك الهبوات [٤٠] السود والعسكر المجر [٤١]

وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنملة العشر
إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر
ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقوله في أخرى :

أحق عافٍ بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

وقوله في مديح أخرى :

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في فؤادي

وقوله متغزلاً من أخرى :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتا من القلب لم تمدد له طنبا

(٤٠) الهبوات : الغبرات .
(٤١) المجر : الكثير .

مظلومة القدّ في تشبيهه غصنا مظلومة الريق في تشبيهه ضربا

وبعد : أترى أني مسرف اذا قلت لك ان فصاحة اللفظ ومتانة التعبير وجودة المثل وجمال الزخرفة البيانية على اختلاف أنواعها من تشبيه واستعارة وطباق هي الخصائص التي تمتاز بها لغة أبي الطيب وأسلوبه حتى في أيام بؤسه وشقائه واضطراب حاله وتشرده ، أما في عهد الاستقرار النسبي عند سيف الدولة وأقول نسبي لأنه حصل على المال ولم يحصل على طمأنينة البال ، فقد كان محاطاً بجيش من الخصوم والحساد لا ينقطعون عن الكيد له والطعن عليه . أقول : أما في هذا العهد فقد ازدهرت تلك الخصائص ازدهاراً باهراً تمثله سيفياته التي سبق أن أفضيت لك برأيي فيها عند الكلام على مديحه ورويت لك مثلاً منها تكفي للدلالة على وجاهة هذا الرأي وقل مثل ذلك في كافورياته التي رويت لك منها مثلاً قليلة جداً عند الكلام على وصفه ولكنك تستطيع أن تجدها في ديوانه وتقرأ منها ما تشاء .

لقد كان على الصاحب بن عباد وأشياعه أن يعلموا أنهم باحصائهم عيوب أبي الطيب وزلاته وغلوّهم في هذا الاحصاء انما يضيفون الى مجده مجداً والى فخره فخراً .

د ـ خاتمـــــة :

يتفق النقاد القدماء على أن أكبر شعراء العربية ثلاثة هم :

أبو تمام والبحتري والمتنبي . ويرى أبو العلاء أن أبا تمام والمتنبي حكيمان والبحتري هو الشاعر وعندي أنه لا سبيل للمقارنة بين البحتري وصاحبيه لأنه مبرز في نوعين من القريض لم يكونا من رجالهما

ألا وهما : وصف القصور ، والغزل الرقيق .

ولكني لا أجد بأساً في المقارنة بين أبي تمام والمتنبي فكلاهما صاحب فكر قبل أن يكون صاحب خيال ، وكلاهما رائد معان قبل أن يكون رائد ألفاظ وكلاهما مؤثر للتفظ الفصيح والتعبير البليغ وان كانا يختلفان من ناحية الزخرفة البيانية فأبو تمام بتكلفها في كثير من الاحيان تكلفاً والمتنبي لا يأتيها في الغالب إلا عفواً وكلاهما مجيد في وصف الحرب والسياسة وكلاهما بعد كل ذلك صاحب حكم باهرة وأمثال سائرة ، ولكن يخيّل إليّ أن نصيب أبي تمام من هذا كله أقل بكثير من نصيب صاحبه بل اني أذهب الى أبعد من ذلك فأزعم أنه يختفي تحت شعاع عبقرية أبي الطيب كما يختفي القمر تحت شعاع الشمس .

الفصل الثاني

أبو فراس الحمداني

أ ــ حياته : اسمه ونسبه وكنيته. مولده ونشأته . اتصاله بسيف الدولة. امعان هذا في اصطفائه وتقريبه . تفانيه في خدمة سيف الدولة . فساد ذات بينهما . سببه . بعض ما نشأ عنه . أسره . اساءة الروم معاملته في خرشنه . نقله الى القسطنطينية . ما لقي فيها من تبجيل ورعاية . عرض فداء منفرد عليه . رفضه اياه . الافراج عنه . وفاته .

ب ــ أخلاقه : كرمه . شجاعته . خفة طبعه . بعض أخباره الدالة على ظرفه ومرحه . هفواته الثلاث وما تدل عليه .

جـ ــ علويته .

د ــ شعره : ديوانه . طبعاته . غزله . ما كان منه غراميا وما لم يكن. رمزيته . مديحه . ما له من القيمة التاريخية . مثل منه. فخره . ميزته . ما جرى له مع جماعة من كلاب . وصفه. ما جرى له مع بني جعفر . تصويره . فخره بحسن سيرته . مثل منه . اخوانياته . مالها من الدلالة على أخلاقه . مثل منها . روميـاته . على ماذا تحتوي . مثل منها . لغته وأسلوبه . بعض هفواته . أمثاله . تشبيهاته. مثل منها .

هـ ــ خاتمة : منزلته بين كبار شعراء الفروسية .

أ ـ حياتـــه :

حدثتك في الفصل السابق عن سوقة رفعه الشعر الى مجالسةالملوك ومعاشرة الامراء والوزراء ، وأحدثك الآن عن أمير لم يقل الشعر الا لانه فن من أرفع الفنون ووســيلة من أحسن الوســائل للتعبير عن أغراض البطولة والفروسية ، ومما هو جدير بالذكر أن هذين الشاعرين المختلفي المنبت والمحتدو الغاية مدينان معا بالشيء الكثير من شاعريتهما لشخصية سيف الدولة الجذابة وحروبه وأعماله الباهرة وتشجيعه الادبي والمادي، هذا الى أنهما تخاصما فيهخصومة مرةوتنافسا في عطفه وتقديره تنافسا شديدا ، وما أشك في أنك عرفت الآن أن الامير الشاعر الــذي سيدور حوله البحث هو الحارث بن ســعيد بن حمدان المكنى بأبي فراس شاعر الفرسان وفارس الشعراء .

يختلف مؤرخو الأدب القدماء في ولادة أبي فراس بعض الاختلاف فمنهم من يقول انه ولد سنة عشرين وثلاثمائة ومنهم من يقول انه ولد سنة احدى وعشرين وثلاثمائة . ثم هم جميعا لا يعنون بمسقط رأسه فلا يعينه أحد منهم . ولكن مؤرخي الأدب المحدثين يتلافون هــذا النقص فيقولون لنــا انه ولد « بمنبج » وهي مدينة تابعة لحلب [1] . ويخيل الي أنه ليس في هــذه الاقوال جميعا ما يمكن الاعتماد عليــه والاطمئنان اليه . فما أظن أن ابا فراس ولد سنة عشرين او احــــدى وعشرين وثلاثمائة للهجرة لانه عاش اربعين سنة بدليل قوله :

(١) خرج على هذا الاجماع الدكتور سامي الدهان ناشر ديوان ابي فراس ومترجمه الى الفرنسية فانه ذهب الى ان ابا فراس ولــد فى الموصل .

ابعد الاربعين محرمات تماد في الصبابة واغترار

ولأنه قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة باجماع المؤرخين. فاذا كان أبو فراس قد عاش اربعين سنة كما يقول هو واذا كان قد قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة كما يقول المؤرخون كافة ، فيجب أن يكون قد ولد سنة ثماني عشرة وثلاثمائة للهجرة على أقل تقدير . وما أظن أن أبا فراس ولد بمنبج لأننا اذا تتبعنا تأريخ أبيه في السنوات العشر الاخيرة من حياته رأينا أن « الموصل » كانت مقره دائما ولذلك يمكننا أن نرجح ترجيحاً يشبه الجزم أن أبا فراس ولد في الموصل عاصمة آبائه وأجداده ومقر ملكهم وعظمتهم . وقد أفترض المحدثون ان المترجم ولد بمنبج لانه كان يحكمها حكماً اقطاعيا ولكن حكمه اياها لا يعني أنه ولد فيها .

وقد قتل والده في الموصل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة، قتله أبن أخيه ناصر الدولة لانه ضمن الموصل سرا من الراضي بالله وجاء ليتسلمها منه وكان يحكمها بطريق الضمان ، فبعث اليه جماعة من غلمانه قتلوه « عصر مذاكيره » وعلى هذا ، وبصورة باتة ، نشأ ابنه الحارث يتيما في الموصل [٢] فكفله ابن عمه وزوج شقيقته سيف الدولة ونشأه أحسن تنشئة ورباه أفضل تربية . وأبو فراس شديد الاعتزاز بهذه النشأة عظيم الفخر بهذه التربية وقد ذكرها ونوه بها في شعره مرارا عديدة فمن ذلك قوله من قصيدة :

وكيف ينتصف الاعداء من رجل المجد أوله والعز آخره

(٢) يذكر الدكتور سامي الدهان ان والدة ابي فراس طافت به في حواضر الحمدانيين متنقلة بين آمد ، وميا فارقين ، وماردين ، والرقة . ديوان ابي فراس ج ٢ ص ١٠٢ ولا ادري من اين اخذ هذا .

ومن سعيد بن حمـــدان ولادته ومن علي بن عبد الله ســـائره

وعلي بن عبد الله هو سيف الدولة .

ولم تكد سن أبي فراس تسمح بتدريبه على اقتحام المخاطر وخوض المعامع ومعالجة قضايا السياسة والادارة حتى أخذ ابن عمه يستصحبه في غزواته ويستخلفه على أعماله ، مريدا بذلك أن يكون نابغة الحـرب والسياسة في وقت واحد كما كان هو . ويحدثنا أبو فراس أنه كـان يستغرب كثيراً تعريض ابن عمه اياه للسيوف والحراب مع أنه يحبه حبا لا مزيد عليه . الا أنه أدرك سر موقف ابن عمه منه عندما نادى به في مجمع حافل بكبار الامراء والقواد فارساً مقداما وبطلا هماماً مثنيا على شجاعته أحسن ثناء ، مطريا أقدامه وبسالته أجمل اطراء :

يا من يحاذر أن تمضي عليّ يـد مالي أراك لبيض الهند تسمح بي؟
وأنت بي من أضن الناس كلهـم فكيف تبذلني للسمر والقضب ؟
ما زلت أجهـله فضلا وأنكـره وأوسع النفس من عجب ومن عجب
حتى رأيتك بين الناس محتفيـا تثني عليّ بوجـه غير متئب (٣)
فعندها وعيون النـاس ترمقني علمت أنك لم تخطيء ولم أصب

وكان أبو فراس يقابل عطف سيف الدولة الشديد هذا بالتفاني في خدمته والاخلاص لشخصه والذود عن حياض دولته .

يا سيف ، سـيف الدولة المـاضي اذا
نبت السـيوف وخـان كـل مصمم
ارم الكتـائب بي فانك عـالم أني أخـو الهيجاء غير مـذمم

---

(٣) متئب : منقبض .

وعلي أن القى الفوارس معلما وعلو جدك عدتي وعرمرمي
أنا سيفك الماضي وليس بقاطع سيف اذا هو لم يشد بمعصم

وقد مكث هذان الاميران المتحابان سنين كثيرة وهما أشبه بأخوين بل بحبيبين . حدث الثعالبي في اليتيمة قال : « نظر سيف الدولة ذات يوم الى نفر من جلسائه فيهم أبو فراس وقال لهم : من منكم يجيز هذا البيت ، وليس له الا سيدي ــ يريد أبا فراس ــ والبيت هو :

لك جسمي تعله فدمي لم تحله

فاجازه ابو فراس على الفور بقوله :

أنا ان كنت مالكا فلي الامر كله

فسر سيف الدولة ببيت أبي فراس سرورا عظيما واقطعه ضيعة بمنبج غلتها الف دينار في السنة .

وكان يبدو بعيدا كل البعد أن تفسد علاقة أبي فراس بسيف الدولة الا أن هذا حصل فعلا . ويحار المؤرخون في تعليل هذه الظاهرة الغريبة فيعزوها بعضهم الى كلمة ثقيلة كتب بها أبو فراس من الاسر الى سيف الدولة وهي : « مفاداتي ان ثقلت عليك ائذن لي أن أكاتب بها ملوك خراسان » ولكن هذا غير صحيح ، فقد ساءت علاقة أبي فراس بسيف الدولة قبل أن يؤسر .

والذي أراه ، أن علاقتهما ساءت بسبب قتال نشب بين أبي فراس وبين نفر من الحمدانيين يظهر أنه لم يكن محقا فيه ولكنه كان يأمل مع ذلك أن يقف سيف الدولة الى جانبه وينصره على خصمه عملا بالنظرية القائلة « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » الا أن سيف الدولة خيب امله

بالانتصاف لخصمه منه فشق عليه ذلك كثيرا وكتب اليه يقول :

قد كنت عدتي التي أسطو بها ... ويدي اذا اشتد الزمان وساعدي
فرميت منك بغير ما أملته ... والمرء يشرق بالزلال البارد
فصبرت كالولد التقي لبره ... يغضي على الم لضرب الوالد
ونقضت عهدا كيف لي بوفائه ... ومن المحال صلاح قلب فاسد (٤)

واذاً فقد (رمي) أبو فراس من سيف الدولة بغير ما أمل . واذا فقد فسد قلب أبي فراس على سيف الدولة فسادا لا صلاح بعده أبدا ، وأصبح هذا يشك في اخلاصه ويرتاب بسلوكه ويصغي الى أقوال الوشاة فيه وكان هؤلاء وهم من الحمدانيين أنفسهم واقفين له بالمرصاد فكانوا يوغرون صدر ابن عمه ومربيه وولي نعمته عليه بالحق وبالباطل . وكان أبو فراس عالماً بما يحاك حوله من الدسائس ولذلك كان يحذر خصومه من بني عمه عاقبة عملهم مرة ويهددهم بكشف ما يعرف من أسرارهم تارة فيقول في تحذيره :

بني عمنا لا تنشبوا الحرب بيننا ... بني عمنا لا تقطعوا اليد باليد

ويقول في تهديده :

وعندي من الاخبار مانو ذكرته ... اذن قرع المغتاب من ندم سنا

ولكن هذا لم يجده نفعا ، فقد استمر كيد خصومه له واشتد نفور سيف الدولة منه واعراضه عنه .

ولم يعمل هو من جانبه شيئا لتلافي الخطر وازالة سوء التفاهم ، فتوترت علاقته بابن عمه ، وأول ما نعرف من آثار هذا التوتر هو أن

(٤) هكذا يروي العاملي هذا البيت في كتابه « ابو فراس الحمداني » ص ٢٤ ط ١ أما الدهان فيرويه على ان عجزه « وسقيت دونك كأس هم صارد » ولا شك ان رواية العاملي اكثر ملاءمة واقرب الى الصواب .

سيف الدولة استعرض ذات يوم خيله أمام نفر من بني حمـدان فيهم أبو فراس ، ورغب اليهم أن يأخذ كل منهم الفرس الذي يشتهيه ، فأخذ كل منهم ما أعجبه سوى أبي فراس ، فانه امتنع عن تلبية رغبة ابن عمه امتناعا تاماً وقال في ذلك :

غيري يغيره الفعـال الجافي ... ويحول عن شيم الكريم الوافي
لا أرتضي وداً إذا هو لم يدم ... عند الجفاء وقـلة الانصاف
تعس الحريص وكل مايأتيه ... عوضاً عن الالحاح والالحاف
إن الغني هـو الغني بنفسه ... ولو انـه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً ... وإذا قنعت فـكل شيء كاف
ما كثرة الخيل العتاق بنافعي ... شيئاً ولا عدد السوام الضافي
خيلي ـ وان قلّتـ كثير نفعها ... بين الصوارم والقنـا الرعاف
ومكارمي عدد النجوم ومنزلي ... مأوى الكرام ومنزل الاضياف

وظاهر أن البيتين الأول والثاني تعريض شديد بسيف الدولة ، وأن الأبيات الاخرى تشير الى ترفع أبي فراس عن عطائه واستطالته بما عنده من كرم الطبع وعلو المنزلة ونباهة الشأن .

وفي ذات يوم من أيام شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة للهجرة كان أبو فراس في سبعين من رجاله على مقربة من منبج ، فدهمه ألف فارس من الروم ، وأشار عليه أصحابه بالانسحاب أمام هذا العدو المتفوق بعدده تفوقاً ساحقاً ، ولكنه رأى أن الأنسحاب كائنا سببه ما كان فرار معيب ، وأقدم على الموت ، الا أنه سقط جريحا في المعركة ، ثم أسعف وأخذ أسيراً الى (خرشنة) وهي مدينة رومية على ساحل البحر الأبيض ، فسجن بها مدة من الزمن ثم أخذ الى القسطنطينية

فقضى فيها بقية أيام أسره التي استغرقت نحواً من أربعة أعوام .

وقد استغرب المؤرخون إبطاء سيف الدولة عن تقديم فداء ابن عمه ، ولكن أهناك محل للاستغراب ونحن نعلم ما نعلم من فساد علاقة الرجلين ؟ ..

وقد زاد أبو فراس في الطين بلة بارساله الى سيف الدولة في أيام أسره الأولى قصيدة يقول فيها :

تشبّث بها أكرومةً قبل فوتها ... وقم في خلاصي صادق العزم واقعد
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتىً ... طويل نجاد السيف رحب المقلّد
يدافع عن أعراضكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهند

وواضح أن هذه اللغة لا يحتملها رجل له أنفة سيف الدولة ومكانته . يضاف إلى ذلك أن سيف الدولة كان يطلق أسرى الروم نظير إطلاقهم أسرى المسلمين أو نظير فدية . وقد حدث أنه لما وقع أبو فراس أسيراً في أيديهم كان عندهم ثلاثة آلاف أسير من المسلمين زيادة على من بيد سيف الدولة من أسراهم . وغير مستبعد أن تضيق خزانة الأمير الحمداني ذرعاً بفداء هذا العدد الضخم من الأسرى . فلهذه الاسباب كلها بقي أبو فراس هذه الأعوام العديدة في الأسر .

وصحيح أن الروم أساءوا معاملته في خرشنة فسجنوه في سجن ضيق وألبسوه ثوباً من صوف وكبّلوه بالحديد ، الا أنهم أحسنوا معاملته كل الاحسان عندما نقلوه الى القسطنينية ، فأفردوا له داراً خاصة وعينوا له خدماً وعرضوا عليه الفداء منفرداً فأباه . وبلغ من احترامهم إياه أنهم كانوا اذا رأوه طأطأوا رؤوسهم له اعظاماً :

إذا عاينتني الروم كفّر صيدها ... كأنهم أسرى لديّ وفي كبلي

وحسمت مسألته آخر الأمر على يده . ذلك أنه توسط بين القسطنطينية وحلب ، فحمل ابن عمه على مهادنة الروم وإعطائهم مائتي ألف دينار هي كل ما يطلبونه نظير اطلاق أسرى المسلمين . وكانت هذه أول هدنة بين الروم وسيف الدولة .

وعاد أبو فراس بمن معه من المسلمين الى بلاد بني عمه سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، فسر الناس بذلك ولا سيما سيف الدولة سروراً لا حد له .

ولم تطل حياة سيف الدولة بعد الأفراج عن ابن عمه . لقد توفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، ثم لم تطل حياة أبي فراس هو الآخر ، فقد قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة في نزاع دار بينه وبين ابي المعالي بن سيف الدولة وخليفته في كرسي امارته . وقد لخص ابن الاثير حادثة قتله بما خلاصته : أن أبا فراس كان بحمص . فحصلت بينه وبين أبي المعالي وحشة . فاستدعاه الى مقابلته فامتنع . وانحاز الى قرية قريبة من حمص اسمها (صدد) فانفذ اليه ابو المعالي ثلة من الجند على رأسها غلام أبيه (قرعويه) وأخذه الجند على حين غرة . فاستامن اصحابه . وكان هو في جملة المستامنين . الا ان قرعويه او (فرغويه) أمر أحد جنوده بقتله فقتله . وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، وهناك أقوال مختلفة تتعلق بمقتل أبي فراس لا أرى فائدة في ايرادها هنا .

ب ـ اخلاقـــه :

قلت لك ان أبا فراس . نشأ يتيماً . وان ابن عمه وزوج شقيقته سيف الدولة تولى تربيتـه وتعليمـه . واقول لك الآن . انه في جده

وهزله ــ صورة صادقة من ابن عمه هذا ــ فقد كان فارسا مقداماً • •وجواداً مفضالا ــ أبياً وفياً صريحا • عف اللسان • طاهر اليد • خفيف الطبع • دمث الروح • يستميله الجمال • ولكنه لا يسيطر عليه • ويستخفه الغناء • ولكنه لا يصده عن اداء شيء من واجباته •

روي ان مغنية بارعة قدمت حلب من بغداد • ولم يشأ ابو فراس ان يستمتع بغنائهـا قبل سيف الدولة • فكتب اليـه يستحثه على احضارها • والاستماع لغنائها هذه الابيات :

محلـك الجوزاء بل ارفـع وصدرك الدهناء بـل اوسع
وقلبك الرحب الذي لم يزل للجد والهزل بـه موضـع
وفضلـك المشهور لاينقضي وفخرك الذائـع لا يدفـع
رفه بقرع العود سمعاً غـدا قرع العوالي جل ما يسمع (٥)

ومن هذا القبيل ما يحكى من ان سيف الدولة • وعد ابا فراس • بأحضار ابي عبد الله بن المنجم والغناء بحضوره • ولكنه لم يسارع الى انجاز هدا الوعد • فكتب اليه ابو فراس :

« قد تقدم وعد سيدنا سيف الدولة • باحضار ابي عبد الله بن المنجم والغناء بحضوره • وانا سائل في ذلك ، فان رأى سيف الدولة أن يتطول بانجاز ما وعد • فعل انشاء الله » وشفع الكتاب بهذين البيتين •

ايا سيـداً عمنى جـوده بفضلـك نلت السنا والسناء
وكم قـد أتيتـك من ليلة فنلت الغنى وسمعت الغناء (٦)

فأجابه سيف الدولة بكتاب قال فيه « انه مشغول بقرع الحوافر

---

(٥) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣ طبعة دمشق .
(٦) ابو فراس الحمداني ص ٥٢ الطبعة الاولى .

عن المزاهر » : ومن نفيس ما كتبه ابو فراس الى سيف الدولة في هذا الصدد . الابيات التالية :

يا أيها الملك الذي اضحت له جمل المناقب
تنتج الربيع محاسناً القحنها غر السحائب
راقت ورق نسيمها فحكت لنا صور الحبائب
حضر الشراب فلم يطب شرب الشراب وانت غائب

وقد عز على الأستاذ السيد محسن الأمين مؤرخ أبي فراس في أعيان الشيعة أن يفرغ أبو فراس الى الشراب ويتحدث عنه وودّ لو يكون كاذباً في هذا شأن الشعراء في كثير من أقوالهم ، ولكني لا أشك في أن أبا فراس صادق في ما حدّثنا به عن لهوه ولعبه لأن شعره وأخباره تدل على هذا دلالة صريحة قاطعة . أضف الى ذلك أن أبا فراس يشرح موقفه من الغرام واللهو شرحاً لا لبس فيه ولا ابهام فيقول :

لقد ضل من تهوى هواه خريدة وقد ذل من تقضي عليه كعاب
ولكنني ـ والحمد لله ـ حازم أعز إذا ذلت لهن رقاب
ولا تملك الحسناء قلبي كله وان ملكتها روقة وشباب
وأجري ولا أعطي الهوى فضل مقودي
وأهفو ولا يخفى عليّ صواب

وليس الشراب ولا السماع مما يعاب به أمير مترف أبرز صفاته الشعر والفروسية ، ولكني أحب أن أحاسب أبا فراس على ثلاث هفوات عاتبه على بعضها أصدقاؤه وأعداؤه في أيام حياته . هذه الهفوات الثلاث هي أولاً اقدامه على قتال الف من الروم بسبعين رجلاً ليسوا على استعداد للدفاع عنه . ثانياً ، مناداته باسمه أو كنيته ساعة اشتباكه

بالروم في هذه المناسبة ، لأن كشف النقاب عن شخصيته يغري خصومه بالاستماتة في سبيل قتله أو أخذه أسيراً وقد حدث الشق الثاني فعلاً. ثالثاً ، الحاحه بطلب الفداء على سيف الدولة الحاحاً لا يقدم عليه رجل له مثل بطولة أبي فراس ورجوليته فليس من شك في أن صدور هذه الهفوات الثلاث عن أبي فراس يعني أن نصيبه من الأناة والروية وضبط النفس والصبر على المكروه لم يكن بالدرجة التي يصورها لنا في شعره.

حـ ـ علويتـــه :

وأبو فراس علوي الرأي يؤمن بحق آل علي في الخلافة ويتوجع لما أصابهم ، ويرثي لما حل بهم ويندد بآل العباس ويذكر عيوبهم ويعدد مساوئهم ويقارن بينهم وبين أقطاب البيت العلوي فيقرر ان الفرق عظيم بين هؤلاء وأولئك :

ليس الرشيد كموسى في القيـــاس ولا
مأمونكم كالرضا إن أنصف الحـــكم

ومن رأيه أن قرابة العباسيين من النبي (ص) لا تنفعهم شيئاً لأن أعمالهم لا تقربهم منه بل إنها تبعدهم عنه مراحل كثيرة .

هيهات لا قربت قربى ولا رحم يوماً إذا أقصت الأخلاق والشيم
كانت مودة سلمان له [٧] رحماً ولم يكن بين نوح وابنه رحم [٨]

(٧) الضمير فى له عائد الى النبي (ع س) الوارد ذكره فى بيت سابق .

(٨) هذان البيتان والبيت السابق (ليس الرشيد) الخ من قصيدة عصماء لأبي فراس يرد بها على محمد بن سكرة الشاعر العباسي المعروف لأنه هاجم آل علي مهاجمة عنيفة بقصيدة يقول فى اولها :

بني علي دعوا مقالتـــكم لاينقص الدر وضع من وضعه

د ـ شـعره :

لأبي فراس شعر كثير طرق فيه كل باب من أبواب القريض وعالج كل غرض من اغراضه ، مقلا في بعضها • مكثراً في البعض الآخر [٩] • وقد طبعت مجموعة من شعره باسم « ديوان أبي فراس » ثلاث مرات مرات في بيروت اسوأ طبع وارداه وابعده عن التحقيق والتمحيص • وجمع السيد محسن الامين العاملي طائفة حسنة منه • ضمت قصائد ومقطوعات كثيرة لا وجود لها في الديوان المطبوع في كتابه المسمى « ابو فراس الحمداني » المنشور بدمشق عام ١٩٤١ • وعني به أخيراً الدكتور سامي الدهان • أحد 'دباء سورية عناية صادقة • فطبعه • طبعة علمية متقنة • راجع في سبيل انجازها كثيراً من نسخ الديوان المخطوطة والمحفوظة في خزائن كتب الشرق والغرب • فظهر في ثلاثة اجزاء • احتوى 'لجزء الاول منها على ترجمة الديوان الى الفرنسية [١٠] واشتمل الجزءان الثاني والثالث على متن الديوان • مشفوعاً بشروح وتعليقات وفهارس كثيرة نافعة • ولو ان الدهان استطاع ان يصدر الديوان بمقدمة أقرب الى التحقيق من المقدمة الحاضرة • لكان عمله فريدا في بابه • ومهما يكن من شيء • فان عمل الاديب الدهان هذا • جدير بالثناء والتقدير •

---

(٩) أحب ان اتقدم الى القارىء بأني لم ادرس شعر ابي فراس كله وانما اقتصرت منه على ما بدا لي انه جدير بالدرس وهو معظمه .

(١٠) ترجم الناشر ديوان ابي فراس الى الفرنسية لان اخراجه اياه بهذه الطريقة المتقنة هو عمله العلمي الذي نال به الاجازة الدكتوراه من السوربون .

غزله : رأيت في ما تقدم أن أبا فراس يقول :

ولا تملك الحسناء قلبي كله وان ملكتها روقة وشباب

ومعنى هذا أن الحسناء • تملك بعض قلب الشاعر • وانه قد عرف الحب واكتوى بناره • وعانى همومه وآلامه • وليس هذا أمراً مستبعداً بالنسبة الى أمير خفيف الطبع • رقيق الشعور • دقيق الاحساس • يعرف الجمال ويتذوقه • ويتحدث عنه • وفي شعره ما يدل على بعض صلاته الغرامية • فهو يقول :

اساء فزادته الاساءة حظوة حبيب على ما كان منه حبيب

يعد علي الواشيان ذنوبه ومن اين للوجه الجميل ذنوب

فواضح ان هذين البيتين • يمثلان أميراً محباً اساء اليه حبيبه فغفر له وصفح عنه • بل ان اساءة هذا الحبيب زادته حظوة عنده • ولكنك اذا نظرت في عامة غزل أبي فراس • رأيت انه غزل جاف تقليدي • لا تترقرق في حواشيه دمعة • ولا تجيش في ثناياه حسرة • ولك ان تقرأه لتتبين ما في هذا الزعم من الصحة •

ستقول وما رأيك في غزل رائيته الشهيرة التي مطلعها : (أراك عصي الدمع شيمتك الصبر) والتي يقول فيها •

تسائلني من أنت وهي عليمة وهل بفتىً مثلي على حاله نكر

فقلت كماشاءت وشاء لها الهوى قتيلك قالت أيهم فهم كثر

فقلت لها • لو شئت لم تتعنتي ولم تسألي عني وعندك بي خبر

فقالت•لقدازرى بك الدهر بعدنا فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر

وما كان للاحزان لولاك مسلك الى القلب لكنّ الهوى للبلى جسر

فأيقنت ان لا عز بعدي لعاشق وان يدي مما علقت به صفر

وقلبت أمري لا أرى لي راحـة إذا الهـم أسلاني الح بي الضر
فعدت الى حكم الزمان وحكمها لها الذنب لا تجزى به ولي العذر
فـلا تنكريني يا ابنـة العم إنه ليعرف من أنكرته البدو والحضر
ولا تنكريني انني غـير منكر اذا زلت الأقدام واستنزل النصر

وأجيب بأني أزعم أن غزل هذه القصيدة رمزي يدور حول سيف الدولة وموقفه من أبي فراس في الأسر وأن الوعد [١٣] الذي قال أبو فراس « إن الموت دونه » هو وعد سيف الدولة بفداء ابن عمه وأن قول أبي فراس (تسائلني من أنت وهي عليمة) إشارة بارعة الى قول سيف الدولة « ومن يعرفك بخراسان » .

قد تقول ولكن أبا فراس صريح في مؤاخذة سيف الدولة يعاتبه ويحاسبه في أمر فدائه غير هياب ولا وجل وهو والحالة هذه في غنى عن اصطناع الرموز والألغاز ، وأجيب بأن هذا صحيح ، ولكن الشاعر المتفنن الملهم يلـذ له أن يعبر عن مقاصده وأغراضه بصور وأشكال مختلفة . ومهما يكن من شيء فانه اذا صح ما أذهب اليه من أن غزل هذه الرائية رمزي لم يبق من غزل أبي فراس ما يلفت انتباه الباحث على أنه غزل حقيقي .

مديحه : أصدق من غزل أبي فراس مديحه . وما أشك في أنك ستقول : أيكون لأبي فراس ، وهو الأمير الفارس الجواد مديـح يقوله في أحد من الناس ؟

ولكن لا داعي للاستغراب ، فأبو فراس انما يمدح سيف الدولة،

---

١٣) يضع بعض الروايات كلمة (وصل) موضع كلمة (وعد) في قول ابي فراس (معللتي بالوعد والموت دونه) واكبر ظني ان ابا فراس استعمل في بيته كلمة (وعد) لا (وصل) .

وهو إذا مدح سيف الدولة فكأنه يمدح نفسه • ولقد أصاب عندما قال مخاطباً إياه بهذا الصدد :

ولولم يكن فخري وفخرك واحداً لما سار عني بالمدائح سائر

إذن لأبي فراس مديح ، وهذا المديح عبارة عن ملحمة يصور فيها الشاعر رجولية ابن عمه النادرة وبطولته الفذة ، وكرمه الفياض ، ويصف أعماله وحروبه في الداخل والخارج • فهذه قصيدة تخبرنا أن سيف الدولة فتح دمشق وأصلح شؤونها ونظم أمورها وأعاد فيها الأمن والعدل الى نصابهما • وهذه أخرى تنبئنا أنه هزم الدمستق قائد الروم الأعلى هزيمة منكرة بعدما جرحه وأسر ابنه قسطنطين وعدداً كبيراً من بطارقته • وهذه ثالثة تذكر لنا أن كلاباً شقت عصا الطاعة فعاقبها سيف الدولة عقوبة صارمة قضت على حركتها قضاءً مبرماً وشتت شمل رجالها ووقع نساؤها في قبضته فآمنهن وأكرمهن وعاملهن بأحسن ما يعامل به الكريم الظافر حرائر بني عمه •

وأحب أن أقف عند هذه القصيدة لأنها فريدة في بابها • فأبو فراس يخبرنا فيها أن نساء بني كلاب أنتخبن من بينهن سيدة أو فتاة لا أدري ، ربما كانت اصبحهن وجهاً وأفصحهن لساناً ، وقلدنها مهمة طلب العفو من سيف الدولة وخرجت هذه حتى أتت الأمير الحمداني وأدت رسالتها فأجابها الى ملتمسها وأمر ببذل الأمان وردّ ما نهب من الأموال • فلما عادت هكذا ناجحة رابحة استقبلها جيش عرمرم من السيدات والفتيات ، يفدّينها ويطرينها ويثنين عليها ويهتفن بحياة سيف الدولة وحياة العرب • ويظهر ان هؤلاء الكلابيات قد اعجبن كثيرا ابا فراس • فهو يقول لسيف الدولة • ان هؤلاء الجميلات •

قد سلبن قلوبنا واسرن نفوسنا . وعلى هذا ينبغي ان يردد الينا قلوبنا ونفوسنا لنرد اليهن ما أخذنا من متاعهن . وقد شوهت هذه القصيدة بنقل معانيها على هذه الصورة . فأرويها لك كفارة عن هذا العمل .

وما أنس لا أنس يوم المغار ... محجبة لفظتها الحجب
دعاك ذووها بسوء الفعال ... لما لا تشاء وما لا تحب
فوافتك تعثر في مرطها ... وقد رأت الموت من عن كثب
وقد خلط الخوف، لما طلعت ... دل الجمال بذل الرعب
تسارع في الخطو لا خفة ... وتهتز في المشي لا من طرب
فلما بدت لك دون البيوت ... بدا لك منهن جيش لجب
وما زلت مذ كنت تأتي الجميل ... وتحمي الحريم وترعى الحسب
وتغضب حتى اذا ما ملكت ... اطعت الرضا وعصيت الغضب
فكنت حماهن اذ لا حمى ... وكنت اباهن اذ ليس اب
فولّين عنك يفدّينها ... ويرفعن من ذيلها ما انسحب
ينادين بين خلال البيوت ... لا يقطع الله نسل العرب
امرت وأنت المطاع الكريم ... ببذل الامان ورد النهب
وقد رحن من مهجات القلوب ... باوفر غنم واغلى نشب
فان هن يابن الكرام السراة ... رددن القلوب رددنا السلب

وقد أشار أبو فراس الى هذه الحادثة اشارة موجزة في قصيدة أخرى . وصف بها حروب سيف الدولة واعماله في الداخل والخارج . أروي لك منها هذه الابيات :

قد ضج جيشك من طول القتال به ... وقد شكتك الينا الخيل والابل

وقد درى الروم مذ جاورت ارضهم ان ليس يعصمهم سهل ولا جبل
فالنفس جاهدة والعين ساهرة والجيش منهمك والمال مبتذل
توهمتك كلاب غير قاصدها وقد تكنفك الاعداء والشغل
حتى اتقتك بفرسان استنتها سود البراقع والاستار والكلل

اذا لم يخطيء ظني فان مديح ابي فراس لابن عمه سيف الدولة. صورة صحيحة كاملة لدور من امجد ادوار التاريخ العربي . واعظمها قدرا . وأجلها شأنا .

فخره : وكما كان مديح أبي فراس سجلاً حافلاً بمآثر البطولة الرائعة وآثارها الخالدة ، كان فخره كذلك . فانه انما يتحدث فيه عن جلائل أعماله وأحاسن أفعاله ، وعن مآثر بني عمه الحمدانيين ومفاخرهم حديثاً يصور الواقع وينطوي على الحقيقة في كثير من الأحيان . فمن أمثلة ذلك ان كلاباً ثارت على سيف الدولة غير ثورتها التي تقدمت لها الاشارة ، وضربها الأمير الحمداني ضربة قاضية . وولى العصاة الأدبار . فمروا في طريقهم ببالس ، إحدى مدن سورية وهناك وجدوا أبا فراس في قلة من أصحابه ، فباغتوه بالقتال وعليهم « كثير بن عوسجة » وصمد لهم أبو فراس فقاتلهم وهزمهم ، فلما رأوا ما آل اليه أمرهم من الاندحار والانكسار قدموا خضوعهم الى أبي فراس ورجوه أن يلتمس لهم صفح ابن عمه ومغفرته ، فقبل رجاءهم وحمل سيف الدولة على الصفح عنهم والرأفة بهم ، وفي ذلك يقول :

سلى عنا سراة بني كلاب ببالس عند مشتجر العوالي
لقيناهم بأسياف قصار كفين مؤونة الأسل الطوال
فولى بابن عوسجة كثير وساع الخطو في ضنك المجال

يرى (البرغوث)[١٤] إذ نجاه منا أجل عقيلة وأحب مال
تدور به إماء بني قريض وتسأله النساء عن الرجال
يقلن له السلامة خير غنم وكل الذل في ذاك المقال
وعادوا سامعين لنا فعدنا الى المعهود من شرف الفعال
ونحن متى رضينا بعد سخط أسونا ما جرحنا بالنوال

ومن هذا القبيل ما حدث لأبي فراس مع بني جعفر فقد انتقض هؤلاء على سيف الدولة فوجه اليهم حملة قوية بقيادة أبي فراس وصبّحهم هذا فقتل عدداً من رجالهم واستاق ماشيتهم . فلما رأت نساؤهم عجز رجالهم عن المقاومة خرجن الى أبي فراس يلتمسن عفوه وصفحه فأمر بالكف عن القتال ثم برد ما نهب من الأموال ثم بتعويض بني جعفر من ماله الخاص عن مالم يمكن رده إليهم من أموالهم وفي هذا يقول :

ولما أطعت الغيض والجهل ساعة دعوت بحلمي أيها الحلم أقبل
بنيات عمي هن ليس يريبني بعيد التجافي أو قليل التفضل
شفيع النزاريات غير مخيّب وداعي النزاريات غير مخذل
رددت برغم الجيش ما حاز كله وكلفت مالي غرم كل مضلل
فأصبحت في الأعداء أي ممدح وإن كنت في الأصحاب أي معذّل

على أن أبا فراس لا يحدثنا في فخره عن كرمه وشجاعته وشدة بأسه فحسب وانما يحدثنا عن ورعه وصلاحه وحسن سيرته ، فيقول لنا إنه من العفة بحيث لا يظلم أحداً كما أنه من المنعة بحيث لا يظلمه أحد . وانه ينصف خصومه من نفسه كما ينتصف لنفسه منهم :

(١٤) يظهر ان البرغوث اسم حصان الثائر المهزوم .

لست بالمستضيم من هو دوني اعتداءً ولست بالمستضام
أبذل الحق للخصوم إذا ما عجزت عنه قدرة الحكام
رب أمر عففت عنه اختياراً حذراً من أصابع الأيتام

إخوانياته : وتسألني عن اخوانيات أبي فراس فأقول لك انها مظهر آخر رائع من مظاهر كرمه وشممه وفتوته ومروءته ، فانه يخبرنا فيها أنه يخدم صديقه اذا حضر ويرعاه اذا غاب ويشكره اذا أحسن ويغفر له اذا أساء • بل انه يذهب الى أبعد من هذا ، فيتمنى أن يسيء صديقه اليه ويتجنى عليه ليقابله بالاحسان والغفران • ولنفرض أن أبا فراس يبالغ في هذا ، فانه يمثل على كل حال مبلغ رغبته في محاسنة اخوانه ومطايبتهم ، وفي ذلك ما فيه من الكرم والنبل • اسمع قوله في مسامحة صديق :

لم أوآخذك بالجفاء لاني واثق منك بالوداد الصريح
فجميل العدو غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح

وقوله في تحديد موقفه ازاء اخوانه :

ما كنت مذ كنت الا طوع خلاني ليست مؤاخذة الاخوان من شاني
يجني الخليل فاستحلي جنايته حتى أدل على عفوي واحساني
اذا خليلي لم تكثر اساءته فاين موقع احساني وغفراني
يجني علي واحنو دائما أبدا لا شيء احسن من حان على جان

روميانه : وماذا يقال عن روميات أبي فراس ؟

الواقع انها لباب شعره • وصفوة انتاجه • وقد تحدث فيها عن نكبته في مختلف مراحلها • فوصف، في قصيدة لقاءه الروم ووقوعه أسيراً في أيديهم • وحث سيف الدولة على الاسراع في مفاداته « قبل

أن تفوته هذه الاكرومة » [١٣] وصور في أخرى سوء حاله في الاسر . واستشراء جروحه . وتنكر اخوانه له . وجزع والدته لما اصابه . وتفجعها لفراقه [١٤] . واشار في ثالثة الى زيارة والدته سيف الدولة . والتماسها منه التعجيل بفدائه .

وخيبتها في ذلك . واستطرد الى ما يلقى هو واخوانه من اسرى المسلمين في سجون الروم من عنت وارهاق [١٥] . وعتب في رابعة على سيف الدولة لتعقيبه على رسالته التي استأذنه فيها بمكاتبة ملوك خراسان في أمر مفاداته بكتابته اليه « ومن يعرفك في خراسان » [١٦] . وتغزل في خامسة غزلاً يغلب على ظننا انه يرمز به الى علاقته بابن عمه سيف الدولة . وموقف هذا منه في أيام محنته . وأشار الى حادثة اسره . ونوه بمآثره ومفاخره ومحاسنه ومحامده [١٧] واستعرض في سادسة حياته واخلاقه وسعي بعض بني عمه فيه عند عميدهم سيف الدولة . وتغافله عنهم . وتحدث عن اسره وما نشأ عنه من ضرر بالمصلحة العامة . وعاتب سيف الدولة عتاباً يجمع بين اللين والشدة [١٨] وهكذا .

---

(١٣) مطلع القصيدة :

دعوتك للجفن القريح المسهد ... لدي وللنوم القليل المشرد

(١٤) مطلع القصيدة :

مصابي جليل والعزاء جميل ... وظني أن الله سوف يديل

(١٥) مطلع القصيدة :

يا حسرة ما اكاد احملها ... آخرها مزعج واولها

(١٦) مطلع القصيدة :

اسيف الهدى وقريع العرب ... الى مَ الجفاء وفيم الغضب

(١٧) مطلع القصيدة :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... اما للهوى نهي عليك ولا امر

(١٨) مطلع القصيدة :

اما لجميل عندكن ثواب ... وما لمسيء عندكن متاب

وأحوال ابي فراس كما تصورها روميانه • مختلفة كل الاختلاف متناقضة أشد التناقض •فمن قوة الى ضعف • وصبر الى جزع • ورضى الى سخط • ولكنها في الغالب أقرب الى الضعف وما يمت اليه بصلة ، وقد يعجبك ان اروي لك مثلا من هذه المجموعة الخالدة •

اسمع قول أبي فراس وقدأحفظه الدمستق بقوله : انما أنتم كتاب ولا علم لكم بالحرب :

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننا ونحن أسود الحرب، لا نعرف الحربا؟
نويلك ، من أردى أخاك بسرعش وجلل ضرباً وجه والدك العضبا ؟
وويلك من للحرب ان لم نكن لها ومن ذا الذي يضحي ويمسي لها تربا؟
وكم جمعتنا الحرب من قبل هذه فكنا بها أسداً وكنت بها كلبا
بأقلامنا أجحرت [19] أم بسيوفنا وأسد الشرى قدنا اليك ام الكتبا
رعى الله أوفانا ، اذا قال ذمة وأنفذنا طعناً وأثبتنا ضربا

وقوله من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة :

أمن بعد بذل النفس فيما تريده أثاب بسر العتب حين أثاب ؟
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
اذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

وقوله وقد حسنت حاله في الأسر بعد نقله الى القسطنطينية ونجحت وساطته بين ابن عمه وبين الروم في أمر مفاداة الأسرى وعقد

(١٩) اجحرت : لجئت الى الجحر وهو الغار .

هدنة بين حلب والقسطنطينية :

ولله عندي في الأسار وغيره مواهب لم يخصص بها أحد قبلي
حللت عقوداً أعجز الناس حلها وما زال عقدي لا يذم ولا حلي
إذا عاينتني الروم كفر [٢٠] صيدها [٢١] .
كأنهم أسرى لديّ وفي كبلي
وأوسع أياً ما حللت كرامة كأني من أهلي نقلت إلى أهلي
فأبلغ بني عمي وقل لبني أبي بأني في نعماء يشكرها مثلي [٢٢]
وما شاء ربي غير نشر محاسني وأن يعرفوا ما قدعرفتم من الفضل

لغته وأسلوبه : على أنك اذا تأملت شعر أبي فراس وجدت انه لا يخلو من هفوات قليلة منها قوله : وأنت الذي أهديتني كل مقصد » يريد عرّفتني . فاستعماله أهدى بمعنى هدى خطأ كان في إمكانه تحاشيه ، ومن يدري لعله لم يقع فيه وانما وقع فيه الرواة . ومنها قوله : « ومن خطب الحسناء لم يغله المهر » فان قوله : « لم يغله المهر » لا يعبّر عن قصده ، هو يريد أن يقول : إن من خطب الحسناء أدى مهرها وان كان غالياً ولكن الجملة المذكورة لا تؤدي هذا ، ولو أنه قال ومن خطب الحسناء لم يثنه المهر لكان كلامه صحيحاً وواضحاً . ومنها قوله :

هل تعطفان على العليل لا بالأسير ولا القتيل

فانه ينفي في هذا البيت أن يكون أسيراً كما ينفي أن يكون

(٢٠) كفر : احنى راسه تعظيما .
(٢١) الصيد : جمع اصيد : وهو الرافع راسه كبراً .
(٢٢) في رواية هذا البيت خلاف بين العاملي والديوان طبعة الدهان وقد آثرت رواية العاملي .

قتيلاً ، مع أنه كان أسيراً دون أدنى ريب ولا أدل على ذلك من انه بعث بالقصيدة التي استهلها بهذا البيت الى سيف الدولة من خرشنة وتنص الروايات جميعاً على أنه نظم هذه القصيدة وقد ساءت حاله في الأسر • ومنها قوله :

كلما أبلت الديار الليالي كان ذاك البلى عليّ بلاءا

فليس من شك في أن هذا البيت نظم للجمع بين كلمتي بلى وبلاء في مجانسة غثة • ولكن هذه الهفوات ليست من الكثرة بحيث تغض من شعر أبي فراس وتحط من شأنه • وخصائص الشاعر الغالبة عليه هي فصاحة اللفظ ومتانة السبك وجمال التعبير • وقد مرّ بك من شعره ما يمثل هذه الخصائص تمثيلاً تاماً • ومما تجب الاشارة اليه في هذا المقام أمثال أبي فراس التي يرصّع بها كلامه من حين لآخر ومنها قوله :

ومن أضيع الأشياء مهجة عاقل يجور على حوبائها حكم جاهل

وقوله :

وما أخوك الذي تدنو مناسبه لكن أخوك الذي تصفو ضمائره

وقوله :

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها إذا لم يكن للمبصرين بصائر
وهل ينفع الخطئي غير مثقف وتظهر إلا بالصقال الجواهر

ومن امثاله الشهيرة قوله :

إذا مت عطشاناً فلا نزل القطر

وقولـــــه :

وفي الليلة الظلمـــاء يفتقد البدر

وقولـــــه :

وللناس فيما يعشقون مـــذاهب

وقولـــــه :

إن الغني هو الغني بنفسه ولو انه عار المنـــاكب حاف
ماكل مافوق البسيطة كافياً فاذا قنعت فكل شيء كاف

ولم يكن أبو فراس من شعراء التشابيه ومع ذلك فان له تشابيه قليلة ولكنها رائعة منها قوله :

أنظر الى زهر الربيـــــع والماء في برك (البديع) (٢٣)
واذا الرياح جرت عليـــــه في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفـــا ئح بيننـــا حلق الـــدروع

وقولـــــه :

والماء يفصل بـــين زهـــ ـــر الروض في الشطين فصلا
كبســـاط وشي جـــردت أيدي القيون (٢٤) عليه نصلا

وقولـــــه :

والبدر منتصف الضياء كأنه متبسّم بالكف يـــترفاه

(٢٣) البديع : اسم بستان .
(٢٤) القيون : جمع قين وهو الصيقل .

هـ ـ خاتمـــة :

أبو فراس شاعر فارس يؤيد أقواله بأعماله وتبرر بسالته حماسته، وهو يعيد برجوليته الصادقة وشعره المتين الجزل الى الذاكرة ما يتحدث به الناس عن مهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وعنترة العبسي من شجاعة خارقة ، وشهامة نادرة ، وشاعرية فذة . الا أنه يفضل أولئك الشعراء الفرسان بدقة تفكيره ولطافـة تعبيره وتطرقه الى كثير من الاغراض التي لم تخطر لهم على بال .

الفصل الثالث

الشريف الرضي

أ ــ حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه • مولده • نشأته وتعليمه • بعض أساتذته • نبوغه المبكر في قرض الشعر • مثل من أوائل شعره • حفظه القرآن • توليه نقابة الطالبيين للمرة الأولى • تطلعه الى منصب الخلافة • تنبؤ أبي اسحق الصابي له بصيرورته خليفة • تعقيبه على هذه النبوأة • مناوشات صريحة بينه وبين القادر بالله • استقالته من نقابة الطالبيين • قبولها • جمع عدة مناصب خطيرة له بينها النقابة • برمه بها جميعاً • كلفه بالحياة العقلية • وفاته • من رثاه من الشعراء • قبره •

ب ــ أخلاقه :

جـ ــ آثاره : ما نشر منها وما لم ينشر • شعره • غزله • سرّ تفوقه فيه • العناصر التي تغذيه • المثلث الفذ • رثاؤه • جودته • كثرته • بماذا يمتاز • مثل منه • فخره • موضوعاته • ما فيه من تحفظ • مديحه • أغراضه • مثل منه • لغته واسلوبه • تأثرهما بدراساته وتأليفه • مشخصاتهما • ملاءمة لغته لموضوعاته • اعتداله في استعمال المحسنات البيانية • اقتصاره في كثير من شعره على

موضوع واحد .

د ـ خاتمة : منزلته بين شعراء اللغة العربية .

أ ـ حياتـــه :

والآن لنتحدث عن شاعر نبيل آخر لا يشك أحد في أنه أشرف نسباً وأوفر أدباً وأجود شعراً وأعمق أثراً في الأدب العربي من أبي فراس .

هذا الشاعر النبيل هو الشريف أبو الحسن الرضي [1] محمد بن الحسين الملقب (بالطاهر ذي المناقب) الذي تولى نقابة الطالبيين وامارة الحاج وزعامة ديوان المظالم مراراً عديدة [2] وأمه فاطمة بنت الحسين ابن الحسن الملقب (الناصر الأصم) أو (الأطروش) وهو ملك بلاد

(١) لقبه القادر بالله «الرضي ذا الحسبين » سنة ٣٩٤ هـ كما لقب اخاه فى نفس السنة « المرتضى ذا المجدين » .

(٢) للشريف الرضي فى ابيه شعر كثير من احسنه عندي هـذه الابيات التي يرسم فيها صورة صادقة لكفايته النادرة وشخصيته الممتازة واثره الحسن فى سياسة الدولة قال :

وهذا ابي الادنى الذي يعرفونـه ... مقـدم مجـد اول ومخـلف
مؤلف ما بـين المـلوك اذا هفوا ... واشفوا على حز الرقاب واشرفوا
اذا قال ردوا غارب الحلم راجعوا ... وان قال مهلا بعض ذا الجد وقفوا
وبالامس لمـا صال قادر ملـكهم ... واعـرض منه الجانـب المتخوف
تلافاه حتى سامح الضغن قلبـه ... واسمـح لمـا قيـل لا يتـألف
وكان ولي العقـد والعهـد بينـه ... وبين بهـاء الملـك يسعى ويلطف
ولمـا التقى نجوى عقيـل لنبـوة ... ومـد لهم حبل من الغدر محصف
لوى عطفـه لي القني رقابهـم ... ولو لسواه استعطفوا ما تعطفوا
وسل مضراً لمـا سمـا لديارهـا ... فهـب ونام العـاجز المتضعف
تولجها كالسيل صلحـاً وعنـوة ... فابقى ورد البيض ظمـأى تلهف

الخ الخ ....

الديلم والجبل المتوفى عام ٣٠٤ للهجرة . ونسب كل من أبويه ينتهي الى الحسين بن علي عليهما السلام .

ولد ببغداد عام ٣٥٩ للهجرة ونشأ في كنف والده الجليل أفضل نشأة وأحسنها وتلقى علوم اللغة والدين على جماعة من خيرة علماء العصر منهم ابن السيرافي النحوي المشهور ، وأبو الفتح عثمان بن جني الذي صار فيما بعد من المعجبين بفضله وأدبه[٣] ومحمد بن النعمان كبير علماء الامامية في القرن الرابع للهجرة وصاحب الارشاد والملقب « بالمفيد »[٤] .

ولسنا نعلم بالضبط متى قال الشعر ولكن من الراجح جدا أنه نظمه وأجاد في نظمه قبل بلوغه العاشرة ، تدلنا على ذلك قصيدة له

---

(٣) برهن ابن جني على هذا الاعجاب بشرحه رائية الشريف التي مطلعها :

القي السلاح ربيعة بن نزار أودى الردى بقريعك المغوار

والتي يرثي فيها ابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني وقد عرف له الشريف هذا الفضل فمدحه بقصيدة بليغة مطلعها :

اراقب من طيف الحبيب وصالا ويابى خيال ان يزور خيالا

ورثاه عند موته بقصيدة رقيقة مطلعها :

الا يا لقومي للخطوب الطوارق وللعظم يرمى كل يوم بعارق

(٤) من طريف ما يحكى بصدد اخذ الرضي العلم عن المفيد ان الاخير راى فى منامه كان فاطمة الزهراء عليها السلام دخلت عليه وهو فى مسجده فقدمت اليه الحسنين وطلبت اليه ان يعلمهما ويفقههما ، فاستيقظ وقد ملاه العجب من هذه الرؤيا الغريبة . فلما اصبح وجلس للتدريس فى مسجده دخلت عليه فاطمة أم الرضي والمرتضى فى جماعة من جواريها وقدمت اليه ولديها طالبة اليه ان يعلمهما ويفقههما . فبكى بكاء شديداً وقص عليها رؤياه ووعدها ان لا يدخر وسعا فى سبيل تثقيف ولديها (شرح ابن أبي الحديد الجزء الاول الصفحة ١٣ ـ ١٤ طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر) .

رائعة تفجع فيها لاقصاء والده عن أعماله واعتقاله في فارس سنة ٣٦٩ هـ ينص الديوان على أنه قالها «وسنه فوق العشر بقليل» وأنا أروي لك مثلا من هذه القصيدة لتتبين مبلغ نبوغ ذلك الصبي الممتاز قال :

نصافي المعالي والزمان معاند ... وننهض بالآمال والجد قاعد

منها :

أيا غدوة ساء الحسين صباحها ... وسر العدى فيها الزمان المعاند
لحققت عندي أن كل صبيحة ... مجاجة سم والليالي أساود
يعرفك الاخوان كل بنفسه ... وخير أخ من عرفتك الشدائد
وطاغ يعير البغي غرب لسانه ... وليس له عن جانب الدين ذائد
شننت عليه الحق حتى رددته ... صموتا وفي أنيابه القول راقد
يدل بغير الله عضدا وناصرا ... وناصرك الرحمن والمجد عاضد
يعيّر رب الخير بالي عظامه ... ألا نزهت تلك العظام البوائد (٥)

ومنها :

تفرد بالعلياء عن أهل بيته ... وكل يهاديه الى المجد والد
وتختلف الاشجار (٦) في ثمراتها ... اذا شرقت بالري والماء واحد

---

(٥) تشير الابيات الاربعة المنتهية بهذا البيت الى قول المطهر وزير عضد الدولة لوالد الشريف عند القاء القبض عليه « كم تدل علينا بالعظام النخرة » .

(٦) في . الديوان طبعة بيروت (الآمال) والصواب ما اثبتناه . على اني احب ان اسجل ان في هذه الطبعة كثيرا جدا من امثال هذا الخطأ وساصحح كل ما يتيسر تصحيحه منها اعتمادا على مصادر مخطوطة على ان اذكر الخطأ الوارد في الديوان وان اشير الى هذه الطبعة بـ رمز (ط . ب) .

* * *

قد تقول ولكن الايمكن أن يكون الشريف قد هذب هذهالقصيدة عندما شب أو أكتهل وأدخل فيهاهذه الخواطر الرائعة والحكم الباهرة؟ وأجيب بأني لا أميل لمثل هذا الفرض لانه لو فعل ذلك لنقاها من هذا البيت :

ضجرت من العلياءفاخترت عزلها كأنك قد أفنت نداك المحامد

ومن هذا البيت الذي يفيض تحذلقا :

منيت بشوق ينحر الدمع سيفه اذا حادثته بالصقال المعاهد

ولو فعل ذلك لاشار اليه كما أشار الى تهذيبه قصائد عديدة قالها في أيام حداثته منها قصيدة مطلعها :

المجد يعلم أن المجد من أربي ولو تماديت في غي وفي لعب

* * *

ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . على أن المترجم حفظ القرآن بعد أن جاوز الثلاثين .

وكما نبغ صاحبنا في قرض الشعر قبل بلوغه العاشرة نبغ كذلك في بلوغ المناصب السامية والمراكز الرسمية الممتازة في وقت مبكر جدا، فقد ولي نقابة الطالبيين في حياةوالده الطاهر وأخيه المرتضى ولما يتجاوز الحادية والعشرين ينص على ذلك الثعالبي في اليتيمة [٧] والديوان في مقدمة قصيدة مطلعها :

الآن أعربت الظنون وعلا على الشك اليقين

نصا لا غموض فيه ولا ابهام ويظهر أن هذا النجاح الرائع المبكر حدى بصاحبنا الى أن يمعن فيالجري وراء أمانيهالعالية وآماله الواسعة

(٧) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٢٩٨ طبعة دمشق .

البعيدة المدى ، فأخذ يفكر في الاستيلاء على الخلافة :

لو كنت أقنع بالنقابة وحدها لغضضت حين بلغتها آمالي
لكن لي نفسا تتوق الى التي ما بعد أعلاها مقام عالي

ورأى أبو اسحق الصابي ـ الكاتب والشاعر المعروف والذي كان صديقا حميما له ـ علو همته وسمو مواهبه وسعة مطامحه وسرعة تقدمه فتنبأله بالخلافة وسأله أن يذكر له هذه النبوأة و (أن يحفظه في أولاده وأهله متى تحققت) :

أبا حسن لي في الرجال فراسة تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتني عنك أنك ماجد سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها الى أن أرى اطلاقها لي مطلقا
فان عشت أو ان مت فاذكر بشارتي
وأوجب بها حقا عليك محققا
وكن لي في الاولاد والاهل حافظا
اذا ما اطمأن الجنب في مضجع البقا (٨)

وقد أجاب الشريف أبا أسحق على هذه الابيات بقصيدة مطولة أروي لك منها قوله :

سننت لهذا الرمح غربا مذلقا وأجريت في ذا الهندواني رونقا
وسومت ذا الطرف الجواد وانما شرعت له نهجا فخب واعنقا

(٨) هكذا فى شرح ابن ابي الحديد . وفى الديوان (ط . ب) موضع (بقا) (لقا) وقد انكر ابو اسحق أن يكون قد قال هذه الابيات فى الشريف عندما شاعت ، وادعى انه قالها فى ابي الحسن علي بن عبد العزيز حاجب النعمان .

لئن برقت منى مخايل عارض بعينيك تقضي أن يجود ويغدقا
فليس بساق قبل ربعك مربعا وليس براق قبل جوك مرنقى

ومضى صاحبنا في غلوائه حتى خاطب (القادر بالله) بقوله في قصيدة مدحه بها سنة ٣٨٢ هـ :

عطفا أمير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا تتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا في المفاخر معرق
الا الخلافة ميزتك فانني أنا عاطل منها وأنت مطوق

• • •

ويقال ان الخليفة العباسي عقب على هذه الابيات بقوله (على رغم أنف الشريف) وليس هذا مستبعدا . على أن الشريف لم يلبث أن ضاق ذرعاً بمنصبه نظرا لما يلقى فيه من أوصاب ويعاني من صعاب ومشاكل . فان ديوانه يحدثنا بأنه قدم استقالته من نقابة الطالبيين وكررها وأصر عليها سنة ٣٨٤ للهجرة وذلك في مقدمة قصيدة يقول فيها مخاطبا نفسه :

محمد طالما شمرت فيها فدونك فاسحب الذيل الرفلا
ونم مستودعا صونا وأمنا فقد أسلفتها جزعا وثكلا
فان أتبعت هذا الامر لهفا فانك أعزب الثقلين عقلا
يراه المستغر عليّ طوقاً فيغبطني به وأراه غلا

• • •

ولكن القائمين بالأمر كانوا أحرص على الانتفاع بكفايته من أن يتركوه يحياحياة الهدوءوالعزلة . فقد أعادوا اليه نقابةالطالبيين وأضافوا اليها امارة الحاج وزعامة ديوان المظالم سنة ٣٨٨ للهجرة فيما يقول ابن

خلكان [٩] . وأقوال المؤرخين في تاريخ توليه هذه الأعمال ، مضطربة متناقضة . ولذلك رأيت أن أقتصر على رواية ابن خلكان الآنف ذكرها.

على أنه مما لا شك فيه أن الشريف كان شديد الضيق بالتبعات الجسام الملقاة على عاتقه يبرم بها ويتذمر منها ، ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات التي اقتطفها لك من قصيدة رجا فيها بهاء الدولة البويهي أن يريحه من تحمل أعباء هذه التبعات ، قال :

يا ملبسي النعمى التي أورقت ... عودي مراراً وكست أعظمي
ومطلعي في رأس عاديـــة ... تخشى طرف الجذع الأزلم [١٠]
نزع العلى عني كالباسهـــا ... والغنم بالبـــذلـة كالمغـرم
أكـرم عنهـــا وبهـا مرة ... كلاهما عنـدي من الأنعـم
وكيـف نوم المـرء من تحته ... دون الكرى مضطرب الأرقـم
بـين خصافي نعـله شوكـة ... إن شدد الوطء عليهـــا دمي
فأملك بها رقّي وحرر بهـا ... عنقي ورقّ الحـر للمنعـــم
وحزبهـــا ما بقي العمر لي ... صفاء قلبي وصفايا فمـــي
غوثك منهـا يا غياث الورى ... قد ثقل العبء على المهرم [١١]

الخ الخ ...

. . .

بيد أنه مما يجب التنويه به أن هذه الحياة الحافلة التي يحياها الشريف لم تكن لتعوقه عن ممارسة أشغاله العقلية الجليلة ، فقد كان يدرس ويفكر ويؤلف ويقول الشعر كما لو كان متفرغاً لهذه الأمور

(٩) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .
(١٠) عادية بناية عالية والجذع الازلم الدهر .
(١١) المهرم اقصى الكبر .

تفرغاً تاما • وسيمر بك عند الكلام على آثاره ما يؤيد هذا كل التأييد• وقد لا أغلو اذا لاحظت أن كثرة أشغاله العلمية والأدبية والسياسية والادارية هي التي عجلت بوفاته فقدتوفي رحمه اللهسنة ٤٠٦ للهجرة [١٢] ولما تتجاوز سنهالسابعة والاربعين • وقد رثاهشعراء عصره وفي مقدمتهم تلميذه الوفي مهيار الذي رثاه بقصيدتين رنانتين سأروي لك مثلاً منهما عند الكلام على رثائه في الفصل القادم • ويجمع مؤرخو الرضي على أنه دفن بداره في مسجد الانباريين بالكرخ الا أن صاحب عمدة الطالب يقول انه نقل الى كربلاء حيث دفن بجوار قبر أبيه في حرم جده الحسين عليه السلام [١٣] وليس ثمة ما يؤيد هذا القول • وقد لا يخلو من فائدة أن أقول لك ان للشريف قبراً معروفاً في الكاظمية وليس هناك ما يدل على أنه حقيقة قبره •

ب ـ أخلاقـــه :

يؤكد مؤرخو الشريف بالاجماع أنه مثل فذ في أحاسن السجايا وأطايب الأخلاق ، فهو رمز الاباء والانفــة وعنوان المروأة والعفة ، ورجل الشجاعة والشهامة ، تلتقي في شخصه النبيل خفة روح الاديب بعفة الناسك المتقشف وأريحية الشاعر الهائم في أودية الخيال بالمعية الأداري الحازم القميز بمعالجة عظائم الأمور • ولولا اجتماع هذه المزايا النادرة المتضادة في شخصه لما آثره ولاة الامور بأرفع المناصب السياسية والادارية والدينية وأخوه الشريف المرتضى الذي يفضله علماً

(١٢) يتفق مؤرخو الشريف على انه توفى سنة ٤٠٦ للهجرة باستثناء ابن ابي الحديد فانه يذهب الى ان وفاته كانت سنة ٤٠٤ هـ .

(١٣) عمدة الطالب طبعة النجف ص ٢٠٠ .

ويكبره سناً على قيد الحياة .

حـ ـ آثاره :

وكما كان الشريف رجل السياسة والفضيلة الذي يشار اليه بالبنان كان علماً من أعلام الحركة العقلية في القرن الرابع للهجرة . فقد ألف في التفسير والحديث والتاريخ والنقد وغير ذلك كتباً كثيرة وصلنا بعضها ولما يزل بعضها الآخر في طيات الخفاء واليك ثبت كتبه كما يستخلص من كتابي عمدة الطالب والمجازات النبوية وهو :

١ ـ أخبار قضاة بغداد .
٢ ـ تلخيص البيان عن مجازات القرآن .
٣ ـ الحسن من شعر الحسين : وهو مجموع يحتوي على المختار من شعر الحسين بن الحجاج .
٤ ـ حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وهو كتاب ضخم نشر الجزء الخامس منه في النجف عام ١٩٣٦ .
٥ ـ خصائص الأئمة .
٦ ـ ديوانه وهو في جزئين ضخمين طبع مرتين كانت الأخيرة منهما في بيروت عام ١٩١٠ للهجرة .
٧ ـ رسائله وهي في ثلاثة أجزاء .
٨ ـ الزيادات في شعر أبي تمام .
٩ ـ سيرة والده .
١٠ ـ المجازات النبوية وهو كتاب جليل يحتوي على ٣٦٠ حديثاً نبوياً يشتمل كل منها على (مجاز طريف أو كناية دقيقة) وقد

طبع ببغداد سنة ١٣٢٨ للهجرة طبعة سقيمة وبمصر عام ١٣٥٦هـ طبعة علمية متقنة أنجزها الاستاذ محمود مصطفى « مدرس الأدب بكلية اللغة العربية من الجامعة الازهرية » (١٤) .

١١ ــ نهج البلاغة : وهو سفر معروف يحتوي على منتخبات . خطب الامام علي (ع) وكتبه وحكمه طبع في مصر وايران طبعات عديدة مشفوعاً بشرح ابن أبي الحديد مرة وشرح الشيخ محمد عبده تارة ومجرداً من كل شرح طوراً .

---

(١٤) للاستاذ محمود مصطفى كلمة طريفة فى اطراء فائدة هذا الكتاب وبيان اهميته احب ان اقتطف لك منها ما يلي قال : « وقد كنا قبل ذيوع هذا الكتاب لا يكاد الاديب ــ مهما بلغ من الاطلاع ــ يجمع من ذلك عشرة او دونها . الست تراهم فى مقام الاحتجاج لفضل رسول الله فى البلاغة وتصريفه لاعنة الفصاحة لا يذكرون الا قوله عليه الصلاة والسلام « اياكم وخضراء الدمن » وقوله « هدنة من دخن » وقوله « الآن حمي الوطيس » وقوله « ان من البيان لسحرا » الى قليل مما اقتصرت عليه الكتب المتداولة بيننا .

فأما هذه الكثرة المستفيضة فاننا لم نعهدها فى غير هذا الكتاب ولا لغير هذا العالم الجليل الذي راى من البر بجده ان يذيع فضله على هذا النحو الذي تراه فى كتابه .

ولم يكتف رحمه الله بايراد هذه الآثار سردا لا تعقيب معه بل انه جلا محاسن هذه الآيات بشرحها وبيان مبلغ البلاغة فيها . ولقد جاء هذا الشرح فائدة للمطلع على الكتاب ، فهو لا يزال متنقلا من تحقيق لغوي الى تطبيق على علم البلاغة الى سياق الشاهد من كلام العرب . اما ما يجنيه القاريء من الحذق والتوسع فى الفهم والتقليب للأساليب على وجوهها المعتبرة فى نظر البليغ فذلك اجلى ما يتجلى فى هذا الشرح . واجدى ما يجديه المؤلف على الناظر فى كتابه . فانه يخرج من طول الممارسة للفهوم المختلفة من الأسلوب الواحد والموازنة بينها . وتفضيل الفاضل منها والحكم على راجحها ومرجوحها يخرج من كل ذلك بملكة صناع هي عدة الاديب فى ممارسة كلام العرب والتذوق لمحاسنه » .. المجازات النبوية ص ٥٥٤ طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

وما أريد أن أتحدث اليك عن كتب الشريف التي هي الآن في متناول يدي ، فليس عندي ما أضيفه الى ما قيل فيها من قبل • ولكني أود أن أحدثك عن شعره وهو كثير ، متعدد الأبواب متنوع المقاصد والأغراض • أرجو ان أحدثك فيما يلي عن أهم اغراضه وانواعه •

غزله : قدمت أن الشريف الرضي كان نقيباً للطالبيين وأميراً للحاج وزعيماً لديوان المظالم ، وجمع هذه المناصب له يعني أنه رجل فقه وإفتاء ، ورجل جدٍ وعمل ، وبعبارة أخرى رجل دين من الطراز الاول • وغني عن البيان أن رجال الدين آخر من ينتظر منهم صوغ قصائد النسيب والتغني بصبابات الحب والهيام ، إلا أن الشريف الرضي مع ذلك شاعر غزل منقطع النظير أو قليله على أقل تقدير في تاريخ الأدب العربي فما أظن أن أديباً سليم الذوق مرهف الحس يجد فيما يصح من شعر كبار الشعراء العشاق كجميل بثينة وقيس بن ذريح وقيس بن الملوّح أو في قصائد عمر بن أبي ربيعة أو في غراميات ابن زيدون نفسه غنيً عن نسيب الشريف، الحافل بضروب العواطف والانفعالات وصنوف الأشواق والصبابات ومعلوم أن ينبوع الغزل الأصيل الذي يهز الحس ويحرك الشعور وينفذ الى قرارة النفس انما هو الحب والحب فقط ! فهل ذاق الشريف لوعة الحب ؟؟•

انه لمن العبث ومن البله في وقت واحد أن نطلب الى التأريخ الأجابة على هذا السؤال • فما كانت تقاليد القرن الرابع للهجرة لتسمح أن يسجل التأريخ على رجل له حسب الشريف الرضي وعلمه ومكانته الدينية أنه عشق امرأة حسناء أحلها من نفسه أسمى محل وخضع لسلطان جمالها القاهر أتم خضوع ، ولكن ان جهل التأريخ هذا أو علمه ولم

يجرؤ على تدوينه فان الشريف قد دوّنه لنا في شعره غير هيابٍ ولا وجل . فقد قال لنا بصريح العبارة انه اصطلى نار الحب وأصلاهـا نفس الانسان الذي قدح زندها بين جنبيه والا فما معنى قوله :

يشكو الحبيب اليّ شدة شوقه وأنا المشوق وما يبـين جنـاني

وقولـــه :

لك الله من مطلولة القلب بالهوى قتيـــلة شوق والحبيب قريـب
أقـل سلامي إن رأيتـك خيفةً وأعرض كيما لايقال مريب (١٥)
وأطرق والعينان يومض لحظهـا إليك وما بـين الضلوع وجيب

فواضح أن للشريف في البيت الأول (حبيباً يشكو اليه شدة الشوق) وفي الأبيات الاخرى حبيبة (قتلها الشوق اليه) على قرب دارها منه ، وهو يلقاها من حين لآخر ولكنه يحييها باختصار ويتظاهر بالاعراض عنها تجنباً لاثارة الشبهات . « ويطرق » اذا لقيها « وعيناه تومضان » نحوها . وهذه معان لا تجدها في نسيب أي شاعر آخر . وهي ان دلت على شيء فانما تدل على حب حقيقي متقابل وغرام متبادل بين الشريف وبين هذه الحسناء . وقد لا أكون بعيداً كل البعد عن الحقيقة اذا لاحظت أن هذه الحبيبة الفاتنة التي تحدث عنها الشريف فيما سلف هي التي يعنيها بقوله :

ومقبّل كفي وددت لو أنـه اومى الى شفتي بالتقبيـــل

---

(١٥) لم تعد هذه الحيطة على الشريف بالنتيجة المتوخاة لانه لم يكن هو وحبيبته بمأمن من اقوال الوشاة وتهم المرجفين وهو يعترف بذلك في نفس القطعة :

يقولون مشغوف الفـؤاد مروع ومشغوفة تدعى بـــه فتجيب
وما علمـوا انا عـلى غير ريبـــة بقاء الليـالي نغتـــدي ونؤوب

جاذبته فضل العتـــاب وبيننا كبر المـــلول وذلـــة الملول
ولحظت عقد نطاقـــه فكأنما عقد الجمال بقرطق [١٦] محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانـــة المطلول
من لي به والدار غـــير بعيدة من داره والمـــال غـــير قليـــل

وفي هذه الأبيات اعتراف آخر بعلاقة غرامية أكيدة وإلا فأي شاعر يحدثك عن حبيبته فيقول لك انها قبلت يده . هذا الى ان الشريف يفصل بقوله : (من لي به والدار .. البيت) ما أجمل بقوله (قتيلة شوق والحبيب قريب) . والواقع أن هذه الاعترافات الصريحة تثبت بصورة لا تقبل الجدل أن بطلة هذا النسيب لم تكن من عرائس الخيال وانما كانت من بنات حواء وأنها عاقرت الشريف كأس الحب وشاطرته آلامه وأشجانه ، وقد عرفنا موقفه منها فيما سبق وهو موقف تكتنفه الحيطة ويسوده التحفظ فما موقفها هي الأخرى منه ؟ اننا اذا سألناه عن ذلك أجاب بأنها لا تقل عنه حرصاً على الكرامة واعتداداً بالنفس ومحافظةً على الشرف : (وصونك من دون الرقيب رقيب) .

أحبـــك حباً لوجزيت ببعضه أطاعـــك مني قائـــد وجنيب

• • •

جاذبته فضل العتاب وبيننـــا كبر المـــلول وذلـــة المـــلول

هي إذن عاشقة معشوقة ومقامها يستدعي أن تلقى الشريف من حين لآخر وان تقبل يده اجلالاً واعظاماً ، ولكنها مع ذلك لا تنيله شيئاً سوى الصدود والاعراض . وقد رأيت ان صاحبنا يطلب منها الجزاء فما تظن أنه يطلب ؟ اننا اذا صدقناه ولا مانع لدينا من تصديقه

(١٦) قرطق كجندب شيء تتشح به المراة .

فانه لا يطلب سوى النظرة الزيهة البريئة :

عشقت ومالي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب

وبعد : ألا تظن أن بين قول الشريف (أقل سلامي ... البيت) وقوله :

ولقد أطلت الى سلوك شقتي وجعلت هجرك والتجنب زادي

قرابةً محكمة الأواصر ؟ وأن لقوله (جاذبته فضل العتاب ... البيت) صلة أي صلة بقوله :

كم ليلةٍ جرّعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقريع

تغلي أنامله التراب تعللاً وأناملي في سني المقروع

لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي

إذا لم يخطيء ظني فاننا قدعثرنا على مفتاح غزل الشريف واهتدينا الى سره الذي لا غبار عليه ، ولم يبق سوى أن نعين العناصر التي تغذيه وتشيع فيه الحيوية والجمال واللطف وهذه عبارة عن ما رأيت من منع لا هوادة فيه ولا رحمة ، ولوعة مشبوبة تحسها في كل قصيدة ومقطوعة منه وعفة صادقة لا تعمل فيها ولا تكلف تعصم صاحبنا من الانغماس في الآثام والانحدار إلى مزالق الشهوات كلما واتته الظروف وتهيأت له الفرص (١٧) .

---

(١٧) تحدث الشريف فى شعره عن طهارة حبه مرارا عديدة . فمن طريف ما وقع له فى هذا الباب قوله :

وكم ليلة بتنا على غير ريبة علينا عيون للنهى ومسامع

نفض حديثا عن ختام مودة معاقلها احشاؤنا والأضالع

يكاد غراب الليل عند حديثنا

يطير ارتياحا وهو فى الوكر واقع

خلونا فكانت عفة لاتعفف وقد رفعت فى الحي عنا الموانع

سلوا مضجعي عني وعنها فاننا رضينا بما يخبرون عنا المضاجع

ولست أنكر أن هناك عقولاً كثيرة يصعب عليها أن تتصور رجلا وامرأة متحابين لا تربطهما عقدة الزواج يقضيان الليل معاً وهما في نجوة من الرقباء ثم يفترقان على غير ريبة ، ولكنني أومن بهذا وأدين بأمكانه واعتقد أنه جرى قبل الشريف وبعده وسيظل جارياً ما دامت هناك قلوب تتبادل الحب وعقول ترقبها بدقة وتسوسها بحكمة وصرامة.

وقد امتازت حجازيات الشريف كما أمتاز سائر غرامياته بهذا المثلث الفذ الذي يتألف من المنع واللوعة المبرحة والعفة الصادقة ولك أن تقرأ حجازياته وغرامياته الأخرى واحدة واحدة لتتبين أني لم أكذبك الحديث .

رثاؤه : وكما امتاز الشريف بغزله الرقيق المفعم صبابة وكآبة امتاز كذلك برثائه البليغ المفعم صفاءاً ومودة ووفاءاً واخلاصاً . هذا الى أن رثاءه الجيد من الكثرة بحيث يثير دهشة الناقد .

إن لأبي تمام والبحتري والمتنبي مراثي بليغة ولكن الجيد من رثاء كل منهم قليل : فأنت لا تستطيع مثلاً ان تعد لأبي تمام خمس مراث من الطراز الاول . وقل مثل ذلك عن البحتري والمتنبي . ولكن مراثي الشريف الممتازة تعد بالعشرات .

إقرأ رثاءه لوالده ووالدته وعمه أحمد بن موسى وللصاحب بن عباد وأبي اسحق الصابي وابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني وأبي حسان المقلد زعيم بني عامر وابن ليلى داعيته في البادية وعميد الجيوش أبي علي وابي منصور المرزباني الكاتب تجد أنه أجاد في رثائهم جميعاً اجادة فائقة . وما يصح في رثائه لهؤلاء يصح في أغلب مراثيه . ومما هو جدير بالذكر أن أكثر مراثي الرجل على جانب كبير من طول النفس،

فلاميته في رثاء الصاحب بن عباد أثنا عشر ومئة بيت وميميته في رثاء والده تسعة وثمانون بيتاً ودالیته في رثاء أبي اسحق الصابي اثنان وثمانون بيتاً ، وهمزيته في رثاء والدته تسعة وستون بيتاً ، ولكنك لا تكاد تعثر في هذه المراثي الطوال على ما تعيبه أو تستهجنه . على أن أهم ما يمتاز به رثاء الشريف عاطفة صادقة تجيش في قلبه نحو من يريد أن يخلّده في شعره وصورة حية من شخصية الفقيد تمثله أتم تمثيل وأصدقه . توفي الصاحب بن عباد وكان ملء الأفواه والأسماع والابصار غزارة علم وغفارة جود ورجاحة عقل وفصاحة لسان ونباهة ذكر وجلالة قدر ، وكان الى هذا محباً للشريف معجبا بفضله وأدبه وقد عبر عن ذلك الحب وهذا الاعجاب بطلبه اليه نسخة من ديوانه فما كان من صاحبنا إلا أن بكاه بقصيدة عصماء أقتطف لك منها الأبيات التالية:

أكذا المنون تقطر الابطالا ... أكذا الزمان يضعضع الاجبالا
أكذا تصاب الأسد وهي مدلّة ... تحمي الشبول وتمنع الأغيالا ؟
أكذا تقام عن الفرائس بعدما ... ملأت هماهمها الورى أوجالا ؟
أكذا تحط الزاهرات عن العلى ... من بعد ما شأت العيون منالا ؟
أكذا تكب البزل وهي مصاعب ... تطوي البعيد وتحمل الأثقالا ؟
أكذا تغاض الزاخرات وقد طغت ... لججاً وأوردت الظماء زلالا ؟
ياطالب المعروف حلّق نجمه ... حط الرحال [18] وعطل الاجمالا
وأقم على يأس فقد ذهب الذي ... كان الأنام على نداه عيالا
من كان يقري الجهل علماً ثاقباً ... والنقص فضلاً والرجاء نوالا
خبر تمخض بالأجنة ذكره ... قبل اليقين وأسلف البلبالا

(١٨) في الديوان ط . ب (الحمول) .

حتى إذا كشف الظنون يقينه عط القلوب وأسقط الأحمالا[19]
الشك أبرد للحشا في مثله يا ليت شكّي فيه دام وطالا
ياطود كيف وأنت عادي الذرى ألقى بجانبك الردى زلزالا
كم حجة في الدين خضت غمارها هدر الفنيق تخمطاً[20] وصيالا
بسنان رمحك أو لسانك موسعاً طعناً يشق على العدى وجدالا
. . . . . .
ما كنت أخشى أن تزّل لحادثٍ قدم جعلت لها الركاب قبالا
. . . . . .
طرح الرجال لك العمائم حسرةً لما رأوك تسير أو إجلالا
قالوا وقد فجئوا بنعشك سائراً من ميل الجبل العظيم فمالا
وتبادروا عُطَف الجيوب وعاجلوا عضّ الأنامل يمنة وشمالا
ما شققوا الا كساك وألّموا إلا أنامل نلن منك سجالا[21]

ألا ترى أن هذه الأبيات صورة صادقة من شخصية الصاحب بن عباد في أبهته وعظم سلطانه وسعة معروفه ووفرة علمه وأدبه وفي منزلته من قلوب معاصريه ؟ ثم ألا ترى أنها مثل رائع من ولاء الشريف له واعجابه به وجزعه على فقده ؟

اتريد مثلاً آخر من هذا الرثاء الذي يمتاز بصدق عواطف الشاعر

(١٩) في الديوان ط . ب « جلى » بدلا من كشف و « صدع » بدلا من « عط » .

(٢٠) الفنيق : الفحل ، التخمط : الجلبة .

(٢١) يعجبني ان أروي هنا كلمة للمرحوم السيد عبد المطلب الذي ترجمت له في نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر يقرض بها هذه القصيدة وهي قوله « ان لامية الرضي في رثاء الصاحب بن عباد سيدة القريض لانه ليس فيها على طولها بيت ركيك واحد » .

المتفجع واتقانه تصوير مواهب المرثي وسجاياه إتقاناً تاماً ؟ هاك طرفا من قصيدةٍ رثى بها الشريف صديقه أبا اسحق الصابي . قال :

أعلمت من حملوا على الأعواد ؟ أرأيت كيف خبا ضياء النادي ؟
جبل هوى لوخرّ في البحر اغتدى من وقعه متتابع الأزباد
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى أن الثرى يعلو على الأطواد
بعداً ليومك في الزمان فانه أقذى العيون وفتّت في الأعضاد
لا ينفد الدمع الذي يبكى به إن القلوب له من الأمداد
كيف انمحى ذاك الجناب وعطلت تلك الفجاج وضلّ ذاك الهادي

منها :

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياً أنى ومثلك معوز الميلاد
من للبلاغة والفصاحة إن همى ذاك الغمام وعب ذاك الوادي
من للملوك يجز في اعدائها بظبى من القول البليغ حداد
من للممالك لا يزال يلمّها بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزلّ رماحها ويرد رعلتها بغير جلاد (٢٢)
من للموارق يسترد قلوبها بزلازل الابراق والارعاد
وصحايف فيها الأراقم كمّن مرهوبة الاصدار والايراد
حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطل أن ينهزمن هزائم الأجناد

• • •

ألا تلمس في هذه الأبيات عواطف الصديق الأمين يبكي صديقه

(٢٢) رعلتها : كثرتها .

بدموع الوفاء وينثر على قبره زهر الولاء والاخلاص ؟ ألا تتبين فيها من ناحية أخرى شخصية الكاتب العبقري الذي خدم الدولة بعلمه ومواهبه أصدق خدمة ، وأفادها بخبرته وتجربته أكبر فائدة ، فساهم في حل ازمات كثيرة وتذليل صعوبات جمة وأعان على إخماد فتن عديدة في غير اراقة دماء ولا ازهاق نفوس ؟ هذا الى أنه مثل في لطافة الاداء وبراعة الانشاء . على أني قد لا أنصف الشريف إذا لم أرو لك ولو أبياتاً قليلة جداً من رثائه لوالدته ذلك الرثاء الذي لم تؤد حقوق الأمومة البارة ولم تصور عواطف البنوّة المفجوعة فيما أعلم بأصدق ولا أبلغ منه . اليك مثلاً من هذا الرثاء :

أبكيك لو نفع الغليل بكائي ... وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزيا ... لو كان بالصبر الجميل عزائي
طورا تكاثرني الدموع وتارة ... آوي الى أكرومتي وحيائي
كم عبرة موهتها بأناملي ... وسترتها متجملا بردائي
أبدي التجلد للعدو ولو درى ... بتململي لقد أشتفى أعدائي
ما كنت أذخر في فداك رغيبة ... لو كان يرجع ميت بفداء
فارقت فيك تماسكي وتجملي ... ونسيت فيك تعززي وابائي

. . . . . .

كم زفرة ضعفت فصارت أنة ... تمستها بتنفس الصعداء
لهفان أنزو في حبائل كربة ... ملكت عليّ جلادتي وغنائي

. . . . . .

كيف السلو وكل موقع لحظة ... أثر لفضلك خالد بأزائي

. . . . . .

فخره : ولم يكن الشريف أبلغ من نظم النسيب والرثاء فحسب، بل انه أبرع من نظم الفخر غير مدافع ولكن ما عناصر فخره ؟ وبعبارة أخرى ما موضوعات هذه القصائد والمقطعات الفخرية التي تؤلف جزءا غير يسير من ديوانه ؟ .

انك اذا تأملتها مليا ودرست ما فيها من مقاصد وأفكار رأيت أن الشاعر شديد الفخر بآبائه دائب الاشارة الى تاريخهم الحافل بعظائم الامور وجلائل الاعمال كثير التحدث بما له من مضاء العزيمة وعلو الهمة وبعد المطامح يمزج ذلك بشكوى مرة من الزمن الذي يبرم به دائما ويحمله تبعة الحيلولة بينه وبين دست الخلافة وتذمر شديد من أبنائه الذين يصفهم مرة بالجهل وتارة بالجبن وآونة بالخيانة وطورا بعبادة المال وأحيانا كثيرة بالرياء . وقد يتمثل بكبار الاباة الذين كرهوا الذل وآثروا العز كمصعب بن الزبير ويزيد بن المهلب وشبيب ابن شيبة ، فيبدي اعجابه بهم ويثني على ابائهم وأنفتهم أحسن الثناء . أما الأمنية القصوى التي ما فتئت تشغل ذهنه وتأسر لبه وتحتل المكان الاول من قصائده فهي اثارة حرب شعواء تثل العروش وتحل معاقد التيجان وتقيم صرح دولة الحق على أنقاض دولة الباطل . ويلوح أن مصائر كثير من العلويين الذين ثاروا في مختلف الاطراف فلم يقدر لهم الفوز ما برحت ماثلة في مخيلة الرضي ، لذلك لم يسترسل في الجري وراء أمانيه ولم يداعب شبح الفوز وما يمكن أن ينشأ عنه من نتائج براقة وانما افترض في كثير من الاحيان فشل محاولته ولكنه عزى نفسه بأنه ان لقي حتفه في هذا السبيل فانه يموت في سبيل الواجب ويضحي نفسه على مذبح الكرامة والشرف :

هبني الرمح بكفي فارس بطل أكرهه حتى انحطم
هبني العضب ذليقا حده ثلم البيض ضرابا وانثلم

وسأذكر مثلا من فخره عند الكلام على لغته وأسلوبه .

مديحه : وعلى ماذا ينطوي مديح الشريف ؟!!

يمتاز هذا المديح على العموم بخلوه من الغلو والاسراف في تصوير مواهب الرجال وأخلاقهم وأعمالهم لانه لا يقال طلبا لجوائز الملوك وغيرهم من العظماء . وما ظنك بشاعر يمدح الصاحب بن عباد ليعبر عن شعوره الودي الصادق نحوه ثم لا يرسل المدحة اليه خشية أن يتهم بطلب المال (٢٣) بل ما ظنك بشاعر يمدح الخليفة العباسي فيقول له في أثناء مديحه :

عطفا أمير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق

. . . . الأبيات .

ستقول والى ماذا يرمي المترجم اذن في مديحه ؟ واجيب بأنه يرمي الى غرضين كبيرين : أحدهما توثيق أواصر القربى أو المودة كأن يمدح أباه أو أخاه أو عمه او بعض أساتذته أو أحد اصدقائه الأصفياء.

وثانيهما مجاملة أولي الكلمة النافذة في الدولة سعيا وراء تحقيق مطامح سياسية :

واني لأرجو من علائك دولة تذلل لي فيها الرقاب العواند
ويوما يظل الخافقين بمزنة رذاذ غواديها الرؤوس الشوارد
لاعقد مجدا يعجز الناس حله وتنحل من هام الاعادي معاقد
فمن ذا يراميني ولي منك جنة ومن ذا يدانيني ولي منك عاضد

(٢٣) مطلع القصيدة التي تشير اليها هذه الفقرة هو :
اباء اقام الدهر عني واقعدا وصبر على الايام انأى وابعدا

لغته وأسلوبه : قلت لك ان الشريف حفظ القرآن وفسره وشرح مجازاته في كتابين جليلين • وانه جمع من كلام جده النبي ستين وثلاثة مئة حديث يشتمل كل منها « على مجاز طريف أو كناية دقيقة » في كتاب أسماه المجازات النبوية • وجمع كذلك مختار خطب جده الامام علي وكتبه وحكمه في كتاب أسماه نهج البلاغة • وأقول لك الآن ان هذه الممارسة الدائمة للقرآن والحديث وكلام الامام علي قد أثرت في لغته وأسلوبه أحسن تأثير فصفت ديباجته ورقت حاشيته ووضحت عبارته وجمع بين جزالة اللفظ وفخامته ومتانة التعبير وعذوبته وخلا شعره من الفضول والحشو فكان مصداق قوله :

لا يفضل المعنى على لفظه شيئا ولا اللفظ على المعنى

وشيء آخر أحب أن الفت انتباهك اليه وهو ملاءمة لغته لكل موضوع يطرقه ، فهي لغة مرنة ذات أجراس مختلفة ونبرات عديدة متباينة ترق وتلين وتظرف في موضوع، وتصلب وتشتد وتجلجل في موضوع آخر ، (تسمعك سجع الحمام) في حين (وتسمعك زئير الاسد) في حين آخر ، ولك أن تتذوق ما فيها من رقة وعذوبة في هذه القصيدة الغرامية الفياضة بالعواطف وهي :

يا صاحب القلب السليم [٢٤] أما اشتفى
ألم الجوى من قلبي المصدوع
لأسأت [٢٥] بالمشتاق حين ملكته
وجزيت نرط نزاعه بنزوع

---

(٢٤) فى الديوان (ط . ب) الصحيح .
(٢٥) فى الديوان (ط . ب) اأسأت .

هيهات لا تتكلفن لي الهوى
فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحبائل طامعا فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب لوعتي[٢٦] أسفا على ذاك اللمى المنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى قيظ وهذا في رياض ربيع
قمر اذا استخجلته بعتابه لبس الغروب ولم يعد لطلوع[٢٧]
كم ليلة جرعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجى مابيننا حتى أضاء بثغره ودموعي
تغلي أنامله التراب تعللا وأناملي في سني المقروع
لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره شر الهوى ما نلته بشفيع
ما كان الا قبلة التسليم أر دفها • الفراق بضمة التوديع
كمدي قديم في هواك وانما تاريخ وصلك كان من اسبوع
أهون عليك اذا امتلأت من الكرى
أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وفي هذه الابيات التي اقتطفها لك من احدى حجازياته :

وما مغزل ادماء تزجي بروضة طلا قاصراعن غاية السرب وانيا[٢٨]
لها بغمات خلفه تزعج الحشا كجس العذارى يختبرن الملاهيا

(٢٦) فى الديوان (ط . ب) غلتي .
(٢٧) هذا البيت هو العاشر فى رواية الديوان (ط . ب) وهو خطا .
(٢٨) المغزل : ذات الغزال . وادماء ذات لون يضرب الى البياض او السواد .

يحور اليها بالبغام فتنثني كما التفت المطلوب يخشى الاعاديا[٢٩]
بأروع من ظمياء قلبا ومهجة غداة سمعنا للتفرق داعيا
تودعنا ما بين شكوى وعبرة وقد أصبح الركب العراقي غاديا
فلم أر يوم النفر[٣٠] أكثر ضاحكا ولم أر يوم النفر أكثر باكيا

• • •

اما ما فيها ـ أي لغة الشريف ـ من صلابة وجلجلة وفخامة فما أشك في أنك تحسه خلال هذه الابيات التي يفخر فيها بآبائه : ـ

فيمن تعيرني بفيك رغامها
أبتالدي في المجد أم بطريقى
أبمعشري وهم الألى عاداتهم
في الروع ضرب طلى [٣١] وخرق صفوف
من كل وضاح الجبين مغامر
عند العظائم باسمه مهتوف
فاذا قرعت فهم (صدور ذوابلي)
ومن العدو معاقلي وكهوفي
فاذهب بنفسك حاسما أطماعها
عن صل واد او هزبر غريف [٣٢]

١

• • •

وفي ثنايا هذه الابيات التي يعلن فيها تصميمه على اثارة حرب

(٢٩) يحور : يرجع .
(٣٠) يوم النفر : هو يوم نفور الحجاج من منى .
(٣١) الطلى : بضم الطاء جمع طلية وهي العنق او اصلها .
(٣٢) الغريف : بيت الأسد .

شـعواء :

لست للزهراء ان لم ترهـا كوعول الهضب يعجمن اللجم
تستجن البيـد من فرسانها بين بغـداد الى أرض الحـرم
بعجـاج يمـلأ الافق دجى وطعان يخضب الارض بـدم
شـرعا تفتـر عن اعناقهـا قلل القور وغيـطان الأكم (٣٣)
كالردى أقـدم والغيث همـى والدجى طبق والسـيل هجـم
حامـلات كـل غضبان بـه من لمـام الغيض مس ولمم (٣٤)
كالصقـور الغلب الحاظهـم كالجذى يلمعن من خلف اللثم (٣٥)

أتعتقد أن لغة النسيب ولغة الفخر في الامثلة التي تقدمت سيان من حيث نوع الكلمات ورنينها مفردة ومركبة ؟ اني اذن لفي ضلال مبين !! .

أما نصيب الشريف من المجاز والطباق وما يجري مجراهما من المحسنات البيانية فموفور ، إلا أنه لا يدل بحال من الأحوال على أنه يعصر ذهنه في سبيل شيء من هذه الزخرفة وإنما يأخذ منها ما جرى على لسانه عفواً وما أظنك تحس شيئاً من التكلف في هذا الطباق (فعز اشتياقي والدموع خواضع) وفي هذا الطباق (وننهض بالآمال والجد قاعد) وفي هذا التشبيه الذي يصور يوم حرب عبوسا :

لم يبق غير شفافة (٣٦) من شمسه كمضيق وجـه الفارس المتلثم

(٣٣) تفتر : تضحك . والاعناق : ضرب من السير . والقلل : جمع قلة وهي اعلى الشيء . والقور : جمع قارة وهو جبيل صغير . والغيطان ما انخفض من الارض .
(٣٤) اللمم : طرف من الجنون .
(٣٥) الغلب : غلاظ الاعناق ، والجذى جمع جذوة .
(٣٦) شفافه : البقية الضئيلة من كل شيء .

وفي هذا التشبيه :

ضاق الزمان فضـــاق فيه تقلبي كالمـــاء يجمع نفسه في الجدول

وفي ما يزين هذين البيتين من مجازات واستعارات :

أرسى النسيم بواديكم ولا برحت حوامـــل المزن في أجداثكم تضع

ولا يزال ـــ جنين النبت ترضعه على قبوركم العراضة الهمـــــع

وما من شك في أن صاحبنا جمع الموضوعات المختلفة في قصائد كثيرة جرياً وراء تقاليد عصره الأدبية ، ولكنه من ناحية أخرى نظم قصائد كثيرة وكثيرة جداً لم يتطرق فيها إلى أكثر من موضوع واحد من ذلك حجازياته التي بلغ عددها الأربعين وسائر غرامياته وطائفـــة كبرى من فخرياته ومراثيه للأقرباء والاصدقاء وهي تعد بالعشرات كما أسلفت . وهذا الجزء من شعره يؤلف ديواناً ضخماً لاتقع فيه عين القاريء على قصيدة لم تراع فيها وحدة الموضوع .

د ـ خاتمـــة :

ولكن ما منزلة الشريف بين شعراء اللغة العربية ؟

يقول الثعالبي في اليتيمة « هو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم المقلين . ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق [٣٧] » ويشايعه بن خلكان في هذا .

أما أنا فأزعم أنه من الظلم للشريف أن يقتصر في تقديمه على شعراء آل أبي طالب أو شعراء بني هاشم أو شعراء قريش عامة وإن

(٣٧) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٩٧ طبع دمشق .

كان بينهم عمر بن أبي ربيعة ويزيد بن معاوية والوليد بن يزيد وعبدالله ابن المعتز وأزعم كذلك أنه في طليعة شعراء اللغة العربية كافة صدق عاطفة ، ورقة شعور ، وخصب خيال ، وفصاحة لغة وصفاء أسلوب . وأنه فارس حلبتي الرثاء والفخر الذي لا يشق له غبار وإمام الغزل العذري العفيف في كل زمان وفي كل مكان .

***

الفصل الرابع

مهيار الديلمي

أ ــ حياته : اسمه ونسبه وكنيته • ما تقوله كتب التراجم عنه • قلته • استنباط حياته من ديوانه • منزلته • احتيال طائفة من العظماء على مديحه • منحه الجوائز سلفا وتكرارهـا أحيانا • الحصول على مديحه بوعود كاذبة • هجاؤه لمن فعل هذا به •

ب ــ أخلاقه : طمعه • عفته • وفاؤه • إخلاصه •

جـ ــ تعرّبه : غلبة الثقافة عنده على العرق •

د ــ شعره : لمحة تاريخية • مقارنة بين ديوانه المطبوع بمصر وبين نسخة مخطوطة منه • أبوابه • غزله • مادته • مثل منه • إخوانياته • مميزاتها • مثل منها • مديحه • الباعث على نظمه • خاصته • مثل منه • رثاؤه • سر تفوقه فيـه • عناصره • ميزته • مثل منه •

هـ ــ خاتمة : مقارنة بينه وبين استاذه الشريف •

ا ــ حياتـــه :

حدثتك في الفصل الماضي عن شاعر عربي صميم • عربي في نسبه ودمه ولغته وأدبه • وأحدثك الآن عن شاعر فارسي في نسبه ودمه ، عربي في لغته وأدبه •

هذا الشاعر الفارسي دماً ونسباً والعربي لغةً وأدبا هو تلميذ الشريف الوفي أبو الحسن وقيل أبو الحسين مهيار الديلمي بن مرزويه أحد شعراء العراق الأفذاذ في القرنين الرابع والخامس للهجرة . وأخباره في كتب التراجم قليله جداً : فكل ما يحدثنا به ابن خلكان عنه إذا استثنينا بعض عبارات الثناء والاطراء التي صاغها له والتي اقتبسها عن دمية القصر للباخرزي هو : (أنه كاتب فارسي) وأنه (كان مجوسياً فأسلم) « ويقال إن اسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي وهو شيخه وعليه تخرّج في نظم الشعر وأن الخطيب البغدادي رأى الناس يقرأون ديوانه عليه في جامع الخلفاء وأنه توفي ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة عام ٤٢٨ للهجرة [1] » أما ما يحدثنا به ابن الجوزي في الجزء الثامن من كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » فيزيد على ما تقدم أن مهيار « أسلم سنة ٣٩٤ للهجرة وأنه صار علوياً متطرفاً وأن امرأة كانت تخدمه عثرت في بيته على هميان فيه ألفا دينار تركه بعض الحجاج الخراسانيين فأخبرته بذلك فلم يتغير وإنما اكتفى بأن عاتبها على نبشه عتاباً رقيقاً ، وأن ساعيا سعى به الى جلال الدولة البويهي فقبض عليه وأطلقه [2] » .

---

(١) وفيات الاعيان ج٢ ص ١٤٩ ــ ١٥٠ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) كان موضوع هذه السعاية اتهام مهيار بمال كثير يجب ان ينزل عنه لجلال الدولة لانه لا حق له فى ان يكون مثريا كما يظهر ــ وقد استطاع الشاعر ان يبريء نفسه من هذه التهمة فاطلقه الملك البويهي واعتذر له . وفى ذلك يقول من قصيدة مدح بها جلال الدولة :

اتعرف يا مولى الملوك كقصة ... بليت بها بالامس والحر يبتلى
ابعد قنوعي بالثماد تعففا ... وهجري ابواب الملوك تعزلا
وظلمي فضلي واهتضامي توحدي ... مخافة ان اوذى وان انبذلا
يسيء رعاع الناس عندك سمعتي ... ويشعر اني حزت مالا مؤثلا

وأنت ترى أن هذه الأخبار القليلة لا تدلنا على مسقط رأس الرجل ولا تذكر لنا تأريخ ولادته ولو بصورة تقريبية ولا تروي لنا شيئاً عن دراساته الأولى إذ لا يعقل أنه تلقى على الشريف الرضي مثلاً مباديء النحو والصرف وما يجري هذا المجرى من المعلومات الأولية . ولكن الديوان يعوضنا عن بعض هذه الخسارة : فهو يحدثنا بأشياء كثيرة يتصل بعضها بمنزلة الشاعر الأدبية وبعضها بنصيبه من الحياة الدنيا وبعضها بأخلاقه : فأما ما يحدثنا به مما له علاقة بمنزلته الأدبية فكثير ، وهو يدل بمجموعه على أن الرجل واسع الشهرة بعيد الصيت حائز لأعجاب المتأدبين من ملوك عصره ووزرائه وسائر عظمائه متمتع بجوائزهم ، بل إن هؤلاء كانوا يخطبون وده ويتفننون في الحصول على مدائحه ويجزلون صلته أحياناً قبل الحصول عليها : فمن ذلك أن جلال الدولة البويهي أنعم على وزيره « الأستاذ الأجل أبي سعد بن عبد الرحيم » بلقب « عميد الكفاة » وخلع عليه خلعة سنية تتألف من ثياب فاخرة وفرس سابق في حليته الذهبية ودواة محلاة بالذهب أيضاً، وكان يومئذ بواسط فكتب الوزير إلى مهيار يصف له ما أغدق عليه من الألطاف ويحتال عليه في حمله على تهنئته ووصف ما خصّ به من الهديا والخلع وذلك بأن زعم له « أنه رأى في المنام أنه ينشد قصيدة

ويغري بافتقاري وانت الذي ترى ... لمثلي ان يغنى وان يتمولا
ولكنها ما غيرت لك شيمة ... كرمت بها الا قليلا كلا ولا

. . . . . .

حبست ولكن كان حبسا مشرفا ... اناف بذكري واعتقالا مجملا
ولم ار مثلي مستضاما مكرما ... ولا كاسبا للعز من حيث ذللا
لئن عد قوم نكبة حبس ليلة ... لقد كنت منكوبا من الناس مقبلا

. . . . . .

سيعلم من جر السعاية انه ... بكرهي الى ما ساق نفعي توصلا

بوصف هذه الحادثة السارة » وكان مهيار عند حسن ظن صديقه الوزير به فكتب إليه يهنئه ويصف التحف التي أهديت اليه بقصيدة رنانة مطلعها :

أيقظني للبرق وهو نائم جهالةً والعربي حازم

ومن هذا القبيل ما فعله مؤيد السلطان حاكم عمان في الخليج العربي فقد كان هذا يكاتب مهيار ويقضي حوائجه ، وقد حدث أنه بعث له بهدية نفيسة أنفذها إليه دون أن يسبقها مديح مع رسول خاص اسمه « وشاح » إلا أن الرسول خان الأمانة وقاسم الشاعر الهدية فما كان من هذا الا أن أرسل الى مؤيد السلطان قصيدة عصماء يشكر فيها معروفه ويشكو الرسول ويطالب بالتعويض ، أروي لك منها الأبيات التالية :

رغائب من يديه فاجأتني وفين رضىً بآمالي الرغاب
وزدن على حساب مناي لكن وشاح لم يكن لي في حساب
أمرت بها كعرضك لم يدنس بلاغش يشوب ولا ارتياب
من الذهب الصريح فصار مما يبدل في يديه إلى الذهاب
وقاسمني مناصفةً عليه وجاهدني ليحبسه كتابي
مكارم سقتهن الى محب ففاز بهما مغير لم يحاب
بعثت بها الخؤون فضاع سرب أمنت عليه غائرة الذئاب
ولولا أنّ خدمته وقته وحرمة عز بابك والجناب
لما سلم البعوض على عقاب ولا عض الهزبر بشرّ ناب
أدل بكم فأفحمني وكانت نواحيه مآكل للسباب
فجل عن الهجاء بذاك عندي وقل بما أتاه عن العتاب

ثلاث سنين حولاً بعد حول بكفّ « وشاح » مقتسم نهابي
وأنت خفير مالك أو يؤدي إليّ ولو بمنقطع التراب
اذا أنصفتني فعليك ديناً غرامة ما تجمع في الحساب

ومما يجب التنويه به في هذا المقام سفارة أبي الحسن المختار ابن عبيد الله الذهبي وهو من أولى الفضل والوجاهة بين مهيار وبين بعض الأمراء والكبراء فقد سفر هذا الأديب الوجيه المعجب بمهيار بينه وبين الصاحب « عميد الحضرة » أبي طاهر بن حماد فحمل الأخير على مطالبة الشاعر بالمديح وإرسال الجائزة اليه سلفاً . وقد لبى الشاعر الطلب ومدح عميد الحضرة بقصيدة مطلعها :

نظرة منك ويوم بالجريب حسب نفسي من زمان وحبيب

وسفر بينه وبين الكاتب الجليل أحمد بن عبد الله فحمله على ابتدائه بالزيارة والعطاء وبتكرارهما وقد نوّه مهيار بهذا في قصيدة مطلعها :

هوىً لي وأهواء النفوس ضروب . .

يقول فيها :

أأنسى لك النعمى التي تركت فمي يصعد يبغي شكرها ويصوب ؟
ملكت فؤادي عند أول نظرة كما صاد عذرياً أغنّ ربيب
وكنت أخاف البابليّ وسحره ولم أدر أن الواسطي خلوب
وغناك أقوام بوصف مناقبي فرّنح نشوان وحن طروب
رفعت منار الفخر لي بزيارة وسمت بها مغناي وهو جديب
وكنت لداءٍ جئتني منه عائداً شفاءاً وبعض العائدين طبيب
وأنهلتني من خلقك العذب شربة حلت لي وما كل الدواء يطيب

ولما جلا لي حسن وجهك بشره تبين في وجه السقام قطوب
أجبت وقد ناديت غيرك شاكياً وذو المجد يدعى غيره فيجيب

بيد أنه إن كان بين معاصري مهيار من يزوره ويكرر زيارته دون سابق معرفة ، ويصله مرة بعد أخرى قبل أن يمدحه بشيء ، فقد كان بينهم من يشتهي مديحه ويبخل بصلته ، فيسأله المديح ويعده الجائزة السنية حتى إذا نزل على رغبته ومدحه بما أراد غدر به ولم يعطه شيئاً وقد انتقم مهيار لنفسه من هؤلاء فلذعهم بقوارص أروي لك منها قوله :

أمدح المثرين ظناً بهم ربما يقمر بالظن الكذوب
كل وغد الكف منبوذ الحيا طيب المحضر مسبوب المغيب
يمنع الرفد وتلقى وفده قحة البخل بادلال الوهوب
يطلب المدح لأن يفضحه وهو قبل المدح مستور العيوب

ولكن أكان مهيار فقيراً ؟ أم كان على العكس من ذلك ؟

تخبرنا كتب التراجم أنه كان كاتباً ! ولكنها لا تقول لنا متى تقلد هذا العمل الديواني وما نوعه ، وخصوصاً ما مقدار أجره عليه ؟ ومع ذلك فاننا نعلم علماً لاشك فيه أن مهيار لم يكن فقيراً كما أنه لم يكن غنياً وإنما كان متوسط الحال ، وهو نفسه يحدثنا بهذا حيث يقول :

ما أبصر الدهر بما أريده لو كان في الحكم عليّ يقتصد ! !
أنزلني منزلة بين الغنى والفقر لم يبخل بها ولم يجد
وشر أقسامك حظ وسط أرعن لم تخل به ولم تسد

• • •

ب اخلاقـــه :

أما أخلاقه فمن الممكن استنباط أهمها من شعره إذ في مقدورنا أن نقرر استناداً الى هذا الاستنباط أنه يمتاز بالطمع والعفة والوفاء والاخلاص . وأؤجل الكلام على إخلاصه للبحث عن اخوانياته كما أني أترك الكلام على القناعة التي قاده إليها جشعه والحافه في السؤال للبحث نفسه . وأتحدث اليك عن طمعه : فقد كان لسوء الحظ كثير الطمع شديد الجشع يدلك على هذا قوله :

صلونا فأنا مجـــدبون بمنزل يضيق على الأيام بالحر رحبـــه
يعزّ عليكم كيف يرجع مرمـــلاً غلام من الآداب والمجـد كسبه

وقولـــــه :

يقولون دار الناس ترطب أكفهم ومن ذا يداري صخرة ويذيبهـــا

ولكنه أعني مهيار يؤكد لنا فيما عدا ذلك أنه عالي الأخلاق عفيف الذيل بعيد عن الخنا :

عـــذيري من باغ يودّ لنفسه نزاهة أخلاقي ويمسي يعيبهـــا

ومن نفس القصيدة :

ولله نفس من نهاها عذولهـــــا
ومن صونها ــ يوم العذيب ــ رقيبها (٣)

(٣) اخذ هذا من استاذه الشريف حيث يقول :
عفافي من دون التقيـــة زاجر وصونك من دون الرقيب رقيب

ومن اخرى :

يفسق كفي بينهـن وفمـي فتكاً ويسمي مئزري حصينـا

أما حسنة مهيار الخلقية الكبرى فهي الوفاء وقد نوّه بهذا مراراً عديدة في شعره فمن قوله فيه :

رعى الله قلبي ما أبرّ بمن جفـا وأصبره في النائبـات وأحملا
وكرم عهـدي للصديق فانـه قليل على الحـالات أن يتحوّلا

ومن قوله فيه :

رعى الله قلبـاً ما أبر بمن جفـا وأثبت عهداً والعهود طوائـح
وأوسع ذرعـاً بالوفاء وصونه إذا ضاق ما تطوى عليه الجوانح

وقد أيدّ مهيار هذه الأقوال بأعماله الكثيرة المشرفة في هذا الباب فمن ذلك أنه أقام على ولائه لأبي طالب محمد بن أيوب أجزل ممدوحيه صلة له وأوفاهم نصيباً من مدحه عند إقصائه عن منصبه وتنكر الايام له واعراض الناس عنه وزاد على ذلك أن مدحه بقصيدة نفيسة مطلعها :

لا عداك الغيث يا دار الوصال كل منحل العرى واهي العزال (٤)

قال فيها :

حول النـاس وجوهاً عنـكم وتساقوا فيـكم كـأس التقالي
وأبت نفسي على النأي فما اسـ ـطاع تحويلي ولا رام انتقـالي

ولما ترك الكافي الأوحد (وهو من ممدوحي مهيار الاسخياء)

(٤) في الديوان طبعة مصر (منهل)

ولاية الري اعتزل الناس في بروجرد إحدى مدن فارس الا أنه كان كثير الشوق الى مهيار يبعث اليه بتحياته مع كل من يمر به من زوار العراق. فما كان من المترجم إلا أن شد الرحال من بغداد الى بروجرد ليجدد العهد بممدوحه القديم ولينشده قصيدة رائعة أعرب فيها عن تمسكه بحبل ولائه وإقامته على عهده أيما اعراب اليك طرفاً منها :

اليوم أنجز ماطـــل الآمال فأتتك طائعـــة من الأقبـــال
بمنى وفـين له وهنّ غوادر ولقحن قربك بعـد طول حيال
قطع الفلا(٥) يستام ذاك بنفسه مسترخصاً والدهر فيه يغالي
فأتى يدوس الهول نحو كشوقه والشوق مشاء على الاهـوال
يلقى الخطوب بمثلها من همة قطعت جبالا في ابتغـاء جبال

ويكاد رثاء مهيار كله يكون برهاناً صادقاً على وفائه فقد رثى أستاذه الرضي بقصيدتين هما من أنفس ما قيل في الرثاء لم يعز فيهما الشريف المرتضى ولم يمدحه ومعنى هذا أنه لم يقلهما ابتغاء أجر . ورثى المفيد المتقدم ذكره في ترجمة الشريف الرضي بقصيدة من أروع قصائده مع أنه لم يكن بينهما سوى مودة طفيفة أشار إليها بقوله :

ان كان حظي من وصالك قبلها حظ المغب ونهـزة المتقلـــل
فلأعطينـــك من ودادي ميتاً جهـد المنيـب ورجعـة المتنصل

ورثى صديقه أحمد بن عبد الله الكاتب المتقدم ذكره بقصيدة هي من غرر شعره إن لم أقل من غرر القريض العربي كله ولم يفعل ذلك الا بدافع الوفاء . ولو استقصيت رثاء مهيار لأقمت براهين أخرى كثيرة

---

(٥) في الديوان طبعة مصر « المنى) .

على وفائه ، ولكن فيما تقدم كفاية .

حـ ـ تعربـــه :

ومع أن مهيار فخر غير مرة بفارسيته كما فخر كثير من الشعراء الغرباء بأنسابهم ، فالواقع أنه تعرب بروحه وشعره الى حد بعيد . فقد قال وهو يصف إحدى قصائده :

متى تـكن سلول أو باهلة آباء شعر فأبوهـــا دارم

وقال في وصف أخرى :

حاضـرة تحسبهـا باديـة تـدّيرت دارات خبت فالبرق

وقال يصف شعوره نحو شبه جزيرة العرب :

ولقـد أحن إلى زرود وطينتي من غير ما فطرت عليـه زرود
ويشوقني عجف الحجاز وقد ضفا ريف العراق وظـله الممـدود
ويطرّب الشادي فلا يهتزني [٦] وينـال مني السائـق الغريـد

وقال يحث على ترك المدن والعيشة في البادية :

رم العـلا بـين بيوت أهلهـا مقلبـاً في طرقهـا مقلقـلا
ولا تـكن إلا أخا صريمـة متى نبـت دار بـه تحولا [٧]

بل انه ذهب الى أبعـد من ذلك فتشبه في فخره بأجواد البادية وادعى إيقاد النار للسارين وعقر الكوم العشار للضيفـان والقيام على خدمتهم بأسلوب حاتمي :

وطارق والليل قد مدّ لـه على بيـاض الطرق الدجونا

---

(٦) هكذا في الديوان طبعة مصر وربما كان الصواب (يهتاجني) .
(٧) أخرت هذا البيت عملا بضرورة سياق الكلام وهو مقدم في الديوان على سابقه .

فرفعت فاري لـــه لسانهـا ... تريه أي وجهـة يأتينـــا [8]
كأنهـا تخاف في ضلالـــه ... أن يطرق البيت الـذي يلينـا
والكلب يستاف البيوت طاوياً ... [9] جنبيـه حتى يلج الدخينا
يكفر تحت كشحه خيشومه ... تسـمع من نباحـه أنينـا
قمت له من رقـدة معسولة ... أكره عنهـا الجنب والجفونا
ثم انخت خيرهـا عقيـلة ... بالسيف حتى أعترق الوتينـا
وقلت للجازر قم فاختر لـه ... على منـاه الرخص والسمينا
جدلاء[10] قدبات خماصاً أهلها ... والضيف قـد نام بهـا بطينا

والآن وقد أريتك مهيار بمظهره الحاتمي أحب أن أعود بك إلى أول القصيدة لتراه بمظهره العذري قال :

أمن خفوق البرق ترزمينـا ... حني فمـا أمنعـك الحنينـا
سرى يمينـا وسراك شامـة ... فضـلّة ما تتلفتينـــا
هبّ كمـا تخاطفت هنـدية ... مخلصة أجهـدت القيونا
فـكم أراك بثنيـات الحمى ... على البعـاد الثغر والجبينـا
وكم ذكرت روضه وغـدره ... والعمم الملتف والمعينـــا
نعم تشاقـين ونشتاق لـــه ... ونعلن الوجـد وتكتمينـا
فأين منا اليوم أو منك الهوى ... وأين نجـــد والمغورونا

---

(٨) لا وجود لهذا البيت فى الطبعة المصرية ولكني ارويه عن نسخة مخطوطة سأتحدث عنها فيما بعد . أما البيت الذي يليه فانه فى غير هذا المكان فى الطبعة المصرية ولكني رويته هكذا عن النسخة المخطوطة التي تقدمت لها الاشـارة .

(٩) هكذا ارويه وفى الطبعة المصرية (شطريه) ويستاف يشتم ولم أجد فيما بين يدي من معاجم اللغة معنى لكلمة دخين وربما كانت موقد النار او ما يقرب منه .

(١٠) الجدلاء : الشديدة الاسر .

سقى الحيا عهد الحمى أعذب ما تسقي السموات بـه الأرضينا

ألا ترى في هذه الأبيات أعرابياً عاشقاً من أعراب عذرة يتطلع إلى برق تألق من ناحية تقيم فيها حبيبته فهيج غرامه وحرّك أشجانه وأسال دموعه وأثار في نفسه شتى الخواطر والذكريات فأخذ يصعد الأنفاس الحارة ويتابع الزفرات الجياشة .

ألا تذكرك ـ أي الأبيات ـ جميل بثينة وقيس لبني ومجنون ليلى .

قد تقول : وأين أثر العرق إذن ؟ والجواب على ذلك أن الثقافة أشد نفوذاً وأقوى اثراً من الجنس اذا كانت على جانب كبير من العمق والقوة وليس من شك في أن ثقافة مهيار العربية من العمق والقوة بحيث غلبت على عقله وسيطرت على ضميره ونفذت الى اعماق نفسه . أضف الى ذلك أن مهيار فخور بولائه في آل الرسول (ص) وقد نوه بهذا مراراً كثيرة في شعره : فمن ذلك قوله من قصيدة رثى بها أهل البيت عليهم السلام :

حبكم كان فكّ أسري من الشر ك وفي منكبي لـه أغـلال
كـم تزملت بالمـذلة حتى قمت في ثوب عزكـم أختـال

وقوله من قصيدة رثى بها الطاهر أبا أحمد والد الشريف الرضي:

رثـاك نسـيب وده وولاؤه محق إذا زَنَ [11] القصي بابطال
ومولاكم فيـكم على ما شرطتم وإن بان عنـكم في عموم وأخوال

أفتشك بعد هذا أن مهيار عربي بروحه وأدبه عروبة صادقة ؟

د ـ شعره :

المعروف أن مهيار شاعر وكاتب ، ويستشف من كلام الباخرزي

(١١) زن : اتهم .

أنه كاتب ممتاز إلا أننا لم نقف حتى الآن على شيء من نثره وأكبر الظن أنه ضاع فيما ضاع من التراث العربي الأدبي. بيد أن شعره مجموع في ديوانه الضخم الذي يقع في أربعة مجلدات . ويظهر أن مهيار عني بشعره فجمعه وعلق عليه وأذاعه في الناس . فقد رأيت أن الخطيب يحدثنا أنه رآه في جامع الخلفاء والناس حوله يقرأون ديوانه عليه وهذا يعني أن شعره كان مجموعا ومتداولا في أيام حياته . وهنا أحب أن أقول إني وقفت قبل نحوٍ من خمسة وثلاثين عاماً على نسخة مخطوطة من ديوانه كتبت للسيد علي خان صاحب « أنوار الربيع » و « سلافة العصر » المتوفى سنة ١١٢٠ أو ٢١ هـ . كانت في حوزة آل السيد حيدر الشاعر الحلي الكبير ولم تكن هذه النسخة تشتمل على كل شعر مهيار إلا أن السيد حيدر عثر على ما ينقصها منه فكتبه بخطه وهكذا باتت أسرته تملك ديوان مهيار مخطوطاً بأكمله . ويؤسفني أن ألاحظ أن النسخة التي طبع عليها ديوان مهيار بمصر عام ١٩٢٥ كثيرة النقص والخطأ بالقياس الى نسخة آل السيد حيدر فمن أمثلة نقصها أن النونية التي مطلعها : « أمن خفوق البرق ترزمينا ... الخ » لا تحتوي على هذا البيت الذي تقدمت روايته وهو « فرفعت ناري ... البيت » .

ومن أمثلة نقصها كذلك أن اللامية التي رثى بها مهيار المفيد لا تحتوي على هذا البيت :

بكرت عليك بدرّها ربعيّـة وطفاء تحلب من ضروع حفل

أما أغلاطها ولا سيما الناشيء منها عن التصحيف فكثيرة جداً ويكفي أن تتصفح الديوان لتقف على عدد غير يسير منها . ومع ذلك أروي لك من تلك الأغلاط مثالين اثنين لتتمكن من تكوين فكرة عنها .

ورد في مطلع مرثية مهيار للطاهر أبي أحمد بالديوان : ــ « كذا تنقضي الايام حالا على حال » والصحيح : « كذا ينقص الاسلام » • وورد البيت التالي في الديوان هكذا :

وتقول للعــذال مغضبةً شيبته من حيث لا يــدري

والصحيح :

وتقول للعــذال مرضيةً لسبيته من حيث لا يــدري

ولكي تتحقق وجاهة هذا التصحيح أروي لك البيت الذي يتقدم البيت المذكور وهو :

واستسقيت لظماي ريقتها فاستشهدت بالآي في الخمر

أفترى أن البيت « وتقول للعذال ••• الخ » يمكن أن يصح على الوجه الذي ذكره الديوان وبناءً على ما تقدم رأيت أن أعتمد على ذاكرتي فيما أورد هنا من شعر مهيار ما أمكنني ذلك على أن أثبت وجوه الخلاف بين ذاكرتي وبين الديوان في هوامش الصفحات حرصاً على أمانة النقل وسأشير الى طبعة مصر برمز (طـ • م) • ويتألف معظم شعر مهيار من الغزل والمديح والرثاء وشكوى الزمان والناس ونعرض فيما يلي لهذه الابواب •

غزله : ليس لمهيار غزل مستقل يعتد به ولكن له في مقدمات مدائحه وهي تؤلف الكثرة الكبرى من شعره : غزل قلما تفتقت عن مثله قريحة شاعر ووجود هذا الغزل في مقدمات المدائح يعني بالطبع أنه لا يعبر عن صبابةٍ حقيقية ولكنه يستعيض عن العاطفة الصادقة بأمرين هما رقة الخيال ودقة المعنى • فأنت تقرؤه دون أن تحسّ فيه دبيب الحب الصادق إلا أنه يستهويك بخيال كله لطف ورقة ومعانٍ رائعة بارعه

تبلغ منتهى الدقة أحيانا اسمع قوله :

أمكنت العـاذل من قيادهـا فانتزع الرحمـة من فؤادهـا
ولوّنت أخلاقهـا نقد غـدا بياضها يشفّ عن سوادهـا
والغانيـات عطفةٌ وصرفة يجنى لك الحنظل من شهادها
لا يملك الراقد من أحلامـه إلا كما يملك من ودادهـا

. . . . . .

آه على الرقـة في خدودهـا لو أنها تسري إلى أكبادها (١٢)
بالبـان لي دين على ماطـلة يمس غصن البان في أبرادهـا
سلطت الوجد على جوانحي تسلط الخلف على ميعادهـا

فليس من شك في أن هذه القطعة لا تعبر عن حب يدل على نفسه كما يدل نفس اللطيمة على وجودها . ولكن أظن أنك توافقني على أنها رقيقة الخيال دقيقة المعنى إلى حد بعيد ولعلك تشاطرني خاصةً اعجابي بهذين البيتين « آه على الرقة ... » و « سلطت الوجد ... البيت » فتمني سريان الرقة من الخدود الى القلوب وتسليط الوجد على جوانح المحب تسليط الخلف على مواعيد الحبيب معنيان جميلان جديدان هما على جانب عظيم من الرقة والدقة . وما أزعمه في هذه القطعة أزعمه في الأبيات التالية التي أختارها لك من قصيدة أخرى قال مهيار :

بكر العارض تحـدوه النعامى فسقيت الغيـث يا دار أماما (١٣)

(١٢) فى الديوان « ط . م » فؤادها .
(١٣) فى الديوان « ط . م » فسقاك الري . النعامى بضم النون : ريح الجنوب أو هي بينها وبين الصبا .

وتمشت فيـــك أرواح الصبا يتأرّجـن بأنفـــاس الخزامى

. . . . . .

أين سكانـك ؟ لا أين هـــم أحجازاً يسوهـا أم شآما ؟ (١٤)
صدعـوا بعـد التآم فغـدت بهـم أيـــدي الموامي تترامى

. . . . . .

يا لواة الـــدين عن ميسـرة والضنينـات وما كـنّ لئـاما
قد وقفنا بعـدكم في ربعـكم فنهبنـــاه استلاماً والتثاما (١٥)

. . . . . .

قل لجيران الغضـا آه عـــلى طيـب عيش بالغضا لو كـان داما

. . . . . .

حمّلوا ريـح الصبا نشركـم قبل أن تحمل شيحاً وخزامى (١٦)
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى ان أذنتـم لجفوني أن تنـاما
وقف الظـامي على أبوابكـم أفيقضي وهو لم يشف أوامـــا
ما يبـــالي من سقيتن اللمى منعكن المـاء عذبا والمدامـــا

. . . . . .

أشـتكيكم والى من أشتكي أنتم الداء فمن يشفي السـقاما

فتمنيات الشاعر لدار حبيبته لا تقل طيبا عما يتمنى لها من أنفاس الصبا العطرة وشكواه الى اللواتي يزعم أنهن سحرن عقله وصرمن

(١٤) فى الديوان « ط . م » اقبلوها .
(١٥) فى الديوان « ط . م » :
قد وقفنا قبالكم في ربعـكم فنقضناه استلاما والتزاما
(١٦) في الديوان « ط . م » وثماما .

حبله بالغة منتهى التلطف والترفق وتقييده زيارة الخيال بالاذن لجفونه في أن تنام معنى لم يسبق اليه فيما أظن . واليك الآن مثلا آخر من هذا النسيب المطرب المرقص . قال مهيار :

أما وهواها عذرة وتنصلا ... لقد نقل الواشي اليها فأمحلا (١٧)
سعى جهده لكن تجاوز حده ... وكثر فارتابت ولو شاء قللا
وقال ولم يقبل ولكن أسبه ... على أنه ما قال الا ليقبلا (١٨)
وطارحها أني سلوت فهل رأى ... له الذم مثلي عن هوى مثلها سلا
أأنفض طوعا حبها عن جوانحي ... وان كان حبا للجوانح مثقلا ؟
أبى الله والقلب الوفي بعهده ... وإلف اذا عد الهوى كان أولا
أيا صاحبي نجواي يوم سويقة ... أناة ! وان لم تسعدا فتجملا
سلا ظبية الوادي وما الظبي مثلها ... وان كان مصقول الترائب أكحلا
أأنت أمرت البدر أن يصدع الدجى
وعلمت غصن البان أن يتميلا؟
وحرمت يوم البين وقفة ساعة ... على عاشق ظن الوداع محللا ؟
جمعت عليه حرقة الدمع والجوى ... وما اجتمع الداءان الا ليقتلا
هبي لي عيني واحملي كلفة الاسى ... على القلب ان القلب أصبر للبلا
أراك بوجه الشمس والبعد بيننا ... فأقنع تشبيها بها وتمثلا
وأذكر عذبا من رضابك مسكرا ... فما أشرب الصهباء الا تعللا

***

(١٧) تشير الابيات الاولى من هذه القصيدة الى الوشاية الكاذبة التي أدت الى سجن مهيار ليلة واحدة والى نظم هذه القصيدة كما اوضحنا ذلك فى حينه . وامحل : كذب .

(١٨) فى الديوان (ط . م) .

وقال فلم تقبل ولكن تلومت ... على انه ما قال الا لتقبلا

ليس التحدث عن أقاويل الوشاة وأراجيفهم شيئا جديدا في الادب العربي ولكن يغلب على الظن أن هذا التحليل الذي أتى به مهيار لمسعى الواشي الأثيم جديد في بابه ولا سيما قوله بأن واشيه باء بالفشل ولكنه يسبه على سوء نيته ، وليست المقارنة بين وجه الحبيبة وبين الشمس ، وبين ريقها وبين الصهباء معنى مستحدثا ولكن قناعة مهيار « برؤية » حبيبته « في وجه الشمس » تشبيها وتمثلا » وتعلله بشرب الصهباء لحرمانه من لمى تلك الحسناء زيادتان طريفتان غير مبتذلتين .

اخوانياته أو شعره في الزمان والناس :

وكثيرا ما شفع مهيار غزله في مدائحه بشكوى الزمان أو ذم الناس أو بهما معا وربما اشتد سخطه أحيانا فبدأ قصائده بشيء من هذه الشكوى أو ذلك الذم كما فعل في بائيته التي مطلعها :

« قالوا رضيت قلت ما أجدى الغضب » الخ ...

وغني عن البيان أنه لم يكن أول من شكى الزمان والاخوان في القريض العربي وانما سبقه الى ذلك في الجاهلية والاسلام شعراء لا يحصون . ومع ذلك فشعره في هذا الباب جدير بأن يقرأ وأن يتمثل به لأنه مفعم اخلاصا وحيوية . وقد رأيت أن غزله يستعيض عن صدق العاطفة برقة الخيال ودقة المعنى فلاحظ الآن أن اخوانياته أو كلماته في ذم الزمان والناس تعتمد على الامر الواقع ، والحقيقة الملموسة دون أن تستغني عن طرافة الخيال ودقة التصوير . وما هي الا أن تقرأها حتى تتبين خلالها النظرات المريبة والابتسامات الخادعة والمجاملات المعسولة الكاذبة والعبادة الاثيمة للمال والاستهانة المزرية بالفضيلة

المسلقة . وأنت اذا تأملت شعر مهيار في هذا الباب رأيت أن نقمته الشديدة على الناس ناشئة عن سببين هما البخل والرياء . فمهيار شاعر متكسب ومعنى هذا أنه يعتمد في حياته على كرم النـاس ، ولكن الاسخياء بالمال قليلون جدا ، وهذه القلة في عددهم تغيظ مهيار وتثير حنقه وتدفعه الى التذمر الشديد حينا والى القنوط حينا آخر . وقد مر بك من شعره عند البحث عن أخلاقه مايؤيد ذلك . وهو اذا صدقناه سليم النية حسن السريرة يخلص لصديقه في البعد كما يخلص له في القرب ويمحضه الود في السر كما يمحضه اياه في العلانية .

ما أنا من صـبغة أيامكـم ولا الذي ان قلبـوه انقلبـا
ولا ابن وجهـين ألم حاضـرا من الصديق وألـوم الغيبـا
قلبي للأخوان شـطوا أو دنوا وللهـوى ساعف دهر أو نبـا

وهو يطلب الى الناس أن يشاطروه حسن نيته ويشاركوه في صفاء طويته ولكن المخلصين من الناس أقل من الاسخياء منهم بالمال . وكان هذا يسوء مهيار أيضا ويحمله على الضيق بالناس وعلى المقت لهم ما وجد الى مقتهم سبيلا . ويظهر أن نقمة مهيار الشديدة على النـاس عادت عليه بأجزل الفوائد ، فقد انتهى به النفور من شحهم الى القناعة والاشمئزاز من رياثهم الى الانفراد والعزلة . اسمع قوله في القناعة :

وجد الجميم فعـافه وتبقـلا وجرى له الوادي فصدوأوشلا(١٩)
ورأى الكثير مع المذلـة هادما حسب الكريم وعرضه فتقللا (٢٠)

. . . . . .

(١٩) الجميم : النبت الكثير : وتبقل طلب البقل وهو ما نبت فى بذرة لا فى ارومة ثابتة . واوشـل : طلب الوشل وهو القليل .
(٢٠) فى الديوان (ط . م) من المذلة .

تلحو على البخل الضنين بمالـه أفـلا تكون بمـاء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فانمـا قدر الحيـاة أقل من أن تسألا

. . . . . .

ولقد أضم الي فضـل قناعتي وأبيت مشتملا بهـا متزمـلا
وأري العدو على الخصاصة شارة تصف الغنى فيخالني متسولا[٢١]

وقوله في الحث على القناعة والوحدة :

اني لأسغب زهدا والثرى عمم نبتا وأظما وغرب الغيث مسكوب
ولا أرق لحرص خـاب صاحبه سعيا ويعـلم أن الرزق مكسوب
عقبى الطماعة في مال يمن بـه عصارة لا يغطي خبثهـا الطيب
طهر خلالك من خـل تعاب به واسلم وحيدا فما في الناس مصحوب

وقوله وهو يتحدث عن وحدته :

يا من يلوم على اشتمالي قاعدا والارض واسعة الفروج لنهضتي
ويرى الرجال وكلهم متكثـر بصحـابة فيلومني في وحـدتي
اعذر أخاك فما تهجـر مشمسا حتى تقلص عنـه ظل الدوحـة
كيف اعترافي بالصديق وكيف لي بالفرق بين محبتي من بغضتي
وقلوب أعدائي الذين أخـافهم مغـلولة لي في جسـوم أحبتي

مديحه :

وماذا يقال عن مديح مهيار هذا الذي تتقدمه طرائف الغزل ، وترافقه الخواطر الاجتماعية القيمة ؟

أكذبك اذا قلت لك انه صادر عن أي شيء آخر ، سوى الرغبة في الحصول على المال ، ومهيار يعلن ذلك ويؤكده بصراحة ما بعدها

(٢١) في الديوان (ط . م) الغدو بدلا من العدو وتخالني بدلا من يخالني .

صراحة كما رأيت • نعم ! ! إنه يعطيك فكرة صحيحة او شبه صحيحه عن الممدوح • لأن مهيار يتوخى قدر الامكان وصف ممدوحه بما هو فيه • او بما يتظاهر به امام الناس • فاذا مدح وزيراً محنكاً • ذا خبرة سياسية واسعة • وصفه بالحنكة والدهاء وبعد النظر وما الى ذلك • واذا مدح كاتباً ممتازاً من كتاب الدواوين • وصفه بأصالة الرأي وذكاء الطبع • والقدرة على الانشاء • واذا مدح زعيماً شهما غزير الجود شديد البأس • وصفه بما يمثل شهامته ويدل على كرمه وشجاعته • واذا وفق ممدوح فاضل على سبيل الفرض • الى الجمع بين كثير من هذه المزايا المختلفة • صوره مهيار لقارئيه بكل ما يمت الى أخلاقه بصلة • فالوزير أبو الفرج مثلاً من حسن السياسة وحزم التدبير بحيث يجمع بين الاضداد • فيتاخى في عهده الحمل والذئب • والظبى والاسد •• « والاستاذ الجليل » أبو طالب محمد بن أيوب • من حدة الذهن • وصفاء الطبع • بحيث « تكفيه أولى قدحة من رأيه » وشهاب الدولة • منصور بن دبيس « عربي في نسبه وكرمه » «فارسي في سيرته ومنزله» • على ان هذه الملاحظات تقريبية • لأنه ليس هناك ممدوح يرضى أن يمدح بما هو فيه • او بما يتظاهر به فقط • وارضاء الممدوح • ضروري للحصول على الجائزة كما تعلم • ومهما يكن من شيء • فهاك مثلا من مديح مهيار :

يا ساكناً ثائر العزيمة مس الصل من تحت لينه يثب
قد علم الملك اذ دعاك وحبل الرأي واه والشمل منشعب
ان قلوباً غشاً تميل مع الدولة أهواؤها وتنقلب
وان سراً متى اصطفاك له أخلص ما في إنائه الذهب

لما تجلى وجـه الحذار وليم ابن علي غدره وخيف أب
رمى بك القصد سهم منجحة يسبق حرصاً حديده العقب
لم يثن فأل الشهور عزمته لا صفر عائـق ولا رجـب

* * *

سفرت فيها سفارة الليث لا يرجـع إلا في كفـه الطلب
لسعيه ما أهمـــه الدم واللحم ولـــكن لغيره السلب
حتى استقامت على تأودها وانتظمت في رؤوسها العذب[1]

رثاؤه : بيد أنه ان كانت لشعر مهيار ذروة يجب أن نبلغهـا في الكلام عنه فهي رثاؤه . وليست مراثي مهيار كثيرة بالقياس الى مدائحه فانها احدى وعشرون مرثية بالضبط [٢٢] بينما تعد مدائحه بالمئـات ولكنها لباب شعره وخيرة انتاجه لانها تعبر عن أصدق عواطفه وتمثل أرقى ما وصل اليه فنه من رعاية لوحدة الموضوع وعناية بترتيب الفكر وكفاية في استيفاء الغرض وقد يبدو غريبا أن مهيار مدح الناس طول حياته ثم لم يخرج بالمديح مما هو مألوف من تمهيد بالغزل وتطرق الى شكوى الزمان وذم الناس أو الفخر وانتقال موصول أو مقتضب الى الثناء والاطراء ولكنه نظم في فترات متقطعة طائفة يسيرة من المراثي فكانت واسطة عقده ومظهر شاعريته الاعلى الا أنك لا تشعر بشيء

(١) تشير هذه الابيات . الى ان حوادث سياسية خطيرة . كان من الممكن ان تحدث . لولا تدخل الممدوح . ولكن الديوان لا يشير الى هذا في طبعتيه المصرية والبغدادية .

(٢٢) اريد بمراثي مهيار تلك التي رثى بها من عز عليه من معاصريه. اما مراثيه لاهل البيت عليهم السلام فانها لا تدخل فى هذه القائمة لانها اشبه بالمدائح نظرا لابتدائها بالنسيب وانتهائها بالمديح والرثاء معا على انه اذا كان لا بد من ان اقول كلمة فى هذه المراثي فهي فى زعمي من متوسط شعر مهيار وما ظنك برثاء يبدا بنسيب ؟ .

من الاستغراب اذا وقفت على سر هذه الظاهرة : فسبب تفوق مهيار في رثائه اخلاصه ! وأنت تعلم أن الشاعر لا يشب الوثبات الخالدة ولا يحلق الى أوج شاعريته الا متى اندفع في تيار عواطفه وانفعالاته وشغل بها عن التفكير بالناس ، وبعبارة أخرى الا متى أخلص لموضوعه اخلاصا لا تشوبه شائبة . وقد علمت أن مهيار لا يقول المديح الا للعطاء فلاحظ الآن أنه قلما نظم الرثاء الا للوفاء ! ومعنى هذا أنه شاعر كبير في المديح ولكنه مصنوع ، وشاعر كبير في الرثاء ولكنه مطبوع . وهو من هذه الناحية يشبه البحتري الذي عاش قبله بنحو من ثمانين عاما شبها قويا ، فقد مدح هذا الشاعر آل حميد وأحسن مديحهم كما أنهم أحسنوا جزاءه ثم توالت عليهم النكبات فرثاهم بميميته الخالدة التي مطلعها « أقصر حميد لا عزاء لمغرم » فكانت هذه خير ما قال فيهم على الاطلاق . وانتظم في حاشية المتوكل على الله فظل يمدحه وينادمه نحوا من خمس عشرة سنة مدحه في أثنائها بعدد ضخم جدا من نفائس الشعر فلما كانت فاجعته التي شهدها بعيني رأسه رثاه برائيته التي قال عنها المبرد « ما قيلت هاشمية مثلها » وليس لهذا التحليق المنقطع النظير في الرثاء مع الاجادة في المديح اجادة معتادة سوى سبب واحد هو ماذكره البحتري من أنه : « يمدح للعطاء ويرثي للوفاء » .

والآن لننظر ماذا في مراثي مهيار على العموم ؟

في هذه المراثي خواطر وأفكار كثيرة مبتذلة منها ذم الدنيا والتزهيد في الحياة والقول بأنها ظل زائل وحلم كاذب، ومنها التنويه بقوة الفقيد الأدبية والمادية والزعم أنه لو كان من الممكن اتقاء خطر الموت بعلم أو عمل أو قوة بطش لاتقاه هو بما له من علم واسع وعمل صالح وبما تحت اشارته من خيل ملجمة وسيوف مصلتة ورماح مشرعة وغير ذلك ،

ومنها تمني السقيا لتربة الفقيد وإهداؤه في ختام القصيدة أطيب التسليمات والتحيات ، ولكن الى جانب هذه الأقوال المكررة المألوفة نفثات حارة تنطوي على الاخلاص يصف بعضها مصيبة الناس بالفقيد وبعضها شخصيته ومواهبه ومناقبه ويعبر البعض الآخر منها عن شعور مهيار الخاص نحوه . وهذه النفثات النادرة المثال هي التي تعطي مراثي مهيار قيمتها الأدبية الممتازة . فمن تلك النفثات الملتهبة التي وصف فيها مهيار ما رأى من الفجائع التي أورت قلبه أسى وأجرت على لسانه نفائس الرثاء قوله في صدر ميميته التي رثى بها أستاذه الشريف .

من جب غارب هاشم وسنامها ... ولوى لؤيّاً فاستزل مقامها
وغزا قريشاً بالبطاح فلفها ... بيد وقوّض عزّها وخيامها
وأناخ في مضر بكلكل خسفه ... يستام فاحتملت (٢٣) له ما سامها
من حلّ مكة فاستباح حريمها ... والبيت يشهد ـ واستحلّ حرامها
ومضى يثرب مزعجاً ما شاء من ... تلك القبور الطاهرات عظامها ؟

. . . . . .

الدين ممنوع الحمى من راعه ... والدار عالية البنا من رامها ؟
أتناكرت أيدي الرجال سيوفها ... فاستسلمت أم أنكرت اسلامها ؟
أم غال ذا الحسبين حامي ذودها ... قدر أباح(٢٤) على الغدوّ سوامها ؟
بكر النعي من الرضي بما لك ... غاياتها متعود اقدامها
كلح الصباح بموته عن (٢٥) ليلة ... نفضت على وجه الصباح ظلامها
صدع الحمام صفاة آل محمد ... صدع الرداء به وحل نظامها
بالفارس العلوي شق غبارها ... والناطق العربي شق كلامها

(٢٣) فى الديوان (ط . م) (واحتملت) .
(٢٤) فى الديوان (ط . م) اراح : والسوام : الابل فى مرعاها .
(٢٥) فى الديوان « ط . م » (من ليلة) .

وقوله في داليته التي رثاه بها ايضا .

أقريش لا لفـم أراك ولا يـد فتواكلي غاض الندى وخلا الندي
خولست فالتفتي بأوقص [٢٦] واسألي
من بز ظهرك وانظري من أرمـد

وهبي الدخول فلست رائد حاجة تقضى بمطـرور ولا بمهنـد
خلاك ذو الحسبين أنقاضاً [٢٧] متى تجذب على حبل المذلة تنفـد
قمر الدنا أضحت سماؤك بعده أرضاً تـداس بحائر وبمهتـدي
فاذا تشادقـت الخصوم فلجلجي واذا تصادمت الكماة فعردي [٢٨]
يا ناشد الحسنات طوّف فالياً [٢٩] عنهـا وعاد كأنـه لـم ينشـد
إهبط الى مضر فسل حمراءهـا من صاح بالبطحاء يا نار اخمدي ؟

وقوله من لامية رثى بها المفيد :

ما بعـد يومـك سلوة لمعلـل بمنىً [٣٠] ولا ظفر بسمع معـذل
سوّى المصاب بك القلوب على الجوى
فيـد الجليـد على حشا المتململ

وتشابه الباكون فيك فـلم يبن دمع المحق لنـا من المتعمـل
كنـا نعـير بالحلوم اذا هفت جزعاً ونهزأ بالـدموع الهمـل
فاليوم صار العـذر للعاني أسى واللـوم للمتماسـك المتجمـل
رحـل الحمام بهـا غنيمة فائز ما ثار قط بمثلهـا عن منزل

---

(٢٦) الأوقص : العنق القصير .
(٢٧) الانقاض : جمع نقض بكسر النون وهو المهزول من السير ناقة كان ام جملا .
(٢٨) فعردى : فاجبنى .
(٢٩) فاليا : باحثا .
(٣٠) فى الديوان « ط . م » « منى ولا ظفرت بسمع معذل » .

كانت يد الدين الحنيف وسيفه فـلأبكيـنّ على الأشلّ الأعزل

وقوله في رثاء « عميد الجيوش » الصاحب أبي علي :

يا مستضيم الملـك أين الحامي ياجدب ما فعل السحاب الهامي ؟
حرم الامارة كيف حـل سلوكه من غـير تلبيـة ولا احـرام
ما للعراق عقيب صحـته اشتكى سقمـاً يجاذب من ذيول الشام
من غض من دار السلام وانما [٣١] هي حـين تعمر بيضة الاسـلام
أأصيب بالشمس الضحى أم خولست
فيهـا الليالي البيض بـدر تمـام
أم هـل هوى بأبي عنيّ نجمها رام تعـوّد بالنجـوم يرامي

وقبل أن أنتقل بك الى مرحلة أخرى من هذا الحديث أحب أن ألفت نظرك الى هذه الألوان المختلفة التي يسبغها مهيار على هذه النفثات : فوفاة الشريف الرضي نكبة تهم قريش عامة وآل النبي خاصة . ووفاة المفيد نكبة اسلامية عامة . ووفاة عميد الجيوش نكبة سياسية بحتة .

والذي يهمني من هذا هو انطباق كلمات مهيار السالف ذكرها « على مقتضى الحال » كما يقول البلاغيون انطباقاً تاماً .

أما ما يصف من هذه النفثات منزلة الفقيد وفضله وأدبه وسائر ما يمتاز به وصفاً أصيلاً رائعاً فانه موجود في أغلب مراثي مهيار اليك منه قوله في أستاذه الشريف :

أبكيك الدنيـا التي طلقتهـا وقد اصطفتك شبابها وعرامها [٣٢]

---

(٣١) في الديوان « ط . م » « من غص في دار السلام وانما » .
(٣٢) العرام : القوة .

ورميت غاربها بفضلة حبلها [٣٣] زهداً وقد ألقت اليك زمامهـــا
ولقـولة عوصاء أرتـج بابها ففتحته لمـا ولجت خصامهـــا
وقلائـد قـذفت بحارك درها وقضى لسانك رصفها ونظامهـــا
هي آية العرب التي انفردت بها راعيت فيها عهدهـا وذمامهـا
حمّست حتى قيل صبّ دماءها وغزلت حتى قيل صب مدامهـا
ماتت بموتـك غـير ما خلدته في الصحف اذ أمددته أقلامهـــا
قد كنت ترضاني اذا سومتهـا تبعاً وأرضى أن تسير أمامهـــا

وقوله فيه من قصيدة اخرى :

رضي الموافق والمخالف رغبـةً بكواقتدى الغاوي برأي المرشد
ما أحرزت قصباتهـا وتراهنت الا ظهرت بفضلة من سـؤدد
تبعتك عاقدة اليـــك أمورها وعرى تميمك [٣٤] بعد لما تعقـد
ورآك طفـلاً شيبهـا وكهولها فتزحزحوا لك عن مـكان السيد
أنفقت عمرك ضائعـا في حفظها وعققت عيشك في صلاح المفسد
كالنار للساري الهداية والقرى من ضوئهـا ودخانهـا للموقـد

وقوله فى المفيد :

يا مرسلاً ان كنت مبـلغ ميت تحت الصفائح قول حيٍ مرسل
فلج الثرى الراوي فقل لمحمدٍ عن ذي فـؤاد بالفجيعـة مشعل

(٣٣) فى الديوان « ط . م » « بفضلة معرض) .
(٣٤) التميم : جمع تميمة وهي خرزات تنظم فى السير ثم تعقد فى عنق الصبي اتقاء للعين .

من للخصوم اللد بعدك غصة ... في الصدر لا تهوي ولا هي تعتلي؟
من للجدال اذا الشفاه تقلصت ... واذا اللسان بريقة لم يبلل ؟
من بعد فقدك رب كل غريبة ... بكر بك افترعت وقولة فيصل ؟
من للطروس يصوغ في صفحاتها ... حلياً يقعقع كلما خرس الحلي ؟
يبقين للذكر المخلد رحمة ... لك في فم الراوي وعين المجتلي
أين الفؤاد الندب غير مضعف ... أين اللسان العضب [٣٥] غيرمفلل؟
تفري به وتحز كل ضريبة ... ما كل حزة مفصل للمنصل

بقي أن نعرف وصف مهيار ما يشعر به من ألم ذاتي ناشيء عن فقد من رثى من عظماء عصره وعلمائه وأدبائه ، وهذا سهل لأنه لا تكاد تخلو مرثية من مراثي الرجل من أبيات كثيرة أو قليلة تعبر عن مثل هذا الألم الذاتي تعبيراً واضحاً قويا . لكني أوثر أن أقتصر على مثال مطول واحد يخيل الي أنه أبلغ وأروع ما جرى على لسان مهيار في هذا الباب وروايته على طوله لا تسمح بايراد مثال آخر معه هذا المثال هو قوله في رثاء أحمد بن عبد الله الذي تقدمت له الاشارة :

سل الموت : هل أودعته من ضغينة ... تنقم منها فهو بالوتر طالبي
له كل يوم حول سرحي غارة ... يشرد فيها بالصفايا النجائب
سلافة اخواني وصفوة اخوتي ... ونخبة أحبابي وجل قرائبي
فليت عفا عن أحمد فادياً له ... بمصرمة [٣٦] مما اقتنيت وحالب
ألآذ لما اشتد متني بوده ... وردت ملاء من نداه حقائبي
وجمّت لآمالي العطاش حياضه ... وكانت تحلى عن نطاف المشارب

(٣٥) في الديوان « ط . م » : « الصعب » .
(٣٦) المصرمة : الناقة كوي ضرعها فانقطع لبنها .

فجعت به غض الهوى حاضر الجدى
جديـد قميص الود سهـل المجاذب
كأني على العهد القريب اعتلقته بطول اختياري أو قديم تجاربي
. . . . . .
فقيد بميسان استوت في افتقاده مشارق آفاق العـلا بالمغـارب
. . . . . .
تنافث عن جمـر الغضا نادباته كأن فؤادي في حـلوق النوادب
بكت أدمعا بيضا ودمت جباهها فتحسبها تبـكي دمـا بالحواجب
. . . . . .
وكنت اذا ما الدهر شـل معاطني (٣٧)
دعـوتك فاستنقذت منـه سـلائبي
ذخيرة أنسي يوم يوحشني أخي وبابي اذا سـدت علي مذاهبي
. . . . . .
سلام على الافراح بعـدك انها ـ وان عشتـ ليست اربة من مآربي
اذا دنس الحزن السـلو غسلته فعاد جديدا بالدموع السواكب
وان أحدثت عندي يد الدهر نعمة ذكرتك فيها فاغتدت من مصائبي
أداري عيون الشامتين تجـلدا وأبسم منهم في الوجوه القواطب
أريهـم بأني ثابت الريش ناهض
وتحت جنـاحي جانفات (٣٨) المخـالب

لا أريد أن أقول ان مهيار لم يسبق الى شيء مما ورد في هـذه النفثات ولكني أدعي أنه أحس كل ما فيها وشعر به شعورا تاما حتى

(٣٧) معاطن : جمع معطن وهو مبرك الابل حول الحوض .
(٣٨) جانفات : جائرات .

جرى على لسانه في غير ما تعمل ولا تكلف . ولذلك فمن الحق أن نعتبر هذه النفثات جديدة في مجموعها أو شبه جديدة على أني لا أستبعد أن يكون مهيار قد ابتكر كثيرا من المعاني التي مرت بك كقوله :

تنافث عن جمر الغضى نادباتـه كأن فؤادي في حلـوق النوادب

وكقولـــه :

بكت أدمعا بيضا ودمت جباهها فتحسبها تبـكي دما بالحواجب

وكقولـــه :

فان أحدثت عندي يد الدهر نعمة ذكرتك فيها فاغتدت من مصائبي

فاذا أضفت الى هذا ما أسبغ على هذه النفثات من جمال اللغـة ولطف الاسلوب تبينت بوضوح أني لم أجازف كثيرا باحلال مراثي مهيار أول محل من شعره .

لغته واسلوبه : وتسألني رأيي في لغة مهيار وأسلوبه فأقول لك: انه احتذى في هذا مثال أستاذه الشريف الرضي ونسج على منواله فكان له صفاء ديباجته ورقة حاشيته ووضوح عبارته وخلو كلامه من الفضول والحشو . وملاءمة لغته لموضوعاته واعتدالـه في استعمال المحسنات البيانية . وقد مر بك من شعره ما يؤيد هذا كله تأييدا تاما.

د خاتمـــة :

قلت لك مرارا عديدة ان مهيار تلميذ الشريف الرضي عنه أخذ وعليه تخرج . فلنتبين الآن أبلغ التلميذ مدى استاذه أم قصر عنه فلم يلحق له شأوا ولم يدرك له مدى ؟ .

لا شك أن غزل مهيار على رقةخياله ودقة معانيه دون غزل الشريف بمراحل ، لان العاطفة الصادقة التي هي مصدر جمال غزل الشريف غير موجودة فيه ــ والعاطفة الصادقة كما تعلم ــ أول مصادر الجمال في الغزل . ولا شك كذلك أن اخوانيات مهيار دون أخوانيات أستاذه فلستأعرف له قصيدة فيهذا البابتبلغ من نبل الشعور وسمو العاطفة ما تبلغه تلك البائية الفذة التي كتب بها الشريف الى أبي الحسن البتي والتي مطلعها :

أبا حسن أتحسب ان شـوقي يقل على معارضة الخطوب (٣٩)

ومعلوم أنه بعيد كل البعد عن أن يجاري الرضي في الفخر بل لعل بعض كلماته فيه يدعو الى الابتسام بدلا من الاعجاب ، من ذلك فخره في نونيته التي مطلعها : « أمن خفوق البرق ترزمينا الخ ... » ولكننا قد لا نخطيء كثيرا اذا لاحظنا ان مهيار يبذ استاذه في الرثاء . حرارة عاطفة . ورقة خيال . ودقة تفكير . وجمال تعبير . وهذا مع علو كعب الشريف في هذا المضمار .

---

(٣٩) لم اتحدث عن اخوانيات الشريف فى اثناء كلامي على شعره لان ناقدا معاصرا كتب عنها ما فيه كفاية . ولم اتحدث كذلك عن وصفه لسبب مماثل .

خاتمة الكتاب :

الأدب العباسي مانه وما عليه

قلت لك عند الكلام على النثر العباسي انه نسج على منوال القرآن من حيث مذاهبه وأساليبه في الأداء . وعند الكلام على الشعر العباسي انه أنشيء على غرار الشعر الجاهلي من حيث صوره وأشكاله ومن حيث مقاصده وأغراضه في كثير من الاحيان . وأقول لك الآن ان النثر العباسي بقي بمكانه لم يتقدم في مختلف العصور العباسية تقدما يذكر بالنسبة الى ما كان عليه في القرن الاول للهجرة . فليس لابن المقفع ، ولا للجاحظ ، ولا للخوارزمي ، ولا لأحد غيرهم من كبار الكتاب العباسيين ما يضارع مختار خطب القرن الاول للهجرة ورسائله وحكمه ، خطورة معنى وبراعة مبنى . ولكن الشعر على علاته تقدم تقدما لا بأس به ، فتحدث عن الحرب والسياسة والشؤون الاجتماعية والفردية بأسلوب أقوى ونفس أطول وتفصيل أتم ولغة أسهل وأجمل مما كان عليه قبل ظهور الدولة العباسية .

أما أثر الموالي في كل من الشعر والنثر فقد كان ضئيلا ، ذلك أن هؤلاء الغرباء كانوا يتثقفون بالثقافة العربية ويصبغون عقولهم بالصبغة العربية الخالصة، ويعملون طوعا أو كرها على أن يكونوا عربا في افكارهم وعواطفهم كما كانوا عربا في لغتهم .

وأنت تعلم أن بشارا على شعوبيته كان يفاخر بأنه نشأ « في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ »، وأن أبا نواس الذي لا يقل شعوبية عنه تخرج على والبة بن الحباب

الشاعر الكوفي الاسدي ، واستكمل ثقافته اللغوية في بادية بني أسد ودرس في البصرة دراسة عربية خالصة . وأن مهيار الديلمي ذهب في انتحال العروبة الى أبعد من هذا ، فادعى ايقاد النار تحت دياجر الليل للسارين ، ونحر الكوم العشار لهم تشبها بأجواد البادية كما انتحل مظاهر الحب البدوي العذري ومميزاته وخصائصه . هذا الى انهم لم يغيروا قافية ولم يستحدثوا وزنا ، ولم يصطنعوا أسلوبا خاصا فضلا عن أن يطرقوا موضوعا جديدا ، أو يعالجوا غرضا غير مألوف .

ومما ينبغي التنويه به لخير الادب العباسي أن تأريخه عرف ثلة من كبار الشعراء في طليعتهم ابن المعتز وأبو فراس والشريف الرضي ، قرضوا الشعر للشعر ، وخدموا الفن للفن ، وتركوا في الوصف والرثاء والغزل والحكم والأمثال صفحات أصيلة رائعة يستطيع الأدب العربي أن يفاخر بها . على أن الشعراء التقليديين الذين تكسبوا بالشعر واتخذوه صناعة لا رسالة ، تركوا هم أيضا غررا ومحاسن لها من المزايا الادبية والتاريخية ما يجعلها جديرة بالتقدير والثناء .

وليس معنى هذا أن نقلد أولئك أو هؤلاء فننتحل مقاصدهم وأغراضهم ونصطنع مذاهبهم وأساليبهم كائنة هذه ما كانت . كلا ! فان مهمتنا الآن هي أن ننهض بأدبنا نهضة قوية صادقة وان نجدده في موضوعاته وصوره وأغراضه تجديدا يجمع بين الجرأة والاعتدال . ويجمع كذلك بين حسنات الماضي والحاضر وينبذ سيئاتهما على السواء. وقد فعلنا مثل ذلك في النثر وبقي ان نفعله في الشعر . ولكننا نقول الذي نقوله في شعراء السلف تقريرا للحقيقة وخدمة للتاريخ وتنويها بالدور الحسن الذي لعبوه في خدمة اللغة والادب .

مصادر الكتاب

١ ــ ابن الرومي حياته من شعره للاستاذ العقاد • الطبعة الثانية سنة ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م •

٢ ــ ابو فراس الحمداني : للسيد محسن الامين العاملي : الطبعة الاولى ١٩٤١ م ــ ١٣٦٠ هـ •

٣ ــ ابو نواس : للسيد محسن الامين العاملي : الطبعة الاولى ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ م •

٤ ــ اخبار أبي تمام لابي بكر الصولي : الطبعة الاولى ١٩٢٧ م •

٥ ــ اخبار أبي نواس لابن منظور : الطبعة المصرية ١٩٢٤ م •

٦ ــ ادباء العرب في الاعصر العباسية للاستاذ بطرس البستاني : الطبعة الاولى ١٩٤٧ م •

٧ ــ الادب العربي وتاريخه : للاستاذ محمود مصطفى الطبعة الثانية مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٧ م •

٨ ــ أمراء البيان : للاستاذ محمد كرد علي : الطبعة الاولى •

٩ ــ امراء الشعر في العصر العباسي : للاستاذ أنيس المقدسي : الطبعة الاولى •

١٠ ــ الاغاني : لأبي الفرج الاصبهاني : طبعة مطبعة التقدم بمصر •

١١ ــ أمالي السيد المرتضى : الطبعة الاولى ١٣٢٤ هـ •

١٢ ــ الاوراق للصولي : الطبعة المصرية ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ م •

١٣ ــ البديع لابن المعتز : الطبعة المصرية ١٩٤٥ م •

١٤ ــ بشار للمازني : طبعة مصر ١٩٤٤ م •

١٥ ــ البخلاء لدجاحظ : طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م.
١٦ ــ البيان والتبيين للجاحظ : طبعة مطبعة الفتوح الادبية بمصر١٣٢٢هـ
١٧ ــ تاج العروس الطبعة الاولى ١٣٠٦ هـ .
١٨ ــ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : طبعةمصر ١٩١٣هـ .
١٩ ــ تاريخ الامم والملوك للطبري : طبعة المطبعة الحسينية بمصر .
٢٠ ــ تاريخ بغداد الخطيب البغدادي : طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩ هـ .
٢١ ــ تطور الاساليب النثرية : للاستاذ أنيس المقدسي : الطبعة الاولى
٢٢ ــ حديث الاربعاء للدكتور طه حسين : طبعة البابي الحلبي١٩٣٧م والمعارف ١٩٤٥ م .
٢٣ ــ الحيوان للجاحظ : طبعة مطبعة البابي الحلبي بمصر .
٢٤ ــ خزانة الادب للبغدادي طبعة بولاق .
٢٥ ــ ديوان المتنبي : طبعتي صادر وعزام .
٢٦ ــ ديوان أبي تمام : طبعة مصر لسنة ١٩٤٢ م .
٢٧ ــ ديوان أبي فراس : طبعة الدهان .
٢٨ ــ ديوان ابي نواس : طبعة المطبعة الحميدية بمصر١٣٢٢هـ .
٢٩ ــ ديوان ابن المعتز : طبعة بيروت ١٨٩١ م .
٣٠ ــ ديوان ابن الرومي : طبعة كامل كيلاني الاولى ١٩٢٤ م . وطبعة محمد شريف سليم الاولى ١٣٣٥ هـ ــ ١٩١٧ م .
٣١ ــ ديوان الشريف الرضي : طبعة بيروت ١٩١٠ م .
٣٢ ــ ديوان المعاني لابي هلال العسكري : طبعة القاهرة١٣٥٢هـ .
٣٣ ــ ديوان مهيار : طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ ــ ١٩٣٠ م .

٣٤ ــ ديوان البحتري : طبعة مطبعة هندية بمصر ١٣٢٩ هـ ــ ١٩١١ م .
وطبعة دار المعارف ١٩٦٣ م .
٣٥ ــ ذكرى أبي الطيب بعد الف عام للدكتور عبد الوهاب عزام :
طبعة مطبعة الجزيرة ــ بغداد ١٩٣٦ م .
٣٦ ــ رسائل البلغاء لمحمد كرد علي : طبعة مصر ١٣٣١هـ ــ ١٩١٣م .
٣٧ ــ رسائل بديع الزمان الهمذاني : طبعة مطبعة هندية١٣١٥هـ ــ١٨٩٨م .
٣٨ ــ رسائل الجاحظ للسندوبي طبعة مصر ١٣٥٢ هـ ــ ١٩٣٣ م .
٣٩ ــ رسائل الخوارزمي : طبعة المطبعة العثمانية بمصر ١٣١٢م .
٤٠ ــ الروائع للبستاني : عدد ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .
٤١ ــ زهر الآداب : طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٤ هـ ــ ١٩٢٥ م .
٤٢ ــ شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة : طبعة دار الكتب الكبرى
بمصر .
٤٣ ــ الشعر والشعراء لابن قتيبة : طبعة مطبعة التقدم بمصر١٣٢٢هـ .
٤٤ ــ طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء لابن المعتز : طبعة
مطبعة جامعة كمبردج ١٩٢٩ م .
٤٥ ــ الصبح المنبي للبديعي : طبعة مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠ هـ .
٤٦ ــ ضحى الاسلام للدكتور احمد امين: الطبعة الاولى ١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٣م
٤٧ ــ عبقرية الشريف الرضي للدكتور زكي مبارك :طبع بغداد ١٩٣٨ م .
٤٨ ــ العقد الفريد : طبعة العريان ١٣٥٩ هـ ــ ١٩٤٠ م .
٤٩ ــ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق : طبعة مطبعة السعادة
١٣٢٥ هـ ــ ١٩٠٧ م .
٥٠ ــ عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب : طبع النجف ١٣٥٠ هـ .

٥١ ــ فصول التماثيل في تباشير السرور لابن المعتز طبعة مصر ١٩٢٥ م .
٥٢ ــ فهرست ابن النديم : طبعة المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٩ هـ .
٥٣ ــ فوات الوفيات : طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ
٥٤ ــ القاموس المحيط للفيروزبادي : طبعة المطبعة الحسينية بمصر ١٣٣٠ هـ .
٥٥ ــ الكامل في التاريخ لابن الاثير : طبعة ١٢٩٠ هـ .
٥٦ ــ الكامل في اللغة والادب للمبرد : طبعة مصر ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٧ م .
٥٧ ــ كليلة ودمنة لابن المقفع : الطبعة المصرية الخامسة .
٥٨ ــ المجازات النبوية للشريف الرضي : طبعة مصر ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٧ م .
٥٩ ــ معاهد التنصيص : طبعة المطبعة البهية ١٣١٦ هـ .
٦٠ ــ مع المتنبي للدكتور طه حسين : طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م .
٦١ ــ معجم الأدباء لياقوت : طبعة مصر ١٣٥٧ هـ ــ ١٩٣٨ م .
٦٢ ــ مقامات الحريري : طبعة مصر ١٣٤٣ هـ ــ ١٩٢٥ م
٦٣ ــ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين : طبعة مصر ١٩٣٦ م .
٦٤ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والامم : طبعة حيدر آباد ١٣٥٦ هـ .
٦٥ ــ الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي : طبعة مصر ١٣٢٩ هـ .
٦٦ ــ الوزراء والكتاب للجهشياري : الطبعة الاولى .
٦٧ ــ وفيات الاعيان لابن خلكان : طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ .
٦٨ ــ يتيمة الدهر للثعالبي : طبعة دمشق .

أهم كتب المؤلف المطبوعة

١ ــ تاريخ القضية العراقية (جزءآن ظهر في بغداد في سنتي ١٩٢٣ م و ١٩٢٤ م) .

٢ ــ شعر كورني الغنائي (بالفرنسية طبع بمونبيلية سنة ١٩٣٧ م).

٣ ــ بعث الشعر الجاهلي (طبع ببغداد سنة ١٩٣٩ م) .

٤ ــ نهضة العراق الأدبيه في القرن التاسع عشر (طبع ببغداد سنة ١٩٤٦ م) .

٥ ــ عصر القرآن(طبع ببغداد سنة ١٩٤٧ م) .واعيد طبعهسنة ١٩٥٥ م.

٦ ــ الموشح في الأندلس وفي المشرق (طبع ببغداد سنة ١٩٤٨ م) .

٧ ــ في الأدب العباسي ، هذا . طبع ببغداد سنة ١٩٤٩م واعيدطبعه في سنة ١٩٥٥ م .

٨ ــ خطرات : مجموعة خواطر أدبية وسياسية واجتماعية « صدر الجزء الاول منها ببغداد سنة ١٩٥٢ م » .

٩ ــ البركان : ديوان شعر سياسي « طبع على نفقة المعلم الجديد ببغداد سنة ١٩٥٩ م » .

١٠ ــ سوانح : وهو مجموع خطب ومحاضرات ومقالات في السياسة والاجتماع والادب.صدر الجزء الاولمنه ببغداد «سنة ١٩٦٧م».

اما كتب المؤلف المخطوطة فاهمها

١ ــ زبد الامواج : « ديوان شعر يحتوي على اغلب انواع الشعر المعروفة » .

٢ ــ سوانح : « الجزء الثاني » .

٣ ــ خطرات : « الجزء الثاني » .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمـــة	٣ — ٤
الباب الأول — في الكتاب المترسلين	
تمهيد في تاثر النثر العباسي بمذاهب القرآن واساليبه	٥ — ٦
الفصل الأول — ابن المقفع	٧ — ٨
حياته	٨ — ١٤
اخلاقه	١٤ — ١٦
آثاره	١٦ —
الأدب الصغير	١٦ — ٢٠
الأدب الكبير	٢٠ — ٢٣
كليلة ودمنة	٢٣ — ٣٢
رسالة الصحابة	٣٢ —
لغة المترجم وأسلوبه	٣٣ — ٣٨
لماذا أدرسه	٣٨ —
مصدر شهرته	٣٨ — ٣٩
خاتمة • الفصـ ل في أمره	٣٩ —
الفصل الثاني — الجاحظ	٤٠ — ٤١
حياته	٤١ — ٤٦
صفاته	٤٦ — ٤٩

الموضوع	الصفحة
آثاره ــ اقسامها	٤٩ ــ ٥٠
مساوؤها	٥٠ ــ ٥٢
محاسنها	٥٢ ــ ٥٤
لغته وأسلوبه	٥٤ ــ ٥٧
عذره فيما يؤاخذ فيه من هنات	٥٧ ــ ٥٨
مثل من مختار كلامه	٥٨ ــ ٦٠
مقارنة بينه وبين عبد الله بن المقفع	٦١ ــ ٦٢
خاتمــة	٦٢ ــ
الباب الثاني • في كتاب الاسجاع والمقامات	
الفصل الأول ــ ابو بكر الخوارزمي	٦٣ ــ ٦٤
حياته	٦٤ ــ ٦٧
صفاته	٦٧ ــ ٧٠
آثاره • نثره	٧٠ ــ
لغته وأسلوبه	٧٠ ــ ٧١
فارسيته	٧١ ــ ٧٢
مثل من احاسن كتبه	٧٢ ــ ٧٥
شعره مثل منه	٧٥ ــ ٧٧
خاتمة • غلبة النثر على أدبه	٧٧ ــ
الفصل الثاني ــ بديع الزمان الهمذاني	٧٨ ــ
حياته	٧٩ ــ ٨٦
صفاته	٨٦ ــ ٨٨

الموضوع	الصفحة
آثاره	٨٨ —
نثره	٨٨ — ٨٩
لغته وأسلوبه	٨٩ —
مثل من مختار رسائله	٨٩ — ٩٤
مقاماته • المقامة القزوينية	٩٤ — ٩٧
شعره • مثل منه	٩٧ — ٩٨
خاتمة ــ الفصل بينه وبين الخوارزمي	٩٨ —
الفصل الثالث ــ الحريري	٩٩ —
حياته	١٠٠ — ١٠٣
صفاته	١٠٣ — ١٠٤
آثاره • مقاماته • راويتها • خاصته • بطلها • مميزاته	١٠٤ — ١٠٥
حظوه هذه المقامات لدى القدماء	١٠٥ — ١٠٦
شروحها	١٠٦ —
أهليتها لما نالت من الحظوة	١٠٦ — ١٠٧
قيمتها في العصر الحاضر	١٠٧ — ١٠٨
لغتها وأسلوبها • احاسنها • مثل منها	١٠٨ — ١١٠
المقامة الحرامية	١١٠ — ١١٦
خاتمة • الحريري والتاريخ	١١٧ —
الباب الثالث ــ في شعراء القرن الثاني للهجرة	
تمهيد في الشعر العباسي وتأثره بالشعر الجاهلي	١١٨ — ١١٩
الفصل الأول ــ بشار بن برد	١٢٠ — ١٢١

الموضوع	الصفحة
حياته	١٢١ — ١٣٥
صفاته	١٣٥ — ١٣٨
شعره	١٣٨ — ١٣٩
غزله	١٣٩ — ١٤٢
مديحه	١٤٢ — ١٤٤
هجاؤه	١٤٤ — ١٥٠
رثاؤه	١٥٠ —
فخره	١٥٠ — ١٥١
حكمه	١٥٢ — ١٥٤
خاتمة — مقارنة بينه وبين جرير والحطيئة : هل كان مجدداً : نفي هذا الزعم	١٥٤ —
الفصل الثاني — ابو نواس	١٥٥ — ١٥٦
حياته	١٥٦ — ١٧٠
صفاته	١٧٠ — ١٧١
شعره	١٧١ — ١٧٢
غزلـه	١٧٣ — ١٧٥
مديحه	١٧٥ — ١٨٠
هجاؤه	١٨٠ — ١٨٢
خمرياته	١٨٣ — ١٨٩
خاتمة — الفصل في شاعريته وقدرته على التجديد .	١٨٩ — ١٩٠
الباب الرابع — في شعراء القرن الثالث للهجرة .	

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول ــ ابو تمام	١٩١ ــ ١٩٢
حياته	١٩٢ ــ ١٩٨
صفاته	١٩٨ ــ ٢٠١
مذهبه السياسي الديني	٢٠١ ــ ٢٠٢
شعره	٢٠٢ ــ
فخره	٢٠٢ ــ ٢٠٥
وصفه	٢٠٥ ــ ٢٠٩
رثاؤه	٢٠٩ ــ ٢١١
مديحه	٢١١ ــ ٢١٤
هجاؤه	٢١٤ ــ ٢١٥
لغته وأسلوبه	٢١٥ ــ ٢٢١
خاتمة : ما يفيد ومالا يفيد من شعره	٢٢١ ــ
الفصل الثاني ــ البحتري	٢٢٢ ــ ٢٢٣
حياته	٢٢٤ ــ ٢٣٢
اخلاقه	٢٣٢ ــ ٢٣٥
رأيه في الدين والسياسة	٢٣٦ ــ ٢٣٧
شعره	٢٣٧ ــ
غزله	٢٣٧ ــ ٢٤٠
مديحه	٢٤٠ ــ ٢٤٥
رثاؤه	٢٤٥ ــ ٢٤٩
فخره	٢٤٩ ــ ٢٥٣

الموضوع	الصفحه
وصفه	٢٥٤ — ٢٦٢
هجاؤه	٢٦٢ —
عتابه	٢٦٢ — ٢٦٣
فلسفته	٢٦٣ — ٢٦٤
لغته وأسلوبه	٢٦٤ — ٢٦٨
خاتمة — أهمية شعره • فائدة درسه وتمحيصه •	٢٦٨ —
الفصل الثالث — ابن الرومي	٢٦٩ — ٢٧٠
حياته	٢٧٠ — ٢٧٤
اخلاقه	٢٧٤ —
شعره	٢٧٥ —
غزله	٢٧٥ — ٢٧٧
مديحه	٢٧٧ — ٢٨٠
هجاؤه	٢٨٠ — ٢٨١
عتابه	٢٨١ — ٢٨٣
رثاؤه	٢٨٣ — ٢٨٥
وصفه	٢٨٥ — ٢٨٧
لغته وأسلوبه	٢٨٧ — ٢٩١
خاتمة — ابن الرومي من حيث هو رجل ومن حيث هو شاعر	٢٩١ — ٢٩٢
الفصل الرابع — ابن المعتز	٢٩٣ — ٢٩٤
حياته	٢٩٤ — ٢٩٨
صفاته	٢٩٨ — ٣٠٢

الموضوع	الصفحة
آثاره	٣٠٢ — ٣٠٣
شعره	٣٠٣ — ٣٠٤
غزله	٣٠٤ — ٣٠٧
وصفه	٣٠٧ — ٣١١
شعره السياسي	٣١١ — ٣١٨
حكمه وخواطره	٣١٨ — ٣١٩
لغته وأسلوبه	٣١٩ — ٣٢٠
خاتمة — منزلته بين الشعراء	٣٢٠ — ٣٢١
الباب الخامس — في شعراء القرن الرابع للهجرة	
الفصل الأول — أبو الطيب المتنبي	٣٢٢ — ٣٢٣
حياته	٣٢٤ — ٣٤٣
صفاته	٣٤٣ — ٣٥٢
آثاره	٣٥٢ —
غزله	٣٥٢ — ٣٥٥
فخره	٣٥٥ — ٣٥٧
وصفه	٣٥٧ — ٣٦١
مديحه	٣٦١ — ٣٦٨
هجاؤه	٣٦٨ — ٣٦٩
عتابه	٣٦٩ — ٣٧٠
رثاؤه	٣٧٠ — ٣٧١
فلسفته	٣٧١ — ٣٧٤

الموضوع	الصفحه
لغته وأسلوبه	٣٧٤ — ٣٧٨
خاتمة : مقارنة بينه وبين أبي تمام والبحتري	٣٧٨ — ٣٧٩
الفصل الثاني — ابو فراس الحمداني	٣٨٠ —
حياته	٣٨١ — ٣٨٨
اخلاقه	٣٨٨ — ٣٩١
علويته	٣٩١ —
شعره	٣٩٢ —
غزله	٣٩٣ — ٣٩٤
مديحه	٣٩٤ — ٣٩٧
فخره	٣٩٧ — ٣٩٩
اخوانياته	٣٩٩ —
روحياته	٣٩٩ — ٤٠٢
لغته واسلوبه	٤٠٢ — ٤٠٤
خاتمة : منزلته بين شعراء الفروسية	٤٠٥ —
الفصل الثالث — الشريف الرضي	٤٠٦ — ٤٠٧
حياته	٤٠٧ — ٤١٤
اخلاقه	٤١٤ — ٤١٥
آثاره : ما نشر منها وما لم ينشر	٤١٥ — ٤١٧
شعره	٤١٧ —
غزله	٤١٧ — ٤٢١
رثاؤه	٤٢١ — ٤٢٥
فخره	٤٢٦ — ٤٢٧

الموضوع	الصفحة
مديحه	٤٢٧ —
لغته وأسلوبه	٤٢٨ — ٤٣٢
خاتمة : منزلته بين شعراء اللغة العربية	٤٣٢ — ٤٣٣
الفصل الرابع — مهيار	٤٣٤ —
حياته	٤٣٤ — ٤٣٩
اخلاقه	٤٤٠ — ٤٤٣
تعربه	٤٤٣ — ٤٤٥
شعره	٤٤٥ — ٤٤٧
غزله	٤٤٧ — ٤٥١
اخوانياته او شعره في الزمان والناس	٤٥١ — ٤٥٣
مديحه	٤٥٣ — ٤٥٥
رثاؤه	٤٥٥ — ٤٦٣
لغته وأسلوبه	٤٦٣ —
خاتمة — مقارنة بينه وبين استاذه الشريف الرضي	٤٦٣ — ٤٦٤
خاتمة الكتاب — الادب العباسي ماله وما عليه	٤٦٥ — ٤٦٦
مصادر الكتاب	٤٦٧ — ٤٧٠
ثبت كتب المؤلف	٤٧١ —

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
ان يحمل قوله	أن يحمل عليه قوله	٨٩	١٠
مهراً	مطهراً	١٠١	١٩
خشمت	خشعت	١٠٨	١٦
الامنان	الافنان	١٠٩	٨
واقتضي	واقضي	١١١	٥
سبينة	سبيئة	١١٣	٥ حاشية
ولمرافة	وطرافة	١٣٤	٨
برولها	يرويها	١٤٦	١٠
(١) يضاف الى الحاشية رقم ٣٧ صفحة ١٥١ مایاتي (جمع شائلة وهي الناقة فى بعض حالاتها وفى الاغاني « وبالشوك »)		١٥١	حاشية ٣٧
(٢) وجه الصواب فى الحاشية رقم ٣٨ صفحة ١٥١ : السبائب جمع سبيبة . وهي شقة رقيقة من الكتان . والمراد بها هنا . الراية يقول : نحن بنو الموت تخفق علينا راياته			

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
يباهـا	اباهـا	١٦٨	٩ حاشية
والتنوية	والتنويه	١٨٨	١٦
فلنـه	فطنه	٢٠٩	٤
طبفا	طيفاً	٢٥٥	٨
لايمر	لا يمن	٢٥٨	٧
المرحلة	المرحة	٢٩٧	٤
يحبها	يحبهما	٢٩٧	١٠
معهما	وله معهما	٢٩٧	١٠
وفانـع	وقائع	٣١٧	٢
فناها	تفناها	٣٢٥	١٣
الواحدى	والواحدي	٣٥٢	١١
عن	من	٤٣٥	٥

ملاحظة : ـ هناك ضبط غير صحيح لعدد محدود من الكلمات . واغلاط املائية قليلة : ولم يكن كل ذلك سوى خطأ مطبعي . يمكن ان ينتبه له القاريء بسهولة .

٢٨ / ١٢ / ١٩٧٠

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036760722

Ø745Ø85Ø2